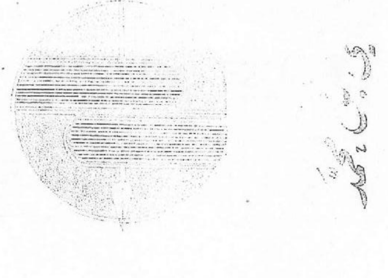
الشكر موصول للأستاذ مرزوق أستاذ محاضر بكلية الآداب واللغات والفنون - سيدي بلعباس-الجزائر

علي بن
أستاذ بجامعة ا



ابن بسام الأندلسي وكتاب "الذخيرة"

دراسة في حياة الرجل وأهم جوانب الكتاب

المؤسسة الوطنية للكتاب
ENTREPRISE NATIONALE DU LIVRE

ابن بسام الأندلسي وكتاب الذخيرة

الكتاب : ابن بسام الاندلسى وكتاب «الذخيرة»

هذا الكتاب تناول بالتعريف والدراسة المتعمقة ناحيتين :

* أديبا اندلسيا كبيرا هو أبو الحسن على بن بسام الذى كان من أشهر رجال الادب فى فترة الطوائف وعهد المرابطين ، وأبعدهم أثرا فى أجيال من المؤرخين والكتاب والباحثين ...

* وتحفة أدبية هى بلا مراء أشمل ، وأوسع ، وأدق ما وصل الينا من الكتب التى ألفها الاندلسيون عن الادب وفنونه الشعرية والنثرية ، ورجاله النابغين فيه . وتلك التحفة هى كتاب «الذخيرة» الذى هو ديوان ضخم اشتمل على أروع ما أبدعته العبقرية الأندلسية من الشعر الرائق ، والنثر البليغ على امتداد القرن الخامس الذى ربما كان يمثل قمة الازدهار الادبى فى تاريخ «فردوسنا المفقود» .

المؤسسة الوطنية للكتاب
الجزائر ـــ 1989

الاهـــداء

اليــك أمــى

اليــك أبــى

أهدى هذه الثمــرة من ثمـار الجهــد

الذى تلقيت عنكما أول دروسه المفيدة ·

انها بعض بضاعتكما ردت اليكما ·

فتفضــلا بقبــولهــا منــى دليــل

حــب خالــد ، واحتــرام عظيــم ·

عــلى ·

« والكلام اذا لم يحكه قلب فـارغ ، ولم يسبكـه لـب من ظلمـاء الشغل بازغ ، لم يـرق تطـريزه ولـم ينفـق ابريزه ٠٠٠»

ابن بسـام

(كتـاب الذخيرة)

المقــدّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

ان الذى ينظر عن كثب الى ابن بسام، وكتاب الذخيرة لا يكاد ينقضى عجبه من المصير الغريب الذى كان من نصيبهما ٠

فابن بسام قد امتعض لما يلقاه أدباء الاندلس من اهمال واعراض من قبل مواطنيهم فى الاندلس، فهب لرفع الضيم عنهم، والتعريف بهم، ولفت الانظار الى قيمتهم، والاجتهاد فى تدوين أخبارهم، وجمع العيون من مقطوعاتهم الشعرية والنثرية ٠

وكتاب الذخيرة قد جاء بفضل الجهود الصادقة التى بذلها فيه مؤلفه موسوعة أدبية جليلة، فيها من أنباء الاندلس، وسير ملوكها ووزرائها وأخبار شعرائها وكتابها، ما أتاح لاجيال من المؤرخين والكتاب الذين تناولوا شتى مناحى الحياة الفكرية والاجتماعية فى الاندلس، أن يفيدوا منه، وأن يجدوا فيه من المعلومات ما لا مثيل له فى أى كتاب اندلسى آخر، ولا سيما فيما يتعلق بالفترة التى تسمى بعصر ملوك الطوائف، وبداية دولة المرابطين٠

ولكن الادباء الذين جاؤوا بعد ابن بسام لم ينصفوه، ولم يعاملوه بجزء يسير من العناية التى عامل بها هو أدباء عصره٠ هذا فيما يتعلق بالقدماء، أما المحدثون فلم يكن تقصيرهم فى حق ابن بسام بأقل من تقصير أولائك وذلك أن آلافا من الكتب قد خرجت الى النور، فحققت وطبعت، وذاعت فى مختلف الاوساط، مع أن بعضها ليس له من القيمة ولا من الاهمية ما يساوى أو يدانى قيمة كتاب الذخيرة واهميته٠

ثم لما لاح أن الايام ستنصف كتاب الذخيرة، وشرعت لجنة جامعة القاهرة فى تحقيق الكتاب، وطبعت بالفعل قسما ونصفا من اقسامه

الاربعة عادت الايام الى التنكر له، فتوقف التحقيق والطبع منذ ربع قرن، وظل هذا الكنز طوال هذه الفترة يستصرخ من ينهض لتأدية هذه الرسالة التى هى واجب من واجبات الباحثين العرب نحو الجيد من تراثهم التليد . (1)

هذه بعض الدوافع التى حفزتنا على اختيار « ابن بسام وكتاب الذخيرة » موضوعا لهذه الدراسة ، يضاف اليها الاحساس الشائع بين أوساط الباحثين بنقص معلوماتنا عن الحياة الفكرية فى الاندلس، وشدة الحاجة الى دراسة أمهات الادب فيها لسد ثغرات المكتبة الاندلسية ، ورسم المعالم الصحيحة لاتجاهات الحياة العقلية بكل تيارتها الزاخرة فى تلك الحضارة الراقية .

وكانت أول مشكلة واجهتنا فى بداية هذا العمل هى جمع مخطوطات الكتاب . فسافرنا الى القاهرة أولا حيث اطلعنا على النسخ الموجودة فى دار الكتب المصرية وصورنا القسم الثانى منها . وراجعنا النسخ المكررة التى تشتمل عليها مكتبة جامعة القاهرة . ثم راسلنا مكتبة غوطة بالمانيا فوافتنا مشكورة بالقسم الثالث من الكتاب. ثم سافرنا الى الرباط بالمغرب الاقصى، فاطلعنا على النسخ الموجودة فى الخزانة الملكية وصورنا منها كل أقسام الكتاب.

وهكذا حصلنا على القاعدة التى لا يمكن أن ننطلق فى البحث بدونها. وبدأنا فى لم أشتات الموضوع الموزعة على ثمانية مجلدات خمسة مخطوطة وثلاثة مطبوعة ولسنا فى حاجة الى ذكر ما بذلناه من الجهد ، ووصف ما لقيناه من العناء، فذلك ما لا بد منه لكل من يقدم على مثل هذه

---

1) من حسن الطالع ان قام الدكتور احسان عباس بتحقيق الكتاب، واصدرته دار الثقافة ببيروت كاملا، فى الوقت الذى كنا نعد فيه هذه الدراسة للنشر، اما اثناء مرحلة البحث فلم نكن نستطيع الاعتماد الا على المخطوطات، والاجزاء المطبوعة فى القاهرة من الكتاب.

البحوث، وانما يكون التفاوت من حيث المقدار، ولعلنا لا نبالغ اذا ذكرنا أنه كان لنا من ذلك أوفر نصيب.

وقد أدرنا هذه الدراسة على ستة فصول. فعقدنا الفصل الاول للحديث عن حياة ابن بسام والجوانب المتعلقة بها. ولما وجدنا كل الكتب القديمة التى ورد فيها ذكر لابن بسام، قليلة الغناء عديمة الفائدة فى هتك الحجب الكثيفة التى تغلف حياة هذا الرجل، عولنا على كتاب الذخيرة غالباء وأخذنا فى استقرائه، والقراءة بين سطوره، كما يقال، لنستنبط بعض ما ينير زوايا هذه الحياة المظلمة ذات الاسرار.

ثم رأينا أن نمهد للحديث عن كتاب الذخيرة، بدراسة ظاهرة التأليف فى تراجم الأشخاص ، ولا سيما ما يتعلق منها بالأدباء . فعقدنا الفصل الثانى لهذا الغرض حيث أتيح لنا أن نستعرض أهم كتب التراجم والمختارات التى ألفت فى المشرق والأندلس منذ العصر العباسى ومنذ افتتاح الاندلس الى نهاية المائة الخامسة الهجرية، أى الى تاريخ تأليف كتاب الذخيرة فى نحو سنة 500 هـ .

ثم عقدنا الفصل الثالث للتعريف بكتاب الذخيرة من الناحية الشكلية فبينا دوافع تأليفه، ودرسنا بعض المشكلات المثارة حوله، واتبعناه بفصل تحدثنا فيه عن المصادر التى اعتمد عليها المؤلف فى تدوين كتابه، فصنفناها الى أنواع حسب مضامين الكتاب وذكرنا ما كان منها مشرقيا، وما كان مغربيا أندلسيا.

أما الفصل الخامس فهو من الفصول الاساسية فى هذا البحث ، وقد تناولنا فيه بشكل مستفيض كل المرتكزات المنهجية التى تستند اليها مضامين الكتاب، سواء منها ما صرح المؤلف باعتماده فى مقدمة الكتاب أو ما استنتجناه نحن أثناء التعمق فى دراسته .

وأفردنا للجوانب النقدية فى كتاب الذخيرة الفصل السادس ، فاستعرضنا فيه أهم الاحكام والمواقف النقدية، وحللناها وحاولنا أن نبين أن ابن بسام قد توفرت له كل الادوات التى تجعل منه ناقدا بأتم معنى الكلمة، وأنه ان لم يبد فى هذه الصورة على حقيقتها من خلال الكتاب، فلأن الكتاب نفسه لا يتسع لذلك من حيث أن الغرض من تأليفه، والرسالة التى نهض المؤلف لتاديتها بواسطته، لا يتيحان التفرغ للنقد تفرغا كاملا الا مع التقصير فى جوانب أخرى هى فى نظر ابن بسام أهم من كل شيء آخر •

وختمنا هذا البحث بخلاصة مركزة ضمناها أهم ما توصلنا اليه فى دراسة حياة الرجل، وتحليل أهم جوانب الكتاب •

وكم يسعدنا اليوم أن نقدم هذا الجهد الذى أضحى فى حيز الواقع بعد أن ظل سنوات طويلة حلما فى الذهن، وهمسا فى الفؤاد• فاذا استطاع أن يضيف شيئا جديدا الى معلومات الباحثين، أو ينصف ابن بسام من تصاريف دهره المتقلب، فذلك أقصى الرجاء، ومنتهى الغاية•

على بن محمد

الجزائر فى مارس 1976 •

الفصل الأول

حياة ابن بسام

محتويات الفصل الأول

حياة ابن بسام

- الاديب الذى لا ترجمة له فى كتب التراجم
- بعض جوانب حياته من ثنايا كتابه
  - أصله التغلبى
  - بلاده: شنترين
  - حياته قبل سقوط مدينة شنترين
  - حياته بعد سقوطها.
- وفاتـه
- ثقافته
- مؤلفاته.

1 ـ الأديب الذى لا ترجمة له فى كتب التراجم

لو أننا أخذنا فى سرد الكتب الادبية، الاندلسية وغير الاندلسية التى ورد فيها ذكر ابن بسام، وصرح فيها مؤلفوها بالاستفادة منه ، والنقل المباشر عن كتابه « المشهور » لأحصينا منها قائمة طويلة .

والنتيجة المنطقية الاولى لهذا الكلام، هى أن ابن بسام لم يكن رجلا مغمورا، ولا نكرة مجهولا. ونتيجة هذه النتيجة تفرض أن تكون حياته معروفة، بالمقدار الذى تعرف به حياة من فى طبقته وعصره من الادباء، وأن تكون ترجمته مبثوثة فى كتب من اعتنوا بعده بالتعريف برجال الاندلس وعلمائها.

ولكن واقع الامر لسوء الحظ، حظنا وحظ المؤلف معا، غير ذلك. فمن نلوم، وعلى من نلقى أعباء مسؤولية التفريط والتقصير ؟

أجل ! ما أكثر الكتب التى ذكر فيها ابن بسام عشرات المرات ، ولكن الذى يقصدها بحثا عن ترجمة شافية لهذا الرجل، تنير بعض زوايا حياته المغلفة بالظلام لا يكاد يظفر منها بشىء ، باستثناء أنه يسمى أبا الحسن ابن بسام، وأنه مؤلف كتاب « الذخيرة » .

والغريب أن أغلبية كتب التراجم والتاريخ الادبى التى ألفت فى العصور التالية لعصر ابن بسام، قد اعتمدت ـ كما أسلفنا ـ جل الاعتماد على كتابه « الذخيرة » فكان مرجعها الاساسى ، ومصدرها الاول فى أغلب ما تروى من أخبار وأدب رجال المائة الخامسة فى الاندلس. ولقد تعرضت بالحديث المسهب لرجال لم يكن لهم خطر ابن بسام وأثره فى الحياة الادبية الاندلسية، ولم تكن لهم من المؤلفات ما يرقى الى كتاب « الذخيرة » أو يدانيه، فكيف نفسر حينئذ هذا التقصير فى حق ابن بسام،

بحيث أن بعضها ضرب عنه صفحا حتى لكأنه ليس من المشاهير، ولا حتى من مستوى صغار الادباء الذين نجد أخبارهم فى كل مكـان، وبعضها الآخر (1) تحدث عنه حديثا لا يختلف كثيرا عن الاهمال، اذ جاء فى صورة اشارات عابرة الى أنه صـاحب كتـاب « الذخيرة فى محاسن أهل هذه الجزيرة » • وكثيرا ما كان الحديث ينصرف الى كتابه والثناء عليه، حتى كأن المؤلفين فى تلك الحقب الماضية كانوا أيضا يعانون ما نعانيه اليوم من العسر والضيق عندما يحاولون الحديث عن حياته، مما قد يشير الى أن أخبار هذه الحياة قد طمست فى وقت مبكر بعد وفاته•

ومهما يكن من أمر فاننا لا نعثر فى تلك الكتب على كلمة واحدة مفيدة عن منشئه الاول، وأهله وأولاده، ودراسته وشيوخه، وأهم مراحل حياته فى شنترين قبل استيلاء الاسبان عليها، أو فى قرطبة واشبيلية بعد ذلك•

فهذا ابن سعيد، (2) من معاصريه، يقول عنه فى ثنايا الترجمة الموجزة التى أفردها له فى كتابه «رايات المبرزين» كلاما محيرا، قال: « كـان مستوطنا اشبيلية وأظنه منها » •

فهذا الكلام يدل على أن ابن سعيد يجهل كل شىء عن ابن بسام لانه يجهل أهم حدث فى حياته على الاطلاق ألا وهو خروجه من بلاده شنترين بعد أن سقطت فى يد الاسبان، ولم يقرأ مقدمة كتاب الذخيرة بكل تأكيد، ولو أنه قرأها لرأى كيف يفيض كاتبها فى وصـف محنته القاسية، وكيف خرج من بلاده « مروع السرب » ، ولما قال « كـان مستوطنا اشبيلية وأظنه منها » •

ولكن هذا الجهل لا يعنى أن صاحب الرايات لم يستفد من كتاب الذخيرة، بل لقد استفاد منه الكثير الكثير، والذى يبدو جليا أنه لم يطالع الكتاب مطالعة منظمة وانما عمد الى التراجم التى كان يريد أن يتحدث

---

(1) من امثلة ذلك: رايات المبرزين، والمغرب فى حلى المغرب، ونفح الطيب.
(2) على بن سعيد المغربى 610 — 673 هـ، من مؤلفاته كتاب «المغرب» وكتاب رايات المبرزين

عن أصحابها فأخذها، أو أخذ منها ما يريد، وقضى حاجته من ابن بسام وكتابه دون أن يكلف نفسه مشقة التثبت من ظنه للتحقيق فى البلد الذى ينتسب اليه•

وكل هذا فى الوقت الذى لم يبخل عليه بالالقاب الضخمة، والاوصاف الفضفاضة، فقال عنه: « الرئيس الفاضل، الاديب المؤرخ، أبو الحسن على بن بسام صاحب كتاب الذخيرة ••••»

والحق أن الامر مدهش للغاية•

فلو كان الرجل قليل الشهرة فى زمانه لكان فى ذلك ما يكفى لتعليل هذا الاغفال، ولو كان تأليفه فى فن ضيق الاختصاص، يعنى طائفة محدودة من الناس، لكان فى ذلك أيضا ما يساعد على تفسير هذا الاهمال• أما أن يكون هو الذى « أحصى فيه حسنات دهره » وعرف فيه بعظماء عصره، وأن تشهد له أجيال من الادباء والمؤرخين بالفضل، وأن تعتـرف لكتابه بالاهمية، وأن يكون هذا الكتاب فى مكتبات السلاطين فى المشرق، وينهض أكثر من أديب لاختصاره، فى وقت كان المشرق فيه قليل الاصغاء الى ما يجرى بالمغرب، اذ أن القاعدة وقتئذ هى أن يتلقف المغاربة ما يأتيهم من المشرق، فاذا استطاع كتاب أندلسى أن يشق الطريق الى المشرق، ويكون فى مكتبة السلطان، وأن يختصره أديب مشرقى كابن مماتى — الـذى سنتحدث عنه — فتلك شهادة بالفضل تمنح لابن بسام، لا نظن أنه أتيح مثلها لعدد كبير من أدباء الاندلس أو لادباء المغرب بوجه عام• نقول اما أن يكون الامر على هذا النحو ثم تسكت كتب التراجم الاندلسية بالذات عن ابن بسام، فذلك عين العجب•

واذن فما هى الاسباب الحقيقية التى دفعت كتب التراجم الاندلسية بالذات — وعليها تقع المسؤولية الاولى فى ذلك — الى السكوت عن الرجل الذى دفعته غيرته على «أفقه» — كما يقول — وعلى قومه الى النهوض بهذا العمل العظيم فخلد عظماء الاندلس وأدباءها ووضع كتابا لـولاه

لافتقدنا كثيرا من الأدب البليغ والأخبار المتنوعة والتاريخ الدقيق ! •

أما الاسباب الحقيقية فلا أظننا نستطيع أن نجزم بها، وقصارى البحث فى المرحلة الحالية مما نملك من المعلومات أن نبدى الفرضيات التى يمكن أن تصلح تعليلا لهذا السكوت•

ويبدو أن المعاصرين الاقربين للمؤلف، قد ارتكبوا أول الخطأ فى عدم افراد ترجمة هامة له• وينطبق هذا القول على ابن خاقان (1) بالذات الذى ألف كتابه (القلائد) سنة 529 هـ أى بأكثر من 20 سنة بعد تأليف كتاب الذخيرة وشيوعه والاقرار له بالفضل بل لقد أخذ من الذخيرة فصولا بأكملها وضمنها كتابه « قلائد العقيان » دون أن يشير الى صاحبها فاغتاظ ابن بسام وشكا ذلك الى القاضى• على أن ابن خاقان لم يحفل فى الحقيقة كثيرا بالتراجم فى كتابه بل كان اهتمامه الاكبر منصبا على المقطوعات التى يختارها ولا يورد من حياة أصحابها الا ما كان وثيق الصلة بها•

وعلى أية حال فلقد انقضى العصر الذى عاش فيه صاحب الذخيرة دون أن يترجم له أحد من أصحاب الكتب التى وصلت الينا • ولقد يكون مرجع ذلك الى طغيان شهرته بحيث لم يشعر أحد فى ذلك الأوان بالحاجة الى التعريف به، وقد يكون مرجع ذلك الى التنافس الذى كثيرا ما يحتدم بين المتعاصرين من الذين يتعاطون مهنة واحدة فتتولد عن ذلك غيرة — ليست نادرة فى ميدان الادب على كل حال — ينتقم الاديب بواسطتها من خصمه وتحرم الاجيال من معرفة المبدعين• ونحن نجد عند ابن خاقان بالذات مثلا واضحا على هذا السلوك • فقد أقام عليه القاضى أبو الفضل ابن عياض اليحصبى الحد لتناوله الخمر فقال ابن خاقان لبعض أصحابه: «عزمت على اسقاط اسم القاضى أبى الفضل من القلائد»

---

(1) أبو نصر الفتح محمد بن عبيد الله الاندلسى من أهل يحصب توفى مخنوقا فى مراكش سنة 529 هـ من مؤلفاته « مطمح الانفس ومسرح التأنس » و « قلائد العقيان » •

فأقنعه صاحبه بأنه يستحسن ذكر القاضى واثبات قصته معه خير من أن يسقطه فلا يعلمها أحد•

وقد تكون لابن بسام ترجمة وافية فى بعض الكتب التى عفى عليها الزمان فضاعت فيما ضاع من تراث الاندلس وهو كثير أو هى الان ملقاة فى بعض الزوايا تأكلها الارضة ويغطيها الغبار •

ومع ذلك وسواء صحت هذه الفرضيات أم لم تصح، فانه يبقى مدهشا ومحيرا للغاية أن لا تفرد ترجمة وافية لابن بسام لا فى كتب ابن بشكوال المتوفى سنة 578 هـ/ 1182 م ولا فى كتاب (بغية الملتمس فى تاريخ رجال الاندلس) للضبى المتوفى سنة 599 هـ/1202م وقد جعله ذيلا على كتاب جذوة المقتبس للحميدى وترجم فيه لمن توفوا ما بين 449 هـ/ 1058 م و 591 هـ/ 1195 م • ولا فى كتب ابن الابار المتوفى سنة 635 هـ/ 1238 م •

والذى يدهشنا أكثر، اننا نصل الى منتصف القرن الحادى عشر الهجرى فنجد المقرى صاحب نفح الطيب يذكر ابن بسام وكتابه الذخيرة فى معرض الثناء على جهود الاندلسيين فيقول: « أبو الحسن على بن بسام الشنتريني صاحب الذخيرة وشهرته تغنى عن ذكره •••• »

ان كلاما من هذا النوع من شأنه أن يزيدنا حيرة• أكان ابن بسام حقا فى منتصف القرن الحادى عشر الهجرى من الشهرة، وكانت أخبار حياته التفصيلية من الرواج بحيث لم يجد صاحب نفح الطيب أية حاجة الى التعريف به ؟ اذا كان الامر كذلك فأين كانت أخباره، وفى أى كتاب، ولماذا لم يستفد منها المؤلفون الذين تدل كتاباتهم على أنهم حاولوا جاهدين أن يجدوا شيئا يقولونه عنه فلم يجدوا• أغلب الظن أن المقرى كان يقصد شهرة اسمه المرتبط بكتاب الذخيرة الذى لا مجال للشك فى أنه كان مشهورا فعلا وكان من المراجع والمصادر التى يتداولها الكتاب وطلاب

العلم. ولعل الذي جر المقرى الى هذا الكلام انما هو مقتضيات السجع لا أكثر ولا أقل اذ أنه يقول « شهرته تغنى عن ذكـره، وشعره دون نثـره » .

وبعد: اذا كانت هذه هي الحال في الكتب التي يفترض فيها أن تكون المرجع الطبيعي لنا في البحث عن حياة ابن بسام، هـل نكتفي بالقليل القليل الذي جاء فيها أم نحـاول أن نستخلص بعض الخطوط الكبرى لحياته من خلال مؤلفاته هو بالذات.

الحق انه لم يبق لنا غير ذلك: واذا كانت الظروف قد شاءت أيضا أن لا يكون بين أيدينا في الوقت الحاضر من مؤلفاته الا كتاب الذخيرة فاننا مع ذلك لن نعدم فيه بعض اللفتات التـي تعيننا على رسم تلـك الخطوط.

2 — بعض جوانب حياته من ثنايا كتابه .

لم يعن ابن بسام — شأن بعض الادباء الذين لم يضنوا على أنفسهم — بافراد ترجمة لنفسه في كتاب « الذخيرة » .

ولا نعتقد أن شيئا من هذا التفكير قد خطر بباله، مع أنه لو فعل ذلك لقدم لتاريخ الادب العربي خدمة جليلة. ثم انه لو فعل ذلك أيضا لما خرج عن موضوع كتابه في شيء. ألم يترجم لرجال لا يدانونه في ثقافة ولا في علم ؟ وهو أليس أديبا بالمعنى الكامل للكلمة ، له شعر ونثر ؟ أليس مؤلفا له عدة كتب جاء ذكرها في « الذخيرة » ، مما يـدل دلالة واضحة على أن كتاب الذخيرة ليس أول كتبه ؟

ومع ذلك فلو أنه ترجم لنفسه لتعجبنا من ذلـك، لان ما لـه من التواضع الجم، والاخلاق السامية، ينفره من التحدث عن النفس والانسياق الى ذكر مفاخره.

وعلى ذلك فلن نطمع أبدا في العثور على أخبار مفصلة لحياته ، وانما قصارى ما في الامر أننا سنحاول القراءة ما بـين السطور — كما يقال — والاستفادة من الاشارات الخاطفة التي نجدها في ثنايا الكتاب، والتي تجيء عرضا في اطار من الكلام يفرضه سياق الحديث، أو يتعلق به خبر أدبي فيكون استطرادا فيه بعض التوضيح والتدقيق .

ثم لابد من الاشارة الى أن الافتتاحية التي قدم بها المؤلف لكتابه تسعفنا فيما نحن بصدده من أخبار حياته باشارات وجيزة ولكنها على جانب كبير من الاهمية. فهي وان كانت خالية من الحديث الصريح عن مراحل حياته كما كنا نتمنى أن نجدها الا أنها تتضمن وصفا رائعا لحالة ابن بسام النفسية وهو مقدم على تدوين كتابه ، وقد ألم خلالها بالظروف التي خرج فيها من بلاده، والمصائب والمحن التي قاساها وهو يبحث عن وكر يأويه، وعمل يسد به الرمق، ويضمن بواسطته العيش الكريم.

وسنحاول في الصفحات التالية أن نستفيد من كل تلك الاشارات لرسم صورة مجملة لحياة ابن بسام، ان لم تكن صورة دقيقة الملامح والقسمات، فلعلها تكون خيالا قريب الشبه بالصورة الحقيقية.

أصلـه : من بنـي تغلب .

ابن بسام تغلبي الاصل، ينتمي الى قبيلة تغلب، تلك التي كان لها شأن عظيم في الجاهلية والاسلام.

هذا ما نستنتجه من الكلام الذي سنورده فيما يلي:

عقد المؤلف فصلا للوزير أبي الحكم عمرو بن مذحج بن حزم ، فقال: « وقدم أبو الحكم من بعض أسفاره، وكتبت أنا اليه:

يهنى قـدومك كـلا يا أبا الحكم

يا دوحة العلم والآداب والحكم

..أن كنت من تغلب فى بيتسؤددها

وكنت من مذحج فى السؤدد العمم

فلم يضرنا تنائى النسبتين وقـد

رحنا نسيبين فى علم وفى فـهم...

راجعنى بأبيات منهـا قـولـه:

يا من تناول حـر اللفظ من أمـم

بذى غرارين مثل الصارم الخذم .

من تـغلب أنت فى عليـاء مركزها

فمن يباريك فى مجد وفى كـرم

قوم أراد ابـن هند أن يضيمهموا

فأوطأوا الرأس منه أخمص القـدم

مآثـر قسمت بـين الورى وغدا

للتغلبيين منها أوفر القسم...(1)

هاتان مقطوعتان من الشعر، الاولى لابن بسام، والثانية للوزير أبى الحكم بن حزم تشيران بصريح اللفظ الى أن صاحب الذخيرة ينتسب الى قبيلة تغلب. فهو من العرب الاقحاح الذين جاؤوا مع الفاتحين الاول واستقروا بالغرب الاندلسى.

ويجدر بنا أن ننتبه الى مقدار ما فى أبيات ابن بسام من الاعتزاز والفخر بهذه النسبة، والى مقدار ما فى أبيات أبى الحكم بن حـزم من الاعتراف بأمجاد هذه القبيلة .

(1) الذخيرة (ذ) ـ ق / 1 ص 370 مخ القاهرة .

يذكر ابن بسام فى مقدمة كتابه أنه من مدينة شنترين. وتنسبه جميع الكتب التى تحدثت عنه اليها فيقال: ابـن بسام الشنتريني ، باستثناء ابن سعيد الذى ظنه من اشبيلية.

وشنترين هذه مدينة تقع الآن فى البرتغال، على الشاطىء الأيمن من نهر (تاجـو) والى الشمال الشرقى من لشبونة على 67 كلم منها . كانت تسمى عند الرومان سكالا بيس، واسمها مشتق من « سنت ارانة »، أى القديسة ارانة، وهى قديسة نكل بها سنة 653 م وألقى بها فى النهر، فسميت البقعة التى استقر عندها جسدها باسمها . (1)

فتحها العرب مع الجنوب الغربى للجزيرة الايبيرية كله. وفى سنة 327/ 938 م كانت مسرحا لثـورة أمية بن اسحاق على الخليفة عبد الرحمن الثالث بعد أن عزله من الوزارة. ثم أخمدت ثورته.

وفى نهاية القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى ، كانت مدينة شنترين تابعة لدولة بنى الأفطس الذين اتخذوا من مدينة بطليوس عاصمة لهم.

وفى سنة 485 هـ/1092/ 1093 م (2) استـولى عليها المـلك القشتيلى الفونسو السادس. وبقيت فى أيدى النصارى الى أن استرجعها المرابطون عن طريق جيشهم الذى كان يقوده: سير بن أبى بكـر بن تاشفين وقد انتزعها منهم كما انتزع بطليوس وكل ناحية الغرب سنة 504 هـ/1111م وقد أرسل سير بخبر فتح شنترين من داخل أسوارها

(1) (2) انظر مادة « شنترين Santarem فى دائرة المعارف الاسلامية باللغة الفرنسية، المجلد الرابع، وفى تاريخ سقوط المدينة خلاف، فبعض الروايات تجعلها سنة 486 هـ.

الى أمير المسلمين على ابن تاشفين فى رسالة بليغة (1) كتبها الـوزير والكاتب المشهور ابن وهبون الذى هو أيضا من أصدقاء ابن بسام .

وقد بقيت شنترين فى أيدى المسلمين الى سقوط دولة المرابطين ثم انتزعها منهم الاسبان مع باقى مدن الغرب، لشبونة، شنتره، يابره الخ ... سنة 542هـ/1147م أى سنة وفاة ابن بسام — على احـدى الروايتين.

وقد حاول الموحدون استرجاعها وحاصروها ولكن باءت مساعيهم بالفشل.

والذى يلفت الانتباه أننا لا نجد ابن بسام فى كتاب الذخيرة يتحدث عن مدينته شنترين بعد الذى قاله عنها فى المقدمة. والظاهر أنه لم يكن بامكانه أن يشير الى استعادتها من يد الاسبان لانه يكون قد فرغ من تأليف « الذخيرة » عندما استعيدت سنة 504 هـ.

ونحن نجهل، كذلك ما اذا كان ابن بسام قد عاد الى بلاده وقد بقيت فى أيدى المسلمين قرابة الاربعين سنة ثم سقطت مرة ثانية فى يد الاسبان.

وهى سقطت فى التاريخ الذى يحدد عادة لوفاة ابن بسام، فهل بين الحادثين علاقة ؟ ألا يكون ابن بسام قد عاد اليها وتوفى فيها أثنـاء الحروب التى شنها الاسبان، والتى آلت الى سقوط الغرب الاندلسى، وخروجه نهائيا من دولة المسلمين، حتى لقيت بلاد الاندلس كلها نفس المصير ؟

أسئلة لا ندرى ان كانت الايام ستجود يوما بما ييسر الاجابة عنها.

---

(1) نص الرسالة فى كتاب «المعجب فى تلخيص أخبار المغرب» لعبد الواحد المراكشى ص 218 .

حيـــاة ابـــن بســـام

1 — قبـل سقـوط مدينـة شنتـرين .

اذا كان ابن بسام ينسب الى مدينة شنترين كما أسلفنا، وكـان من الثابت لدينا أنه عاش فيها، فاننا لا نجد فى كتاب الذخيرة — خلافا لما جاء فى الموسوعة الاسلامية — ما يشير الى أنه ولد فيها. ولكننا لا نجد فيها أيضا ما قد يفهم منه أنه ولد فى غيرها، أو أنها ليست موطنه الاصلى وانما انتقل اليها أبوه أو جده من مكان آخر.

بل ان لهفة ابن بسام عليها، وشدة حزنه على ضياعها ترجحان أنه ولد فيها، وأنها موطن آبائه وأجداده منذ القديم.

وعلى كل حال فلا هو، ولا الذين ترجموا له — ان جاز لنا أن نسمى تلك الاشارات التى نجدها فى بعض كتب التراجم، ترجمة — تحدثوا عن مولده، أو حددوا تاريخا له.

وسنحاول بشىء من الاستنتاج، واستنطاق الحوادث التى أوردها فى كتابه، أن نحدد تاريخا تقريبيا محتملا لمولده، على ما فى هذه المحاولة من المغامرة والمجازفة. ولكننا مضطرون اليهما اضطرارا، اذ ليـس لنا غيرهما من سبيل.

يروى لنا ابن بسام حكاية طريفة جرت له فى مجلس عبد المجيد بن عبدون، فيقول مستطردا بمناسبة أبيات من الشعر أوردها لعلى بن بسام البغدادى فى هجاء أخيه « ولما اتفق أن يكون على بن بسام هذا سميى، واجتمعت بالوزير أبى محمد عبد المجيد بن عبدون أول لقائى له بشنترين فى جملة أصحاب المتوكل، فأول مجلس اجتمعت معه فيه، وسمع بعض الاخوان يدعوننى باسمى، فقال لى: أنت على بن بسام حقا ؟ قلت نعم. قال: أوتهجو حتى الآن أباك أبا جعفر، وأخاك جعفرا، قلت له: وأنت

أيضا عبد المجيد ؟ قال: أجل. قلت: وحتى الآن فيك ابن مناذر يتغزل ؟ فضحك من حضر لهذا الجواب الحاضر . (1)

ونحن نعرف أن عبد المجيد بن عبدون قد تولى الوزارة للمتوكل سنة 473 هـ ثم اننا نجد أن ابن بسام يذكر من جهة أخرى أنه سافر الى لشبونة سنة 477هـ (2) . فاذا جاز لنا أن نزعم أن الاجتماع الذى ذكره المؤلف مع الوزير قد تم قبل سفره الى الاشبونة فانه يكون بين عام 473 وعام 477 . واذا غامرنا بتحديد تاريخ تقريبي بين الفترتين، فان ذلك الاجتماع يكون قد وقع حوالى سنة 475 هـ.

ونستنتج من الحكاية التى رواها صاحب الذخيرة عن نفسه أنه كان وقتئذ مكتمل الشخصية، وهو يبدو لنا من خلالها ذا ثقافة لا بأس بها، مطلعا على أدباء المشرق، عارفا بأخبار شعراء الاندلس المعاصرين، وفى كلامه من حرارة الفتوة وجرأة الشباب ما قد نستجيز معه أن نزعم أنه ربما كان حينذاك فى نحو الخامسة والعشرين من عمره، قد تزيد وقد تنقص عدة سنوات. فاذا صحت لنا هذه الافتراضات كلها فان ابن بسام يكون قد جاء الى هذه الدنيا فى تاريخ لا يبعد كثيرا عن سنة 450 . فاذا أضفنا الى ذلك ما يروى عنه من أنه عمر طويلا، وعاش قرابة التسعين سنة، فان تاريخ وفاته المشهور 542 هـ يزيدنا اطمئنانا الى أن التاريخ الذى حددناه لميلاده قد لا يكون بعيدا جدا عن الصواب.

واذا كنا نجهل كل وقائع حياته الاولى، وظروف معيشته فى شنترين، وعمل أبيه فيها، فان ما لدينا من الاشارات الكثيرة المتناثرة فى كل أجزاء الذخيرة تنبئنا بما لا يقبل الشك بأنه عاش فى بيت شرف ويسر، تغمره النعمة، ويكتنفه الجاه والرخاء.

---

(1) ذ — 1/1 ص 120 . تنبيه : اذا احلنا على كتاب الذخيرة (ذ) دون ان نشير الى المخطوط (مخ)فمعنى ذلك أن المقصود هو ما طبع فى القاهرة من الاقسام والمجلدات .

(2) ذ — القسم الثالث مخطوطة غوته ، ص 393 .

فحضور ابن بسام، وهو فى السن التى حددناها، أو ما يقرب منها، مجلس الوزير ابن عبدون وهو فى ثلة من أصحاب المتوكل، ليس مما يتيسر لجميع الشبان ولا حتى لجميع الناس .

واهتمام الناس بـه، فى ذلك المجلس على ما فيه من الاعيان، ودعوتهم المتكررة له باسمه حتى لفت انتباه الوزير، ينبىء بمكانة ابن بسام وتقدير أصحابه اياه.

ثم ان جرأته على استجواب الوزير: والرد عليه، وممازحته « على نحو لا يكون الا بين المتساويين من الرفقاء » (1) على الرغم من أنه يجتمع به لاول مرة، يدل بصراحة على مبلغ احساسه بقدر نفسه، ومقدار شعوره ووعيه بمكانته الاجتماعية المرموقة .

ولقد سبق لنا أن أوردنا الابيات التى مدحه بها أبو الحكم ابن حزم والتى استنتجنا منها نسبته الى بنى تغلب، ونذكر منها على الاخص هذا البيت:

من تـغلب أنت فى عليـاء مركزها

فمن يباريك فى مجد وفى كـرم (2)

بل اننا نجد ابن بسام نفسه يشير الى هذا المجد فى قوله الذى كنا أثبتناه أيضا :

ان كنت من تغلب فى بيت سؤددها

وكنت من مذحج فى السؤدد العمم (3)

فهاتان اشارتان صريحتان الى أن بيت ابن بسام بيت شرف ومجد،

---

(1) دراسة فى مصادر الادب. ط. مكى ص 318

(2) ذ — مخ القاهرة — ق/ 2 ص 370 .

(3) » » »

وهو بيت سؤدد، يقع فى « علياء مركز » قبيلة تغلب المشهورة، فهو مجد لم ينقطع أبدا حتى أدركه أبو الحسن وذاق حلاوة الانتماء اليه.

واذا كنا لا نجد المؤلف يفخر بأبيه أو يشير اليه فى كتاب الذخيرة، فاننا نجد فى احدى القصائد التى مدح بها اشارة الى أبيه تدل على أنه صاحب الفضل فى بناء هذا المجد، والبيت من قطعة لابى بكر بن عباده، وهو:

يا منيفا على السماكين سام ❊ حزت فضل السباق عن بسام . (1)

فهل يكون(بسام) المذكور هذا أباه أم يكون جده ؟ والظاهر على كل حال أنه كان رافع صرح المجد الذى يمدح به بيت ابن بسام ولكننا لا نجد، للاسف، أية اشارة الى ذلك فيما بين أيدينا من كتاب « الذخيرة ».

وقد يطول بنا المقام لو أننا أخذنا نستنطق كل الاشارات التى نستنتج منها علو منزلة المؤلف فى بلاده، ورفعة مكانته الاجتماعية ، وسمو شرف أسرته، وعراقة مجدها، ولكننا مع ذلك لا نترك هذا الباب قبل التوقف قليلا عند الاشارات الواضحة التى جاءت على لسانه فى مقدمة الكتاب وهو يذكر محنته بعد سقوط (شنترين) وخروجه منها ذلك الخروج المهين الذى ملأه حزنا وأذاقه مرارة الفقر والاغتراب.

ومن البديهى أن المصيبة التى تنزل بمن عاش فى النعمة، وألف اليسر ، واعتاد الرخاء، تكون أشد عليه وأقسى وقعا وأبعد أثرا فى حياته، فهو يهرب من واقعه المرير بالالتفات الى ماضيه الباسم، يستعيد فى الوهم بعض صوره الزاهية لعله يجد فيها ما يسلى النفس وينسيها حاضرها البائس الحزين.

وهكذا نجد أبا الحسن يتحدث عن أيامه قبل مغادرة بلاده: « فقد كنا غنينا هنالك بكرم الانتساب، عن سوء الاكتساب، واجتزأنا بمذخور

(1) — 2/1 ص 394 .

العتاد، عن التقلب فى البلاد، الى أن نثر علينا الروم ذلك النظام، ولو ترك القطا ليلا لنام ... » (1)

هذه عبارات لا يختلف على دلالتها اثنان فى أن المؤلف كان ينتمى الى أسرة غنية، لها من المال ما يسد حاجتها، وذلك ما أغنى ابن بسام عن التقلب فى البلاد لاكتساب معيشته. ويبدو أنه مال متوارث اذا صدق هذا التفسير لعبارة « مذخور العتاد » .

وهكذا نستطيع أن نلخص المرحلة الاولى من حياته التى تستمر من تاريخ ميلاده المجهول، والذى حاولنا تحديده بصفة تقريبية نحو سنة 450 هـ، الى تاريخ رحلته الى الاشبونة سنة 477 هـ.

وما نعرف من هذه الفترة يخول لنا أن نتصوره طفلا يدرج فى بيت شريف، من أسرة تغلبية، لها مجد أثيل تتغنى به، ويعترف الناس لها بعلو المنزلة.

وربما أرسل مثل الآلاف من أقرانه الى الكتاب فحفظ القرآن أو حفظ ما تيسر منه، ثم بدأ اهتمامه فى وقت مبكر بالادب، مع العناية بالشريعة الاسلامية وأصولها الفقهية، فأخذ يتردد على المجالس العلمية، وينخرط فى سلك الادباء والمتأدبين من شبان مدن الغرب الاندلسى . وتأتى مناسبة زيارة أحد وزراء دولة بنى الافطس — هو الوزير الكاتب عبد المجيد بن عبدون — الى مدينة شنترين، فيبرز فيها ابن بسام الشاب الجرىء ذو النكتة الحاضرة، والثقافة الادبية الرصينة، والوعى العميق بكرم الانتساب ونبل المحتد، فيرد على الوزير رد الند للند، ويكون ذلك الرد مدعاة الى ضحك الوزير، لا الى غضبه. ويضحك جميع الحاضرين «لهذا الجواب الحاضر» .

ثم تبدأ المرحلة الثانية من حياته حيث نجده فى الاشبونة عاصمة

(1) ذ 1 / 1 — ص 8 .

الغرب الاندلسى، ويحدثنا أبو الحسن عن هذه الرحلة عرضا فى سياق أخبار الاديب أبى جعفر أحمد بن الدودين البلنسى، اذ يقول عنه: « هو أحد من لقيته، وشافهته، وأملى على نظمه ونثره بالاشبونة سنة سبع وسبعين، ومما أنشدنى فى الغزل قوله: ....» (1)

هذه اشارة تنبئنا بأن المؤلف قد كان فى مدينة الاشبونة سنة 477 هـ. واذا صحت افتراضاتنا السابقة فانه يكون قد بلغ فى هذا التاريخ نحو السابعة والعشرين من عمره. فما الذى كان يصنعه فى الاشبونة يا ترى.

نحن نستبعد طبعا أن يكون أمها لطلب الرزق، أو للاكتساب كما يقول، فقد أخبرنا هو نفسه بأن ما له من « مذخور العتاد » يغنيه « عن التقلب فى البلاد » .

وبوسعنا أن نقول مع الدكتور الطاهر مكى: « يغلب على الظن أنه رحل الى الاشبونة طلبا للعلم، وبحثا عن مجال أوسع للثقافة، فليس يمكن أن يتصور غير هذا القصد هدفا ... » (2).

ذلك أنه من المنطقى حقا أن لا يجد أبو الحسن ف مدينته الصغيرة شنترين ما يرضى تعطشه للعلم، ورغبته فى الاستزادة من المعلومات الادبية. فأحرى به أن يرتحل الى مدينة أكبر، فى عاصمة الجهة الغربية كلها، فمن شأنها أن توفر له ما لا تستطيع أن توفره له شنترين .

ولكننا نجد فى كتاب الذخيرة اشارة أخرى الى مقامه فى لشبونة تبعث فينا شيئا من الحيرة، وتنغص علينا ما كدنا نطمئن اليه من هذا التفسير .

ذلك أننا نرى أن ابن بسام يتحدث عن الاديب أبى العباس أحمد بن قاسم المحدث، ويورد له قطعة نثرية ومقطوعة من القصيدة التى قالها

---

(1) ذ — ق/3 — مخ غوته ص 393 .

(2) دراسة فى مصادر الادب ج 1 — ص 319 .

فى مدحه ثم يقول: « وأحسن من هذا التقسيم قول أبى بكر بن عبادة من جملة أبيات خاطبنى بها أيام مقامه عندنا فى الاشبونة، أولها:

« يامنيفا على السماكين سام * حزت فضل السباق عن بسام »

فالمؤلف كما نرى، يقول بصريح اللفظ « أيام مقامه عندنا فى الاشبونة » وهذه العبارة لا يمكن أن نفهم منها غير شىء واحد وهو أنه كان يسكن الاشبونة عندما قدم اليها أبو بكر بن عبادة، ولم تكن مجرد رحلة علمية أو زيارة قصيرة.

ثم يجب أن نلاحظ أنه يمدح فى المدينة من طرف شاعر آخر، ويسبغ عليه فيها نعوتا علمية جليلة. ونسرد الابيات فيما يلى قبل البحث عن وجوه الاستفادة منها:

يا منيفا على السماكين سام

حزت فضل السباق عن بسام

قد خبرت الورى فلم ألفهم الا (م)

ثقال الأفهام والاقهام

وتأملت منك نكتة بغدا

د، لباب العراق، معنى الشآم

شك ذهنى فى أن يرى بصرى مثلك حتى لخلتنى فى المنام

ان تحك مدحة فأنت زهير

أو نسيبا فعروة بن حزام

أو تباكر صيد المها فابن حجر

أو تبكى الديار فابن خذام

أو تذم الزمان وهو حقيق

فأبو الطيب البعيد المرام .

في أبيات غير هذه » (1)

مما لا خلاف فيه أن هذه المقطوعة تنطوى على مبالغة كبيرة ربما كان مرجعها الى أسلوب الشاعر الميال الى هذا النوع من الشعر، وربما اقتضت بعضها المجاملة الواجبة لرجل أكرمه وأنساه غربته. ولكن الذى يستوقفنا ويلفت انتباهنا فى هذا الخبر مسألتان اثنتان:

الاولى: قـوله « أيـام مقامه عندنا فى الاشبونة » يجعلنا أمام افتراضين اما أن يكون المؤلف قد سكن هذه المدينة لمدة طويلة، واما أنه كان يتردد عليها لأنه ذكر لقاءه فيها لأبى جعفر بن الدودين سنة 477 كما أسلفنا، وليس بين أيدينا ما يدل على أن اقامة أبى بكـر بن عبادة « عندهم » فى لشبونة كانت فى هذا التاريخ أو قبله أو بعده.

ونحن فى الحالتين نرجح ـــ ونحن على علم بثروة أهل ابن بسام ـــ أن يكون لأهله أكثر من منزل: واحد ـــ أو أكثر ـــ فى شنترين، وواحد آخر فى لشبونة ، وأن أبا الحسن كان يتنقل بين المدينتين . وليس ما يمنع أن يكون ذلك التنقل لطلب العلم أو الاستزادة منه ، وان كان لنا رأى آخر سنفصل القول فيه عندما نصل اليه، وهو يتعلق بجمع مادة كتاب الذخيرة.

والثانية : هى تلك الأوصاف التى أطلقها الشاعر ابن عبادة على ابن بسام، والتى شبهه فيها بفحول الاقدمين من شعراء الجاهلية والعصر العباسى.

فاذا طرحنا المبالغات، وواجب المجاملات، فانه لابد أن يبقى لدينا شىء ولو قليل من الحقيقة. فليس من المعقول أن يمدح القط بصفات الاسد، ولا أن يثنى على القزم بصفات العمالقة، وحتى لو وقع ذلك فى الشباب، وفى سياق المازحة بين شاعرين، فاننا لا نظن أن ابن بسام

---

(1) المصدر السابق .

كان يستجيز أن يثبته فى هذا الكتاب الذى هو رأسماله الوحيد، وعنوان مجده التليد، والذى ضن به على كثير من الشعر بل ضن بـه حتى على الموشحات على الرغم من اطرائه لها .

والذى نراه أقرب الى الصواب أن ابن بسام كان فى هذه السن مولعا بالشعر ـــ وان تنصل منه بعد ذلك ـــ وأنه كان يقلد كبار الشعراء، وقد بدت عليه فى تلك الفترة المبكرة من عمره علامات الميل الـــى تقصى الاخبار الادبية حتى اشتهر بها فى المجالس. والـــى ذلك يشير الشاعر بقوله:

« وتأملت منك نكتة بغداد الخ.. »

ومهما يكن من أمر ذلك كله، فان الذى يهمنا الآن ونحن نحاول اقامة العلامات الكبيرة على جانب درب حياته المظلم هو أن أقـــرب تاريخ نعرفه معرفة يقينية قبل خروجه من شنترين هو سنة 477 هـ، وأنه كان فى هذا التاريخ فى مدينة لشبونة لسبب من الاسباب التـــى فصلنا فيها القـــول.

2 ـــ حياتـــه مـــن سقـــوط شنترين الـــى التحـــاقه بقرطبة

(من 485 هـ. الى 494 هـ)

فى هذا التاريخ 485 هـ خرجت مدينة شنترين من أيدى المسلمين (1) وفيه بدأت تنتهى دولة بنى الأفطس فى الغرب، تلك التى طويت صفحتها

---

(1) نقل الاستاذ الطاهر احمد مكى ص 311 رواية مختلفة عن الرواية التى ساقها ليفى بروفنصال فى دائرة المعارف الاسلامية . فهذا يجعل سقوط (سنترين) عام 485 ، ويرى أنه فى عهد الملك الفونسو الخامس، أما الاول فيعتمد على كتاب صادر بالاسبانية فى مكسيكو، ويجعل السقوط يتم عام 486، وفى عهد الملك الفونسو الســادس . وقد تبين لنا أن الملك هو الفونسو السادس، وذلك اعتمادا على ما كتبه يوسـف اشباخ فى تاريخه.

الى الأبد بوفاة آخر أمرائها الذى هو المتوكل بن المظفر سنة487 هـ والذى يسترعى الاهتمام حقاء أننا نجد ابن بسام، سنة 486 ، ببطليوس عاصمة الامارة الأفطسية • فهو الذى يحدثنا بذلك قائلا : « ومن الحســن فى تشبيه الخيل بالبحر، قول بعض أهل العصر، وهو الاديب أبو بكر بن العطار اليابسى مــن شــعر أنشدنيه لنفســه ببطليوس ســنة ست وثمانين ••• » (1)

والواقع أننا هنا أمام أمر يدعو الى التساؤل: فما الذى كان يفعله المؤلف فى بطليوس بعد نحو السنة من وقوع مدينة « شنترين » فى يد النصارى، اذا صح أن تاريخ سقوطها هو 485 ؟ أكان يأمل أن يستعيدها منهم بنو الأفطس فأقام فى عاصمة الملكة فى انتظار ذلك ؟ أم أن اقامته بها كانت مجرد مرحلة من مراحل نزوحه ؟

والذى يزيدنا حيرة أننا لا نجد شيئا ينبئنا بأن ابن بسام كان يحيا فى بطليوس حياة المشردين الذين أودى غزو النصارى لبلادهم بكيل ما كان بأيديهم، فهم يعانون حرج الظروف وضيق المعيشة، بل اننا نراه على العكس من ذلك مطمئن البال، يتصل بالشعراء، فينشدونه شعرهم، فعل الخالى من كل هم•••

وقد يكون من المعقول أن يفر المؤلف الى عاصمة الامارة، ولكنه من المعقول أيضا أن لا يغامر بالذهاب الى عاصمة تنبىء كل الدلائل من حولها بأن مصيرها لن يكون خيرا من مصير شنترين، فمن عــادة العدو فى كل وقت أن يشتد على سكان العاصمة ــ لاغراض سياسية واضحة ــ أكثر من اشتداده على أية بقعة أخرى فى الدولة التــى تسقط تحت ضربات جيوشه •

(1) ـــ ذ ـــ ق2/ ، ص295، مخ القاهرة.

فاذا صح ما ترويه بعض المصادر الاجنبية من أن المتوكل الافطسى قد تنازل عن مدينة شنترين ــ بــدون حرب ــ الــى الملك ألفونسو السادس، (1) وان كان ابن بسام لا يتعرض لذلك، ولا يذكر شيئا عن الظروف التى خرجت فيها المدينة من أيدى المسلمين، اذا صح ما ترويه المصادر، فانه من المستبعد أن تطيب نفس أبى الحسن للاقامة فى عاصمة دولة خائنة، تبرعت للأعداء بالمدينة التى كان يعيش فيها قرير العين ، مرتاح الضمير•••

والذى يخطر على البال فعلا هو أن نمضى مع هذه الرواية نفسها فنجعل تاريخ سقوط مدينة شنترين عام 486، وحينئذ نرجح أن تكون زيارة المؤلف لبطليوس قو وقعت قبيل ذلك بفترة يسيرة• وبذلك ندرج هذه الاقامة بعاصمة المملكة ضمن المرحلة الاولى من حياة ابن بسام •

ونستطيع أن نستنتج من ذلك ــ اذا صح الترجيح ــ مظهرا آخر من مظاهر نشاط ابن بسام، وكثرة تنقله بين مدن الغرب، ومتانة صلاته بأدباء تلك المنطقة ومن كان يرد عليها منهم للاتصال بأمرائها ووزرائها ورجال دولتها • وسنقيم علاقة بين هذه الرحلة وبين تأليف كتاب «الذخيرة» اعتمادا على هذه الرواية •

أما المرحلة الثانية فى حياته فتبدأ بدخول الاسبان مدينة شنترين، وفرار سكانها ــ أو من يستطيع منهم الفرار ــ خشية تنكيل النصارى بــهم •

وكان ابن بسام واحدا من الفارين •

ولنترك المؤلف يصف لنا بنفسه حاله فى تلك الايام السوداء من تاريخه، لا بل من تاريخ الاندلس كلها :

(1) نقصد المصدر الذى نقل عنه الاستاذ الطاهر مكى، والذى لم نتمكن من الاطلاع عليه وهو :
" Ramos Oliveira Antonio : Historia de Espana; Vol. 1, P. 458, México".

« وعلم الله تعالى أن هذا الكتاب لم يصدر الا عن صدر مكلوم الاحناء، وفكر خامد الذكاء، بين دهر متلون تلون الحرباء لانتباذى كان من شنترين قاصية الغرب، مفلول الغرب، مروع السرب، بعد أن استنفد الطريف والتلاد، وأتى على الظاهر والباطن النفاد، بتواتر طوائف الروم علينا فى عقر ذلك الاقليم، وقد كنا غنينا هنالك بكرم الانتساب، عن سوء الاكتساب، واجتزأنا بمذخور العتاد، من التقلب فى البلاد، الى أن نثر علينا الروم ذلك النظام ولو ترك القطا ليلا لنام، وحين اشتد الهول هنالك، اقتحمت بمن معى المسالك، على مهامه تكذب فيها العين الأذن، وتستشعر فيها المحن :

مهامه . لم تصحب بها الذئب نفسه
ولا حملت فيها الغراب قوادمه » . (1)

ولكى ندرك كل معانى الالم عند ابن بسام، يجب أن نتذكر أنه كتب هذه العبارات بعد سقوط شنترين بنحو سبع عشرة سنة، اذ لابد أن يكون قد كتب المقدمة، وهى التى ورد فيها هذا الوصف لحاله، بعد فراغه من تأليف كتاب الذخيرة سنة 503 هـ، فى حين أن سقوط المدينة قد وقع سنة 485 هـ (2)

فعلى الرغم من مرور هذه السنوات كلها، نجده يتذكر ذلك الحدث الاليم ويذكره بهذه الحرارة، وهذه المرارة، وهذا الأسى الشديد، حتى لكأنه جرى بالأمس . والواقع أننا لا نظن أن ابن بسام قد نسى هذا المصاب الجلل، أو تعزى عنه، فهو كامن فى نفسه، نائم بين ضلوعه، قد يغفو فترة من الزمن تطول أو تقصر حسب ظروف ابن بسام، ولكنه يستيقظ فى الحين بعد الحين، فتتكدر نفسية أبى الحسن، وتسوء أحواله . ولو أنه كان لينسى ذلك الحدث الذى أحدث فى حياته انقلابا عميقا، وغير

(1) ذ — 1/1 ص 8 .
(2) او سنة 486، على رواية اخرى، كما اسلفنا .

مجراها تغييرا جذريا، لكانت هذه السنوات الطوال كلها جديرة بمحو آثاره .

ومن المؤسف حقا أن لا نجد فى الكتب شيئا عن حياة المؤلف بعد استرجاع الجيش المرابطى لمدينة شنترين . ولو أنه أتيح لنا شىء من ذلك لاستطعنا أن نقدر مبلغ حب ابن بسام لبلاده، وتعلقه بها .

ومهما يكن من أمر فان مصيبة الرجل قد كانت متعددة الجوانب : فهو، من جهة، يغادر بلاده التى ترعرع فيها ونما اثر محنتها القاسية، وهو يغارها فارا بمن معه من ناحية ثانية، ثم هو يخرج منها تاركا فيها كل ما ملكت يده من ناحية ثالثة، فاذا به فى لحظة، فقير بعد الغنى، ذليل بعد العز، يضرب فى الاقطار بحثا عن مستقر له، وطلبا لعيش كريم يضمن به القوت لنفسه وذويه . انه وضع لا يطاق . وهو فى كل ذلك لا عدة له ولا عتاد سوى ما حصله من العلم بالأدب وفنونه، ولكن ما فائدة هذا الادب فى دنيا ابن بسام و « الادب بها أقل من الوفاء » وماذا سيصنع بعلم « حامله أضيع من قمر الشتاء » .

لقد ضاقت الدنيا به، وضاق هو بها، وبمن فيها . فأين الاصدقاء وأين ما يقال عن الوفاء ؟ لم يبق له شىء لا مال ولا أصدقاء . يا له من اكتشاف مروع يفتح ابن بسام عليه عينيه، وكأنه جاء من عالم آخر : المال هو القيمة الحقيقية الوحيدة فى هذه الحياة . والمصيبة أنه يصل الى هذه الحقيقة فى الوقت الذى هو فيه أشد ما يكون حاجة الى الدرهم والدينار الذين خرج صفر اليدين منهما .

وهكذا تتراكم الهموم على هذا الانسان المبتلى، ويصاب بالصدمة الاليمة حين لا يجد واحدا من أولئك الاصدقاء الذين كانوا يجتمعون اليه، ويسمعون منه، ويتحدثون معه . ولقد حاسب نفسه فسألها عما تحسن فلم يجد لها من ذلك الا صناعة بائرة، وتجارة كاسدة، كلتاهما لا تسمن ولا تغنى من جوع . أما الشعار السائد حوله فهو : « حسب المرء

أن يسلم وفره، وان ثلم قدره، وأن تكثر فضته وذهبه، وان قـل دينه وحسبه » (1)

هكذا كانت حال ابن بسام بعد فراره من مدينته الجريحة، وهكذا كان ألمه العميق، وسخطه الشديد على الحياة والناس، ورأيه فى الناس الصادر عن عواطف رجل مصدوم، ومشاعر انسان ضـاقت به السبل وعبست له الدنيا بعد طول الابتسام، ليس من الآراء الموضوعية وانما هو زفرة تنطلق من كل صدر مهموم، وهى قديمة طالما وجدناها على شفاه كل الذين قلبت لهم الدنيا ظهر المجن، وتكالبت عليهم سهام الرزايا . ان الناس بالامس هم الناس اليوم، والدنيا هى هى، ومقدار ما فيها من الوفاء لم يتغير خلال سنوات قليلة ، وقيمة العلم والأدب لم تنقص عما كانت عليه قبل سقوط شنترين ولم تزد، وانما هى أحوال ابـن بسام تغيرت، وظروف حياته انتقلت به من اليسر الى العسر، فتغيرت صورة الحياة فى ناظره، فكان من ذلك سخطه على الناس، وضيقه بدنياه، ويأسه من جانب الخير فيهم ...

خرج اذن من بلاده على الحال التى وصفها لنا، لا ندرى بالتحقيق الى أية جهة كان اتجاهه الأول . فهو يقول لنا بعد الفقرة التى أوردناها له فى وصف ذلك الخروج « حتى خلصت خلوص الزبرقان من سراره ، وفزت فوز القدح عند قماره، فوصلت حمص بنفس قد تقطعت شعاعا، وذهب أكثرها التياعا ...» (2) فالذى قد يفهم من هذا الكلام أنه ذهب مباشرة الى حمص أى الى اشبيليا حيث نجده مستقرا بعد ذلك، وحيث عكف على تبييض كتاب الذخيرة واعداده فى الصورة التى يخرجه بـها للنـاس.

(1) ذ — 1/1 — ص: 9 .
(2) ذ — 1/1 ص 8 .

ولكنه يذكر فى مكان آخر من كتابه أنه حل بمدينة قرطبة أول مرة سنة 494 هـ (1)

ويجزم الدكتور الطاهر أحمد مكى بأن ابن بسام: « ظل ينتقل فى البلاد التى بقيت فى قبضة المسلمين بغربى الاندلس طوال أعوام ثمانية حتى استقر به المقام فى قرطبة لاول مرة عام 494 هـ ... وتحولت قرطبة الى مدينة تعسة الحظ .... فتحول عنها الى اشبيلية » (2)

ونحن لم نجد فى كتاب الذخيرة ما يخول لنا الجزم بأن أبا الحسن لم يتجه رأسا الى اشبيلية ثم ارتحل الى قرطبة لاقامة قصيرة عاد بعدها الى اشبيلية، أما أن يكون ابن بسام قصد أول مرة قرطبة ثم وجد أن حالها تغيرت فأصبحت مدينة تعسة الحظ، اذ لم تعد قاعدة للملك، فما نظن أن المؤلف كان يجهل شيئا من أحوالها وما آلت اليه .

ثم لماذا اختص مدينة اشبيلية — حمص كما يحب أن يسميها — فى معرض الوصف للحال التى خرج عليها من بلاده ؟ أفما كان يستطيع أن يذكر اقامته بقرطبة أو بمدن الغرب الاندلسى قبل وصوله اليها ؟

ونحن لا نرجح رأيا دون آخـر لاننا لا نملـك الاسباب الكافية للترجيح، وانما حسبنا فى هذه المرحلة من البحث فى حياة ابن بسام أن نجمع من كتابه أقصى ما يمكن من الاشارات المفيدة.

وفى موضوع اقامته باشبيلية، لابد أن نتـوقف عند هذا الكلام الصادر عن المؤلف: « فتغربت بها سنوات أتبوأ منها ظل الغمامة، وأعيا بالتحول عنها عى الحمامة، ولا أنـس الا الانفراد، ولا تبلغ الا بفضلة الزاد، والأدب بها أقل من الوفاء ...»

نحن نرى أن هذه الاوصاف كلها أقرب الى حالة المؤلف اثر الخروج

(1) ذ — ق/2 — ص 332 مخ القاهرة .
(2) مصادر الدراسة الادبية — ط . مكى ج/1 ص 319 .

من شنترين مباشرة، فهو منفرد لا أنيس له، وهو يتبلغ بفضلة الزاد، وهو
يشكو قلة الوفاء من أصدقاء الماضي...

ولنقف أيضا لحظة عند جماعة من الادباء حل بهم ما حل بابن بسام،
ولعلهم من مدن الغرب الواقعة فى يد الاسبان، أو لعلهم من اشبيليا نفسها
وكانوا مقربين من مملكة بنى عبـاد فلما زالت، زال نعيمهم، وتجرعوا
كؤوس المرارة والخمول، انه يصفهم فى مقدمة « الذخيرة » قائلا : « من
كل أشعث ذى طمرين، ومشنوء الاثر والعين، محروم محسود، محلا عن
طريق الماء مطرود، قد جعلوا بيوتهم قبورا، واتخذوا بنـات أفكارهم
ولدانا وحورا، وركبوا الحدثان صعبا وذلولا، وعاهدوا الحرمان ليبلنه
صبرا جميلا، فمنهم من قضى نحبه،ومنهم من ينتظر،وما بدلوا تبديلا» .(1)

ويستمر ابن بسام فى هذا الوصف المؤثر حقا لما كابدته جماعة من
الادباء المحرومين بعد أن كانوا نجوما ساطعة فى سماء الاندلس، وهو من
خلال ذلك يصف أحواله بالذات، قال: « ويا رحمتا لبحور أدب، وصدور
رتب كان نظمنى واياهم ود قديم، ولف هواى بهواهم عهد كريم ، لا
منسى ولا مذموم، قد طـال ما عاطيتهم أكـؤس الخمول ، على البكاء
والعويل فى أيام أوحش من توديع الشباب، وليـال أنكد مـن مناقشة
الحساب، ألا يكونوا قد أخذوا على القضاء عهدا مسؤولا، ومتعوا بالبقاء
ولو قليلا ...» (2)

---

(1) و (2) ذ — 1/1 — ص9 و 10 .

بل ما لنا نقول « جماعة من الادباء » وأبو الحسن يصرح أن فيهم
طائفة من « صدور الرتب » أو من ذوى الرتب السياسية دون شـك،
ولعلنا لاحظنا الاشارة الى أنهم قد « اتخذوا بيوتهم قبورا » فاذا جمعنا
بين هذه العبارة وما يشكوه ابن بسام من الانفراد وقلة الأنس، جاز لنا
ــ مع الاحتياط ــ أن نزعم أنه ربما كان مختفيا فى اشبيلية، كما اختفت
جماعة الادب والرتب، خوفا من البطش والتنكيل .

وعلى أية حال فانه من المستبعد جدا أن تنطبق هذه الاوصاف على
ابن بسام اذا ذهبنا الى أنه أقام فى قرطبة مدة ثم تحول الى اشبيليا ،
وفيها بدأ تأليف كتاب الذخيرة، ذلك انه عندما بدأ فى تأليف كتاب الذخيرة
أو على الاصح فى ترتيبه وتبييضه كما يقول، كانت أحواله قد تحسنت
كثيرا، فأصبح ينعم بشىء من راحة البال، وطار صيته، فسعى اليه الادباء
ومنهم من يتبوأ مكانة مرموقة فى وظائف دولـة المرابطين، يبغون عنده
صفحة من الخلود .

وليس المهم أن يكون ابن بسام قد ذهب أولا الى قرطبة ثم تحول
الى اشبيلية، أو أن يكون حل أولا باشبيلية وسافر الى قرطبة لغرض
من الاغراض ثم عاد الى مكان اقامته، وانما الذى جعلنا نطيل الوقوف
عند هذه القضية هو أننا استطعنا أن نجمع عددا من الاشارات الى حياته
فى اشبيلية، نريد الآن أن نتناولها بالتفصيل، وهى جوانب جديدة كل
الجدة فى حياته، لعلها تكشف لاول مرة، فاذا صحت فانها كفيلة بتغيير
ما نعرفه عن ابن بسام تغييرا جذريا عميقا، وقبل ذلك، نستعرض ما
نعرفه من حياته فى قرطبة .

3 — حياة ابن بسام فى قرطبة

كان ابن بسام فى تاريخ 494 هـ بمدينة قرطبة. وقد ذكر لنا ذلك فى كتابه بصريح العبارة حين قال: « كنت بحضرة قرطبة أول سفرى اليها سنة أربع وتسعين، فدخل عندى هلال بن الاديب ...» (1)

ونحن لا نعلم كم دامت هذه الاقامة، وهل كانت اقامة مستمرة أم أن المؤلف كان يتردد على مدينة قرطبة يقيم فيها مدة ثم يرجع الى مدينة اشبيليا، أم أنه انقطع عنها، ولعله لم يقم فيها اقامة مستمرة أبدا .

وعلى كل حال فاننا نجده يذكرها مرة أخرى فى مكان آخر من كتابه قائلا: « ولما ابتدأت بتحرير هذا الكتاب وأنا يوما بقرطبة ...» (2) فهذه اشارة هامة الى بدء تأليف « الذخيرة » فى قرطبة، مما سنتعرض له عندما نصل الى دراسة الكتاب، ولكن المؤلف لا يقول لنا ان كان هذا الخبر الذى يرويه قد وقع له فى الزيارة الاولى التى أرخ لها بسنة 494 هـ أم أنه وقع له فى زيارة أخرى غير الاولى .

ويبدو أنه استطاع أن يرتبط فى مدينة قرطبة بروابط الصداقة مع رجال العلم والادب فيها، وأصبح له شأن فى مجالس أعيانها. وهذا ما يقوله فى معرض الكلام عن الاديب القرطبى أبى العباس أحمد بن قاسم المحدث. فقد أورد له قطعة نثرية يمدحه فيها منها : « يا سيدى، وعمادى طال بقاؤك، ودام علاؤك، تكلفت من العناية بتنويهى ما دل على محتدك الكريم، ونصابك السليم، وعلى انتمائك من المجد الى دوحة ساقها قويم، وطلعها هضيم ...» (3)

(1) ذ — ق/2 — ص 332 مخ القاهرة.
(2) ذ — ق/ 3 — ص 361 مخ غوته.
(3) ذ — 2/1 — ص 392 .

ثم يضيف ابن بسام بعد ذلك: « وكتب الى أيضا فى مثله، وقد بلغه ثنائى عليه بمجلس الأعيان بقرطبة .

يا دوحة المجد الكريم   وسلالة الشرف الصميم
والغرة الغراء فى   وجه النثير وفى النظيم
قد كان نام زماننا   عن كشف آثار العلوم
حتى اتيت منبها   جفنيه تنبيه النسيم
فرددته يقظان يمـ   ـحو المحو عن تلك الرسوم
ان الصباح اذا انجلى   جلى المنام عن النؤوم.

من الواجب كان — أعزك الله — على، وعلى من ينتسب الى أدب، ويتعلق منه بأدنى سبب، أن يمتطى اليك ظهور العيس المهرية .... حيثما استقر مكانك .... فكيف اذا جلاك مصباح بلادنا بضيائه، وستر ليل عارضنا بظلمائه..... الخ » (1)

فهو هنا يحضر مجالس الاعيان فى قرطبة، ويجرى الحديث فيها عن الادب، فيثنى على واحد من الادباء القرطبيين، ويشكره ذلك الاديب ويمدحه بالشعر والنثر ، ونحن نستنتج من كلام أبى العباس ابن المحدث أن الناس قد عرفوا أمر كتاب الذخيرة، وقدروا قيمته قبل صدوره .

هذا ما نعرفه من حياته فى قرطبة، فكيف كانت حياته يا ترى بمدينة اشبيلية ؟

4 — حياة ابن بسام فى اشبيلية
قبل سقوط مدينة « شنترين » وبعده .

اذا كانت اقامة ابن بسام فى اشبيلية بعد سقوط مدينة شنترين معروفة لدى كل من كتب عن ابن بسام قديما وحديثا، الى درجة أن ابن سعيد قد ظنه منها، كما قال فى كتابه رايات المبرزين، فان الذى لم نجد أحدا ذكره أو أشار اليه، لا من القدماء، ولا من المحدثين، العرب

(1) ذ — 2/1 — ص 391 .

والمستشرقين، هو اقامته فيها قبل سقوط مدينة شنترين، بل وقبل خلع آخر ملوك بنى عباد .

ونحن نورد فى البداية، هذه العبارة التى جاءت على لسان ابن بسام فى القسم الثانى من كتاب الذخيرة، حيث يقول فى سياق الخبر عن قتل المعتمد بن عباد لوزيره ابن عمار . قال المؤلف: « ويتعلق بهذا القتل الشنيع، خبر غريب المسموع فى ذلك الأوان، وحديث طريف من الحدثان، أخبرت به عن غير واحد من وزراء المعتمد، وذلك أنه لما مضت لقتل ابن عمار أيام ...... » (1)

لقد كان اذن على اتصال بوزراء المعتمد، يعرفهم، ويتحدث معهم، ويروى له غير واحد منهم أخبار القصر وعجائبه .

ونحن نجد اشارة أخرى مماثلة لهذه فى الفصل الذى عقده ابن بسام لابن زيدون حيث يقول: « حدثنى غير واحد من وزراء اشبيلية قال ...» (2) وهناك اشارات كثيرة من هذا القبيل، كما فى ترجمة ابن زيدون نفسها، حيث نجد المؤلف يقول: « أخبرنى من لا أدفع خبره من وزراء اشبيلية قال ...» (3)

أين كان ابن بسام يجد وزراء اشبيلية اذا لم يكن سافر اليها قبل الاعوام الثمانية التى يرى الدكتور مكى أنه قضاها فى التجول بمنطقة الغرب الاندلسى، وقبل أن يمضى مدة أخرى فى قرطبة ؟ فمن المستبعد أن يكون هؤلاء الوزراء قد ظلوا موجودين فى اشبيلية بعد أن تحولت أحوالها مع خلع المعتمد وسجنه، وأن يبقوا فيها الى نهاية القرن الخامس، حتى جاءها ابن بسام بعد محنة شنترين وتطوافه فى المناطق القريبة منها .

(1) ذ — ق/2 — ص 273. مخ القاهرة .
(2) ذ — 1/1 — ص 290 .
(3) ذ — 1/1 — ص 292 .

وماذا لو تصورنا ابن بسام قد زار مدينة اشبيليا أيام المعتمد ابن عباد، بل، وماذا لو تصورناه ذا علاقة ما به هو بالذات ؟

هذان سؤالان لا نطلقهما مجازفة، ولكنهما ألحا على خاطرنا ونحن نقلب أقوال ابن بسام فى الفقرات التالية:

فى القسم الثانى من كتاب الذخيرة يروى لنا ابن بسام هذه الحكاية . قال: « وكنت يوما بدار أبى بكر الخولانى المنجم . فاتفق أن دخل علينا عبد الجليل (يقصد ابن وهبون) وفى كمه صلة المعتمد من ضرب السكة لديه، قيمتها ثلاثة آلاف درهم، فرفع اليه اثر ذلك قصيدته التى أولها:

ما الشعر مرتجل أو غير مرتجل
يبالغ كنهه ذاك السؤدد الجلل .. » (1)

هذا حديث لا غموض فيه ، ولا يحتاج من أحد الى تكلف أدنى قدر من التأويل فالمعتمد بن عباد باشبيلية ، قاعدة ملكه ، فى أيسر أحواله، يسمع للشعراء ويصلهم بمثل هذا المبلغ من ضرب السكة لديه . وعبد الجليل ابن وهبون يحمل الصلة فى كمه ويتجه بها رأسا الى دار أبى بكر الخولانى المنجم ، حيث يجد ابن بسام معه .

ومن المؤسف أن لا يشير هنا ابن بسام الى تاريخ هذه القصة . ولكننا نفهم بصفة قاطعة انها ليست بعد سنة 484 هـ وهى السنة التى تم فيها خلع المعتمد بن عباد واستيلاء المرابطين على اشبيلية .

وأبو بكر الخولانى المنجم الذى يتردد ابن بسام على بيته حتى ما يكاد يفارقه ، رجل ذو خطر كبير ، أقل ذلك أنه مقرب من المعتمد بن عباد ، نجده الى جنبه فى يوم هو أشد أيام المعتمد على الاطلاق ، يوم أن اجتاحت جيوش المرابطين مدينة اشبيلية . ففى مثل هذا اليوم نرى المعتمد يشكو الى أبى بكر الخولانى المنجم محنته ، ويبثه نجواه .

(1) ذ — ق/2 — ص 326 .

قال ابن بسام في ذلك : « ... وفي أثناء تلك الحال ، وما كان يناجي باله من البلبال ، خاطب أبا بكر الخولاني المنجم بهذه الأبيات :

أرصدت أم بنجومك السرمد
تعداد ضدا لكل ما تعد

هل في حسابك ما تؤمده
أم قد تصرم عندك الأمد

قد كنت تهمس اذ تخاطبني
وتخط كرها ان عصتك يد

فالآن لا عين ولا أثر
أتراك غيب شخصك البلد

وتراك بالعذراء في عرس
أم اذ كذبت سطا بك الأسد

الملك لا يبقى على أحد
والموت لا يبقى له أحد . » (1)

وقبل أن يسوق ابن بسام هذه القطعة الشعرية التي خاطب بها المعتمد أبا بكر المنجم ، والتي وجدناه يعاتبه فيها على تغيبه عنه في وقت محنته ، ويلومه على قصور علمه ، وهو المنجم العليم — فيما يزعم الناس — بأسرار الغيب ، قبل ذلك ، يصف ابن بسام آخر يوم للمعتمد في اشبيليا . وهو وصف لا ينقله عن أحد من المؤرخين ، ولا يسنده الى واحد من الناس كعادته عندما يقول أخبرني فلان ، أو سمعت فلانا الخ ... وانما يكتب من عنده مما يسمح لنا باستنتاج آخر وهو أنه شهد ذلك اليوم ، وعاشه بكل جوارحه ، فوصفه هذا الوصف الدقيق المؤثر ، حين قال :

« ثم التوت بالمعتمد الحال أياما يسيرة ، والناس بحضرة أشبيلية قد استولى عليهم الفزع ، وخامرهم الجزع ، يقطعون سبلها سباحة

(1) ذ — 1/2 — ص 45 وما بعدها .

ويخوضون نهرها سباحة ، ويترامون من شرفات الأسوار ، ويتولجون مجالي (1) الأقذار ، حرصا على الحياة ، وحذرا من حضور الوفاة ، فلما كان يوم الأحد الموفي عشرين من رجب المؤرخ (484 هـ) ، دخل البلد على المعتمد بعد أن جد الفريقان في القتال واجتهدت الفئتان في النزال ، وفي أثناء تلك الحال ، وما كان يناجي باله من البلبال ... ثم أخرج المعتمد ذلك اليوم ، الى أن أطلق اليه جميع أمهات أولاده وبنيه ، وكل من يختص به من أقاربه وذويه ، وعمر بهم مركب ، فركبوا البحر ، ورزقوا السلامة فيه ، الى أن وصلوا الى أمير المسلمين ، وناصر الدين أبي يعقوب يوسف ابن تاشفين رحمه الله ، فبقوا هنالك في كنفه ... ووافاه حمامه بعد مرض شديد أصابه ، وكانت وفاته في ربيع الأول سنة ثمان وثمانين ، وكان مولده في ربيع الأول سنة احدى وثلاثين » . (2)

هذه القطعة من كتاب الذخيرة ، من انشاء أبي الحسن بن بسام ، أثبتناها على طولها لأننا نجد فيها شاهدا آخر على أنه كان في اشبيلية عندما سقطت في أيدي المرابطين . ولعله رجع بعد ذلك الى مدينة شنترين خشية أن يلحقه أذى الفاتحين الجدد ، فلما سقطت في أيدي النصارى عاد اليها وبقي فيها متسترا ، متخذا من بيته قبرا كما قال عن جماعته من الأدباء الآخرين ، حتى استقرت الأمور ، وعادت اليه الطمأنينة .

ولقد أوردنا أبيات المعتمد التي خاطب بها أبا بكر الخولاني المنجم لندل على أن هذا الرجل الذي هو صديق حميم لابن بسام كان مقربا من المعتمد بن عباد .

ونجد دليلا آخر على هذه القرابة في مكان آخر من الذخيرة حيث يورد المؤلف رسالة لأبي عبد الله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز

(1) هكذا في المطبوع ، ولعلها « مجاري »

(2) ذ — 1/2 ص 45 و 46 .

يخاطب فيها أبا بكر الخولانى المنجم ، ويطلب منه أن يبلغ قصيدة الــى المعتمد بن عبــاد •

قال ابن القزاز فى رسالته : « ••• ولما بلغنا ما سناه الله من التأييد والتمكين ، والظهور على المشركين ، بسعد المعتمد على الله ، نظمت بعض ما سمعته من ذلك الخبر السار ، ووصفت ما حاز فيه من الفخار ، ولــم تطب نفسى — فاديتك — على الارسال بما قلت الا اليك ، لعلمى بجــدك فيما يعول فيه عليك ، وأشرت الى ما تراه ، وتقف عليه ان شاء اللــه ، فلك الفضل فى توصيل ذلك اليه ، وتقبيل الكريمتين عنى يديه ••• (1) »•

فهاتان الاشارتان كافيتان — فيما نرى — للدلالة على مدى علاقــة أبى بكر المنجم بالمعتمد بن عباد •

أما صلة ابن بسام بأبى بكر المنجم فهى صلة قوية جدا بحيث أنه كثير التردد على داره ، ولقد أثبتنا دليلا على ذلك ، وفيما يلى دليل آخر• قال فى القسم الرابع من كتابه : « وكنت يوما بدار أبى بكر الخولانــى المنجم باشبيلية مع لمة من الأدباء ، فأفضى بنا الحديث الى ما للشعر من ملح التضمين فى المديح والهجاء •••» (2)

فلقد كان دائم التردد على دار أبى بكر المنجم التى كانت تعقــد فيها المجالس الأدبية •

والذى نريد أن نصل اليه هو : اذا كان ابن بسام صديقا لأبى بكر المنجم ، وكان أبو بكر هذا من الصلة بالمعتمد بن عباد ، والقرابة منه ، بحيث يتوسل اليه أديب مثل ابن القزاز ليبلغه القصيدة التى نظمهــا فى مدحه ، أفما كانت لابن بسام علاقة بالمعتمد ؟

---

(1) ذ — 1/2 — ص 300 •
(2) ذ — ق/3 — ص 134 • مخ الرباط.

سؤال فيه كثير من المغامرة ، ولكن لا بد من طرحه • ولعله كــان يجدر بنا قبل طرحه أن نتساءل أولا هل أتيح لابن بسام أن يلقى المعتمد، ما دامت اقامته فى اشبيلية أيام دولته بالذات مؤكدة لدينا ، تشهد عليها النصوص الكثيرة التى أوردناها قبل حين •

والجواب القاطع : نعم لقد حضر ابن بسام واحدا — على الأقل — من مجالس المعتمد فى اشبيلية • ودليل ذلك نجده فى الذخيرة أيضا حــين يقول فى سياق ترجمة الأديب أبى الحسن البغدادى المعروف بالفكيك •

قال ابن بسام : « وكان الفكيك قصيرا دميما • ورأيته يوما قد لبس طاقا أحمر على بياض ، وفى رأسه طرطور أخضر ، وقد عم عليــه عمية لازوردية ، وهو ينشد بين يدى المعتمد شعرا قال فيه :

وانــــت سليمـــــان فى ملكــــه
وبــين يـــديــك انــــا الهــدهــد

فأضحك من حضر » (1) •

ثم يقول ابن بسام بعد الكلام السابق مباشرة : « وسمعته أيضــا ينشد فى جملة قصيد فى المعتمد :

ابــا القـــاسم الملك المعظم قـــدره
سواك من الأملاك ليس يعظــم » (2)

ويبدو أنها مرة أخرى حضر فيها ابن بسام مجلسا للمعتمد وسمع الفكيك « أيضا » ينشد قصيدة فى مدحه •

وعلى كل حال فان الذى لا شك فيه أنه حضر مجلس المعتمد وسمع الشعراء ينشدون فيه أشعارهم •

---

(1) ذ — ق/4 — ص 134 • مخ الرباط.
(2) نفســه •

أفيصح لنا أن نربط ما عندنا من المعلومات بعضها ببعض فنزعم أن أبا بكر الخولاني المنجم هو الصديق المشترك بين ابن بسام والمعتمد ابن عباد ، وأن مؤلف الذخيرة كان يقيم في اشبيلية مدة قبل سقوطها ، أو فتحها — كما يقول — من قبل المرابطين ، وأنه ربما كان في تلك الآونة متصلا بالمعتمد وأن هذا الأخير كان يعده لمهمة سياسية ثم عاجلتهما سرعة الحوادث ، وفرقتهما نوائب الحدثان .

لا نستطيع هنا أن نجزم بالصواب لان ابن بسام لا يفوه بشيء من ذلك ، ونراه مبالغا في التقية ، فهو لا يكاد يذكر واحدا من أمراء المرابطين الا مشفوعا بالثناء والمدح . فاذا ذكر ابن تاشفين ، فهو « أمير المسلمين وناصر الدين » ثم يتبع ذلك بعبارة رحمه الله ، واذا ذكر الأمير سيرا واستيلاءه على اشبيلية ، فانه لا ينسى أن يقول : « ولم يزل الرأسان عند آل عباد ، مع عدة رؤوس أهدتها اليهم الفتنة المبيرة حتى فتحت اشبيلية على الأمير الأجل ، سير بن أبي بكر ... » (1)

ولعل الأيام ستكشف لنا ذات يوم عن رجل يسمى علي بن بسام غير هذا الذي تصوره لنا الكتب التي بأيدينا الى حد الآن .

كانت هذه جوانب من حياته في اشبيلية قبل سقوط مدينة شنترين وقبل قضاء المرابطين على دولة المعتمد بن عباد ، حاولنا أن نستنبطها من أقوال ابن بسام نفسه .

ولقد كان بامكاننا أن نجمع عددا آخر من الاشارات التي أصبح تفسيرها أيسر علينا ، من ذي قبل ، على ضوء ما توصلنا اليه في الصفحات السابقة من استنتاج .

ومن أمثلة ذلك اعتناء ابن بسام بجمع أشعار المعتمد بن عباد . بل واعتناؤه بجمع أشعار أهم الشعراء — الوزراء الذين كانوا يدورون في

(1) ذ — ق/2 — ص 295 — مخ القاهرة.

فلكه ، فجمع شعر وزيره ابن عمار في كتاب سماه « نخبة الاختيار من أشعار ذي الوزارتين أبي بكر بن عمار » ، وجمع رسائل ابن طاهر في كتاب سماه « سلك الجواهر في ترسيل ابن طاهر » ، وجمع شعر واحد من ألصق الأدباء به وهو عبد الجليل بن وهبون في كتاب سماه « كتاب الاكليل المشتمل على ذكر عبد الجليل » ونستدل من عنوان الكتاب على أنه — فيما يبدو — ليس مجرد جمع لأشعاره بل ربما كان فيه الكثير من أخبار حياته » .

هذه هي الكتب التي ذكر لنا ابن بسام أنه ألفها . أليس من غريب المصادفات أن تدور كلها حول المعتمد ورجاله ، وان كان المؤلف قد قال أثناء تعداده لهذه الكتب : « وكذلك فعلت في سائر أعيان الوزراء الكتاب، اذ لم يتسع لاستيفاء محاسنهم هذا الكتاب » (1) .

ومن الاشارات التي أصبحت ذات معنى كذلك بعد الاستنتاجات السابقة قوله في ترجمة الشاعر ابن حمديس الصقلي الذي كان من ألمع شعراء بلاط المعتمد : « أحد من وفد أيضا على المعتمد ، وهو من جملة من لاقيته ، وشافهته ، وأسمعني شعره ... » (2)

ومن هذا القبيل أيضا قوله عن الأديب أبي بكر بن العطار اليابسي « وهو من جملة من لقيته ، وأنشدني شعره ولم أحفظ منه عند تحريري هذه النسخة الا أبياتا هي قصيدة في المعتمد أولها ... » (3)

ويمكن أن نورد الكثير من هذه الأقوال التي لم يكن فيها ما يسترعي الاهتمام ، ولكنها اكتسبت أهمية بالغة بعدما تكشف لنا من الأسرار القليلة عن حياة ابن بسام ، والتي قد تساعد بعد الآن على توجيه الباحثين نحو السبل الكفيلة باستخراج الصورة الحقيقية لرجل شاء بعض

(1) ذ — ق/2 ص 303 مخ القاهرة.
(1) ذ — ق/2 ص 303 مخ القاهرة .
(3) = ق/4 = 136 مخ القاهرة .

الكتاب أن لا يروا فيه الا لاجئا ، فر من مدينة شنترين بعد سقوطها ، واستوطن اشبيلية حتى ظن منها ، فعكف على تأليف كتاب الذخيرة ، و « مضى يدبج التراجم ، ويكيل المديح لمن يجزيه عنه بالمال » أو كما قال غنثالث بالنثيا فى كتابه المشهور تاريخ الفكر الأندلسى (1)٠

ابن بسام فى اشبيلية بعد سقوط مدينة « شنترين »

أما حياته فى اشبيلية بعد سقوط مدينة شنترين ، فاننا لا نعرف شيئا كثيرا عنها ، وانما المؤكد عندنا أن أحواله كانت قد تحسنت كثيرا عندما تجرد لتبييض كتاب الذخيرة فى حوالى سنة 500 هـ ٠ ونستنتج هذا التحسن من اشاراته الكثيرة الى تردد الاخوان عليه ، وزيارة الأدباء له ، وتهاطل الرسائل عليه ، تلك التى تحمل اليه المقطوعات الأدبية وأخبار قائليها ممن تطوعوا لموافاته بها ، ليضمنوا لأنفسهم مكانا فى كتابه ، أو ممن كتب هو اليهم « يطلب ما عندهم » من الشعر والنثر والأخبار ٠

ومن الطبيعى أن تحز مكانته هذه فى بعض النفوس المريضة وأن تثور ثائرة بعض حساده الذين لم يطمئنوا الى المنزلة التى تبوأها ، والشهرة التى نالها وهو اللاجىء المغترب فى ديار اشبيلية ٠

واذا كان من العسير على هؤلاء الحساد أن يؤذوا ابن بسام فى شخصه ، فقد بحثوا عن مطعن فى كتابه ينطلقون منه لايذائه ، والحط من قيمته ، وتهوين شأنه ٠ فاذا كان كتاب الذخيرة هو كل ما بقى من مجد أبى الحسن ، فان الأعداء قد طمعوا فى أن يهدموا هذه البقية بمعاول النقد الجارح ٠

ويقص علينا ابن بسام جانبا مما تعرض له بسبب الحساد فى سياق حديثه عن الأديب اللغوى أبى العلاء صاعد بن الحسن البغدادى ، الذى

(1) ترجمة مؤنس ص 289 ٠

هو من أدباء المشرق الطارئين على بلاد الأندلس ، فهو من هذه الناحية شبيه الحال — من بعض الوجوه — بابن بسام ، اذ كلاهما مغترب ، وان اختلفت طبيعة اغترابهما ٠

يروى لنا المؤلف اذن حكاية صاعد بن الحسن البغدادى وما تعرض له من حسد أفضى به الى أن يمتحن فى صدق ما ينسبه الى نفسه من شعر ، اذ أحضره المنصور أبو عامر ، وأمره أن يصف له مجلسا هيأ له الترتيب ، فانتصر الشاعر فى الامتحان ، وخرج مرفوع الرأس ، وافر الكرامة ، فعقب ابن بسام على ذلك بقوله :

« والحسد موروث ، وقديم لا حديث ، وليس فى الحيوان ، أخبث فى ذاته من الانسان ٠ وأذكر بفعلة ابن العريف فى صاعد بعض ما منيت أنابه فى خبر هذا التصنيف ، مع غير واحد من أهل وقتى ، اذ سردت فى بعض قصصه كلام ابن حيانهم ، وكان ، على ما تقدم وصفه ، متكلم أوانهم ، فلما أعوزنى لفظه فى بعض ما سقت ، ولم أجده فى كل حديث نسقت ، رجعت الى نحيزتى ، واستمطرت غريزتى ، وماؤها جامد ، ورمادها هامد ، كما قال سابق :

أخلقت جدتى وبان شبابى
واستراحت عواذلى من عتابى

وأنا يومئذ باشبيلية أتصرف مضطرا فى بعض الأعمال السلطانية ، والكلام اذا لم يحكه قلب فارغ ، ولم يسكبه لب من ظلماء الشغل بازغ ، لم يرق تطريزه ، ولم ينفق ابريزه ، وعلى ذلك لما اندرجت لى فيه كلمات رائقات ، فى أوصاف مختلفات ، وبلغت فيه أمد المراد ، بألفاظ أعيان ، ومعان أفراد ، انثال على الكلام فيها انثيال الغمام ، قالوا : نعم ما صنف ابن بسام وأتقن ، لو لم يستعن ، وما أحسن ما قصص ، لو لم يتلصص ٠

« ولله درهم ، فالدأماء لا يزبد من القري ، وذكاء لا تضيىء من الدري ، بل در در أبى الطيب من شاعر نطق بالبدى ، وجرى على عتق جده الكندى فسبق ، واستولى على الأمد بقوله اذ صدق :

اتيت بمنطق العرب الأصيل
وكان بقدر ما احسست قيلى

فعارضه كلام كان منه
بمنزلة النساء من البعول

وليس يصح فى الافهام شىء
اذا احتاج النهار الى دليل . » (1)

لم تسلم حياة ابن بسام من التنغيص عندما أخذ فى اخراج كتاب الذخيرة ، وكان ذلك أمرا متوقعا ، مذ أن تصدى لميدان لا يستطيع فيه أن يرضى جميع الناس ، فاذا كان المعجبون أكثر من أن يحصيهم عد ، فان الحساد كانوا كثيرين .

ونفهم بكل وضوح من كلام ابن بسام أن حساده قد أخذوا عليه استعانته بابن حيان عندما أدرج له فصولا تاريخية من كتابه الكبير لبيان بعض الأحداث ، وتفسير بعض الوقائع ، كما يفهم من كلامه أيضا أنهم حسدوه على ما رأوا من قدرته فى كتابة التاريخ أيضا ، اذ لاحظوا أنه عول على نفسه عندما لم يجد عند ابن حيان ما يسد حاجته ، فاتهموه بالتلصص ، وهى تهمة خطيرة جدا فى نظر ابن بسام لأن التلصص من السرقة وما أشدها تهمة يراد لها أن تلصق به . وسنرى عندما ندرس مسألة تتبعه للمعانى الواردة فى الشعر والنثر مقدار كرهه للسرقة الأدبية ، ومدى قسوته على الأديب الذى يشتهر بالسرقة والاختلاس .

---

(1) ذ — 1/4 — ص 11 و 12 .

ولعلنا لاحظنا كيف ترفع ابن بسام عن مجرد الرد على هذه التهمة وكأنه لم يجد فيها ما يستحق الرد ، فاكتفى بالتمثل بأبيات أبى الطيب المتنبى ، لأنها تعبر عن حاله أحسن تعبير .

وهذا جانب له قيمته فى بيان أوضاع ابن بسام وهو فى اشبيلية عاكف على اخراج أقسام كتاب الذخيرة تباعا .

ولكن الأهم من كل ذلك ، ولعله أهم شىء نكتشفه فى هذه المرحلة الثانية من اقامته باشبيلية على الاطلاق ، هو ما ورد فى اشارته العابرة التى لا يكاد أحد يلتفت اليها ، لايجازها ، وورودها عفوا فى سياق الكلام .

وهذه الاشارة نجدها فى قوله الذى أثبتناه فى الفقرة السابقة من كتابه : « وأنا يومئذ باشبيلية أتصرف مضطرا فى بعض الأعمال السلطانية » .

هذا كلام خطير للغاية !

فمتى كان ابن بسام يتصرف فى بعض الأعمال السلطانية ؟ ان ورود هذه العبارة فى معرض الحديث عن حساده بمناسبة ما دبجه فى كتابه من الفصول التاريخية ، لا يترك مجالا للشك فى أن التصرف فى هذه الأعمال قد وقع فى ما سميناه المرحلة الثانية من اقامته باشبيلية .

لقد كانت الأوساط الأدبية على علم بمشروع تأليف الكتاب ، وجمع ابن بسام لمادته منذ أن كان المؤلف يتردد على قرطبة ، بل منذ سفره اليها أول مرة سنة 494 ه كما سنبين ذلك ، ولكنه من المستبعد أن يكون الكتاب قد خرج الى الناس ، وأخذوا يتداولونه قبل سنة 500 ه . ذلك أننا نجد المؤلف يقول فى معرض الحديث عن الأديب أبى بكر ابن الملح :

« ومد لأبى بكر هذا فى العمر ، وعاش الى وقت تحريرى هذا المجموع ، سنة خمسمائة » (1)

فلقد كان ابن بسام يحرر القسم الثانى من الكتاب سنة 500هـ ، فالقسم الأول ، قد يكون أخرجه للناس سنة 499 هـ أو نحو ذلك • وكلام الحساد لا يكون الا بعد الاطلاع على الكتاب للحكم على أنه استعان بابن حيان وتلصص عليه • مما يرجح أن المؤلف كان يتصرف فى الأعمال السلطانية التى ذكرها فى هذا التاريخ أو نحوه • لأن الاشارة الظرفية لا تترك مجالا لأى تأويل آخر « وأنا يومئذ باشبيلية أتصرف ••• »

والاشارة الأخرى الى أن هذا التصرف قد وقع فى المرحلة الثانية من اقامته فى « حمص » نجدها فى قوله : « رجعت الى نحيزتى ، واستمطرت غريزتى ، وماؤها جامد ، ورمادها هامد » • وهذه الأوصاف يطلقها ابن بسام على نفسه ، لوصف حاله بعد نكبة بلاده •

ونحن لا بد لنا أيضا من أن نتوقف عند كلمة مهمة هى قوله « مضطرا » فى عبارة « وأنا يومئذ باشبيلية أتصرف مضطرا فى بعض الأعمال السلطانية » مما يدل على أنه لم يختر هذه الوظيفة ولم يسع اليها ، ولم يجتهد فى طلبها ، وانما قبلها لأنه لم يجد سبيلا الى التخلص أو الاستعفاء منها •

ولعل ضيقه بهذه الوظيفة يرجع — مع أسباب أخرى — الى أنها شغلته عن تأليف كتابه كما يريد ، وحالت دون صرف كل العناية اليه • وهذا واضح من قوله : « والكلام اذا لم يحكه قلب فارغ ، ولم يسبكه لب من ظلماء الشغل بازغ ، لم يرق تطريزه ، ولم ينفق ابريزه » •

(1) ذ — ق/2 — ص 287 مخ القاهرة •

فلقد كان يتمنى أن يتفرغ لكتابه الذى هو أمنية حياته كلها كما سنبين ذلك ، ولكن الوظيفة الرسمية جاءته فى الوقت الذى جرد فيه عزيمته لانجاز هذا العمل الجليل •

وقد يكون ضيقه بهذه الوظيفة راجعا الى مسائل أخرى ، من النوع الأخلاقى مثلا ، فهو لم يكن مطمئن البال الى خدمة أمراء المرابطين بعدما كان له من العلاقات مع الدولة التى قضوا عليها ، وخلعوا أميرها ، (المعتمد بن عباد) وأرسلوه الى السجن ليموت فى الاسار ، بين سلاسل الحديد •••

وقد تكون مع ذلك أشياء أخرى ••• والمهم أنه لا سبيل الى الشك فى أنه كان يقوم بوظيفة رسمية فى مدينة اشبيلية وهى تابعة لسلطان المرابطين •

ولكن ما هى هذه الأعمال السلطانية يا ترى ؟

من المؤسف حقا أن لا نجد فى كلام المؤلف أية اشارة اليها ، ولكننا لا نستبعد أن تكون متصلة بالكتابة لأحد أمراء المرابطين الا أن تكون مهمة سياسية من نوع خاص •

ونحن نتذكر بهذه المناسبة ما كنا أوردناه لابن سعيد من قول فى رايات المبرزين « الرئيس الفاضل » (1) •

فمن أين جاءه بهذا اللقب ، وما معنى الرئاسة التى وصفه بها ابن سعيد ، ألم يكن يقصد شيئا لم يفصح عنه ، ألم يكن يلمح الى بعض الأخبار التى لم يذكرها لأنها لم تتأكد لديه ؟

نحن لا نستبعد الآن شيئا من كل ذلك ، بل اننا أميل الى ترجيح أن يكون كلف بالوزارة أو بشىء قريب منها فى دولة الملثمين فى الأندلس•

(1) مخطوطة جامعة القاهرة ص 210/209 •

واذا أعوزتنا التفاصيل التى تمكننا من البت فى هذه المسألة الخطيرة ، فان اشارات ابن بسام الصريحة تتيح لنا مثل ما ذهبنا اليه من التأويل ، ولعل الأيام فى المستقبل ستبوح لنا بما ضنت به من أسرار حياة هذا الرجل طوال القرون الخالية .

أسرة ابن بسام

لا نظن أن أحدا يعرف سلوك ابن بسام، ومنهجه الأخلاقى المحافظ، وتواضعه الذى يمنعه من الحديث عن نفسه، يتوقع أن يجده يتحدث عن أهله وأولاده. فهو لم يتحدث عن العادى من أخبار حياته فكيف يبوح لنا بأسرار بيته. فالاشارات التى جمعناها واستنتجنا ما استنتجنا منها فى الصفحات السابقة كانت شذوذا لسنا ندرى كيف ندت عن القاعدة الصلبة التى أخضع لها منهج كتابه فى تحاشى كل ما يمت الى أسرار حياته بصلة أو سبب .

ومن البديهى أننا لا نطمع فى أن نظفر عند الذين ترجموا له من القدماء — بله المحدثين — بشىء من أخبار أسرته وذويه . لذلك لم يبق لنا الا أن نعاود السير فى تلك الدروب الوعرة التى سلكناها لنتقصى أخبار حياته الأخرى، فلعلنا نجد فيها أيضا مقدارا ولو ضئيلا من الأخبار المتصلة بأسرته .

والسؤال الوحيد الذى نستطيع الآن طرحه لنحاول الاجابة عنه هو: هل كان ابن بسام متزوجا، وهل كان له أولاد ؟

والجواب فى رأينا: نعم، بلا تردد . والآدلة على ذلك ما يلى:

أولا: كل الذين تحدثوا عنه ذكروا كنيته التى هى: أبو الحسن وهى توافق ما نعرف من ولوع الآندلسيين بتسمية أولادهم بما يتماشى مع أسمائهم الشخصية، ويهىء لهم واحدة من كنى مشاهير الرجال والعظماء فى تاريخ الحضارة الاسلامية .

فأكثر الذين يسمون محمدا يطلقون على أكبر أولادهم أسم القاسم لتكون الكنية أبا القاسم، وهى كنية الرسول عليه الصلاة والسلام . ومن كان يسمى عليا، يطلق على أكبر أولاده اسم الحسن: لتكون كنيته أبا الحسن، وهى كنية الامام على رضى الله عنه . وهكذا ...

وعلى ذلك لا نستبعد أن يكون لعلى بن بسام ولد — واحد على الأقل — يدعى الحسن، وهو الذى يكنى به المؤلف حين يدعى أبا الحسن.

ثانيا: واذا كان هذا مجرد تخمين، فان الذى هو أقرب الى الحقيقة المؤكدة انما نجده فى مكانين من المقدمة التى افتتح بها المؤلف كتاب الذخيرة .

فلقد قال فى المرة الأولى وهو يصف حاله عند خروجه من مدينة شنترين اثر سقوطها: « وعلم الله أن هذا الكتاب لم يصدر الا عن صدر مكلوم الاحناء، وفكر خامد الذكاء، ... لا نتباذى كان من شنترين ... مفلول الغرب، مروع السرب » (1)

ونعتقد أن هذا السرب المروع الذى خرج معه من « شنترين » لا يمكن أن يدل الا على أسرته من زوجه — أو أزواجه — وأولاده، والأقربين من أهله .

ثم قال فى المرة الثانية، وفى سياق حديثه عن فراره اثر الهول الذى أصاب سكان شنترين بعد مصابها: « وحين اشتد الهول هنالك، اقتحمت بمن معى المسالك، على مهامه تكذب فيها العين الأذن، وتستشعر فيها المحن (2)

ان عبارة « من معى » لا يصح — فى نظرنا — انصرافها الا الى

(1) ذ — 1/1 — ص 8 .
(2) نفسه .

الزوج والأولاد، ومن يحرص الانسان على أن يكونوا معه فى مثل الظروف التى يصفها ابن بسام .

وهذا كل ما لدينا من اشاراته الى أهله وأولاده .

وفـــاة ابـــن بســـام

كنا ننتظر أن نكون أحسن حظا فى معرفة أخبار وفاة ابن بسام . ذلك أنه اذا كـــان من السهل التماس الأعذار لسكوت المؤرخين للحركة الأدبية فى الأندلس، وكتاب تراجم اعلامها، عن ميلاد ابن بسام، وعن أخبار الأطوار الأخرى لحياته، فاننا نحار حقا فى البحث عن عذر نعلل به سكوت هؤلاء وأولئك عن كل ما يتصل بوفاة هذا الرجل .

فنحن نجدهم من ناحية يختلفون فى تحديد تاريخ وفاته ما بين 541 و 542 و 543 هـ وان كانت الأكثرية منهم متفقة على تاريخ 542 هـ. ومن هؤلاء المقرى صاحب نفح الطيب الذى قال : « وتأخرت وفاته الى سنة 542 » (1) وهذا هو التاريخ الذى اعتمده أكثر المحدثين الذين كتبوا عن ابن بسام .

أما بالنثيا فى كتابه « تاريخ الفكر الأندلسى » فيرى انه تـــوفى « حوالى 541، 542 هـ »

ونحن نجدهم من ناحية أخـــرى لا يذكرون أى نـــوع من أنواع التفاصيل المتعلقة بوفاته. حتى لكأنه ليس من مشاهير الرجال، ولا من الذين يستحقون نصيبا من الافاضة التى نجدها لأولئك الكتاب أحيانا فى ذكر وفاة بعض الرجال الآخرين — ومنهم من ليست له قيمة صاحبنا — حين يطنبون فى وصف الجنازة وموكبها، ويتحدثون عن الزعماء والعظماء

(1) نفح الطيب، الطبعة الاوربية — ص 309 .

الذين شيعوها، والخطباء الذين ألقوا فيها خطب التأبين، والشعراء الذين أنشدوا قصائد الرثاء....

نعم نحن لا نجد شيئا من هذا حتى كأن الرجل مات فى غير بلاده نكرة مجهولا، أو دفن سرا فلم يشعر به أحد، والا فهل كان من المعقول أن لا تشيع جنازة رجل، أنفق من حياته ما أنفق فى خدمة بلاده، والدفاع عن تراثها وعظمائها، بما يستحقه من الاجلال والتعظيم .

أنجد فى كتاب الذخيرة كل تلك القطع النثرية والشعرية فى مدح ابن بسام والاشادة بجهوده فى كتابة التاريخ الأدبى للأندلس، والتنويه بشرفه، وكرم انتسابه، هذا عدا القطع الأخرى التى لم يسمح تواضع ابن بسام بادراجها فى كتابه، نقول أيكون ذلك فى حياته، ثم لا ينبرى شاعر واحد لرثائه حين وافته المنية ؟

هذا أيضا سر من أسرار هذه الحياة المغلفة بعلامات الاستفهام، يبعث فينا من الشك والحيرة ما يجعلنا أحيانا نطرح على أنفسنا أسئلة غريبة كهذا مثلا: ألا يكون لهذا الرجل اسمان، أحدهما حقيقى هو الذى وضعه على كتاب الذخيرة، وهو الذى عرفه به المقربون من أصدقائه ، ومنهم الشاعر الذى مدحه بقوله: « حزت فضل السباق عن بسام » ، (1) والاسم الآخر مستعار، استتر تحته أثناء محنته طوال اقامته فى اشبيلية، ثم مارس فى ظله النشاط السياسى الذى قام به فى عهد المرابطين ؟ !

هذا سؤال نحن أول من يستغربه، ولكنه يبقى سؤالا على كل حال.

(1) انظر ما كتبناه ص 15 .

ثقافة ابن بسام

من المسائل التى لا نجد أية اشارة اليها، لا فى كتاب الذخيرة ولا فى الكتب التى تحدثت عن ابن بسام، مسألة دراسته وشيوخه ٠

نحن نعرف أنه ينقل كثيرا من الأخبار عن علماء الأندلس وأدبائها وفقهائها وقضاتها، ولكنه لم يذكر أبدا أنه درس على واحد منهم، أو تلقى عنه نوعا من أنواع العلم والمعرفة، وعلى خلاف التفاصيل الأخرى، المتعلقة بحياته، والتى كان رأينا فيها باستمرار أن طبيعة تكوينه الدينى، وما جبل عليه من تواضع، يمنعانه من الافاضة فيها، والاطناب فى الحديث عنها، فان هذا المانع الأخلاقى لا يصح أن يتخذ حجة لعدم ذكر شيوخه وأساتذته، بل ان القاعدة عند كتاب المسلمين القدامى أن يذكروا شيوخهم، وينوهوا بفضلهم وعلمهم، ويترحموا عليهم فى كل مناسبة وذلك عندهم نوع من الوفاء والاعتراف بالجميل ٠

فاذا خلت أقسام الذخيرة كلها من أدنى اشارة الى هذا الجانب، فان المرجح عندنا والأقرب الى الصواب، أن ابن بسام لم يتتلمذ على شيوخ معروفين، ولم يتلق علومه عن أساتذة مشهورين، وانما كان رجلا عصاميا، علم نفسه بنفسه، أصاب حظا مــن مبادىء العربية وعلومها النحوية والبلاغية والعروضية، ومن الــشريعة الاسلامية وأصولها، فى كتاتيب مدينة شنترين ثم أكب على الكتب يطالعها، ويدرسها، ويتتبــع مسائلها، حتى حصل منها على القدر الذى نجده لديه ٠

ويبدو لنا أن ابن بسام قد أتقن نوعين من الثقافة كانا متكاملين فى تلك الحقب من تاريخنا القديم، هما: الثقافة الدينية والثقافة الأدبية ٠

فأما الثقافة الدينية فنحن لا نستطيع تقدير مداها وعمقها لأن كتاب الذخيرة لا يصلح، فى الواقع، أن يكون مقياسا لها، وانما نحن نستنتجها من سلوكه الأخلاقى، والسلم القيمى لديه، اذ نجده لا يكاد ينظر الى

القضايا الأدبية الا من خلال منظار أخلاقى اسلامى، فالسرقة الأدبية خيانة، وتناول المقدسات الدينية فى الشعر، كفر والحاد ٠ فاذا تفلسف الشاعر، واستخدم ما يعرف بالمذهب الكلامى، وتساءل عن الروح والآخرة والجنة تساؤلا يخرج عن المنهج الاسلامى، فذلك كله اجتراء على الخالق فى نظر المؤلف والأديب يكبر فى عينه اذا كان عفيف الغزل، عديم الشرب للخمر، بقدر ما يسقط منها اذا كان من ذوى الخلاعة والمجون ٠ (1)

ومن ناحية ثانية، فاننا نستدل على ثقافته الفقهية بكثرة مخالطته للقضاة والفقهاء اذ نجده كثير الرواية عنهم، والمعاشرة لهم، والتردد على مجالسهم ٠

وأما ثقافته الأدبية فكتاب الذخيرة معرض واسع لها، وميدان فسيح تنتشر فى كل زاوية منه أعلامها ٠ ثقافة أدبية غنية، متنوعة، متكاملة، تجمع بين القديم والحديث، وتتسع للشعر والنثر كما تتسع لعلوم العربية من نحو وبلاغة وعروض، وتشمل التاريخ وهو قسمان: عام، يــروى الحوادث السياسية والحربية الكبرى، وخاص، يروى الأخبار الأدبية، ووقائع المجالس التى يعقدها الملوك والأمراء لأدباء البلاد ٠

الشعــر والــنثر

ان نصيب ابن بسام من الثقافة الأدبية البحتة (الشعر والنثر) هى أوسع جوانب ثقافته على الاطلاق، وأكثرها بروزا فى كتاب الذخيرة، ولقد تهيأ له قدر من الاطلاع على ما كتبه الأدباء العرب عامة، والشعراء منهم خاصة، بحيث لا نظن أننا نبالغ كثيرا اذا جزمنا بأنه يستبعد أن نجد فى المشرق والمغرب على السواء، رجلا فى القرن الخامس، حفظ من شعر الأقدمين والمحدثين مثلما حفظ ابن بسام ٠

---

(1) انظر فى الفصل الخامس: النقد الأخلاقى ص 267 وما بعدها.

ولقد تجلت ثقافته الشعرية الواسعة فى أنصع صورها أثناء تتبعه للمعانى الشعرية، ورده كل معنى هام يرد عند أحد الشعراء الى أصوله الأولى التى كثيرا ما يصل بها الى العصر الجاهلى، أو الاسلامى والأموى، حتى ان المعنى الواحد يصبح فى حد ذاته معرضا لبراعة ابن بسام حيث يذكر الوجوه التى جاء عليها فى قصائد أخرى من شعر الشاعر نفسه، ويورد ما يشبهه عند الشعراء المعاصرين له، ثم يرتقى بالمعنى يبحث عن أصله خلال العصور الأدبية، فيقف عند الأبيات المماثلة لـه فى الشعر العباسى لدى فحول شعراء هذا العصر من أمثال المتنبى، وأبى تمام والبحترى وبشار، ولا يقنع بذلك فى الغالب حتى يعرج على العصر الجاهلى، فيبحث عن البدايات الأولى لذلك المعنى عند امرىء القيس أو زهير بن أبى سلمى، أو النابغة الذبيان وغيرهم.

ومن البديهى أن عملية من هذا النوع لا تتيسر ممارستها بتقليب صفحات الدواوين الشعرية للبحث عن المعانى المتشابهة، وانما تتطلب حفظا راسخا، وقدرة عجيبة على استظهار المحفوظ، واستعراض المطلوب منه فى لحظات قصيرة. والحق أن ابن بسام قد أوتى فى هذا العمل نصيبا من الحذق والمهارة لا نظن أنه قد أتيح لواحد من معاصريه مقدار يساويه أو يدانيه.

ولا تقتصر الثقافة الأدبية لديه على الشعر وانما تشمل النثر كذلك، وان كان النثر — كما أسلفنا — يأتى فى الدرجة الثانية. واذا لم تجر العادة فى الحضارة العربية على أن يحفظ الناس القطع النثرية بالقدر الذى يحفظون به القطع الشعرية، فان محفوظ ابن بسام من الأقوال المأثورة، والعبارات التى تجرى مجرى الأمثال، وافر متنوع نجده مبثوثا فى سجع ابن بسام، وبخاصة فى الفصول التاريخية التى اضطر الى كتابتها بنفسه، حين لم يجد لدى المؤرخ ابن حيان ما يسد حاجته.

ومن المؤكد أن الثقافة الأدبية لا تقوم الا على أسس معروفة من العلوم المساعدة التى يسميها القدماء علوم اللغة العربية والتى يقصدون

بها أكثر ما يقصدون النحو، والبلاغة، والعروض، وهى كلها أركان الثقافة الأدبية، وركائزها التى لا تنهض لأى أديب ثقافة حقيقية بدونها.

النحو والبلاغة والعروض

وليس كتاب الذخيرة أيضا مجالا يصح أن نتخذه مقياسا لثقافة ابن بسام النحوية، ولقد اختط لنفسه منهجا حرص كل الحرص على اتباعه فى كتابه، وصرح عن أهم عناصره المنهجية فى مقدمة « الذخيرة »، فلم نجده فيها يذكر أنه سيعتنى بالنحو أو بالعروض، وان صرح عن اهتمامه بالبديع، وهو من البلاغة. والذى نريد أن نستدل به على ثقافته النحوية والعروضية لا يعدو أن يكون اشارات هامشية، اقتضاها السياق، ولكنها لا تخلو من دلالة على عناية الرجل بهذين العلمين.

فمن الاشارات المتعلقة بالنحو، ما جاء فى كلامه وهو يتحدث عن الشاعر ابن شماخ، فى سياق ترجمته. قال: « ومن شعر ابن شماخ ما أنشدته من قصيدة » (1) وأورد له مقطوعة فى ثلاثة أبيات، منها هذا البيت:

فان كسدت أعلاق علمى لديهم
فلا غرو أن يكسد لدى النعم الشذر

لم ينتظر المؤلف حتى يفرغ من اثبات المقطوعة كلها، وهى التى لم يبق منها الا بيت واحد، بل قطع السرد، وعقب على البيت الذى أوردناه بقوله:

« جزم بحرف النصب (2) وأراه وهم فيه، على أن أبا الحسن

(1) ذ — 2/1 — ص 337.
(2) يقصد قوله: « أن يكسد » فالوزن لا يستقيم الا بجزم فعل « يكسد » مع ان حقه النصب.

اللحيانى حكى فى نوادره أن بنى صباح من بنى ضبة يجزمون بعوامل النصب، وأنشد لشاعرهم :

واغضى على أشياء منك لترضنى
وأدعى الى ما سركم فاجيب

وليس العمل به، ولا لمحدث أن يتعلق بسببه » (1)

ولعل هذه الاشارة كافية وحدها لبيان مدى تشدد المؤلف فى القضايا النحوية، ذلك التشدد الذى تعبر عنه هذه الجملة القصيرة خير تعبير « وليس العمل به، ولا لمحدث أن يتعلق بسببه » .

ونحن نلاحظ من ناحية أخرى كيف حرص على ذكر مرجعه النحوى والاستشهاد به، وتخريج الوجه النحوى فى قول ابن شماخ بذكر القبيلة التى قيل انها تجزم بأدوات النصب الخ...

هذا عن النحو، أما عن العروض فلقد وقفنا فى كتاب الذخيرة على اشارة تدل على معرفته الدقيقة بالأوزان الشعرية، وتمييزه بين مختلف أضربها وأعاريضها، وما ذلك بالأمر الذى نستغربه لدى من حفظ من الشعر مثلما حفظ هو، بل لدى رجل بدأ حياته الأدبية شاعرا — فيما نرجح — ثم انصرف عن الشعر عندما ضاق « بأباطيل المنظوم والمنثور » وبقى مع ذلك على اتصال به « يزوره لماما » كما قال .

ونحن نجد واحدة من اشاراته الى علم العروض فى الفصل الذى عقده للأديب أبى العباس أحمد بن قاسم المحدث حيث أورد له مقطوعة شعرية فى سبعة أبيات منها:

قالت وقد نظرت شيبى فروعها
ان المشيب لسود الشعر اكفان
فقلت انكرت كافور الزمان به
من بعد مسك ، وطيب الدهر الوان..

(1) ذ — 2/1 — ص 338 .

ثم رأى أن يذكر بعض الأبيات المشتملة على معان قريبة من هذه فقال:

« وذكرت بتشبيه الشيب بالكافور بيتى الحضرمى، على أنه من المشهور وهما:

قالت وقد خلطت فى عارضى
مسك الشباب بكافور المشيب
ياليت ذا المسك لم يخلط فما
عند الغوانى لذا الكافور طيب » .

وعقب على هذين البيتين بقوله، وهو محل الشاهد عندنا: « وهذه العروض معروفة، وان لم تكن مألوفة، وهى من مجزوء البسيط التى أنشد الخليل فى مثلها قول بعض العرب:

يا بنت غيلان ما أصبرنى
على خطوب كنحت بالقدوم » . (1)

فلقد نبه ابن بسام الى أن هذه العروض — وهى مجزوء البسيط — غير مألوفة وخشى أن يفهم من هذا الكلام انها قد تكون مما استنبط أو اخترع فى العصور الأخيرة فحرص على أن يرفع هذا اللبس بذكر معرفة الخليل بن أحمد لها، وتمثيله ببيت لها أورده ابن بسام، مما لا يترك مجالا للشك فى أنه كان مطلعا على ماكتبه الخليل عن العروض .

ونحن بعد ذلك لا نزعم أن هاتين الاشارتين الى النحو والعروض تتيحان لنا أن نستنتج دراية واسعة بهذين العلمين، وتبحرا كبيرا فيهما، وانما سقناهما لمجرد التمثيل على أنه معتن بهما لا يترك الاشارة الى شىء يختص بهما عندما يرى ذلك ملائما بالقدر الذى لا يخرجه كثيرا عن موضوع كتابه.

(1) ذ — 2/1 — ص 400 و 401 .

أما البلاغة فلدينا أدلة أكثر على حسن اطلاعه على ما كتب فيها ، ولا سيما الجانب البديعي منها، وبما أننا سنتناول هذا الموضوع بالتفصيل فى فصل من هذه الدراسة، فاننا نكتفى هنا بالاشارة الى أنه كان مولعا بالبديع يزين شعره ونثره به، ويراه من العلوم التى تستحق الاهتمام ، بل يرى أن البديع هو « قيم الأشعار وقوامها، وبه يعرف تفاضلها وتباينها » ٠ (1)

والثقافة البديعية عند ابن بسام متصلة أشد الاتصال بالثقافة النقدية، كما هى الحال عند كل النقاد، والجملة السابقة من كلامه واضحة الدلالة فى أنه يتخذ البديع ركنا من أركان النقد اذ يقول « وبه يعرف تفاضلها وتباينها » ٠

التاريخ

التاريخ بنوعيه العام والخاص، ركن أصيل من أركان ثقافة ابن بسام، ودعامة أساسية من دعائمها القوية ٠

ولقد بلغت أهمية الجانب التاريخي فى ثقافته، وفى وظيفته الكتابية حدا جعل كثيرا من الذين تحدثوا عن ابن بسام من القدماء يصفونه بالمؤرخ ٠

ومن هؤلاء ابن سعيد الذى قال عنه فى رايات المبرزين كما أسلفنا:
« الرئيس الفاضل الأديب المؤرخ أبو الحسن على بن بسام »

ومما لا شك فيه أن ابن بسام قد أرخ للأدب الأندلسى على امتداد القرن الخامس الهجرى ٠ فهذا العمل وحده يبيح لنا أن نسلكه فى عداد المؤرخين ، ولكن قيمة ابن بسام ترجع فى بعض جوانبها الى ادراكه الواعى العميق لعلاقة الأدب بالتاريخ ، فالأدب لا يعدو أن يكون انعكاسا

(1) ذ — 1/1 — ص 6 ٠

لأوضاع اجتماعية وسياسية واقتصادية فى فترة من الفترات ، فهو واحد من الأصداء الحضارية للمجتمع فى مسيرته التاريخية ، والتاريخ رصد لهذه المسيرة من جميع جوانبها ٠ فالعلاقة بين الأدب خاصة — من جملة الفنون الأخرى — والتاريخ علاقة وثيقة ، تتيح لكل منهما أن يثرى بالآخر ، وأن يكتسب واحدا من الأبعاد الضرورية له ٠

ولقد فطن ابن بسام بصادق حدسه الى هذه الحقيقة فكان عمله الطريف ، المجدى ، الذى لم يسبق اليه — فيما نعلم — أنه عمد الى مؤرخ عظيم هو ابن حيان شيخ المؤرخين فى الأندلس ، فضمن كتاب الذخيرة فصولا كاملة من كتابه الكبير فى التاريخ ، وأتاح لكل قارىء بهذا العمل الجليل أن يقرأ الأدب الذى اختاره له فى أطار الحوادث السياسية التى لا يخلو من علاقة بها ٠

ولم يكتف ابن بسام بالتعويل على ابن حيان المؤرخ ، بل عول على نفسه عندما لم يجد عنده ما يقتطفه مما يتصل ببعض الحوادث السياسية والحربية فى الأندلس ، فدبج فصولا فى التاريخ الدقيق ليست أقل قيمة من فصول ابن حيان نفسه ، ولقد كتب عن دخول المرابطين لاشبيليا ، واستسلام المعتمد لهم كلاما على غاية من الدقة والصدق فى الوصف ، نجد أغلب الذين كتبوا عن ذلك بعده ينقلونه عنه ألفاظا ومعانى ، صرحوا بذلك أم لم يصرحوا به ٠ (1)

ونحن نجده يسرد من أخبار المشرق ، وتاريخ فتوحاته ، وحروبه وفتنه ما يتيح لنا الاعتقاد بأنه ربما قرأ أكثر ما ألفه المشارقة من الكتب التاريخية ٠ وهو لا يذكر عادة مصادر الأخبار التاريخية التى يرويها عن المشرق ، وربما كان يجد بعض الحرج فى تكراره فى كل مرة « قرأت فى كتاب فلان ٠٠٠ وقرأت فى الكتاب الفلانى » الخ ٠٠٠ مما

(1) انظر على سبيل المثال عبد الواحد المركشى فى كتاب « المغرب فى تلخيص أخبار المغرب ص 203 ٠

يؤذى تواضعه الجم ، اذ يوهم القارىء أنه يدل عليه بواسع اطلاعه ، ولكننا نجد له من أخبار بنى أمية ، وبنى العباس ، ما يؤكد لنا أنه كان على اطلاع واسع ، والمام رصين بأهم كتب التاريخ المشرقية ٠

وهو يجمع الى هذا الاطلاع على ما سميناه بالتاريخ العام ، معرفة جيدة بالنوع الآخر من التاريخ الذى سميناه التاريخ الخاص ، والـذى هو أخبار الأدباء ، ومجالسهم ، واتصالهم بالملوك ، وما اتفق لهم معهم من الحكايات المستطرفة والمستملحة ٠

ولقد بلغ ابن بسام من اعتنائه بهذا الجانب من التاريخ — ان صح لنا أن نسميه كذلك — حدا جعله يمتنع عن سرد الأشعار التى لم يتعلق بأذيالها خبر ، ويخرج عن الموضوع أحيانا ، فيأتى بقطع أدبية لا قيمـة لها ، الا أنها وسيلة لايراد ما تعلق بها من الوقائع والأخبار ٠ وذلك عن منهج مخطط مقصود يقول فيه : « وقد أذكر الشاعر الخامل ، وأنشـد الشعر النازل ، لأرب يتعلق به ، أو لخبر أذكره بسببه » (1) ٠

وخلاصة الرأى فى ثقافته أنه كان رجلا مثقفا بحق ، واسع الاطلاع على ما وصل اليه الأدب وعلوم العربية فى عصره ، قد طالع دواوين كبار شعراء المشرق والمغرب ، وألم بأهم الكتب المؤلفة فى النحو والعـروض والتاريخ والنقد ٠

ولعلنا لا نشط عن منهج الاعتدال اذا زعمنا بأننا لو أردنا أن نمثل باسم رجل عربى دقيق العلم بالأدب العربى منذ عصوره الأولى الـى نهاية القرن الخامس الهجرى ، واسع الاطلاع على ما أنتجـه فحـول الأدباء والشعراء فى المشرق والمغرب والأندلس ، لما وجدنا أحدا يصلح لهذا التمثيل خيرا من أبى الحسن على بن بسام الشنترينى ٠

انه بحق نموذج للأديب العربى الذى حوى صدره أهم جوانـب الثقافة الأدبية العربية فى مختلف أرجائها الجغرافية ٠

(1) ذ — 1/1 ص 20 ٠

مؤلفـات ابـن بسـام

جل الذين تحدثوا عن ابن بسام فى مؤلفاتهم من قـدماء الكتـاب — ان لم نقل كلهم — لم يذكروا له كتابا آخر غير كتاب « الذخـيرة فى محاسن أهل هذه الجزيرة » ٠

ومن المرجح أن يكون هذا الكتاب الجليل قد غطى على كل مؤلفاته الأخرى ، فلم تعد تذكر معه ٠

ومن المرجح أيضا أن الأدباء ، وكتاب التراجم ، الذين جاؤوا بعد ابن بسام قد أخذهم الاعجاب بكتاب « الذخيرة » وما استطاع مؤلفه أن يجمع فيه من الأخبار الكثيرة ، والقطع الأدبية المتنوعـة ، فاستقطـب عنايتهم ، وانصرفوا عن غيره من مؤلفات ابن بسام الأخرى ٠

ومن حسن الحظ أن ابن بسام قد ذكر لنا فى كتاب الذخيرة ، دون تعمد منه ، اذ جاء ذلك الذكر فى سياق الحديث ، عددا من الكتب التـى ألفها ٠ قال : « فجمعت شعره (أى ابن وهبون) على حروف المعجـم فى تصنيف ترجمته بكتاب الاكليل المشتمل على شعر عبد الجليل ٠٠٠٠ (و) جمعت فى تأليف ترجمته بسلك الجواهر من نوادر ترسيل ابن طـاهر ، وفى تصنيف رابع (كذا) وسمته بكتاب الاعتماد على ما صح من أشعـار المعتمد بن عباد ، وفى كتاب خامس ترجمته بنخبة الاختيار من أشعار ذى الوزارتين أبى بكر بن عمار » (1) فالكتب المذكورة هى اذن :

1) — الاعتماد ، على ما صح من شعر المعتمد بن عباد ٠

2) — الاكليل ، المشتمل على شعر عبد الجليل ٠ (ابن وهبون) ٠

3) — سلك الجواهر ، من ترسيل ابن طاهر ٠

(1) ذ — 2/3 — ص 303 مخ. القاهرة.

4) ــ نخبة الاختيار ، من أشعار ذى الوزارتين أبى بكــر ابــن عمار ۰ (1)

وهذه كلها كتب يستدل على مضمونها من عنوانها ، ونفهم من كلام ابن بسام أن له كتبا أخرى كثيرة على غرار هذه ، لسنا ندرى ما الــذى منعه من ذكرها ۰ وذلك حيث يقول « وكذلك فعلت فى سائر أعيان الوزراء الكتاب ، اذا لم يتسع لاستيفاء محاسنهم هذا الكتاب » ۰ (2)

ويذكر غنثالث بالنثيا فى كتابه « تاريخ الفكر الأندلسى » ، ان لابن بسام مجموعا من شعر الهجاء قاله هو نفسه ، مما لم يذعه فى الناس ۰ وتابعه على هذا القول جماعة من المحدثين ۰

ولقد كان هذا الموضوع مما حيرنا كثيرا ، وبحثنا طويلا عن تفسير له ۰ كيف يمكن أن يقول ابن بسام شعرا فى الهجاء حتى يكون مجموعا ثم كيف يستجيز أن يذيعه ؟ فهل كان أبو الحسن هجاء ؟ واذن فما معنى تحرجه من شعر الهجاء واضرابه عن ايراد المقطوعات الشعرية الهجائية فى كتابه ؟ كنا نظن أخلاقه الفاضلة هى التى منعته من ايراد شعر غيره اذا كان فى الهجاء ، أفيكون الشعر له ثم يذيعه بين الناس ؟

هذه كلها أسئلة كنا نطرحها على نفسنا ولا نجد لها جوابا ۰ حتــى وقفنا على كلام المؤلف فى القسم الثانى من كتابه ۰

قال متحدثا عن الأديب أبى محمد ابن سارة الشنترينــى « وقــد رأيت له عدة مقطوعات فى الهجاء ، تربى على حصى الدهناء ، وهو فيــه صائب السهم ، نافذ الحكم ، طويت عليه كشحا ، وأضربت عليه صفحا ، (كذا) وربما ألمعت منه بالأقل ، لترى فتستدل ، ولو استجزت أن أثبــت فى هذا الكتاب ، بعض ما له فى هذا الباب ، لتحققت أنه بالجملة ، نابغــة

---

(1) وجدنا فى المخطوطة (النخبة) اما المحدثون من امثال الدكتور مكى وبلنثيا فذكــروا : « نحبة »

(2) ذ ــ ق/2 ص 303 مخ القاهرة ۰

محاجاة ، وصاعقة مهاجاة ، وقد كتبت من ذلك فى كتابى المترجم بذخيرة الذخيرة جملة موفورة له ولطوائف كثيرة » ۰ (1)

وهكذا زالت حيرتنا وعرفنا أن المؤلف لم يذع فى الناس مجموعــا من شعر الهجاء الذى نظمه هو ، وانما ألف كتابا سماه «ذخيرة الذخيرة» ضمنه شعر طوائف من الشعراء الهجائين مما لم يرد أن يشوه به كتاب الذخيــرة ۰

ذلك أن « الذخيرة » هى التحفة التى أراد أن يصونها من كل عيب، وأن يحفظها من كل مطعن ، حتى أنه على اعجابه بالموشحات ، وبموشحات صديقه ابن عبادة ، لم يورد منها شيئا ، لأن العادة لم تجر بايراد مثل هذا الشعر ، الخارج عن منهج العرب الأوائل ، فى الكتب التــى سماها عبد الواحد المراكشى المخلدة (2) وهو يريد أن يكون كتاب « الذخيرة » واحدا من المجلدات المخلدات ۰

وهكذا نستطيع أن نضيف الى الكتب الأربعة التى ورد ذكرها فى سياق حديثه السابق كتابا خامسا هو : « ذخيرة الذخيرة » ۰

ولابن بسام كتاب آخر سماه : « سر الذخيرة » ۰

ولقد تحدث عن هذا الكتاب أيضا فى القسم الثالث من الذخيرة ، فى الفصل الذى عقده لحسام الدولة أبى مروان بن رزين حين قــال بعــد أبيات أنشدها له : « وهذا من طرق تلك الزيزاء التى تعسفها وحــده ، وبعض الشؤون التى عول فيها على ما عنده ۰۰۰ ولو ألمــت فى هــذا الكتاب بشىء من التفسير ، لاجتلبت كل ما قيل فيه ، ولنشرت ما خفــى على ذى الرياستين من مطاويه ، وقد ذكرت من ذلك جملة موفــورة فى كتاب « سر الذخيرة » ۰

---

(1) ذ ــ ق/2 ص 523 مخ القاهرة ۰

(2) المعجب ص 146 ۰

والذى نستنتجه من قول أبى الحسن ابن بسام أنه أفرد هذا الكتاب الذى سماه « سر الذخيرة » لشرح بعض المسائل الأدبية ، وتناول بعض المقطوعات الشعرية والنثرية بنوع من التفسير والتعقيب لا يتسع لهما كتاب الذخيرة .

وتبدو المسائل الآن واضحة أمامنا أشد الوضوح : فابن بسام قد ألف كتاب الذخيرة ليكون موسوعة أدبية كبيرة تشتمل على كل النماذج الأدبية الرفيعة التى أنتجها أدباء الأندلس فى القرن الخامس الهجرى ، وعلى ما كان ذا اتصال وثيق بها من الأخبار والوقائع المستطرفة ، والحوادث التاريخية المتأثرة بها ، أو المؤثرة فيها .

وهو حين رام أن يكون الكتاب تحفة مستكملة لمنهج التأليف الرصين ، عمل أقصى ما فى وسعه ليكون خالصا من الشوائب ، سليما من المآخذ التى قد تنقص من قيمته أو تغض من قدره . ولذلك لم يورد فيه الأشعار التى قيلت فى الهجاء — الا مالم يجد سبيلا الى تحاشيه — ، ولم يضمنه شيئا من الموشحات ، لأن هذه الأعاريض ، كما يقول ، ليست مما يجدر انشاده فى المجلدات التى هى من نوع كتاب الذخيرة ، ولم يتعرض فيه لشىء من الشرح والتفسير ، اذ اشترط على نفسه ، منذ البداية أن يورد الأخبار والأشعار دون أن يفك معماها ، فى شىء من لفظها ولا معناها . (1)

ولكنه كان مدركا حاجة الناس الى شرح يجلو معنى تلك الألفاظ والمعانى ، ويوضح المستغلق من الأشعار والأخبار ، فألف كتابا سماه « سر الذخيرة » .

وأحس بأن اهمال الأشعار التى قيلت فى الهجاء ، واستبعادها من المؤلفات ، ادانة قاسية لها ، وأن الاقتصار على تقويمها من الناحية

(1) ذ — 1/1 ص 6 .

الأخلاقية وحدها ، يؤدى الى حرمان الأجيال التالية من شعر ربما كان على جانب كبير من الفن والجودة ، ولذلك جمع كل القصائد الهجائية التى صان كتاب الذخيرة عنها ، وأفرد لها كتابا خاصا سماه « ذخيرة الذخيرة » .

وهو قد رأى أنه مع بعض كبار الأدباء الأندلسيين بين موقفين : اما أن يطنب فى الحديث عنهم ليستوفى محاسنهم فيطول به الأمر ، ويختل توازن كتابه ، ويخرج بذلك عن القصد ، واما أن يعاملهم معاملة باقى الأدباء الذين ليسوا من طبقتهم ، وليس لهم انتاج يساوى انتاجهم الأدبى من حيث الكم ، والنوع ، فيكون قد ظلمهم ، وهضم حقهم ، وسلك معهم سلوكا غير حكيم ، لذلك رأى من الأصوب أن يفرد لهم كتبا خاصة يتناول فيها جميع جوانب حياتهم الأدبية ، وذكر لنا من تلك الكتب أربعة هى التى سبق ذكرها . ونذكر أنه فى ختام الفقرة التى أشار الى تلك الكتب فيها ، قد أخبرنا بأنه جمع كذلك أدب « سائر أعيان الوزراء الكتاب » . (1)

ولدينا فى قضية مؤلفات ابن بسام سؤالان اثنان لا بد من طرحهما:

— أولا : هل لابن بسام كتب أخرى غير التى ذكرها ؟

— ثانيا : متى أصدر هذه الكتب ؟

فأما السؤال الأول فلا نملك الاجابة القاطعة عنه ، وحسبنا أن نلاحظ أن كل هذه الكتب التى تحدثنا عنها قد ورد ذكرها فى كتاب الذخيرة الذى نعرف أن المؤلف قد فرغ من تأليفه حوالى عام 503 أو 504 ه على أبعد تقدير . فاذا عرفنا أنه توفى حوالى سنة 542 ه ، فاننا نستبعد جدا أن يمتنع رجل كابن بسام عن الكتابة ، وأن يحبس قلمه مدة أربعين سنة أو نحو ذلك .

(1) ذ — ق/2 — ص 303 مخ القاهرة .

الآداب الأندلسية أنه سيبعث من شنترين قاصية الغرب من ينظمها قلائد في جيد الدهر » . (1)

بل ان أكبر دليل على شخصية ابن بسام القوية ، التى لا تكون العزيمة الصادقة الا مظهرا من مظاهرها ، هو امتعاضه لضعف الشخصية الجماعية الأندلسية التى لاحظها فى تعلق مواطنيه بالأدب المشرقى ، وانصرافهم عن أدبهم الجيد ، فنهض ليدافع عن تراث بلاده ، ويبرهن على تفوقها ، ويخلد مآثر كتابها وشعرائها .

ولا نحسب أن أحدا يمارى فى أن هذا العمل ما كان ليصدر عن رجل خائر العزم ، متداعى الشخصية .

ثم اننا نجد أمثلة أخرى عديدة عن هذه العزيمة الصلبة ، والارادة الثابتة فى الشجاعة المثالية التى استطاع أن يتغلب بواسطتها على المحنة القاسية التى ابتلى بها ، فلم يستكن للضعف والخمول ، بل صمم على تجاوز آثار البلية السوداء ، وان بقيت جروحها العميقة فى قلبه ، وتجرد لنشاط كبير ، بعضه أدبى أسفر عن كتاب « الذخيرة » وعن كتب أخرى كثيرة تناولناها بالحديث فى هذا الفصل ، وبعضها مهنى سياسى ، لم نتوصل الى معرفة طبيعته بالتدقيق ، ولكنه مما يصح أن يوصف « بالأعمال السلطانية » التى ذكر المؤلف أنه كان يتصرف فيها .

ويكفى المؤلف فخرا فى هذا المجال أن يوفق الى تأليف كتاب الذخيرة، وكتب أخرى سائرة فى ركابه ، وأن يتصرف فى الأعمال السلطانية ، وكل ذلك عقب الحوادث العظيمة التى هزت حياته هزا عنيفا ، والتى كان من أيسر نتائجها المعروفة لدينا أنه خرج من بلاده صفر اليدين من كل حطام الدنيا ، ليس له الا الأدب ، « والأدب حامله أضيع من قمر الشتاء » .

(1) المغرب ج 1 ص 418 نقلا عن الحجارى فى المسهب .

وأما شدة الامتحان الذى قلنا انه مما يميز حياة ابن بسام ، فاننا لا نتصور أنه يمكن أن يصاب الانسان ، بعد الموت ، بمصيبة أقسى وجعا ، وأشد وقعا ، من احتلال الأعداء لبلاده ، واتخاذها مسرحا لجرائمهم الفضيعة ، وأعمالهم الدنيئة ، واضطراره الى الخروج منها فارا بمهجته ، ومهج أفراد أسرته ، تاركا وراءه كل شىء .

فاذا كان هذا الانسان ممن كان ينعم بنصيب وافر من الدعة والسكينة ، والرخاء والاطمئنان ، هيأتها له ظروف منشئه ، وسمو منزلته ، ونبل محتده ، ويسر معيشته ، فان تحوله المفاجىء وانتقاله السريع من الجاه الى الخمول ، ومن العز الى الذل ، ومن الثروة الى الفقر المدقع الذى لا يجد معه ما يسد به الرمق ، يجعلان المصيبة حينئذ أشد ، والجرح أعمق فى النفس ، وأبعد غورا فى القلب .

وتلك كانت حال ابن بسام بعد سقوط مدينة شنترين . ويعلم الله أنه امتحن بأشد الامتحان، وابتلى بأقصى أنواع البلاء .

وعلى الرغم من كل ذلك، لم يرق ماء وجهه، ولم يستكن لذل، ولم يسم نفسه أية خطة تأباها عزته التغلبية.

ولقد ادعى بعض الكتاب المحدثين، ومنهم المستشرق الاسبانى غنثالث بالنثيا، مسايرا المستشرق الهولندى رينهارت دوزى، بأن ابن بسام كان يكيل المديح فى تلك التراجم التى افتتح بها فصول كتاب الذخيرة لمن جاد عليه بالمال، وتلطف دوزى مع ابن بسام فقال ان ما كان يتقاضاه ابن بسام من الرجال الذين ترجم لهم بسخاء فى كتابه يشبه ما يتقاضاه المؤلفون اليوم من أصحاب دور النشر مقابل أتعابهم . (1)

وهذه التهمة التى أوردها أيضا بعض الكتاب العرب المعاصرين ، فيما كتبوه عن ابن بسام، قديمة ترجع الى تاريخ كتابة الذخيرة، بل الى

(1) تاريخ الفكر الاندلسى ، لبالنثيا ، ص : 280 .

السنوات التى كان ابن بسام عاكفا أثناءها على جمع مادة الكتاب، وقد لخص لنا هو نفسه هذه المسألة غاية التلخيص فى القسم الثالث من كتابه.

قال ابن بسام فى الفصل الخاص بالأديب أبى حاتم الحجارى : « ولما ابتدأت بتحرير هذا الكتاب، وأنا يوما بقرطبة، نظرت فى مبيضات كانت عندى لأهل هذا الاقليم فلم أجد لأبى حاتم فيها شيئا من منظوم ولا منثور، فاستهديت قطعة من أشعاره، وما عسى أن يتعلق بها من ملح أخباره، وتكرر عليه رسولى هنالك، فمطلنى فى ذلك، فكتبت اليه رقعة أقول فى فصل منها:

« قد تواترت (كذا) عليك النبأ انى جمعت من الرسائل الأندلسية، والأشعار العصرية، جملة موفورة لطوائف كثيرة، فمن تحقق عندى أن حليته التى يتحلى بها من صوغ طبعه، و (ان) حلله (التى) ينشرها من نسج فكره، وأضربت عن من (كذا) ارتبت، اذ باعة الشعراء أكثر من عدد الشعر، ولما كنت أبا حاتم خاتمة أئمة هذا الشأن، أحببت أن أجعل كلامك واسطة هذا الديوان، الا أنى رأيت لك من الامتناع بتلك الرقاع، ما حدثت (؟) عليك (كذا) أنك قلت: هذا ابن بسام لما أخرج من بلاده ، وصفرت يده من طارفه وتلاده، وقدم من (كذا) قرطبة بقدم الضرورة، على تلك الصورة، يريد أن يشحذ المدية، فى أبواب الكدية، فاتخذ هذه الشذور القلائد، سببا أن يسبى عزار (لعلها غزار) الفضائل من حجر أربابها ،ويسلبها عن أصحابها،.... وقد أبعدت مرماك ان كنت ظننت بى ذلك، وكلا أبا حاتم فانك الى الخبر الظالم ان نسبتنى لهذا العجز، .... فلما وردته الرقعة، زم عن الجواب قلمه، وكلف الايجاب قدمه، وورد على فى حينه، (ونثر ؟) مبيضاته بين يدى، فما تخيرت منه قوله ...» (1)

---

(1) ذ — ق/3 — ص 361 مخ . فوتة . والنص فاسد فى النسخة التى بين ايدينا ، وقد حاولنا تقويمه ما استطعنا،واثبتنا بعض الالفاظ كما هى واشرنا الى عدم استقامتها بلفظة (كـذا) وعلامة الاستفهام .

فهذه التهمة قديمة، ولعل دوزى — وهو أول من أثارها، قد استنتجها من هذا الكلام لابن بسام، ونحن رأينا كيف ثار المؤلف على هذه التهمة، وردها على صاحبها، ولقد بلغ من تأثر أبى حاتم الحجارى بهذا الرد، ان لم يكتف بالجواب عن رقعة ابن بسام، بل ذهب اليه بنفسه، ونثر بين يديه مقطوعاته الأدبية من الشعر والنثر .

ونحن لا ننفى أن يكون ابن بسام يقبل جوائز رجال الدولة وصلاتهم، وانما الذى نستبعده كل الاستبعاد، بل لا نرى له أى وجه من وجوه الصواب، أن يبيع ابن بسام قلمه، فيدبج المدائح، أو « يكيل المدح » كما قال صاحب تاريخ الفكر الأندلسى، مقابل تعويضات يتلقاها من الممدوحين .

رحم الله ابن بسام، أحب الأدب فألم بعيونه وروائعه، وامتحن فصبر، وكتب فأجاد، وكان فى جميع أحواله، جم التواضع من غير استكانة ولا خنوع، مدركا لقدر نفسه من غير تكبر أو غرور .

الفصـــل الثـانى

كتب التراجم والمختارات فى المشرق والأندلس

(من بداية التأليف فيها الى نهاية القرن السادس الهجرى)

محتويات الفصل الثانى

(كتب التراجم والمختارات فى المشرق والأندلس)

- أدب التراجم والمختارات
- مؤلفات المشارقة فى التراجم والمختارات
- كتب التراجم والمختارات الأندلسية
- بين المؤلفات المشرقية والمؤلفات الأندلسية

أدب التـــراجم والمختارات

ان المتتبع لحركة التأليف العربية منذ انطلاقها مع بدايات العصر العباسي الى مشارف النهضة الحديثة لا يملك الا أن يلاحظ نوعا من التأليف، هو مزيج من الأدب والتاريخ، شغل به الأدباء العرب أنفسهم فمنحوه أهمية بالغة لا نكاد نجد ما يدانيها فى آداب الأمم الأخرى ٠

ان تأليف مئات الكتب، التى ربما اشتمل بعضها على عدد كبير من الأجزاء للتعريف بأرباب كل فن، وتتبع أخبارهم، وقص حيواتهم، ظاهرة تلفت الانتباه ٠

ولعلنا لا نكون بعيدين عن الصواب اذا ذهبنا الى أن هذا النوع من التأليف امتداد طبيعي لما اشتهرت به القبيلة العربية قديما من حرص على حفظ الأنساب، حرصا تجاوز الناس الى الحيوان فكان النسابون يعرفون الأسر معرفة دقيقة ويرفعون نسب أى فرد من أفراد القبيلة الى أبى القبيلة كلها أو الى الفروع الأولى من الأصل العربى المشترك، كما كان فيهم من يعرف أنساب الخيل (1) ويتتبع نسلها ويحفظ مواليدها ووفياتها بدقة تدعو الى الاعجاب ٠

فاذا أضفنا الى هذه الاعتبارات شدة اعـتزاز العرب بشعرائهم وخطبائهم، ومبلغ ولوعهم بالأدب عامة والشعر خاصة وهو ديوان العرب كما كان ينعته المتقدمون، استطعنا أن نستنتج بسهولة مقدار ملاءمة هذا النوع من التأليف للنفسية العربية من حيث أنه يتيح لها أن تستكمل ما تجده من لذة فى تذوق الشعر والأدب، بالاطلاع على حياة الأديب، ومعرفة مناسبة القصيدة أو الرسالة أو غير ذلك من الانتاج النثرى ٠

ونحن نريد فى هذا الفصل أن نتعرف الى أدب التراجم والمختارات بتتبع المراحل التى مر بها حتى نصل الى ابن بسام وذلك لتحديد مكانة

---

(1) انظر — على سبيل المثال — كتاب: انساب الخيل لابن الكلبى ٠

كتاب الذخيرة من المؤلفات التى هى من نوعه، وكشف مميزاته، ان كانت له مميزات .

تـــراجم ومختـــارات

من الواضح أن التراجم والمختارات ليست بالضرورة شيئا واحداه فهناك نوع من التأليف انفرد بالمختارات فهو لا يحفل بأخبار الشاعر أو الأديب، ولا يهتم بترجمة أصحاب القصائد أو القطع النثـــرية، وانما ينحصر همه فى اثبات ما يختاره من الشعر أو النثر ــ وأغلب ما يكون ذلك شعرا ــ وفقا لترتيب معـــين، ومـــن هذا الـــقبيل: المفضليات، والأصمعيات، والحماسات وغيرها...

كما أن هناك نوعا آخر من التأليف انحصرت مهمته فى ايراد تراجم العلماء وأرباب كل فن من الفنون، فهو لا يعنى فى كثير أو قليل باعطاء نماذج من انتاج من يترجم لهم، وحسبه سرد شـــتى الأخبار ومختلف الروايات التى لديه عن حياة العالم أو الأديب من ولادته الى وفاته بل الى ما بعد الوفاة فى بعض الحالات .

واذا كان الذى يعنينا فى دراستنا هذه هو نوع آخر من التأليف يختلف اختلافا بينا عن النوعين المذكورين، من حيث هو مزيج منهما، تعنيه النماذج والمختارات كما تعنيه التراجم، ثم يكون التفاوت بعد ذلك فى مقدار العناية بهذا الجانب أو ذاك، فيكون فى الترجمة ايجاز أو أطناب، ويكون فى الاختيار افاضة أو اقتضاب، نقـــول اذا كـــان الذى يعنيننا بالدرجة الأولى هو هذا النوع الذى مزج بين الفنين، فان الكتب التى خصصت لأخبار الأدباء وطبقاتهم ذات صلة قوية بموضوعنا ومن هنا كان علينا أن لا نهملها كل الاهمال.

منشـــأ فكـــرة التـــرجمة للأشخاص

الترجمة للأشخاص والتاريخ:

لو دققنا النظر فى حقيقة الترجمة للأشخاص لألفينا أنها لا تخرج عن كونها نوعا من التاريخ، وانما هى تاريخ محدود متأثر بسيرة الحياة (التاريخ العام) وقد يؤثر من قريب أو من بعيد فيها، وكم كان ســـهلا فى تلك العصور السحيقة أن يؤثر الفرد الواحد فى تاريخ محيطه، فقد تقع الحرب بين طائفتين من الناس فتمتد عدة سنوات، ويكون لها أكبر الأثر، وأخطر النتائج الاجتماعية والاقتصادية والأدبية .... ويكون المتسبب فيها راع أو جارية يحفظ لنا التاريخ اسميهما وليـــس لديهما شىء يؤهلهما لتبوا هذه المنزلة فى سجل الخلود .

ان حياة الأفراد عموما هى نوع من التاريخ، وللتاريخ مستويات، فاذا كان هذا الفرد أميرا، أو قائدا، أو عالما، أو أديبا، أو صاحب انتاج ما، فان لحياته علاقة بتاريخ المستوى الذى هو فيه، تاريخ الحكم، أو تاريخ الحرب، أو تاريخ الأدب أو الفن الذى ينسب اليه .

وهكذا فان سير الأشخاص بهذا المعنى قد نشأت مع التاريخ فرافقته وكانت فى أحيان كثيرة عنصرا من عناصره .

فاذا نحن تجاوزنا هذا المعنى المشتمل على مدلول اصطلاحى واضح فاننا نستطيع أن نجد ملامح الترجمة هذه فى مظاهر أخرى متعددة، منها ما هو قريب مما يعرف الآن بالترجمة الذاتية، وهو بدون شك ــ فى مظهره الساذج البسيط ــ قديم قدم الانسان اذ أنه من عادة الناس أن يتحدثوا عن أنفسهم حديثا تمليه المناسبات كما تمليه الغريزة المتأصلة فى الآدمى، والمتمثلة فى الميل الى الحديث عن النفس، وسرد الذكريات، تـــعبيرا لا شعوريا عن الحنين الى الماضى، والتشبث بالبقاء .

وقد نجد للترجمة أيضا ملامح تتصل أشد الاتصال بتقاليد الأسرة البشرية منذ أقدم الأزمنة، بل فى تقاليد العلاقات الاجتماعية على وجه العموم. ان الانسان اذا كـان غـائبا أو ميتـا يتذكره أهله، ويتذكره أصدقاؤه، فيتحدثون عنه، وقد يتناول الحديث جوانب هامة من حيـاة الغائب أو الفقيد مما يكون أقرب الى موضوع الترجمة للأشخاص الذى هو موضوع دراستنا فى هذا الفصل. ولعلنا لسنا فى حاجة الى مزيد من التفصيل فى هذه المسألة، فالأم التى تقص على أبنائها ظروف وفاة والدهم قاصدة من وراء ذلك حفزهم على الأخذ بثأره، أو على الاقتداء به ... هى فى كل الأحوال تمارس نوعا من الترجمة لحياة زوجها .

وهكذا يتبين لنا بـوضوح أن الترجمة للأشخاص قد ولـدت مع الانسان ورافقت التاريخ فهى جزء منه، وعنصر بارز من عناصره .

أدب التراجم لـدى الأمم القديمة

ليس المقصود أن نتعمق فى دراسة أدب التراجم لدى الأمم القديمة، لأن الغرض الرئيسى هو دراسة هذا الفن فى الأدب العربى، وانما أردنا أن نشير الى أن أدب التـراجم، ان لم يبلـغ من الازدهار لدى الأمم الأخرى، ما بلغه عند العرب، فانه مع ذلك لم يكن مجهولا ولا منعدما ، وذلك منذ أقدم العصور .

ففى الحضارة الاغريقية نجد فى القـرن الأول الميلادى المؤرخ « بلوتارك » يعنى بتراجم العظماء ويؤلف فى ذلك كتاب « سير عظماء اليونان والرومان » قاصدا من وراء ذلـك حث الشباب على الاقتداء بالرجالات الذين شيدوا مجد اليونان .

وفى الحضارة الرومانية نجد الكاتب (سويتنيوس) يؤلف فى فـن التراجم والسير أيضا كتاب « حياة الاثنى عشر امبراطورا رومانيا » .

بل اننا نجد لدى الرومان واحدا من أشهر مؤرخيهم يؤلف فـى « اغريكولا » الذى هو صهر للقائد يوليوس كتابا يقص فيه سيرته ويسرد كل الأخبار المتعلقة ببطولاته، فاتحا بذلك عهد الترجمة أو السيرة التى تكون موضوعا منفردا لكتاب بأكمله .

منشأ أدب التـراجم فـى الحضارة العربية :

1) ـ السـيرة النبـوية :

ان أول ترجمة جديرة بهذا الاسم فى الأدب العربى هى السيرة النبوية، وهى أوسع ما فى الأدب العربى من السير، وأكثرها شيوعا وشهرة، وهى فى الحقيقة سيرة الاسلام وأول مدونة لكبريات ملاحمه، والموسوعة الشاملة لجميع المسائل والقضايا التى واجهته وذلك طوال حياة الرسول عليه الصلاة والسلام .

ولم تكن الحوافز التى دفعت بأوائل الصحابة الى الخوض فى سيرة النبى غريبة عن اهتمامهم الأصلى بجمع الأحاديث النبوية. ذلك ان السنة النبوية، كما هو معروف، من المصادر الأساسية فى التشريع الاسلامى . والسنة هى « كل شىء » فى حياة الرسول، هى سلوكه اليومى كما هى أوامره ونواهيه، بل هى كل فعل يقوم به سواء كان الفعل ايجابيا أم سلبيا. فلكل مواقفه مدلولات شرعية سواء أكان التعبير عن تلك المواقف بالكلام، أم بالاشارة، أم بالسكوت .

واذن فما أحوج المجتمع الاسلامى، وما أحوج المهتمين باستخراج النظم الشرعية الى معرفة سنة الرسول، ومن هنا الى معرفة سيرته .

واذا كانت سيرة النبى بالمعنى الاصطلاحى للكلمة لم تبدأ فى الظهور الا فى أواخر القن الأول للهجرة، فانه من المؤكد أن رواة الحديث والصحابة عموما كانوا يمارسون فى مجالسهم اليومية نوعا من « عمل السيرة » حين يتذاكرون فى الحوادث التى تمر بالمجتمع الاسلامى، وفى أعمال الرسول .

ومن أوائل من ألف فى سيرة الرسول، عروة بن الزبير المتوفى سنة 92هـ وأبان بن عثمان المتوفى سنة 105هـ ، ووهب بن منبه اليمنى المتوفى سنة 110 هـ، وعاصم بن قتادة المتوفى سنة 120 هـ، وشرحبيل بن سعد المتوفى سنة 123 هـ، وعبد الله بن حزم المتوفى سنة 135 هـ، وغيرهم من أهل البصرة والكوفة وسائر الأمصار الاسلامية. وكان أكثر كتاب السيرة من أهل المدينة، وتفسير ذلك يسير اذا أخذنا بعين الاعتبار سهولة الحصول على عناصر السيرة فى بيئة الرسول ومهجره وعاصمة الاسلام الأولى .

وأشهر كتاب فى سيرة النبى عليه الصلاة والسلام هو كتاب ابن هشام، وان لم يخل عصر من العصور من كتب فى السيرة تعرضها بطريقة جديدة، أو تختصرها، أو تشرحها. وقد ظل التأليف فى هذا الموضوع حيا نشيطا عبر العصور، يعكس فى كل عصر سمات المسلمين ومنهجهم فى التفكير وطريقتهم فى التأليف . ولم يشذ عصرنا هذا عن ذلك فى شىء ، فألفت كتب كثيرة عن حياة النبى، لعل من أشهرها، وأكثرها تداولا بين الناس كتاب الدكتور حسين هيكل الذى سماه « محمد » وكتاب الدكتور طه حسين الذى سماه « على هامش السيرة »

2) ــ جمع الأحاديث النبوية كان له الدور الحاسم فى نشأة أدب التراجم .

بعد وفاة النبى عليه الصلاة والسلام احتاج التشريع الاسلامى الناشىء الى الأحاديث النبوية لفهم القرآن كما احتاج اليها للبت فى المسائل الطارئة التى لم يتعرض لها القرآن . ومعروف أن النبى عليه الصلاة والسلام كان ينهى أصحابه عن تدوين أحاديثه خشية اختلاطها بكلام الله .

وقد بدأ التزييف على النبى فى وقت مبكر من تاريخ الاسلام نتيجة للفتن التى نشطت بين المسلمين، واختلاف الفرق فى الرأى، فكان من بين المسلمين من يضع أحاديث ينسبها الى النبى قصد ترجيح وجهة نظره ،

أو تغليب اتجاه على اتجاه، أو تأويل أحكام الشرع بما يخدم مصالحه .

وقد فطن العلماء الى هذا التزييف فى وقت مبكر أيضا فهبوا للتدقيق فى الأحاديث النبوية وتدوينها بعد اسقاط الزائف والمكذوب منها وقد هداهم الحرص الشديد على غربلة الأحاديث واسقاط كل ما يتطرق اليه الشك منها الى منهج هو غاية فى الدقة والحذر والاحتياط، فاشترطوا ــ فيما اشترطوه ــ لتوثيق الأحاديث، تسلسل اسنادها الى النبى عليه الصلاة والسلام، كما اشترطوا أن لا تكون فى سيرة أى واحد من الذين تكون أسماؤهم ضمن سلسلة السند ما يطعن فيه من حيث شدة الصدق فى سائر حياته اليومية، ودقة التحرى، واستقامة السلوك، ولم يكن بد ــ لمعرفة كل هذه الجوانب ــ من تتبع الحياة الخاصة لكل فرد يروى عنه الحديث، وتجميع أكبر قدر من الأخبار المتصلة بها، والشهادات التى تصدر عن أقاربه وأصدقائه وكل من أتيح له أن يعرفه من قريب أو من بعيد .

وطبيعى أن لا تكون تراجم الصحابة رضى الله عنهم هى المقصودة فى حد ذاتها، اذ أن الاهتمام بها لم يكن أكثر من وسيلة منهجية لخدمة الغرض الأساسى الذى هو رواية الأحاديث الصحيحة، لذلك كانت هذه التراجم تأتى فى الغالب مختصرة موجزة تمثل خلاصة مركزة لما وصل اليه البحث فى مقدار ما يستحقه صاحبها من ثقة علماء الحديث، فهى أشبه بحيثيات الحكم منها بالخطوط المتكاملة لحياة بشرية.

على أننا لا نلبث أن نجد فن كتابة التراجم يأخذ نوعا من الاستقلال والتفرد وان ظل مرتبطا بالسيرة النبوية وتاريخ الاسلام . ويمثل ابن سعد المتوفى سنة 230 هـ هذا الاتجاه خير تمثيل فى كتابه « الطبقات » وذلك حين أفرد جانبا منه لتراجم الصحابة الذين شهدوا بدرا، وتراجم المهاجرين والأنصار الذين لم يشهدوها، وتراجم أهل مكة، والطائف واليمامة.... من الصحابة وهذا الى جانب تخصيصه جزأين من الكتاب للحديث عن سيرة النبى عليه الصلاة والسلام وعن غزواته . و « طبقات » ابن سعد من أشهر الكتب فى هذا الباب وأقدمها وأوثقها وهى فى أخذها

بهذا الأسلوب الجديد الذى يهتم بتراجم الصحابة الى جانب الاهتمام بالسيرة والمغازى تختلف عن الطائفة الأخرى التى تحصر اهتمامها فى الجانب الثانى وحده، والتى يمثلها الواقدى المتوفى سنة 207 هـ فى كتاباته عن « المغازى » و « فتوح الشام » وغيرها من الفتوحات الاسلامية •

ويخطو هذا الفن خطوة أخرى مع الامام البخارى المتوفى سنة 256 هـ صاحب الصحيح المشهور وذلك فى كتابه « تاريخ البخارى » الذى جعله فى ثلاثة أقسام، وقد رتب أكبر أقسامه على الحروف، ورتب أوسطها على السنين •

وهكذا نشأ هذا الفن فى ظل السيرة النبوية والحديث النبوى ثم ما لبث أن تطور فأصبح أحد الموضوعات الهامة فى حركة التأليف أثناء القرون الأولى للحضارة العربية الاسلامية• وما ان نصل الى منتصف القرن الخامس الهجرى حتى نجد فن التراجم قد اكتملت ملامحه، واستقامت عناصره فى كتاب « الاستيعاب فى معرفة الأصحاب » لابن عبد البر القرطبى، وقد ضمنه ثلاثة آلاف وخمسمائة ترجمة رتبها ترتيبا هجائيا حسب التسلسل المغربى•

ولم يتوقف التأليف فى التراجم للصحابة وطبقاتهم حتى كان القرن السابع الهجرى، فألف المؤلف المشهور عز الدين بن الأثير معجما كبيرا فى تراجم الصحابة ضمنه نحو سبعة آلاف وخمسمائة ترجمة وسماه « أسد الغابة فى معرفة الصحابة » •

على أن أكبر موسوعة فى تراجم الصحابة لن ترى النور الا فى القرن التاسع الهجرى، وقد تمثلت فى الكتاب الضخم الذى ألفه ابن حجر العسقلانى وسماه « الاصابة فى تمييز الصحابة » وهو مرتب على الحروف الهجائية وقد استفاد فيه ابن حجر من كل الذين سبقوه الى التأليف فى هذا الباب فنبه الى الأخطاء التى وقعوا فيها واستدرك عليهم فى جهات كثيرة •

ازدهار التأليف فى تراجم الأشخاص
من أهل كل فن وأصحاب كل صنعة •

من الأشياء التى تنبه اليها الباحثون فى الحضارة العربية الاسلامية منذ أمد بعيد ، شدة تأثير العلوم الشرعية فى مختلف العلوم والفنون التى نشأت بعد الاسلام • ومرجع ذلك كما هو الآن شائع الى أن أكثر تلك العلوم والفنون انما نشأت بادىء ذى بدء لخدمة الأغراض الدينية بالذات • فالحركة اللغوية والأدبية وما ترتب عليها من نشاط واسع فى جمع مفردات اللغة ، وتدوين أشعار الجاهليين ، وغير ذلك ، انما كانت فى الأصل نشاطا هامشيا يهدف ، بالدرجة الأولى ، الى توفير العناصر المساعدة على فهم القرآن والسنة ، وحسن تأويلهما ، وضبط المصطلحات الواردة فيهما ، واستنباط الأحكام الشرعية منهما •

وقد شبت تلك الفنون عن الطوق ، واستقلت بذاتها ، ثم بقيت تحمل على مر القرون سمات نشأتها الأولى ، من رواية ، واسناد ، وغير ذلك •••

ولعل أدب التراجم الذى نحن بصدد البحث فيه من أشد تلك العلوم والفنون تأثرا بالنشأة الأولى ، اذ ظل كتاب التراجم الى عصور متأخرة يترسمون المنهج الذى سلكه رواة الأحاديث فى الاحتفال الكبير بالاسناد والاعتماد على الروايات •

على أن ذلك لم يمنع أدب التراجم من التطور السريع والنزوع المبكر الى الاستقلال ، اذ سرعان ما انقطعت العلاقات بينه وبين علم الحديث وأخذ العلماء يؤلفون فى تراجم أرباب كل فن وصنعة ، فتكاثرت المؤلفات ، وتنوعت ، وشملت الشعراء ، كما شملت النحاة ، والفقهاء ، والقضاة ، والفلاسفة ، والأطباء •••

ومما يلفت الأنظار حقا فى حركة تأليف التراجم ، أن جهود العلماء المسلمين قد تضافرت فى المغرب والمشرق ، عبر القرون، لتغطى كل مراحل الحضارة العربية الاسلامية ، بحيث وجدنا أكثر المؤلفين يجعلون كتبهم على الكتب التى ألفت قبلها ، فتجنبوا بذلك مساوىء التكرار ، وأتاحوا لكل جيل أن يعرف أعلام الجيل الذى سبقه • ولم يمنع هذا الاتجاه بعض العلماء من التفرغ للمؤلفات الشاملة التى تترجم لأعلام فن من الفنون ، من نشأته الى عصر المؤلف • ويمثل هذا النوع من النشاط أحسن تمثيل كتاب « ارشاد الأريب الى معرفة الأديب » وهو المعروف اليوم بمعجم الأدباء لياقوت الحموى المتوفى سنة 626 هـ •

وسنستعرض فيما يلى أهم كتب التراجم والمختارات التى ألفت فى المشرق والمغرب الى نهاية القرن الخامس الهجرى وهو التاريخ الذى ألف فيه ابن بسام كتابه •

أولا : مؤلفات المشارقة فى التراجم والمختارات (1)

1) — طبقات الشعراء — لابن سلام الجمحى (2)

يعتبر كتاب « طبقات الشعراء » — الذى حققه الأستاذ محمود محمد شاكر وطبعه تحت عنوان « طبقات فحول الشعراء » — من أول ما ألف فى تراجم الشعراء • ورغم أن ابن سلام قد توفى فى القرن الثالث

(1) سبق لنا ان اشرنا الى أن الكتب التى تهمنا هى كتب تراجم الادباء المقتصرة على تلك اوكتب التراجم التى تعنى ايضا بايراد نماذج من انتاج المترجم له • اما الكتب المقتصرة على المختارات من امثال كتب الحماسة وغيرها فليست موضوع هذا البحث •

(2) محمد بن سلام الجمحى ، ترجم له ياقوت فى معجمه : 204/18 •

الهجرى (231 هـ) أى بعد أن لمعت أسماء كثير من الشعراء المحدثين ، فانه قصر كتابه على الشعراء الأقدمين من الجاهليين والاسلاميين •

ولم يقصد ابن سلام الى استقصاء أخبار جميع الشعراء الذين عاشوا فى الفترة التى حددها ، وانما اختار الفحول منهم ، الذين يكثر الاستشهاد بشعرهم •

وقد ضمن كتابه مقدمة نقدية على جانب كبير من الأهمية ، لأنها من أقدم ما كتب فى النقد الأدبى •

وقد حملها خلاصة رأيه فى أوليات الشعر العربى ، ورواياته وما أصابه من تزييف ، كما ضمنها آراءه فى النقد ، وما يحتاج اليه الناقد من ثقافة عالية متنوعة ، ودربة مؤكدة ، ومراس طويل •

واتجاهات ابن سلام النقدية واضحة فى منهج الكتاب نفسه فقد أعطى لمصطلح « الطبقات » الذى كان له مدلول زمنى فى تراجم الصحابة، محتوى نقديا قيميا ، حين قسم الشعراء فى كتابه طبقات وجعل فى كل طبقة الشعراء الذين تتجانس اتجاهاتهم فى قول الشعر •

وقد قسم كتابه الى قسمين : قسم للشعراء الجاهليين ، وقسم للشعراء الاسلاميين ، متجاهلا التقسيم الثالث الشائع فى وقته والذى يقتضى تسمية الشعراء الذين أدركوا الاسلام بالمخضرمين ، وكأنه يرى أن الشاعر لا يمكن أن يكون ، من الناحية الفنية ، الا جاهليا ، أو اسلاميا • لذلك ، فقد ضم بعض الشعراء المخضرمين من أمثال لبيد بن ربيعة وكعب بن زهير ، والحطيئة ، والنابغة الجعدى ••• الى فئة الجاهليين ، كما ضم عمرو بن أحمر الباهلى ، وأبا زيد الطائى وحميد بن ثور ••• وكلهم مخضرمون الى فئة الاسلاميين •

وقد ترجم لمائة وأربعة عشر شاعرا ، وتفاوتت تراجمه بحيث كانت تأتى فى بعض الأحيان وافية تعطى قدرا كافيا من المعلومات عن المترجم

له ، فتذكر نسبه وتاريخ وفاته ، وأخبار حياته ، كما تأتى فى أحيان كثيرة ناقصة ، شديدة الاقتضاب ، لا تكاد تغنى شيئا ، على أنه فى جميع الأحوال يعطى نماذج واسعة من شعر الشاعر ويورد له عينات معبرة من أجود انتاجه .

2) ـ الشعر والشعراء ـ لابن قتيبة (1)

كتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة هو أيضا من أقدم الكتب التى ألفت فى تراجم الشعراء الا أنه يختلف عن كتاب ابن سلام من حيث الاطار الزمنى ، وذلك أن ابن قتيبة قد صدر عن مبدأ المساواة بين الأدباء، فالشعر الجيد جيد مهما كان العصر الذى قيل فيه ، والشاعر المجيد ينبغى أن يهتم به بقطع النظر عن العصر الذى عاش فيه ، وهو مبدأ دافع عنه بحرارة فى مقدمة كتابه حيث يقول : « ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له ، سبيل من قلد ، أو استحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، والى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيت كلاحظه، ووفرت عليه حقه ، فانى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه فى متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب له عنده الا أنه قيل فى زمانه أو رأى قائله ، ولم يقصر الله العلم والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص به قوما دون قوم » الخ ... (2)

وانطلاقا من هذا المبدأ تناول ابن قتيبة أصنافا من الشعراء منهم الجاهليون ومنهم الاسلاميون ومنهم المحدثون والمعاصرون الذين لمعت أسماؤهم قبل وفاة ابن قتيبة فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى (ت 276 هـ) .

---

(1) عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ولد ببغداد 213 هـ وتوفى بها 276 هـ .
(2) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص 10 .

أما موضوع الكتاب ومنهجه فان ابن قتيبة يشير اليه فى المقدمة أيضا بقوله: « هذا كتاب ألفته فى الشعراء ، أخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم فى أشعارهم وقبائلهم ، وأسماء آبائهم ومن كان يعرف باللقب أو الكنية منهم ، وعما يستحسن من أخبار الرجل ويستجاد من شعره ، وما أخذته العلماء عليهم من الخلط والخطا فى ألفاظهم ومعانيهم ، وما سبق اليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخرون » . (1)

أما المقاييس التى تحكمت فى اختيار الشعراء الذين ترجم لهم فيشير اليها ابن قتيبة بقوله : « وكان أكثر قصدى للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم فى الغريب وفى النحو وفى كتاب الله عز وجل وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم » . (2)

ويعلل اهمال من أهملهم بقوله : « فأما من خفى اسمه ، وقل ذكره، وكسد شعره ، وكان لا يعرفه الا بعض الخواص فما أقل من ذكرت من هذه الطبقة » . (3)

وهكذا يتبين منهج ابن قتيبة بوضوح فهو قد قصد بتأليفه كتاب الشعر والشعراء غاية محددة تتمثل فى التعريف بالشعراء الذين يستعان بشعرهم فى فهم قواعد اللغة العربية وأحكام التشريع الاسلامى ومن هنا كان اهتمامه بأولئك الفحول الذين يكثر الاستشهاد بشعرهم فى هذه الأحوال .

أما خطة الكتاب فانها تختلف عن كتب الطبقات كما تمثلت فى كتاب ابن سلام الجمحى ، اذ أن ابن قتيبة لم يصنف الشعراء حسب المنازل ، وانما صنفهم تصنيفا زمنيا تقريبيا على أن ذلك لم يمنعه من ابداء آرائه

---

(1) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص 1 .
(2) السابق نفسه .
(3) السابق نفسه .

النقدية وآراء العلماء الذين سبقوه فى مكانة الشعراء الذين ترجم لهم وفى قيمة انتاجهم الشعرى .

3 ـ البارع فى أخبار الشعراء المولدين لهارون بن أبى منصور المنجم البغدادى (1)

كان هارون بن المنجم البغدادى ممن اهتموا بالكتابة فى هذا النوع من الأدب ، فن التراجم والمختارات ، اذ نرى أنه ألف كتابا فى أخبار النساء ، وألف كتابا مطولا فى أخبار الشعراء ثم اختصره بنفسه وسماه البارع فى أخبار الشعراء المولدين ترجم فيه لأكثر من مائة وستين شاعرا أولهم بشار بن برد وآخرهم محمد بن عبد الملك بن صالح . وقد قال فى مقدمة الكتاب : عملت كتابى هذا فى أخبار الشعراء المولدين ذكرت فيه ما اخترته من أشعارهم وتحريت فى ذلك الاختيار أقصى ما بلغته معرفتى وانتهى اليه علمى والعلماء يقولون : يدل على العاقل اختياره ... »

4) ـ كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى (2)

فى التراث العربى عدد من الكتب العظيمة التى يحار الانسان فى تصنيفها لكثرة ما تعرضه من المواضيع وتنوع ما تشتمل عليه من الأغراض . انها ضرب من الموسوعات التى تخوض فى كل فن وتعالج أكثر من موضوع . ولعل كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى واحد من أبرز هذه الكتب وأشهرها . ولقد ترددت قبل أن أقرر ادراجه فى هذا الفصل ، ولكن الذى حثنى فى النهاية على تجاوز التردد هو أن الكتاب ،

---

(1) هو احد بنى المنجم وكان مشهورا فى زمانه بالادب والفضل كما يقول المرزبانى فى معجم الادباء، وكان متقدما لدى الخلفاء ينادمهم ويحضر مجالسهم. توفى سنة 288 هـ .

(2) على بن الحسن القرشى ابو الفرج، المشهور بالاصبهانى من السلالة الاموية ولد سنة 283 بمدينة اصبهان ـ ومن هنا جاءت نسبته اليها ـ وتوفى فى بغداد سنة 356 هـ .

على الرغم من كل شىء ، من أهم مصادر اللغة العربية الى نهاية القرن الثالث الهجرى ، فى كل ما يتعلق بأخبار الشعراء ، وتراجمهم وعيون شعرهم . ولا نظن أن أحدا يريد أن يؤلف فى الشعر العربى وشعراء العربية الى أواخر القرن الثالث الهجرى ، يستطيع أن يستغنى عن الرجوع الى كتاب الأغانى .

وهكذا يبدو بوضوح أن الكتاب وان لم يقتصر على التراجم والأخبار فان هذا الجانب من أهم جوانبه وهو فى هذا الموضوع بالذات من أشهر المصادر العربية .

الكتاب :

كان الدافع الأول لأبى الفرج الأصبهانى فى تأليف هذا الكتاب نابعا من اهتمامات موسيقية بحتة كما يحدثنا أصحاب التاريخ . ذلك أن الخليفة هارون الرشيد كان قد طلب من بعض أهل الغناء فى بلاطه أن يختاروا له مائة من أجود الأصوات وأشهرها . ثم لما تولى الخلافة حفيده الواثق ، طلب من ابراهيم الموصلى أن يراجع تلك الأصوات التى اختيرت لجده . وأراد أبو الفرج الأصبهانى أن يتخذ من هذه الأصوات المائة منطلقا له فى كتاب يريد أن يجمع شعرها ويتقصى أخبار الشعراء الذين نظموها ، والمغنين الذين لحنوها ، ومجمل ما يتعلق بمجالس الغناء من أخبار وحكايات مستطرفة .

واذا كانت أمور الألحان والأصوات هى الخلفية الرئيسية لهذا الكتاب الضخم ، فان فائدته من الناحية الموسيقية البحتة لا تكاد تذكر بجانب فوائده الأخرى . ذلك أن أبا الفرج يذكر الصوت ثم ينطلق فى الحديث عن الشعر الملحن فيه ، ويتفق أن تكون المقطوعة أو القصيدة شبيهة فى معانيها أو مبانيها بقصيدة أخرى ، فيرويها ، ويترجم لناظمها ، ويذكر كل ما يعرفه من المناسبة التى قيلت فيها . واذا اتفق ان كان

ذلك الشعر يروى لشاعرين ، فان أبا الفرج يترجم لهذا كما يترجم لذلك، ويورد ما يعرفه من أخبار كل منهما .

ولقد مكنت هذه الطريقة فى الاستطراد والتوسع كتاب الأغانى من أن يكون ديوانا حافلا للأدب والأدباء ، ومرجعا ضخما من مراجع الحضارة العربية الاسلامية ، يجد فيه الباحث أشتاتا من الفوائد تشمل أنواع الطعام والشراب واللباس والعادات ... كما تشمل النظم الادارية والتقاليد السياسية ، والمسائل الدينية بله القضايا الأدبية التى هى المحور المركزى لهذا التأليف .

ويعنينا من الكتاب فى هذا الفصل جانبه المتعلق بالتراجم والمختارات .

وقد بلغ عدد المترجم لهم فى كتاب الأغانى نحو خمسمائة أديب ينتمون الى مختلف العصور من العصر الجاهلى الى العصر العباسى الأول .

ويتجلى اثر منشأ فن التراجم ، وتأثير الحديث فيه بوضوح اذ أن أبا الفرج يسند كثيرا من رواياته الى أصحابها .

أما التراجم التى يوردها فانها على جانب كبير من التحرى والتقصى وقد عول فى جمعها على الرواية الشفهية ، كما عول على المصادر المكتوبة التى كثيرا ما يشير اليها ، وهى بذلك صورة صادقة لما اشتهر به من علم غزير ، وتدقيق فى المسائل العلمية . وليس ذلك بغريب على رجل أنفق أكبر جانب من حياته ، خمسين سنة كاملة ، فى تأليف هذه الموسوعة الضخمة التى أغنت الوزير البويهى ، فى تنقلاته عن ثلاثين جملا كانت تحمل ما يحتاج اليه من الكتب ...

5) ــ يتيمة الدهر للثعالبى (1)

يمتاز هذا الكتاب من كتب التراجم التى سبقته بكونه مقتصرا على تراجم الشعراء الذين عاشوا فى عصر المؤلف ، واذا استثنينا كتاب ابن المعتز ، طبقات الشعراء المحدثين ، فاننا نرى أن أغلب ما ألف فى هذا الباب انما كان يتناول بالترجمة شعراء العصور الماضية ممن ذاع صيتهم واتسعت شهرتهم .

ولعل الثعالبى من الأدباء الذين تأثروا بالحملة التى شنها ابن قتيبة ــ كما أسلفنا ــ على الذين يهتمون بالقديم لقدمه ، ويهملون الجديد ولا ذنب له عندهم الا أنه جديد ، وفى هذا المعنى أيضا يقول الثعالبى فى مقدمة اليتيمة : « وقد سبق مؤلفو الكتب الى ترتيب المتقدمين من الشعراء والمتأخرين ، وذكر طبقاتهم ودرجاتهم ، وتدوين كلماتهم ، والانتخاب من قصائدهم ومقطوعاتهم ... وبقيت محاسن أهل العصر التى معها رواء الحداثة ولذة الجدة ، وحلاوة قرب العهد وازدياد الجودة على كثرة النقد غير محصورة بكتاب يضم نشرها ... » .

اننا أمام موقف واضح كل الوضوح اذ نرى صاحب اليتيمة ينتصر للمحدثين بتأليف كتاب فى تراجمهم ومختارات شعرهم .

ويحكى لنا فى المقدمة أيضا المراحل التى مر بها تأليفه للكتاب فيذكر أنه قديم الولوع بهذا النوع من الأدب اذ أصدر سنة 348 هـ « والعمر فى اقباله والشباب فى نمائه » أول « طبعة » ، بمعيار عصرنا ، من كتابه ، فلاحظ شدة اقبال الناس عليه ، وكثرة رواجه ، والالحاح فى استنساخه،

(1) الثعالبى: هو أبو منصور عبد الملك بن محمد المشهور بالثعالبى، توفى سنة 429 هـ من مؤلفاته المشهورة بالاضافة الى يتيمة الدهر، كتابه فقه اللغة وسر العربية .

ولما تقدمت به السن،شاء أن يكمل العمل ، وأن يبلغ به المدى الذى يحمده له، فعاد الى كتابه يوسع فى جوانبه ويستدرك فيه ما فاته ، ويدخل عليه ما يراه من تغيير فى الترتيب ، وتعديل فى التبويب ، حتى استقام له علــى الصورة التى نعرفه عليها اليوم ٠

وقد قسم الثعالبى كتابه الى أربعة أقسام :

1 ــ القسم الأول لشعراء الشام ومصر والمغرب والأندلس ، وقد تعمد تقديمه لشعراء الشام على غيرهم « لتبريزهم علــى سواهــم فى الشعر » ويعلل ذلك بقربهم من خطط العرب ولا سيما أهل الحجــاز ، وبعدهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العمران الخ ٠٠٠

2 ــ والقسم الثانى لشعراء العراق ٠

3 ــ والقسم الثالث لشعراء فارس ٠

4 ــ والقسم الرابع لشعراء خراسان ، وما وراء النهر ٠

ويتفق الذين تناولوا كتاب اليتيمة بالدراسة على أنه وفق الى أبعد حد فى اعطاء صورة واضحة شاملة عن الشعر فى القرن الرابع الهجرى، كما يتفقون على أن الثعالبى قد قدم لتاريخ الأدب العربى عامة والشعر منه خاصة خدمة جليلة حين عرف بمئات من الشعراء الذين لــولاه لمــا عرفت الأجيال التالية عنهم شيئا كبيرا ٠

على أن كثيرا من النقاد ومن جملتهم طه حسين فى تقديم كتــاب الذخيرة ، قد عابوا على الثعالبى احتفاله بالتنميق والصنعة ، كما عابوا عليه سطحيته واكتفاءه بالاطراء الفضفاض عند التعريف بالشعــراء ،

مغفلا فى كثير من الأحيان الجوانب المهمة من حياتهم ، تلك التى يمكن أن تلقى الضوء على انتاجهم الشعرى وتفسر بعض جوانبه الغامضة ٠ ومن هنا فان قيمة الكتاب النقدية تكاد تكون معدومة ٠

أما ابن بسام فانه على اعجابه بالثعالبى وبكتابه الى درجة أنــه لم يجد غضاضة ــ وهو الداعى الى عدم تقليد المشارقة ـ من التصريح بأنه يستأنس به فى تخصيص القسم الرابع من كتابــه للطارئــين على الأندلس ، يعيب عليه تقصيره فى الجانب التاريخى ، حين أحوج قارئــه الى طلب تلك المعلومات التاريخية ، الوثيقة الصلة بمواضيع الكتــاب ، فى مؤلفات أخرى ، وهذا من أكبر العيوب فى نظر ابن بسام الذى لجــأ فى كتابه الى ايراد فصول كاملة من كتاب مشهور فى التاريخ ، حتــى لا يحوج قارىء «الذخيرة» الى الرجوع الى كتب أخرى لفهم ما فيه مــن وقائع تاريخيــة ٠

أما التراجم التى يوردها الثعالبى فانها شديدة التفاوت تصل أحيانا الى مائة صفحة كما هو الشأن عند تعرضه لفحول القرن الرابع من أمثال أبى فراس الحمدانى ، وأبى الطيب المتنبى وغيرهما ، وتقل عند الحديث عن الشعراء الذين هم أقل شأنا وشهرة ، حتى لا تتجاوز بضعة أسطر ٠

وخلاصة الرأى عندنا فى كتاب اليتيمة أنه جليل القدر يستمد قيمته من تغطيته لمعظم شعراء المملكة الاسلامية فى القرن الرابع ، وأنه كتــاب للمختارات أكثر مما هو كتاب للتراجم ، ولعل الذين عابوا على مؤلفــه سطحية أحكامه ، ومبالغته فى المدح والاطراء ، قد ظلموه نوعــا مــا بتقويمهم لكتابه على أساس المعايير النقدية ، فى حــين أن اليتيمة كتاب مختارات أولا ، وكتاب تراجم بعد ذلك ، وليس كتابا نقديــا على أيــة حــال ٠

6) ـــ دمية القصر وعصرة أهل العصر :
لأبى الحسن على بن الباخرزى (1) المتوفى سنــة 467 هـ ٠

جعل الباخرزى كتابه ذيلا على كتاب يتيمة الدهر وقد ترجم فيه للشعراء الذين عاشوا أواخر القرن الرابع وأوائــل القــرن الخــامس الهجرى ، وقد اعتمد على طــريقة الثعالبى فى كتابه ، من حيث تقسيم المملكة الاسلامية الى مناطق جغرافية وان لم يتفــق معــه فى نوعيــة التقسيم اذ هى أربعة أقسام عند الثعالبى كما رأينا ، أما الباخرزى فقد جعلها ستة أقسام هى :

1 ـــ البادية والحجاز ٠

2 ـــ الشام ، وديار بكر ، واذربيجان ، والجــريرة والمغرب ، والأندلس ٠

3 ـــ العــراق ٠

4 ـــ الــرى والجبــل ٠

5 ـــ جرجان ، واستراباد ، ودهستان ، وقومس ، وخوارزم ومــا وراء النهــر ٠

6 ـــ خراسان ، وقهستان ، وسجستان ، وغزنة ٠

ويبدو واضحا من هذا النوع من التقسيم أنه شديد الاختلال ، فالقسم الثانى من الكتاب يغطى مناطق واسعة جدا من المملكة الاسلامية، بينما لا تغطى بعض الأقسام الأخرى الا مساحات محدودة ٠ واذا كانت غزارة الانتاج الشعرى فى العراق وهو كرسى الخلافة يسوغ افراده

(1) الباخرزى هو ابو الحسن على بن الحسن الباخرزى من ادباء القرن الخامس ، ولد بباخرز من أعمال نيسابور وفيها توفى سنة 467 هـ اشتغــل فى شبابه بالفقــه الشافعى وطوف ببلاد فارس والشام طلبا للعلم والادب، التحق بديوان الرسائل فى العراق، نظم الشعر فكان له ديوان الا ان شهرته قامت على كتابه دمية القصر،

بجزء خاص ، فان تخصيص قسم منفرد للرى والجبل ، وآخر للباديــة والحجاز قد أفقد التقسيم توازنه المنطقى ٠

7) ـــ زينة الدهر فى لطائف شعراء العصر : لأبى المعالى المعروف بالوراق الحظيرى المتوفى سنة 568 هـ (1)

هذا الكتاب هو الحلقة الثالثة فيما يمكن أن نسميه سلسلة كتب الدهر التى كانت اليتيمة حلقتها الأولى وكانت الدمية حلقتها الثانية ، أما الحلقة الرابعة لها ، فهى الخريدة ٠

ان الكتاب مفقود لم يصل الينا للأسف ، ونستطيع أن نستنتج من الكتب التى جعل ذيلا عليها ، وجعلت ذيلا عليه ، أنه لا يختلف كثيرا عنها ولا سيما من حيث التقسيم ، والاحتفال بالمختارات ٠

8) ـــ خريدة القصر وجريدة العصر :
للعماد الأصفهانى المتوفى سنة 597 هـ ٠ (2)

ويمثل هذا الكتاب حلقة أخرى فى سلسلة ذلك الجهد العظيم الذى ابتدأ مع الثعالبى وغطى قرنين كاملين من التاريخ الشعرى للحضــارة العربية والاسلامية ٠

وقد اعتمد الأصفهانى أيضا على التقسيم الجغرافى فأفرد لكــل مقاطعة جغرافية فى المملكة الاسلامية واحدا من أقسام كتابه فكان منــه قســم للعراق ، وقسم للشام وقسم لمصر ، وقسم للمغرب والأندلس،

(1) هو سعد بن على بن القاسم ابو المعالى الانصارى المعروف بالوراق دلال الكتب الحظيرى كن اديبا شاعرا وتوفى ببغداد سنة 568 هـ له كتاب زينة الدهر وكتــاب لمح الملح كما له ديوان شعر ٠

(2) ولد فى أصبهان سنة 519 هـ ، ونشا بها وتعلم فى مدرستها النظامية وقد اتصــل بصلاح الدين الايوبى وكتب له وتولى التدريس بالشام ومات سنة 597 هـ ٠

وقد ترجم فيه لعدد كبير من الشعراء وأورد شيئا من أخبارهم وقد جاء أسلوبه فى الكتابة مسايرا لذوق العصر الذى ألف فيه فكان مثقلا بالسجع وأنواع البديع وكان ذلك يتم أحيانا على حساب الغرض الأساسى للكتاب الذى هو التعريف بالشعراء وشعرهم •

ثانيـــا:
كـــتب التـــراجم والمختارات الأنــدلسية

من المعلوم أن الجهود الكثيرة التى بذلت منذ النهضة الحديثة فى التنقيب عن التراث العربى المشرقى، وتحقيقه وطبعه ونشره، ودراسته، قد أتاحت لنا أن نعرف أهم الأطوار التى مر بها هذا النوع من التأليف الذى تجتمع فيه تراجم الأدباء، والمختارات من انتاجهم الشعرى والنثرى، ولقد أتينا على وصف هذه المراحل، وذكر أهم حلقات هذه السلسلة التى امتدت بين المؤلفين عبر العصور، ينهض واحد منهم أو أكثـــر للتعريف بأدباء العصر، ثم يأتى واحد آخر ، أو أكثر من واحد، بعد ذلك فيواصلون المسيرة من حيث توقف الأول، وهكذا•••

أما التراث الأندلسى فانه، لأسباب كثيرة، ليس هنا مجال بسطها، لم يحظ بنصيب من هذه العناية، فظل أكثـــره حبيـــس زوايا الاهمال والنسيان•

وعلى ذلك، فمن الطبيعى أن لا يأتى كلامنا عن « كتب التـــراجم والمختارات » الأندلسية متصفا بنفس الدقة، والتفصيل، اللذين أتيحا لنا عند الحديث عن هذه التآليف فى المشرق•

وشتان بين حالنا مع الكتب المشرقية التى هى بين أيدينا، طالعنا أكثرها، ودرسناها، وقرأنا ما كتب عنها قديما وحديثا، وبين حالنا مع المؤلفات الأندلسية، التى هى بين مخطوط عسير المنال، ومطبوع لا يكاد يوجد الا فى المكتبات المتخصصة، ومفقود لا أمل فى العثور عليه•

ومهما يكن من أمر فان الحديث عن كتب التراجم والمختارات سواء منها ما ألف فى المشرق أم فى الأندلس، ليس الموضوع الأساسى لـــهذه الدراسة، وانما أحببنا أن لا ندرس كتاب الذخيرة قبل التمهيد لـــذلك بنبذة عما وصل اليه هذا الفن فى مختلف أصقاع البلاد العربية الاسلامية

الى عصر ابن بسام، وقد استوفينا هذه النبذة حول المؤلفات المشرقية فى الجزء الأول من هذا الفصل، ونحاول أن نلم فيما يلى بأهم ما صنف فى هذا الفن بالبلاد الأندلسية.

1) — طبقات الشعراء بالأندلس :
لعثمان بن ربيعة المتوفى سنة 310 هـ .

هذا الكتاب من أقدم ما نعرف من الكتب الأندلسية المؤلفة فـــى « أدب التراجم والمختارات ».

ونحن لا نعرف من المؤلف أكثر من أنه قرطبى (1) ، وأنه صاحب هذا الكتاب الذى توجد نسخة مخطوطة منه بمكتبة فاس .

2) — الشعراء من الفقهاء بالأندلس :
لأبى الفتح بن رقاص بن عيشون المتوفى سنة 338 هـ .

ويتضح من عنوان الكتاب أنه مخصص للذين قالوا الشعر من الفقهاء والمؤلف نفسه فقيه معروف، ذكره ابن الفرضى فى كتابه تاريخ علماء الأندلس، وقال عنه: « كان فقيها حافظا للرأى، ولا يقرب ميدانه ... وتخلى عن الدنيا فى آخر عمره، وأكثر شعره فى الزهد، وذم الدنيا ... وقد كتبت لـــه أشعارا من كتـــابه المـــؤلف فى الشعـــراء من الـــفقهاء بالأندلس » . (2)

وقد توفى هذا الأديب الفقيه فى سنة 338 هـ.

(1) ذكر الدكتور مكى انه اشبيلى، فى كتابه « مصادر الادب » ج/1 ص 323 اما بلنثيا فى « تاريخ الفكر الاندلسى » ص 285 فذكر انه من قرطبة. ونظن ان فى كـــلام الدكتور مكى سهوا .
(2) تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضى ، الترجمة رقم : 1067 .

3) — أخبار الشعراء بالأندلس :
لابن سعيد الخير المروانى المتوفى سنة 340 هـ .

وممن ألف أيضا فى هذا الفن الأديب محمد بن هشام بن عبد العزيز ابن سعيد الخير المروانى، وكان مشتهرا بالشعر والخطابة. (1)

4) — شعر الخلفاء من بنى أمية: لابن مغيث المتوفى سنة 352هـ.

والاسم الكامل للمؤلف هو: عبد الله بن محمد بن مغيث بن عبد الله الأنصارى، وهو من أهل قرطبة. وقصة تأليف هذا الكتاب أن ابن مغيث كان من المقربين لدى الحكم الثانى المستنصر، فلما خرج الحكم للغزو سنـــة 352 هـ أحب أن يصحبه ابـــن مغيث ، فاعتذر لـــه بضعفـــه ، واعتلال صحته، فأعفاه الحكم الثانى، واشترط عليه أن يصنف له — أثناء قيامه هو بالغزو — كتابا فى الخلفاء من بنى أمية.

فألف ابن مغيث الكتاب، وتوفى فى السنة نفسها. ويبدو أن كتابه قد جاء على منوال الكتاب الذى ألفه الصولى (2) فى شعر بنى العباس، والذى سماه « الأوراق »

5) — كتاب « الحدائق » : لابن فرج الجيانى المتوفى سنة 359هـ.

وكتاب الحدائق من أشهر المؤلفات فى هذا الفن الذى نحن بصدده ، ويبدو أنه كان نقطة تحول، اذ كانت الكتب السابقة أقرب الى جمع أخبار متفرقة عن الشعراء والكتاب، منها الـــى الـــكتب ذات المنهج الواضح المستقيم.

(1) البغية ص 129 الترجمة رقم : 298 .
(2) الغية الترجمة رقم : 883 .

وكان المؤلف، أبو عمر أحمد بن محمد بن فرج الجيانى، من أهل جيان، واستوطن قرطبة، ولا نعرف عن حياته الا ما قاله عنه ابن خاقان من أنه كان شديد الزهو بنفسه، خليعا. وقد كان مقربا من الخليفة الحكم المستنصر، ثم غضب عليه فأودعه السجن، وأبقاه فيه الى أن مات سنة 359 هـ «(1)

أما كتاب «الحدائق» فقد عارض فيه ابن فـرج الجيانى كتاب « الزهرة » لأبى بكر محمد بن داود بن على الأصبهانى، وزاد عليه اذ جعله مائتى باب، وجعل فى كل باب مائة بيت.

والكتاب مفقود. لم يذكر أحد من المحدثين أنه عثر عليه الى حد الآن.

وابن بسام قد ذكر ابن فرج الجيانى، وأثنـى عليه لأنه عـرف بأدباء المائة الرابعة، وذكر أنه لم يترجم لأحد من هذا العصر، حتى لا يكرر ما قاله صاحب « الحدائق » .

6) — أخبار شعراء الأندلس:
لأبى بكر بن عبادة بن ماء السماء المتوفى سنة 419 هـ .

وهو صاحب الباع الطويلة فى نظم الموشحات، وارساء قواعد نظمها، وقد ترجم له ابن بسام، وأثنى عليه، ولكن لم يشر الى كتابه هذا، وذلك أمر غريب حقا، لأن صاحب الذخيرة لا يظفر عادة بأديب صنف فى فن من الفنون الا سارع الى ذكر مصنفاته . (2)

---

(1) وانظر أيضا البغية فى الترجمة رقم 231 ورايات المبرزين ص 72 .
(2) د — 2/1 ص 1 وما بعدها . وانظر أيضا رايات المبرزين ص 48 .

7) — البديع فى وصف الربيع :
لأبى الوليد اسماعيل بن حبيب المتوفى سنة 440 هـ .

والمؤلف من أهل اشبيلية، وقد ترجم له ابن بسام بقوله: « والأديب أبو جعفر بن الابار هو الذى أقام قناته، وصقل — زعموا — مرآته، فأطلعه شهابا ثاقبا، وسلك به الى فنون الأدب طريقا لا حبا ..... توفى ابن اثنتين وعشرين سنة .... وله كتاب سماه بالبديع فى فصل الربيع، جمع فيه أشعار أهل الأندلس خاصة، أعرب فيه عن أدب غزير، وحظ من الحفظ موفور،، (1)

وقد نشر الكتاب المستشرق هنرى بيريز فى باريس سنة 1940 .

8) — ومن الكتب التى نقل عنها ابن بسام، ويبدو أنها من المؤلفات التى تعنينا :

« الأغراب فى رفائق الآداب » ، و « الاشارة الى معرفة الرجال بالعبارة » و « بستان الملوك » وكلها للأديب أبى المطرف الذى يقول ابن بسام انه كان يعرف بابن صاحب الاسفيريا (2)

ومن هذا القبيل أيضا، أى مما استفاد منه ابن بسام، وأشار اليه:

9) — هديقة الارتياح، فى وصف حقيقة الراح: للوزير أبى عامر بن مسلمة الذى ولد سنة 432 هـ وتوفى سنة 510 هـ.

قال عنه ابن بسام: « طائل الدهر، وعلم بردة ذلك العصر، وأحد جهابذة الكلام، وجماهير النثار والنظام، من قوم طالما ملكوا أزمة الأيام، وخصموا بألسنة السيوف والأقلام .... وكان أبو عامر هذا من شرفهم

---

(1) د — ق/2 — ص 71 .
(2) د — 2/1 — ص 273 .

بمنزلة الفص من الخاتم وبمكان السر فى صدر الكاتم، ولما ثلت تلك العروش الأموية، واختلت تلك الدولة القرطبية، تحيز الى المتضد لاملاك قديمة كانت له فى البلد، فعاش بفضل وفره، وتصون عن الدخول فى شىء من أمره، الا عن زيارة الالمام، ومنادمة فى بعض الأيام... حتى مات مستورا بماله، سيدا على أشكاله،... (1)

ثم يقول صاحب الذخيرة: « وقد وقع الى من املاءاته وغرائب أدواته ، تأليف جمعه للمعتضد ، سماه (حديقة الارتياح فى حقيقة الراح) دل على كثرة روايته ، وجودة عنايته ، الى غير ذلك من نظمه ونثره » (2)

وقد نقل عنه ابن بسام أخبارا وأشعارا لجماعة الأدباء الذين كانوا بعصر المعتضد ، اذ عقد لهم فصلا «يشتمل على مقطوعات أبيات لجماعة من الأدباء، كانوا بعصر عباد » (3) وقال عنهم: « لم أجد لهم أشعارا تفسح لى فى طريق الاختيار، الا ما أثبت لهم الوزير أبو عامر بن مسلمة، فى غرضى كتابه المترجم بالحديقة، فكل ما أثبت لهم فى هذا الفصل، فمن كتابه نسخت، ومن خط يده نقلت » (4)

وبذلك نأتى على أهم الكتب التى اعتنت بتراجم أدباء الأندلس، وايراد مختارات من شعرهم ونثرهم، الى زمان ابن بسام، مما استطعنا الالمام به . وقبل الانصراف الى الحديث عن كتاب الذخيرة، نجرى موازنة سريعة بين مؤلفات المشارقة ومؤلفات الأندلسيين فى هذا الفن.

---

(1) و (2) ذ — 1/2 مطبوع — ص 89/88 .

(3) ذ — 1/2 — مطبوع — ص 176 .

(4) المصدر السابق .

بين المؤلفات المشرقية والمؤلفات الأندلسية

لاحظ الدكتور أحمد الطاهر مكى فى كتابه: « دراسة فى مصادر الأدب » الفرق بين الكتب المشرقية والكتب الأندلسية المؤلفة فى تاريخ الأدب أو فى « التراجم والمختارات » كما سميناها ، فقال :

« لكن ثمة فارقا فى المنهج بين كتب المشارقة وكتب المغاربة فى هذا الميدان، فقد كان الأولون أقرب الى الاحاطة والاستيعاب فى مناهجهم ، فكتبوا عن شعراء عصورهم من شتى الأصقاع، ولم يقصروا مؤلفاتهم على اقليم بعينه، فأفرد الثعالبى فى كتابه بابا ذكر فيه جمهرة من مشاهير شعراء المغرب والأندلس وكتابهما، وحذا العماد الأصفهانى حذو الثعالبى أو زاد عليه، فأفرد قسما ضخما لشعراء الأندلس، وصقلية، والقيروان، والمغرب بأقسامه الثلاثة، أما المغاربة وبخاصة الأندلسيين، فقد قصروا مؤلفاتهم على الأندلس فى الشعر والأدب . (1)

ونحن نعتقد أن هذا الرأى صحيح من حيث المبدأ، ولكن من حيث المبدأ فقط.

فاذا كنا لا نمارى فى أن بعض مؤرخى الأدب فى المشرق قد ترجموا للأدباء الناطقين بالعربية فى مجمل أصقاع البلاد الاسلامية، فان الذى ينبغى أن نعترف به أيضا أن كثيرا من مؤلفات المشارقة، فى هذا الموضوع بالذات، قد أهملت اهمالا تاما شعراء المغرب وكتابه، فلم تتناولهم بأى نوع من الحديث، ويصدق هذا الكلام خاصة على المؤلفات التى تقدمت كتاب « يتيمة الدهر » لأبى منصور الثعالبى .

ثم تحدث من تحدث عنهم بعد ذلك تقليدا له على الأرجح. هذا بالاضافة الى أن المؤلفين كانوا يفضلون المسالك السهلة، فلا يكلفون نفوسهم عناء البحث عن أدباء المغرب الذين يستحقون الحديث . وهكذا

---

(1) دراسة فى مصادر الادب ج/1 ص — 326 .

وجدنا أغلب الكتب المؤلفة بعد منتصف القرن السادس الهجرى خالية من أية اشارة الى رجل كابن بسام، على الرغم من شهرته، ورواج « ذخيرته »

ومع ذلك فاننا نعتقد أن الأندلسيين والمغاربة كانوا يستحقون منا اللوم والمؤاخذة لو أنهم أنفقوا جهودهم فى التعريف بأدباء المشرق فى كتبهم، ذلك أن هؤلاء كانوا معروفين فى الأندلس والمغرب، اما بطريقة مباشرة بواسطة مؤلفاتهم ودواوينهم، واما بطريقة غير مباشرة، بواسطة المصنفات التى عرفت بهم، وترجمت لهم، وأوردت نماذج من نثرهم وشعرهم .

ونحن نعرف جميعا مدى الحرص الذى كان يبديه متأدبو الأندلس، وأمراؤها على استنساخ الكتب المشرقية، واقتنائها، حتى ان بعضهم — كان — اذا سمع بنبأ تأليف جديد ذى قيمة مؤكدة ، انتدب له من يسافر الى العراق أو الشام لاحضاره ..

فهل كان من المنطق فى شىء أن يعتنى مؤرخو الأدب فى المغرب والأندلس اعتناء كبيرا بالعمل على تعريف مواطنيهم بأدباء لهم فى البلاد ذلك النصيب من الشهرة والرواج ؟

لعله من حسن الحظ أنهم لم يفعلوا ذلك، فاقتصدوا الجهد للتعريف بمن كانوا مغمورين فى بلادهم، وأتاحوا لهم نصيبا من الخلود، ولولا ذلك، لطواهم الفناء، ولما وجدنا فى كتب المشارقة ما يفيد حقا فى معرفتهم .

ولقد كان ابن بسام حكيما حقا حين اهتدى الى تلك الحيلة التى مكنته من التعريف ببعض الأدباء غير الأندلسيين، اذ أورد الحديث عنهم تحت عنوان « الطارئين على الجزيرة من المغاربة والمشارقة » .

أما حين ترجم لبعض الأدباء المشارقة « ائتساء بأبى منصور » الثعالبى الذى أفرد جزءا من كتابه للمغاربة،فلا نظن أن الناس فى الاندلس

قد استفادوا كثيرا من هذا الصنيع، لأنه كان بوسع أى واحد منهم أن يتعرف عليهم فى التآليف المشرقية المتداولة حينئذ على أوسع نطاق .

واذا كان لابد من توجيه العتاب الى من كتب فى تاريخ الأدب من الأندلسيين، فاننا نرى مؤاخذتهم على اهمال أدباء المغرب. ان هذا القطر العربى الاسلامى كان فى نظر المشرق جزءا من الأندلس، يشكل معها كيانا واحدا يسمى المغرب. والمشارقة يطلقون الى اليوم هذه التسمية على كل ما يلى مصر من الأرض العربية الاسلامية.

ولكن يبدو أن الفتن والقلاقل التى كانت تثور فى شبه الجزيرة الايبيرية بين المغاربة والأندلسيين، قد تركت آثارا عميقة فى نفوس الفئتين، فبدأ الأندلسيون ينكمشون على أنفسهم، وأخذ المغاربة يبحثون عن سمات شخصيتهم بعد أن كانوا يعتبرون بلادهم والأندلس، جزءا واحدا من المجموعة العربية الاسلامية الكبرى .

وكيفما كانت حال الأقدمين، والظروف الموضوعية التى جعلتهم يضيقون مؤلفاتهم، فتأتى مقتصرة على أخبار رقعة عربية محددة، أو يوسعونها، فتشمل كل أصقاع الأرض الاسلامية، فان الذى لا نرتضيه، بل ونبدى شديد السخط عليه، أن تدفع الحمية الوطنية، والعصبية « الاقليمية » بعض المشتغلين بالأدب من المحدثين، الى تفتيت ذلك التراث الشامل، وتجزئة ذلك العمل المتكامل .

ولقد رأينا بعض المؤلفات التى نوه أستاذنا الدكتور مكى بشموليتها، واستيعابها لكل الأقطار المنتجة للأدب العربى، قد تناولها العرب المحدثون من زاوية « اقليمية » ضيقة، فعكف كل فريق على تحقيق الجزء الخاص منها ببلده .

ومن أمثلة ذلك ما جاء على لسان الدكتور مكى نفسه فى هامش كتابه حين قال :

« كتاب العماد الأصفهانى «خريدة القصر، وجريدة أهل العصر » يقع فى عدة أقسام: قسم شعراء العراق صدر منه فى بغداد جزء، والثانى قيد النشر، وقسم شعراء الشام: ونشر بدمشق فى جزأين وملحق، بتحقيق الدكتور شكرى فيصل. والقسم الثالث يحتوى على شعراء مصر، وصقلية والقيروان، والمغرب، والأندلس، نشر منه منذ سنوات ما يخص مصر فقط فى جزأين، ونشر أخيرا الجزء الخاص بالمغرب فى القاهرة » . (1)

هذه صورة من واقع مؤلم، كنا نتمنى أن تسلم مثل هذه الأعمال الأدبية الجليلة — على الأقل — من انعكاساته الوخيمة، احتراما لتلك الأرواح الطيبة التى صدرت عنها، والا فمن ينهض بتحقيق تراث صقلية، بل من ينهض لازالة الغبار عن التراث الأندلسى نفسه، وليس فى الدنيا اليوم انسان له « الجنسية » الأندلسية .

(1) الهامش رقم 1 من ص 326 فى كتاب «دراسة فى مصادر الادب» للدكتور مكى .

الفصل الثالث :

التعريف بكتاب الذخيرة

محتويـات الفصـل الثـالـث

(التعريف بكتاب « الذخيرة »)

التعريف بكتاب « الذخيرة »

نريد أن نتناول فى هذا الفصل التعريف بكتاب « الذخيرة » من الناحية الشكلية ، أى من حيث عنوانه ، وتاريخ تأليفه ، والبواعث التى كانت وراء كتابته ، ونسخه المطبوعة والمخطوطة ، وما الى ذلك من هذه المسائل العامة المتصلة به ، والقضايا المختلفة التى أثيرت ، أو التى يمكن اثارتها بشأنه .

أما التعريف بالكتاب من حيث المضمون ، مما له علاقة بدراسة منهجه ، أو ، على الأصح ، منهج مؤلفه الذى سار عليه فى تصنيفه والمصادر التى استعان بها ، واستقى منها مادته من أخبار ، وأشعار ، ورسائل ، والمسائل النقدية المبثوثة فيه ، فذلك ما سنتعرض له ان شاء الله فى فصول قادمة نفردها لهذه الغاية .

1) عنوان الكتاب :

العنوان الذى وضعه ابن بسام لكتابه فى الأصل هو « الذخيرة فى محاسن أهل هذه الجزيرة » . وذلك كما هو واضح فى جميع النسخ المخطوطة التى استطعنا مراجعتها (1) بل وكما ورد ذلك فى افتتاحية الكتاب حيث قال المؤلف .

« وقد أودعت هذا الديوان الذى سميته بكتاب الذخيرة فى محاسن أهل هذه الجزيرة من عجائب علمهم وغرائب نثرهم ونظمهم ... » .

وعندما أعدت جامعة القاهرة القسم الأول من الكتاب للطبع ، اقترح الدكتور طه حسين ، وكان أحد المشرفين على التحقيق ، ورئيس اللجنة التى كلفت بالمراجعة ، اقترح حذف اسم الاشارة « هذه » من

---

(1) على سبيل المثال: مخطوطة غوته، ومخطوطة الخزانة الملكية بالرباط .

العنوان ، بحجة أن الاشارة كانت تعنى شيئا أيام ابن بسام ، عندما كانت الأندلس تحت الحكم الاسلامى ، أما الآن ، فانه لم يبق لها أى معنى . وقد أقرته اللجنة على هذا الرأى وصدرت الأجزاء التى حققتها جامعة القاهرة تحت هذا العنوان المعدل الذى نصه : « الذخيرة فى محاسن الجزيرة » . (1)

والحق أننا نعجب لمثل هذا التصرف يصدر عن الدكتور طه حسين بالذات ثم تقره عليه لجنة جامعية .

فلو كان الأمر يتعلق بمقال ينشر فى جريدة ، ودعت ضرورة الايجاز الى اختصار العنوان لجاز أن نجد له مخرجا وتأويلا ، أما أن تعمد لجنة من الباحثين الى عنوان مشهور ، لكتاب قديم ، فتعدله باسقاط شىء منه بناء على حجج واهية لا تصمد بحال من الأحوال أمام التحليل المنطقى ، فذلك مخالف تماما للمنهجية العلمية ، وقواعد التدقيق والبحث الرصين ، التى برهن الدكتور طه حسين ، وأعضاء اللجنة فى كثير من أعمالهم على أنهم يحسنون اصطناعها والعمل بمقتضاها .

أما الكتب القديمة التى ورد فيها الحديث عن الكتاب أو عن مؤلفه ، فانها فى الغالب الأعم تختصر العنوان ، وتشير اليه بعبارة « كتاب الذخيرة » وذلك سواء أكانت من مؤلفات المغاربة أم المشارقة .

2) ــ مدلولات العنوان :

الذخيرة فى اللغة ، من ذخر يذخر ذخرا ، بمعنى استبقى الشىء وادخره لوقت الحاجة . فالذخيرة هى اسم مفعول جاء على صيغة فعيل ــ وهو مشهور وكثير فى العربية ــ وتدل على الشىء المذخور أى المدخر،

(1) نحن مدينون بهذه المعلومات للدكتور عبد العزيز الاهوانى الذى تفضل بامدادنا بها حين تفضل باستقبالنا فى بيته بالقاهرة فى ربيع سنة 1969 . (توفى بعد فراغنا من اعداد هذا البحث رحمه الله رحمة واسعة .)

ويكون فى الغالب من الأشياء النفيسة التى تصان فلا تستخرج الا فى الظروف الاستثنائية .

هذا من حيث المفهوم اللغوى ، أما من حيث مدلولات العنوان فاننا نرى أن المؤلف استطاع أن يعبر به عن معظم الاهتمامات التى دفعته الى تأليف الكتاب والتى سنذكرها فى مكانها من هذا الفصل .

فاذا كانت الذخيرة هى الشىء النفيس الذى يخرجه الانسان فى الظروف الاستثنائية ، فان الأدب الأندلسى هو ذلك الشىء النفيس ، والظرف الاستثنائى هو مباهاة المشارقة واظهار محاسن الأدباء الأندلسيين .

وكلمة « أهل » تضيف الى العنوان فى اعتقادنا معنى خاصا لا غنى عنه . ذلك ان ما يقصده ابن بسام هو اظهار محاسن الأندلسيين وليس محاسن الأندلس . ولو أنه قال « محاسن هذه الجزيرة » للزمه ــ فى رأينا ــ أن يتوسع فى وصف بلاد الأندلس وبيان خصوبة أرضها ، وكثرة مائها ، وجمال مناظرها ، وما الى ذلك مما تعرضت له كتب أخرى .

ثم نصل الى كلمة « هذه » التى أسقطتها لجنة تحقيق الكتاب فى القاهرة . والواقع أنها على عكس ما ظن ذات دلالة لا نقدرها حق قدرها الا اذا كنا على معرفة دقيقة بالجوانب العاطفية فى مبادرة ابن بسام حين تصدى لاظهار محاسن الأندلسيين . فكلمة « هذه » تشتمل على شحنة عاطفية فيها معانى التحدى والمفاخرة . وذلك ليس موقفا عجيبا اذا حاولنا استجلاء الوضعية السائدة آنذاك ، والتى كانت تضايق ابن بسام، كما كانت تضايق كثيرا من الأدباء والعلماء الذين كانوا يحسون بالألم الشديد لما يلاقونه من اهمال وسوء تقدير ، على الرغم مما لهم من كتب قيمة ، وآداب سامية . كل ذلك والناس يتهافتون على الأدب المشرقى ، ينزلون كل ما يصل منه اليهم فى المكانة العالية ، فعبارة محاسن أهل هذه

الجزيرة هى صيحة ابن بسام فى وجه من لا يرى لهذه الجزيرة فضلا ولا سبقا .

والخلاصة أن كلمة «هذه» تتضمن من معانى التعظيم والاجلال للجزيرة قدرا كبيرا لا يفهم الا بها ، ومن هنا كان رأينا أن اسقاطها من العنوان اخلال شنيع بالمعنى الذى قصده المؤلف ، بالاضافة الى أنه تصرف ينافى القواعد العلمية فى التحقيق بقطع النظر عن كل الاعتبارات الأخرى .

ونحب أن نلاحظ شيئا آخر فى هذه التسمية التى اختارها ابن بسام لكتابه ، وهى أنها جاءت دقيقة ، معبرة عن مضمون الكتاب ، توحى لأول وهلة بمحتواه ، وذلك على عكس ما كان شائعا فى تلك الأيام من الاعتساف الشديد فى وضع العناوين ، واعتماد الفضفاض منها بحيث قد تشتط علاقته بالموضوع أو تنعدم تماما .

وما قيل فى كتاب الذخيرة هو نفسه الذى يقال فى باقى الكتب التى ألفها ابن بسام والتى احتفظ التاريخ لنا بعناوينها . فاذا أخذنا على سبيل المثال كتابه : « الاكليل المشتمل على شعر عبد الجليل » وجدنا هذه الرغبة نفسها فى الوضوح والدقة .

على أن ذلك لا يعنى أن ابن بسام قد ولى بوجهه عن القيم الأدبية الشائعة فى عصره ، وأساليب الكتابة المتبعة آنذاك . فالمحسنات اللفظية ، وعلى رأسها السجع كثيرة فى كتابه ، ونحن وان كنا ننوى التوسع فى هذا الجانب عندما نصل الى مكانه الملائم من هذه الدراسة ، فاننا نحب أن لا ننهى الحديث عن العنوان قبل الاشارة الى السجع الواضح فيه ما بين كلمتى « الذخيرة » و « الجزيرة » .

وهكذا نستطيع أن نلخص الرأى فى العنوان ، فنقول ان المؤلف قد وفق فيه الى أبعد الحدود حين استطاع أن يجعله شديد الصلة بالكتاب الذى وضع له سواء من ناحية المضمون أم من ناحية الشكل .

3) ـ تاريخ تأليف الكتاب :

يقول ابن بسام فى القسم الثانى المخطوط (1) فى معرض الحديث عن أبى بكر بن الملح (2) « ومد لأبى بكر هذا فى العمر ، وعاش الى وقت تحريرى هذا المجموع سنة خمسمائة » . هذه اشارة صريحة تدل على أن ابن بسام كان عاكفا على تحرير كتابه سنة خمسمائة للهجرة .

على أن تحرير الكتاب فى هذا التاريخ لا يعنى فى نظرنا أنه ألف فيه ، لأننا نرجح أن تكون فكرة تأليف كتاب يجمع فيه عيون الأدب الأندلسى مما ينتجه المعاصرون قد خامرته فى وقت مبكر من حياته ، وأنه قبل نزوحه من شنترين كان يتصل بالأدباء البارزين ، ولا سيما ذوى السياسة والرياسة ـ على حد تعبيره ـ طالبا منهم موافاته بنماذج من القصائد والرسائل .

ومن الأدلة القاطعة التى تثبت أن ابن بسام كان يدون ويؤرخ ما يتلقاه من شعر الشعراء ونثر الأدباء على أمل أن يتفرغ ذات يوم لجمعه وتنسيقه ، الاشارات التالية المبثوثة هنا وهناك فى كتاب الذخيرة :

1 ـ قال المؤلف فى الفصل الخاص بالأديب أبى جعفر أحمد بن الدودين البلنسى : « هو أحد من لقبته ، وشافهته وأملى على نظمه ونثره بالأشبونة سنة سبع وسبعين ، ومما أنشدنى فى الغزل قوله : ... » (3)

ولعلنا ما زلنا نذكر أننا حين تعرضنا للغاية من سفره الى الأشبونة سنة 477 هـ ، أثناء دراستنا لحياته قبل سقوط مدينة شنترين ، ذكرنا أنه ربما سافر اليها لاستكمال تعلمه ، والاستزادة من المعارف الأدبية والفقهية ، مما لم تكن مدينة شنترين الصغيرة تستطيع أن توفره له .

(1) ذ ـ ق/2 ـ ص 287 .
(2) أحد الادباء الاندلسيين الذين يترجم لهم ابن بسام فى القسم الثانى .
(3) ذ ـ ق/3 ـ ص 393 مخ . غوتة .

ورجحنا أثناء ذلك أن تكون هذه السفرة ذات اتصال بجمع مادة كتاب الذخيرة .

ذلك أننا نستبعد أن يكون ابن بسام قد ظل حافظا لأشعار أبى جعفر بن الدودين البلنسى بعد أكثر من خمس وعشرين سنة من سماعها منه ، اذ أن اجتماعه به قد تم فى الأشبونة سنة 477 هـ بينما شرع فى تأليف القسم الثالث من كتابه ــ وهو الذى ورد فيه الحديث عن أبى جعفر سنة 503 هـ أو نحو ذلك .

والأقرب الى الصواب ــ فيما نرى ــ أن يكون ابن بسام قد دون هذه المقطوعات التى استمع اليها من أبى جعفر ، فلما عكف على تبييض كتابه ــ كما يقول ــ عاد الى أوراقه القديمة يراجعها وينتقى منها ما يلائم المنهج الذى اختطه .

2 ــ ومن هذا القبيل ، اشارة أخرى نجدها فى القسم الثانى من كتابه ، حيث يقول : « ومن الحسن فى تشبيه الخيل بالبحر ، قول بعض أهل العصر ، وهو الأديب أبو بكر ابن العطار اليابسى من شعر أنشدنيه لنفسه ببطليوس سنة ست وثمانين » . (1)

هذا دليل آخر على أن الرجل كان يفكر منذ أمد طويل فى جمع كتاب الذخيرة ، وما نقلناه عن كلامه السابق ، ينطبق تمام الانطباق على هذه الاشارة أيضا ، وان لم تبلغ المدة الفاصلة بين تاريخ الاجتماع بأبى بكر ابن العطار ، وتاريخ تأليف القسم الثانى من الكتاب ــ فى حوالى سنة 502 ــ خمسا وعشرين سنة . الا أن مدة ست عشرة سنة ــ من 486 الى 502 ــ ليست بالزمن اليسير الذى لا يحوج ابن بسام الى مراجعة أوراقه وهو الذى يقول عما حل به من المصائب « غب نسوب أنستنى اسمى ، وجرت مجرى الروح فى جسمى » . (2)

---

(1) ذ ــ ق/2 ــ ص 295 ــ مخ. القاهرة .
(2) ذ ــ 2/1 ــ ص 123 .

3 ــ ونجد الاشارة الثالثة التى توحى الينا باتصال تفكير ابن بسام فى تصنيف كتابه ، فى القسم الثانى أيضا من مخطوط الذخيرة ، فى معرض الترجمة لأبى بكر بن أبى مروان بن عبد العزيز ، حيث يقول : « كنت بحضرة قرطبة أول سفرى اليها سنة أربع وتسعين ، فدخل عندى هلال بن الأديب ، وقرع سمعى من شعر أبى بكر هذا بكل حسن غريب ، فكتبت معه رقعة أخطب فيها وده ، وأستجلب ما عنده » .

فهذه مرحلة ثالثة من مراحل التفكير فى تأليف كتاب الذخيرة ، ويبدو لنا أنها مرحلة متقدمة جدا ، تبلورت فيها الأمور ، واتضح خلالها المنهج. ذلك أن ابن بسام لم يقنع فى هذه المرة بتسجيل ما روى له من أدب أبى بكر بن عبد العزيز ، بل سارع الى مخاطبته برسالة يطلب فيها المزيد من أشعاره ، ونكاد نفهم من الكلام السابق الذى أوردناه لابن بسام أنه حرر الرسالة فى الحين ، وسلمها الى صديقه هلال بن الأديب ليبلغها اياه .

ونجد فى هذه الرسالة التى كتبها ابن بسام للأديب عبد العزيز ، والتى أورد لنا منها مقتطفات ، اشارة على جانب كبير من الأهمية ، فى توضيح ما نحن بصدده :

قال : « فهذا الخطاب الذى قرعت به هذا الباب من مواصلتك ، وجعلته سلما الى مخاطبتك ، أس سيقوم عليه بنيان ، وغرس ستلتف فوقه أفنان ، وهمس سيكون بعده اعلان » . (1)

فهل يبقى لنا من شك فى أن ابن بسام كان سنة 494 هـ فى قرطبة يواصل جمعه لمادة كتابه ، وأنه قد وصل فى ذلك الى مرحلة فى الاعداد متقدمة ، بحيث جاز له أن يبشر بقرب صدوره .

---

(1) ذ ــ ق/2 ــ ص 332 مخ. القاهرة.

لقد بلغ الآن مرحلة الهمس التى سيعقبها الاعلان ، ذلك الذى سيتم له فى حوالى سنة 500 هـ عندما يخرج للناس القسم الأل منه .

4) تاريخ الفراغ من تأليفه :

متى فرغ ابن بسام من تأليف كل أقسام كتابه ؟

نحن نعرف بفضل اشارات ابن بسام العابرة أنه بدأ تحرير الكتاب، أو على الأصح ، تبييضه واعداده « للنشر » سنة 500 هـ . ونستنتج هذا من قوله فى ترجمة أبى بكر ابن الملح : « ومد لأبى بكر هذا فى العمر ، وعاش الى وقت تحريرى هذا المجموع سنة خمسمائة ، وتوفى رحمه الله فى شهر رمضان منها » . (1)

وهذا الكلام وان ورد فى القسم الثانى من الكتاب فانه لا يعنى أن المؤلف كان عاكفا فى هذا التاريخ على تحرير هذا القسم منه . والدليل على أن التاريخ ينصرف الى كتاب الذخيرة كله ، وليس الى قسم خاص منه ، هو قول المؤلف « هذا المجموع » ونحن نعرف أن هذه التسمية لا يطلقها الا على الكتاب بجميع أقسامه وأجزائه .

ونجد فى القسم الثالث اشارة أخرى الى التاريخ ، أثناء الحديث عن أبى عبد الله محمد بن أبى الخصال حيث يقول تحت عنوان : فصول من نثره :

« كنت قد انفردت لتحرير هذه النسخة من هذا المجموع ، فى شهور سنة ثلاث وخمسمائة ... » . (2)

ونلاحظ أن الاشارة هنا واضحة الدلالة فى الانصراف الى القسم الثالث وحده ، وليس الى الكتاب عامة ، ولقد رأينا كيف حرص على أن يدقق الكلام فى عبارة « هذه النسخة من هذا المجموع » .

---

(1) ذ — ق/2 — ص 287 مخ . القاهرة .
(2) ذ — ق/3 — ص 434 .

وهكذا نستطيع أن نستخلص حقيقتين :

— الأولى أنه بدأ تحرير الكتاب سنة 500 هـ .

— والثانية أنه كان عاكفا على انجاز القسم الثالث منه سنة 503 هـ .

ولعلنا لا نبعد عن الحقيقة اذا زعمنا أنه فرغ من تحرير كتاب الذخيرة كله فى أواخر عام 503 هـ أو فى بداية عام 504 هـ . وحجتنا الكبيرة فى ذلك أن مدينة « شنترين » قد استرجعها المرابطون — كما أسلفنا — فى سنة 504 هـ ، ونحن لم نعثر على أية اشارة الى هذا الحادث العظيم ، الذى ما كان ليسكت عنه ابن بسام بحال من الأحوال، لو لم يكن قد فرغ من تأليف الكتاب قبل هذا التاريخ .

فاذا صح الرأى الذى أبديناه ، فان تأليف كتاب « الذخيرة » يكون قد استغرق نحو أربع سنوات ، مما يعطينا فكرة عن الجهود العظيمة التى بذلها المؤلف فى تنسيق المادة الضخمة التى اجتمعت لديه طوال سنوات التفكير التى لم تقل عن ربع قرن كامل .

5) — بواعث تأليفه :

تنحصر بواعث تأليف ابن بسام لكتاب الذخيرة فى أمر واحد هو الغير الشديدة على بلاده وامتعاضه لما يلاقيه أدباؤها فيها من اعراض مواطنيهم وعدم الاهتمام بما ينظمون من شعر وما يكتبون من نثر لتعلقهم الشديد بكل ما يأتيهم من المشرق وانصرافهم الكامل اليه وانشغالهم به عن كل ما تعج به بلاد الأندلس من النظم الرائع والنثر الرفيع .

ويخيل الينا أن لهذا الموقف الذى يقفه ابن بسام طابعا سياسيا يتمثل فى وعى الرجل بالأخطار التى تهدد الأندلس وتوشك أن تجرها الى مصيرها المحتوم .

فالأعداء يحيطون بها من كل جانب ، وأطرافها تتساقط الواحد بعد الآخر ، والمستقبل ينذر بكل أنواع الويل ٠

وكأننا بابن بسام قد فكر فى أن النجاة قد تكون – من بعض الوجوه – فى حمل الأندلسيين على التمسك ببلادهم ، والالتصاق بواقعها ، والاعتزاز بتراثها والاقبال على ما ينتج فيها من أدب وثقافة ٠

وقد نظر الى واقع البلاد فألفاه مخالفا تماما للصورة التى يريده عليها ، فالشعب فى الأندلس يتطلع الى المشرق تطلع الفرع الى الأصل باعجاب شديد واستسلام تام لكل ما يرد اليه منه ٠ ومع أن الوضع الطبيعى للجزيرة ، وظروفها التاريخية ، وواقع المسلمين فيها يجعل هذا التطلع أمرا عاديا ، الا أنه فى هذه الحالة بعينها قد أصبح نوعا من عقدة النقص الجماعية التى أصابت شعبا بكامله ، فأعمته عن كل المحاسن التى هى من نصيبه ، وأوهمته بأن الحسن لا يأتى الا من المشرق ٠

واذا صح هذا التحليل فان ابن بسام لم يكن مصابا بداء « الاقليمية » كما يقال اليوم ، وانما كان يمثل الضمير الحى الذى يعمل على تقوية الشخصية الأندلسية وامدادها بالعناصر التى تعطيها المناعة ضد عوامل الانحلال والتفسخ ، ونحن نعرف فى التاريخ رجالا خلقوا لشعوبهم شخصية من العدم وبعثوا من « الفولكلور » والتراث الشفهى ثقافة حملوا قومهم على الاعتزاز بها فكانت بداية حقيقية لوجودهم القومى ٠ أما فى الأندلس فالثقافة حية تشتمل على نماذج هى من أرقى ما أنتجه الفكر فى الحضارة العربية الاسلامية ٠ وابن بسام قد أتيح له أن يصاحب الملوك والوزراء ، وأن يعايش أنواعا من الحوادث كانت وبيلة النتائج ، وخيمة العواقب على الأندلس كلها ، فلماذا لا يكون ذلك كله أساسا لفكرة سياسية كاملة تتخذ من التراث الثقافى محورا لها ، وترمى من خلاله الى ايقاظ الضمير الجماعى ، وتوعية الناس بضرورة التعويل على أنفسهم ؟٠٠ ثم اكتست الفكرة النظرية طابعا عمليا تمثل

فى اخراج كتاب ضخم يشتمل على التعريف بمشاهير الأدباء فى الأندلس وعلى نماذج كثيرة من انتاجهم الرفيع ٠

على أن ابن بسام لم يكن أول من فطن الى الأذى الذى يلحق الأدباء من جراء تبعية الأندلس لبلاد المشرق فى المجالات الأدبية بشكل خاص ٠ فقد سبقه اليها علم بارز فى الحركة الفكرية الأندلسية هو ابن حزم (1) وقد كان يؤله جدا – هو أيضا – أن يرى مواطنيه منصرفين عنه ، قليلى الاكتراث بعلمه ٠ وهو يعلل ذلك فى قصيدة له بأن عيبه الوحيد هو أنه ليس من المشرق يقول ابن حزم :

أنا الشمس فى جو العلوم منيرة
ولكن عيبى أن مطلعى الغرب

ولو أننى من جانب الشرق طالع
لجد على ما ضاع من ذكرى النهب

ولى نحو أكناف العراق صبابة
ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب

فان ينزل الرحمن رحلى بينهم
فحينئذ يبدو التأسف والكرب

فكم قائل أغفلته وهو حاضر
وأطلب ما عنه تجىء به الكتب

هنالك يدرى أن للبعد غصة
وأن كساد العلم آفته القرب

فواعجبا : من غاب عنهم تشوقوا
له ، ودنو المرء من دارهم ذنب ٠٠٠

(1) هو الفقيه ابو محمد على بن حزم (383 – 454) من أئمة المذهب الظاهرى فى الاندلس ألف كثيرا من الكتب فى ذلك واحرقها المعتمد بن عباد، فاعتزل الدنيا وانطوى على نفسه وألف فى المعتزل: الاخلاق والسير فى مداواة النفوس ٠

فابن حزم قد فطن الى هذا الضيم الذى يلحق بالأندلسيين فى بلادهم من طرف قومهم ، وعبر عن ميل أهل الأندلس الى المشرق تعبيرا قويا ، والفرق بينه وبين ابن بسام أنه يصف ما تعرض له هو من ذلك الاعراض والاهمال ، بينما ينظر ابن بسام الى الموضوع نظرة شاملة تتناول حال الأدباء الأندلسيين بشكل عام .

ولعله من المفيد أن نرجع الآن الى ابن بسام لنرى كيف اكتملت النظرة التى بنى عليها موقفه . وفى هذا المجال تسعفنا المقدمة التى وضعها لكتابه بمعلومات على درجة كبيرة من الأهمية .

وقد تبين لنا أن هذا الموقف أساسه ثلاث ملاحظات تهيأت لابن بسام .

الملاحظة الأولى :

أن بلاد الأندلس تتوفر على أدب من نوع رفيع . وقد صيغت هذه الملاحظة فى المقدمة كما يلى : « وما زال فى أفقنا هذا الأندلسى القصى ، الى وقتنا هذا من فرسان الفنين ، وأئمة النوعين ، قوم هم ما هم طيب مكاسر ، وصفاء جواهر ، وعذوبة موارد ومصادر ، لعبوا بأطراف الكلام المشقق ، لعب الدجى بجفون المؤرق ، وحدوا بفنون السحر المنمق ، حداء الأعشى ببنات المحلق ، فصبوا على قوالب النجوم ، غرائب المنثور والمنظوم ، وباهوا غرر الضحى والأصائل ، بعجائب الأشعار والرسائل » . (1)

ولسنا فى حاجة الى أى تعليق لبيان مدى اعجاب ابن بسام بالأدب الأندلسى شعره ونثره ، اذ يطلق عليه وعلى أصحابه من الأوصاف ما يجعله فى ذروة الفن .

(1) — 1/1 — ص: 1 .

ويشعر ابن بسام بأن موقف الدفاع يقتضى منه الالحاح على قيمة هذا الأدب وهؤلاء الأدباء ، فيرجع الى ذلك مرة أخرى فى المقدمة نفسها فيقول : « وقد أودعت هذا الديوان ... من عجائب علمهم ، وغرائب نثرهم ونظمهم ، ما هو أحلى من مناجاة الأحبة ، بين التمنع والرغبة ، وأشهى من معاطاة العقار ، على نغمات المثاليث والأزيار ، لأن أهل هذه الجزيرة — مذ كانوا — رؤساء خطابة ، ورؤوس شعر وكتابة ، تدفقوا فأنسوا البحور ، وأشرقوا فباروا الشموس والبدور ، وذهب كلامهم بين رقة الهواء ، وجزالة الصخرة الصماء ، كما قال صاحبهم عبد الجليل بن وهبون يصف شعره :

رقيق كما غنت حمامة أيكة
وجزل كما شق الهواء عقاب » . (1)

الملاحظة الثانية :

المقارنة بين أدب المشرق وأدب الأندلس تدل فى نظر المؤلف ، على أنه ليس للأول ما يحسده عليه الثانى ، بل ان الأدب الأندلسى هو الذى يحرز قصب السبق . يقول ابن بسام « نثر لو رآه البديع لنسى اسمه أو اجتلاه ابن هلال لولاه حكمه ، ونظم لو سمعه كثير ، ما نسب ولا مدح ، أو تتبعه جرول ما عوى ولا نبح » . (2)

وواضح أن ابن بسام قد اختار اثنين من أبرز كتاب المشرق هما بديع الزمان الهمذانى ، وابن هلال — ابراهيم الصابى — واثنين من أشهر وأجود شعرائه هما كثير عزة ، والحطيئة ، وذهب الى أنهم جميعا على ما لهم من مكانة فى الأدب المشرقى لا يستطيعون أن يصمدوا لمنافسة الأدباء الأندلسيين .

(1) ق — 1/1 — ص 3 .
(2) نفسه ص 2 .

الملاحظة الثالثة :

موقف أهل الأندلس المتميز مع كل ذلك بالتمادى فى تجاهل قيمة تراثهم واهمال أدبائهم والانصراف الأعمى الى الأدب المشرقى .

يقول ابن بسام : « الا أن أهل هذا الأفق أبوا الا متابعة أهل الشرق ، يرجعون الى أخبارهم المعتادة ، رجوع الحديث الى قتادة . حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب ، لجثوا على هذا صنما ، وتلوا ذلك كتابا محكما ، وأخبارهم الباهرة ، وأشعارهم السائرة ، مرمى القصية ومناخ الرذية ، لا يعمر بها جنان ولا خلد ، ولا يصرف فيها لسان ولا يد » . (1)

ونحن نلاحظ بوضوح ما تعمده ابن بسام من قساوة على مواطنيه حين وصفهم بالجهل والغباوة والمكابرة التى تجعلهم يتصفون بما كان يتصف به عبدة الأصنام ، وتعاميهم فى التشبث بكل أخبار المشرق حتى لو « نعق غراب » أو « طن ذباب » لتدافعوا بالمناكب لسماع ذلك الطنين والنعيق باعجاب . ثم هو لا يترك الفرصة مرة أخرى تفوت دون أن ينبه مواطنيه الى قيمة أدبهم الذى يهملونه : « أخبارهم الباهرة ، وأشعارهم السائرة » .

الموقف :

هذه الملاحظات الثلاث ، صاغت موقف ابن بسام . يقول : « فغاظنى منهم ذلك ، وأنفت مما هنالك ... غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلة ، وتصبح بحاره ثمادا مضمحلة » . (2)

(1) ذ – 1/1 – ص 1 و 2 .
(2) المصدر نفسه .

متى تبلور هذا الموقف ؟ :

لقد أبدينا – عند الحديث عن تاريخ تأليف الكتاب – الرأى الذى اقتنعنا به ، والذى ملخصه أن كتاب الذخيرة مشروع قديم كان ابن بسام يعمل على انجازه منذ أيام شبابه فى شنترين . ولقد بينا آنذاك كيف رجع ابن بسام الى أوراقه القديمة التى كان دونها فى الفترات الماضية من حياته ليستخرج منها ما هو فى حاجة اليه من أخبار وأشعار . ونذكر أيضا أننا فى سياق ترجمة المؤلف توقفنا عند أخبار تردده على بطليوس عاصمة بنى الأفطس ورجحنا أن يكون فى تلك السنين المبكرة من عمره مشغولا بتأليف كتاب يجمع فيه أخبار معاصريه من الأدباء ونماذج من نثرهم ونظمهم ، فكان لذلك يحضر مجالس الوزراء وندوات الأدباء فى عاصمة الغرب ، وقد هيأ له مركزه الاجتماعى ولوج تلك المجالس والمشاركة فيها .

وفى مقدمة الكتاب اشارة على قدر كبير من الأهمية تثبت فى اعتقادنا هذا الرأى الذى ذهبنا اليه .

يقول ابن بسام : « وهذا الديوان نية لم يفصح عنها قول ولا عمل، وأمنية لم يكن منها حول ولا هول ، كامن بين العيان والخبر ، كمون النار فى الحجر ، وجار بين اللسان والقلب ، جرى الماء فى الغصن الرطب ... » (1)

ان كلام ابن بسام هنا حجة قاطعة على أنه كان ينوى تأليف هذا الكتاب ، بل كان أمنية لم يفصح عنها لأحد ، ولم يصدر عنه ما ينم عنها . على أن ذلك لاينفى أنه كان دائم التفكير فى تحقيقها ، يسعى الى جمع

(1) المصدر السابق ص 9 .

مادة الكتاب ، ويعمل على الاحتفاظ بكل ما يسقط فى يده من أخبار الشعراء والكتاب . فلما أصيب بالمحنة القاسية عقب احتلال مدينة شنترين واستقر بحضرة اشبيلية ، وبدأ يعود الى نفسه شيء من الاطمئنان ، وبدأت أحواله تستقيم ، عاد الى دفاتره القديمة يعالج ما فيها من أخبار وأشعار ورسائل ، ويتخذ منها نواة لتأليف كتاب « الذخيرة » .

والذى نستطيع أن نستنتجه أيضا من كلامه السابق أن هذا التأليف ليس عملا أدبيا بحتا ، بل هو عمل « هادف » كما نقول اليوم ، وهو مبنى على أساس موقف قديم « كامن بين العيان والخبر كمون النار فى الحجر ، وجار بين اللسان والقلب جرى الماء فى الغصن الرطب » .

رأى عجيب للدكتور طه حسين فى بواعث تأليف الكتاب .

بقيت كلمة لا بد منها قبل انهاء الحديث فى بواعث تأليف هذا الكتاب ، وتتعلق بالرأى الغريب الذى ذهب اليه الدكتور طه حسين فى المقدمة التى كتبها للطبعة التى صدرت فى القاهرة من الكتاب (1) حين قال : « هذا أصل من أصول الأدب العربى الأندلسى ، ومرجع من أهم مراجعه دفع صاحبه الى تأليفه أمران : أحدهما حبه لوطنه الأندلس وحرصه على أن يثبت لها تفوقها فى الأدب والعلم ... والثانى حرصه على تقليد الثعالبى فى كتاب اليتيمة الذى صور فيه أدب معاصريه من الشعراء والكتاب » . (2)

(1) صدر المجلد الاول من القسم الاول عام 1939.
(2) ذ — 1/1 ص أ.

ونحن نستغرب حقا هذا الذى ذهب اليه المرحوم طه حسين ولا نكاد نجد ما نفسر به هذا الخلط بين شيئين مختلفين أشد الاختلاف: المبدأ الذى هو الدفاع عن الوطن ، والمنهج الذى قد يتمثل فى تقليد هذا الكاتب أو ذاك .

ولعل الذى يزيدنا دهشة واستغرابا قوله بعد ذلك مباشرة : « وقد أنبأنا المؤلف فى مقدمته بهذين الأمرين فى سذاجة صريحة وأنبأنا بهما فى الكتاب كله ... » .

واذا كان الباعث الأول مفهوما ، لا خلاف فيه ، فان الباعث الثانى الذى توهمه الدكتور طه حسين هو الذى يثير أشد الخلاف .

ولعل الذى دفع بعميد الأدب العربى الى هذا الرأى الغريب هو أنه وجد ابن بسام يقول بعد اعلانه عن افراد القسم الرابع من كتابه لمن طرأ على جزيرة الأندلس من الأدباء : « ووصلت بهم ذكر طائفة من مشهورى تلك الآفاق ، ممن نجم فى عصرنا بافريقية ، والشام والعراق» ثم يعلل هذا الصنيع بقوله : «وانما ذكرت هؤلاء ائتساء بأبى منصور ، فى تأليفه المشهور ، المترجم بيتيمة الدهر ، فى محاسن أهل العصر» . (1)

فابن بسام كما نرى لا يجعل من مسألة تقليد الثعالبى باعثا من بواعث تأليفه لكتاب الذخيرة ، وهو لا يعبر عن ذلك لا بسذاجة صريحة كما شاء الدكتور طه حسين ، ولا بحيلة خفية ، وقصارى ما فى الأمر أنه أضاف الى فصول كتابه فصلا خص به الواردين على بلاد الأندلس من أهل افريقية والمشرق وفعل ذلك « ائتساء بأبى منصور » .

(1) ذ — 1/1 — ص 20 .

ولم يتوقف طه حسين عند هذا الحد من الخطا بل لقد ذهب بعيدا فى البحث عن مظاهر هذا التقليد حتى جعل التزام ابن بسام للسجع فى كتابه تقليدا منه للثعالبى بالذات كأنه كان سيشذ عن ذوق العصر، ويخرج عن القيم الأدبية الشائعة فى شرق بلاد الاسلام وغربها فى بداية القرن السادس الهجرى، لو لم يقلد الثعالبى فى ذلك ...

والحق أن ابن بسام لم يتجاوز فى تقليده الثعالبى عقد فصل فى كتاب الذخيرة للأدباء المشارقة، مثلما فعل صاحب « اليتيمة » مع الأدباء الأندلسيين، مما سندرسه فى الفصل الرابع المتعلق بـ « منهج كتاب الذخيرة »، وأن هذا التقليد الشكلى، الهامشى، لا يرقى بحال من الأحوال الى حيث يعد من بواعث تأليف الكتاب .

6 — المشكلات التى يثيرها كتاب « الذخيرة » .

الحق أنهما مشكلتان اثنتان فقط تستلزمان شيئا من البسط احداهما أثارها الدكتور الطاهر أحمد مكى فى كتابه « دراسة فى مصادر الأدب » والثانية أثارت انتباهنا ونحن بصدد دراسة المقدمة العظيمة التى وضعها المؤلف لكتابه، والتى لولاها لأطبق الظلام الدامس على الجوانب القليلة التى أمكننا الاهتداء اليها فى حياته .

والمشكلتان تدوران على ما يلى :

أ) — من أعطى الصيغة النهائية لكتاب الذخيرة ؟

ب) — من هو الرجل الفاضل « صاحب الحضرة المقدسة » الذى أهدى اليه ابن بسام كتاب الذخيرة ؟

أ — المشكلة الأولى :

يقول الدكتور الطاهر أحمد مكى :

« تبقى مشكلة تتصل بكتاب الذخيرة، هل ألف ابن بسام الكتاب بنفسه، أم كان املاء منه لتلاميذه ؟ هل أكمله فى حياته وأعطاه الطابع الذى وصلنا به أم تركه فصلا تولى من بعده اعدادها وترتيبها » . (1)

بهذه العبارات يطرح الدكتور مكى المشكلة ثم يجيب بعد ذلك مباشرة بقوله : « يبدو لى أن الكتاب فى صورته الأخيرة ليس من صنع الرجل، وأن أطلق عليه فى تضاعيف كلامه اسم مؤلف، ومجموع وكتاب » .

أما الأسباب التى دفعت الدكتور مكى الى الشك فى أن يكون ابن بسام هو الذى أعطى الصيغة النهائية للكتاب، فانه يجملها فى العبارات التالية : « فهو — أى المؤلف — يبدأ فقراته بقوله : قال أبو الحسن، أو قال ابن بسام، يشير الى نفسه، وهى طريقة لم تكن معروفة فى عصره، فلا نجدها مثلا عند معاصره الفتح بن خاقان، ولا فى الكثرة الغالبة من كتب التراث التى وصلت الينا » .

ويستثنى الدكتور مكى من ذلك كتاب ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس » الذى انتهى فيه البحث الى أنه « محاضرات أملاها المؤلف على طلابه، وقاموا هم بجمعها من بعده وصنعوا منها كتابا » .

ثم يطرح هذا السؤال : « فلم لا يكون الأمر كذلك فى كتاب ابن بسام ؟ » ويجيب عنه بأن ابن بسام لم يعرف عنه أنه اشتغل فى حياته بالتدريس، وأن أسلوب الذخيرة، وما فيه من سجع وصنعة، لا يتأتيان الا باعمال التفكير الطويل، يحمل على استبعاد أن يكون الكتاب محاضرات ألقيت فى حلقات، ثم جمعت ونظمت بعد وفاة صاحبها .

---

(1) دراسة فى مصادر الادب ج/1 ص 358 .

وهكذا يصل الدكتور مكى الى الرأى الذى يذهب اليه فيقـول :

« **فلم يبق غير الظن بأن الرجل ترك الكتاب فصولا معدة ، وأن غيره قام باعداده وأضاف اليه ما أراد** » ٠

هذا هو رأى الدكتور مكى ، وقد دعمه ببرهانين مستخرجين مـن كتاب الذخيرة ٠ فقال :

« ومن غير هذا الظن ، وأكاد أقول اليقين ، لا نستطيع فهم الفقرة التالية بصدد الحديث عن ابن زيدون : « وله ، أى ابن زيـدون ، مـن رسالة حذف أبو الحسن رحمه الله هنا أكثرها ، ولم يذكر منها الا قطرة من وابل ، أو نفثة من سحر بابل ، وها أنا مثبتها على تواليها ، اشـادة بحسن معانيها ، واستفادة من سنى آدابه فيها » ٠ (1)

ويصل الدكتور مكى الى هذه النتيجة الصارمة : « من المحـال أن يكون ابن بسام هو الذى كتب هذا الكلام ، وان جرت فى السجع علـى مذهبه ، وحاكت فى القول أسلوبه وطرائقه ، ويزيد من أهميتهـا أنهـا واردة فى كل ما لدينا من مخطوطات الكتاب » ٠

ويضيف أنه يستبعد أن يكون « أبو الحسن » شخصا آخر غير ابن بسام يتفق معه فى الكنية وأحد مصادره التى ينقل عنها ، « لأنه احتمال لم يقم عليه دليل » ٠ (2)

هذا فيما يتعلق بالبرهان الأول ، أما فيما يتعلق بالبرهان الثـانى فانـه يقـول :

« وشبيه بها فقرة أخرى جاءت فى تضاعيف الحديث عن ابن زيدون ونصها : ومما أغفل ابن بسام ، من نسب أبى الوليد الصحيح الأقسام ،

---

(1) ذ 1/1 — ص 344 .
(2) مصادر الادب ص 359 .

النازح عن الأطماع والأوهام ، المصدق قول الجعفرية فيما ينص مـن الالهام ، قوله ٠٠٠ » ٠ (1)

وخلاصة رأى الدكتور مكى أن هذا : « نص واضح الدلالة فى أن كاتبه شخص آخر غير ابن بسام ، زل به قلمه فهدى اليه ، واحتمال أن يكون غير أبى الحسن هو الذى أعطى الكتاب طابعه الأخير أقرب الـى المعقول من القول بأن متطفلا أضاف هذه الفقرات على الكتاب ، فهـذه كسابقتها واردة فى كل ما لدينا من مخطوطات ، والمخطوطـة الوحيـدة الخالية منها بها خرم فى نفس المكان يبدأ بهذه الفقرة ويمتد بعدها الى صفحـات» ٠ (2)

---

(1) ذ — 1/1 ص 371 .
(2) مصادر ، ص 359 .

الرد على هذه التساؤلات ، أو الحل المعقول للمشكلة الأولى :

لو أردنا أن نلخص نقاط الارتكاز التى بنى عليها أستاذنا الدكتور الطاهر أحمد مكي رأيه لوجدناها تنحصر فى نقطتين :

1 ــ ابتداء بعض الفصول أو الفقرات بعبارة « قال أبو الحسن » أو « قال ابن بسام » وتضاف اليهما أحيانا عبارة « رحمه الله » .

2 ــ ورود فقرات فى الكتاب تشير الى زيادات استدرك بها رجل آخر على ابن بسام ، وتنص على ذلك صراحة ، باستعمال ، عبارات من مثل : « حذف أبو الحسن ، أو ابن بسام » الخ ...

والرد على ذلك فيما نرى يكون كما يلى :

1 ــ بالنسبة الى النقطة الأولى :

يجب أن نلاحظ أن كتاب ابن بسام يختلف عن كثير من الكتب ، ولو كانت من نوعه . ويتميز منها ــ على الأخص ــ بايراد نصوص كثيرة من كتب أخرى ، لمؤلفين آخرين ، فالكتاب يتضمن نصوصا للأدباء ، ونصوصا تاريخية لابن حيان ، وتعليقات لابن بسام . وما أسهل أن يقع الالتباس والخلط بين هذه النصوص اذا لم يلجأ الكاتب الى أسلوب ما ، يستطيع القارىء بفضله أن يميز بين النصوص .

وهكذا نعتقد أن السر فى بدء بعض الفقرات بعبارة « قال ابن بسام » انما مرجعه الى الحرص على التمييز بين مختلف النصوص . فكما يقول المؤلف فى بداية النصوص التاريخية التى ينقلها عن ابن حيان : « قال أبو مروان » أو « قال ابن حيان » فانه عندما يعود الى كلامه هو يشير الى ذلك بقوله « ابن بسام ».

وقد وجدنا بعض المؤلفين يستعملون فى مثل هذه الحالة عبارة « قلت » . ولعل ابن بسام قد عدل عن هذا الاستعمال تجنبا لضمير المتكلم الذى يوحى بالتعاظم والغرور، مما هو مبغض الى نفس ابن بسام التى فطرت على التواضع الجم، والتمسك الشديد بالاخلاق الاسلامية الفاضلة. والمسلمون ــ الى يوم الناس هذا ــ يعوذون بالله من قول « أنا » عندما تأتى على ألسنتهم .

أما اضافة عبارة « رحمه الله » بعد « قال ابن بسام » فما أيسر حملها عن أنها مما زاده النساخ، ونحسب أن مثل ذلك كثير فى المخطوطات العربية .

والملاحظ من ناحية أخرى، أن المؤلف عندما يقطع سرد الرواية ، أو المقطوعة، ليبدى فيهما رأيا، أو يعلق عليهما، فانه يشير الى استئناف الحديث الذى كان فيه بقوله: « رجع » (1)

وهكذا يتبين لنا أن العبارة التى أثارت شك الدكتور مكى، لا تعدو أن تكون، فى حقيقتها، طريقة منهجية، اختارها المؤلف ليميز بواسطتها بين كلامه هو، وكلام ابن حيان، وكلام الأدباء الذين ترجم لهم أو تحدث عنهم بنوع من أنواع الحديث، فهى من هنا، مع عبارة « قال ابن حيان » أو «قال أبو مروان» وعبارة «رجع» من مقومات منهج المؤلف الذى سنفرد له فصلا خاصا من هذه الدراسة .

2 ــ بالنسبة الى النقطة الثانية :

أما بالنسبة الى النقطة الثانية، المتعلقة بورود مثل هذه العبارة فى كتاب الذخيرة : « وقد حذف أبو الحسن الخ ...» فان تفسيرها على أنها اضافة من أحد المتطفلين من النساخ ــ كما سماهم الدكتور مكى ــ

---

(1) ذ ــ 1/1 ــ ص 186 و 332 الخ....

هى الحل الأكثر حظا من الصواب، فيما نرى، بل هى الحل الأوحد ، حتى وان وردت فى معظم ما نملك من النسخ .

وحججنا لتأييد هذا الرأى كثيرة، بعضها تكمن فى مجرد الرد على شكوك أستاذنا الدكتور مكى، وبعضها الآخر فى الحقائق الايجابية التى تثبت صحة نسبة الكتاب الى صاحبه بما لا يتطرق اليه أى نوع من أنواع الشك والارتياب .

1 — ان ورود عبارة « وقد حذف أبو الحسن ..» فى « معظم ما نملك من النسخ » لا يصح دليلا علميا قاطعا على الجـزم بأن هذه العبارة قد وردت فى الأصل، لأنه لم يقم لدينا أى دليل علمى قاطع على أن « معظم ما نملك من النسخ » لم يستنسخ عن مخطوطة قديمة جدا ، كتبت فى القرون الأولى التى تلت وفاة ابن بسام، وأقحمت عليها تلك الفقرات، فجاءت النسخ المنقولة عنها على صورتها، تحمل آثـار ذلك التطفل .

2 — ان ابن بسام قد أعمل مقص الحذف والتقصير والاقتصار فى كثير من مقطوعات الأدباء الذين ترجم لهم، كما سنرى ذلك فى الفصل الذى سندرس فيه منهج المؤلف فى كتاب الذخيرة، بحيث لم يكن يتيسر له أن يورد لهم كل رسائلهم الجيدة ، وقصائدهم الرائجة ، فأورد منها ما اختاره لهم على ذوقه .

والاشارتان الى حذف ابن بسام اللتان ذكرهما الدكتور مكى قد جاءتا كلتاهما فى الفصل الخاص بابن زيدون، حيث أفاض ابن بسام فى التعريف به، وسرد أخباره، وايراد مقطوعاته من الشعر والنثر .

فاذا كان ذلك فأى وجه للاستغراب فى أن يرى أحد المعجبين بابن زيدون، والمتذوقين لأدبه، أن ابن بسام قد أغفل من أدبه هذه القصيدة أو تلك، فيكتب فى الهامش — ان كان مجرد قارىء — « وقد حذف أبـو

الحسن ...» ويثبت ما يعتقد أنه من الأحسن اثباته، أو يقحم ذلك فى صلب نص الذخيرة ان كان واحدا من النساخ ؟

ولو أردنا أن نتتبع عبث النساخ و « المهمشين » بالكتب القيمة فى تراثنا، مما نبه عليه علماؤنا المحققون لأمهات الأدب العربى، لخرجنا من ذلك بسفر عظيم .

ومن الجدير بالملاحظة أن لجنة التحقيق التى عكفت على اعداد الكتاب للطبع فى القاهرة قد تنبهت الى هذا التزييف، كما تنبهت الـى تزييفين آخرين جاءا فى ترجمة ابن برد والبزلياني بحيث أضيف اليهما عدة مقطوعات بلغت من الطول حدا قـارب الثلاثين صفحة مما دفـع باللجنة الى اثباتها فى ملحق خاص بها « استكمالا للفائدة » (1)

3 — ثم اننا لا نرى وجها آخر غير تفسير هذه الزيادة بأنها من عمل المتطفلين من النساخ . والا فما هو التفسير ؟ ولنفرض جدلا أن ما ذهب اليه الدكتور مكى من أن غير ابن بسام هو الذى ألف الكتاب، فاذا كان عمل هذا « الغير » فى سائر الكتاب، فما معنى أن ينبه على سهو ابن بسام فى موضع واحد أو موضعين، وابن بسام لم يؤلف الكتاب، وانما ألفه الذى لاحظ عليه الحذف والاسقاط .

أضف الى ذلك أن عبارة: حذف ابن بسام، أو أسقط أبو الحسن أكثرها، لا يمكن أن تنطبق الا على شىء قد تم تأليفه وترويجه فتصح ملاحظة الملاحظ، والا كانت حكما على نية لم تبرز الى ميدان الواقع ، والحكم على النوايا باطل فى كل الشرائع .

4 — ان أسلوب الكتاب، وما يتميز به من صنعة وزخرف لا يمكن

(1) ذ — 1/2/ ص 435 — 461 — وفى الهامش 3 من ذ — 2/1 — من 151 .
قال من أضاف قطع البزلياني: (وهذه نبذة من كلامه... جمعها أبو الحسن فى مسودة هذا التاليف، ورأيته قد ألمع منها عند التحرير بالنزر اللطيف، على عادته من ايثار الاختصار..»

الا أن يكون — كما لاحظ الدكتور مكـي نفسه — وليد العمل المتأنى ، والجهد الطويل.

والذى يدرس كتاب الذخيرة يستنتج بكل سـهولة أن القوالب الانشائية هى هى على امتداد الكتاب بأقسامه الأربعة، وأن النفس الذى ينتظم كتاب الذخيرة من التميز والأصالة بحيث أن فقرة أو فقرات كالتى استوقفت أستاذنا واستثارت شكه، تبدو نشازا فى سياق النص، وتشير بقوة الى أنها مقحمة على الأصل المتصف بالانسجام، وذلك على الرغم من أن الذى أقحمها قد حاول أن يقلد أسلوب ابن بسام وطريقته فى السجع .

5 — ولكن الذى لم نفهمه، ولم يتضح لنا تمام الوضوح، هو قول الدكتور مكى: « فلم يبق غير الظن بأن الرجل ترك الكتاب فصولا معدة، وأن غيره قام باعدادها، وأضاف اليها ما أراد » . (1)

ذلك أن كتاب الذخيرة انما هو تعريف بالأدباء، ومختارات من شعر الشعراء، ونثر الكتاب، وهو بالاضافة الى ذلك أحكام وتعليقات لابن بسام، ونصوص تاريخية أكثرها مقتطف من كلام للمؤرخ ابن حيان .

اذا كان الأمر كذلك، فما هو وجه الاعداد الذى ذكره الدكتور مكى، والذى بقى لغير ابن بسام أن يقوم به من بعده .

أما النقاط الايجابية التى نستطيع بها اثبات كتاب الذخيرة لصاحبه وحده دون غيره من الناس فنجملها فيما يلى:

1) — نقرأ فى مقدمة كتاب الذخيرة هذه العبارات للمؤلف :

« ولما سئلت أيضا انتساخ هذا الديوان، ورأيت شره أهل الزمان

(1) دراسة فى مصادر الادب 1/ج ص 358 .

الى الاقتباس من نوره، بما يلتقطونه مـن شذوره، أحببت أن يجوب الآفاق ، وتسير به الرفاق ... » (1)

هذه اشارة صريحة كأشد ما تكون الصراحة الى أن المؤلف قد عاش حتى شاهد رواج كتابه، وأن الناس استأذنوه فى انتساخه، ولعله قد كتب المقدمة عندما عزم على تسليم الكتاب للنسخ، أو لعلها كانت مكتوبة بصيغة أخرى ثم أدخل عليها التعديل النهائى.

2 — ونقرأ فى القسم الأول من الكتاب هذه العبارات أيضا :

« الى هذا الموضع انتهى ما وجدته من أخبار الدولة الجهورية من كتاب ابن حيان، وقت تجردى للفراغ من تتميم هذا الديوان، واستعجلت لاخراج هذه النسخة المقروة منه، وأعيانى تتبعه لآثارهم ... فرقعت الضحى بالغلس وجمعت بين حافر المير وجبهة الفرس ...» (2)

فالمؤلف يخبرنا كما نرى أن الناس قد ألحوا عليه فى طلب القسم الثانى من الكتاب — بعد الاطلاع على القسم الأول منه، دون شك — مما اضطر ابن بسام الى أن يعمل الليل والنهار فيرقع الضحى بالغلس، للنزول عند رغبة المعجبين بكتابه، المتلهفين على قراءته .

هذان برهانان لا سبيل الـى الطعن فيهما، لأنهما شهادة حية من كتاب الذخيرة بالذات ومن كلام المؤلف نفسه، اذ يستحيل أن ننسب هذا القول الى غير ابن بسام .

3 — لقد رأينا فى بداية هذا الفصل أنه من المرجح أن يكون المؤلف قد فرغ من تأليف كتابه فى سنة 503 أو 504 هـ فاذا تذكرنا أنه توفى — عام 542 هـ (على احدى الروايات) جـاز لنا أن نتساءل بكثـير من الاستغراب: كيف يمكن أن يبقى ابن بسام مثل كتاب الذخيرة حبيسا لديه

(1) ذ — 1/1 — ص 10 .
(2) ذ — 1/1 — ص 122 .

طوال مدة تقارب الأربعين سنة، وهو الذى كان يبشر بقرب صدوره فى مخاطبته للأدباء الذين يراسلهم لطلب انتاجهم كما رأينا ٠

وهل كان باستطاعة ابن بسام أن يخفى أمـر هذا المجموع على الناس وهم يتتبعون خطواته، ويستعجلونه لاستخراج الباقى من أقسامه وأجزائه ؟

أيعطل أبو الحسن هذه الوسيلة الوحيدة التى بقيت فى يده ليقضى واجب بلاده، فيموت بعد نحو أربعين سنة من تحريره، ويتركه فصولا معدة لينظمها أو ينسقها قوم آخرون بعده ؟

الحق أننا نخالف أستاذنا الكريم الدكتور مكى، اذ نعتقد اعتقادا لا يتطرق اليه أى نوع من الارتياب فى أن أبا الحسن على بن بسام هو المؤلف الوحيد للذخيرة، لا يشاركه فيها أحد، وأنه أتيح له بعد النكبات الفظيعة التى حلت به وبقومه، والغصص التى شرق بها سنوات طويلة أن ينعم برؤية الأدباء والمتأدبين، والوجهاء والأعيان، وهم يقبلون على الكتاب « يقتبسون من نوره، ويلتقطون من شذوره » وأن يشهد رواج كتابه وهو « يجوب الآفاق، وتسير به الرفاق » ٠

ولعل الذى يجدر بنا أن نشير اليه، مما يلفت الانتباه، هو ما ذكره ابن بسام فى القسم الرابع من تأليفه، من أنه « أملى » الكتاب ٠

وفيما يلى نورد النص الذى وردت فيه تلك العبارات قبل التعليق عليها ٠

قال صاحب «الذخيرة» : «قد قدمت (أننى) (1) أمليت هـذا الكتاب بخاطر قد خمدت جمرته، وتبلدت قريحته، وعلى حال من تصرف الزمان، والحاح الحدثان، يتسبب تسبب الهجران، ويتلون تلون الذعر فى عين الجبان ٠

(1) بياض بالاصل، ووجدنا العبارة تستقيم باللفظة التى وضعناها بين قوسين ٠

وللموت خير من حياة كأنها * معرس يعسوب براس سنان ٠

مع أننى لم آخذ هذا الخبر عن سند،ولا استعنت فيه بكتاب لأحد٠٠»(1)

فابن بسام يصرح اذن بأنه أملى هذا الكتاب، وهذه المرة الأولى التى نجده فيها يستعمل فعل « أملى » — فيما استطعنا العثور عليه — وكانت عادته أن يستعمل مصدر « التبييض » و « التحرير » الخ ٠.

فهل أملى القسم الرابع فقط، أم أملى « الكتاب » كما ورد فـى عبارته، فاذا كان ذلك فلماذا لم يشر الى شىء من هذا فى القسم الأول ولا فى الأقسام الأخرى من الذخيرة ٠

أغلب الظن أن المؤلف انما توسع فى دلالة فعل « أملى » فجعلـه مرادفا لفعل « كتبت » أو « حررت » ، فكان الاملاء صادر عنه الى القلم.

واذا قام دليل قاطع على أن الرجل أملى الكتاب حق الاملاء، فان ذلك لا ينقص شيئا مما ذهبنا اليه من أن الكتاب له وليس لأحد غيره ٠ وأنه راج فى حياته، وأتيح له من اقبال الناس عليه ما قرت به عين أبى الحسن بعدطول العذاب ٠

ب — مشكلة الكتاب الثانية

لمن أهدى ابن بسام كتاب الذخيرة ؟

هذا السؤال لا نطرحه لأننا نريد أن نثير مشكلة مصطنعة، أو لأننا نرى أنه لابد لكل كتاب من رجل يهدى اليه، ولابد لكل كاتب من ولى نعمة يرفع تأليفه اليه ٠

والحق أنها مشكلة واقعية تركها لنا ابن بسام حـين أهدى كتابه رجلا لم يشأ أن يبوح لنا باسمه ٠

(1) ذ — ق/4 — ص 185 — مخ الرباط ٠

قال المؤلف فى مقدمة كتابه: « وهذا الديوان نية لم يفصح عنها قول ولا عمل، وأمنية لم يكن منها حول ولا حول ... الى أن طلع على أرضها، شهاب سعدها وتمكينها، وهبت لها رياح دنياها ودينها، ونفخ فيها روح تأميلها وتأمينها، ملك أملاكها، وجزيل حكاكها، وأسعد نجوم أفلاكها: فلان ». (1)

وهذا الكلام واضح الدلالة على أن نية ابن بسام القديمة، فى تأليف كتاب الذخيرة، قد استحثها، وفسح لها الطريق الى الوجود، رجل له فضل كبير على المؤلف، اذ وفر له الأمن، ومنحه الأمل الذى فارقه أو كاد بعد خروجه من شنترين على الحال التى نعرفها.

فمن هو هذا الرجل ؟

لا يسميه لنا ابن بسام.

وهنا نبلغ ذروة العجب، والاستغراب لأن المؤلف عمد الى طمس السبيل الوحيد الذى كان يستطيع أن يقودنا الى الحقيقة، فاستبدل اسم الرجل المقصود بكلمة « فلان ».

كنا نعجب لعدم ورود اشارات كافية عن حياته فى كتابه، فلما فرض سياق الحديث نوعا من هذه الاشارات فرضا قويا، قطع الطريق علينا عمدا، فزادنا حيرة على حيرة. فما حيلتنا والحال هذه ؟

لقد اشتهر ابن بسام بحذف أسماء الرجال الواردة فى النصوص التى كتبها هو، أو التى نقلها عن غيره. وقد التمسنا تعليلا لذلك فى نفوره من التشهير بالناس، والنيل من أعراضهم بالقدح والهجاء. فما هو تعليل هذا الحذف للأسماء، وقد جاءت فى سياق المدح والثناء، وشكر النعم، والاعتراف بالجميل ؟

(1) ذ — 1/1 — ص 9.

من المؤكد أننا نظلم ابن بسام اذا زعمنا أنها نزوة من نزواته جعلته يقدم على ما أقدم عليه، فيحرمنا بذلك من بعض النور لاكتشاف مجاهل حياته، ورفع بعض حجبها السميكة. ولابد أن تكون له أعذاره وحججه التى سوغت له هذا الصنيع لاننا لم نعرف للرجل ولوعا بالشذوذ، وصدورا عن النزوات.

لقد رجحنا — فى الفصل الذى عقدناه لدراسة حياته — أن يكون ذا علاقة قديمة بالسياسة ورجال الحكم، وبينا أنه كان من المتصلين بالمعتمد ابن عباد، وذكرنا — اعتمادا على كلامه — أنه كان يتصرف فى بعض الشؤون السلطانية للمرابطين فى اشبيلية أثناء تحريره لكتاب الذخيرة، فلعله لهذه الأسباب أو لبعضها وما هو قريب منها، أحب أن يكتم اسم ولى نعمته الذى قد لا يكون من رجال الدولة الجديدة، صونا لحياته، وحفاظا على أمنه وأمن أهله وذويه.

ولعله يحسن بنا أن نستمع الى ابن بسام وهو يعدد مناقب هذا الرجل الفاضل حين يقول عنه: « ثمال المظلوم، ومال السائل والمحروم، ومحيى العلم، ومربح ذويه وحامليه، ومستدعى التأليفات الرائقة فيه». (1)

ويبدو أن فضل هذا الرجل لم يقتصر على ابن بسام وحده، بل شمل أصحابه، من المحرومين الذين كانت حاله كحالهم، أولائك الذين يصفهم المؤلف فى مقدمة كتابه بقوله :

« من كل أشعث ذى طمرين، ومشنوء الأثر والعين، محروم محسود، محلأ عن طريق الماء مطرود، قد جعلوا بيوتهم قبورا، واتخذوا بنات أفكارهم ولدانا وحورا، وركبوا الحدثان صعبا وذلولا، وعاهدوا الحرمان

(1) ذ — 1/1 — ص 9.

ليبلنه صبرا جميلا، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلا » (1)

ويضيف المؤلف بعد ذلك، واصفا شدة سرور هؤلاء المحرومين من أصحابه، بباب الفرح الذى انفتح فجأة أمامهم: « فما هم الا أن سطع لهم هذا الشهاب، وفتح بينهم وبين روح الله ذلك الباب، حتى نفروا خفافا وثقالا، وابتدروا بطاء وعجالا، ينظرون بعيون لم تـرو من ماء وجه كريم، ويصغون بآذان لم تأنس بنعمة صديق حميم، قد كانـوا يئسوا من هذا النشور كما يئس الكفار من أصحاب القبور » (2)

ويحاور ابن بسام هؤلاء الرفاق. ولا نعلم ان كان جرى هذا الحوار معهم فى الواقع، وأنهم كانوا هم الذين دلوه الى باب الفرج المفتوح ، أم أنه مجرد تفنن بلاغى ·

ومهما يكن من أمر ذلك، مما لا سبيل — الآن — الى معرفته على وجه اليقين، فانه يقول: « فسألتهم أى جانب يمموا، وبأى جناب خيموا، والى أى ملك لباب أنجدوا وأتهموا » (3)

أما عن علاقة المؤلف بهذه الفئة من الأدباء المحرومين أو المنكوبين فيخلص اليها بعد الكلام السابق، ويتناول الحديث عنها بقوله: « ويا رحمتا لبحور أدب، وصدور رتب، كان نظمنى واياهم ود قديم ، ولف هواى بهواهم عهد كريم، لا منسى ولا مذموم ، فقد طال ما عاطيتهم أكؤس الخمول، على البكاء والعويل، فى أيام أوحش من توديع الشباب، وليال أنكد من مناقشة الحساب ·· » (4)

---

(1) ذ — 1/1 — ص 9 ·
(2) ذ — 1/1 ص 9 — 10 ·
(3) ذ — 1/1 — ص 10 ·
(4) ذ — 1/1 ص 11 ·

هذه الفقرات كلها — المنتزعة من مقدمة كتابه — تبين لنا بما لا يقبل الشك أن جماعة من الناس كانوا « بحور أدب وصدور رتب » — ربما هم من وزراء الدولة المغضوب عليهم بعد خلع المعتمد ؟ — ثم قلبت لـهم الأيام ظهر المجن فامتحنوا شر الامتحان وأصبحوا بحيث يعاطيهم ابن بسام « أكؤس الخمول، على البكاء والعويل »· وقد رأينا أن الصداقة التى تربط المؤلف بهم ليست وليدة ظـروف مشابهة، وأحوال عسيرة مشتركة فقط، بل هى صداقة قديمة، ترجع الى عهد كريم.

هذه الاشارات ان كانت مفيدة جدا فى بيان ظروف ابن بسام قبل أن يتصل بالرجل الفاضل الذى ساعده أيام محنته، فانها لا تفيدنا شيئا فى معرفة هذا الرجل ·

والحق أننا اذا احتكمنا الى الأوصاف التى أطلقها على هذا الانسان، فاننا نجد فيها ما يجعلنا نظن أنه ملك، أو أمير، أو وزير ذو مكانة خاصة، أو أحد القادة العظام فى الدولة ·

واذا كانت الأوصاف التى جاءت فى الفقـرة التى كنا أوردناها : « ثمال المظلوم، ومال السائل والمحروم، ومحيى العلم، ومربح ذويه » الخ·· يصح أن نطلقها على أى شخص من ذوى اليسار والكرم، فان هناك نعوتا أخرى أطلقها المؤلف عليه فى آخر تلك الفقرة مما لا يمكن أن ينصرف الى كل الناس ·

قال أبو الحسن: « جعل الله الدهر أقصى أيامه، والنجوم مراكز أعلامه، والأرض نهبة سيوفه وأقلامه، فحامت عليه أطيارها، وأهل اليه حجاجها وزوارها، وانتثرت فى يديه شموسها وأقمارها ··» (1)

ذلك أن الاعلام والسيوف لا تكون الا لفئة معروفة من الناس، هى تلك التى تقع من هرم الحكم والسياسة فى ذروته ·

---

(1) المصدر السابق ·

أفلا يكون هذا الرجل « السياسى » الذى يصفه بهذه الأوصاف هو نفس الرجل الذى ولاه «الأعمال السلطانية» التى ذكر ابن بسام — كما رأينا فى الفصل الأول من هذه الدراسة — انه كان يتصرف فيها «مضطرا» وقد يكون حينئذ فى ذلك بعض التفسير لقوله « مضطرا » اذ يكون المؤلف قد قبل تلك الأعمال لأنه لا يستطيع رفضها بالنظر الى ما للرجل من فضل سابق عليه .

ولكننا وجدنا فى احدى هذه الفقرات المتصلة باهداء كتاب الذخيرة، عبارة محيرة، لأنها تنطوى على وصف لم يشع فى تاريخ الاسلام اطلاقه على الملوك والأمراء .

قال ابن بسام: « ولما سمعت صوت المهيب، وتنسمت ريح الفرج القريب، ووجدت لسبيل التأميل مدرجا، وجعل الله لى من ربقة الخمول مخرجا، طالعت حضرته المقدسة بهذا الكتاب على حكمه، مطرزا بسمته واسمه » (1)

فنحن نرى المؤلف قد استعمل عبارة « حضرته المقدسة » . فهل هى عبارة حاول المرابطون اشاعتها بادىء الأمر، ورددها ابن بسام ، ولكنها لم تصب حظا من الرواج فماتت، وبقيت آثارها فى كتاب الذخيرة ؟ أم أن الرجل المقصود بكلام ابن بسام من الأئمة العظام الذين يمكن أن تطلق عليهم هذه الصفة، وتنعت حضرتهم بالقداسة ؟

وكيفما كان الأمر فان المؤلف يختم هذه الفقرات التى تتناول فيها مدح صاحب الاهداء بقوله: « ولما سئلت أيضا انتساخ هذا الديوان.. أحببت أن يجوب الآفاق، وتسير به الرفاق، وعليه من اسم من له جمع

(1) ذ 1/1 — ص 10 .

والى جوانبه العلية رفع، طراز تنفق به سوقه، ولا تضيع أن شاء الله حقوقه» . (1)

وهكذا لم نتمكن على الرغم من البحث الطويل، والاستقراء الدقيق لأقوال المؤلف، من الوصول الى معرفة هذا الرجل ذى الحضرة المقدسة، والسيوف والأقلام، والجوانب العلية، الذى جمع له ابن بسام كتاب الذخيرة، وأهداه اياه .

ولكننا مع ذلك لن نستسلم لهذا الحظ السيء، ولن نرضى بهذه النتيجة السلبية. ولنترك المقدمة الى متن الكتاب نفسه فلعلنا نظفر فيه ببعض الاشارات، ان لم تكن مما يرضينا كل الرضى، فقد لا تخلو من الانطواء على شعاع من الضوء، هو خافت بالفعل، ولكنه خير من لا شىء فى هذا الظلام الدامس الذى أعيانا هتك حجبه الكثيفة .

(1) ذ 1/1 — ص 11 .

القاضي أبو عبد الله بن حمدين

وكتاب « الذخيرة »

عقد ابن بسام لهذا القاضي فصلا في القسم الثاني من كتابه فقال معرفا به: « والفقيه قاضي الجماعة أبو عبد الله ابن حمدين هذا في وقتنا غرة الزمان الزاهرة، وآية الاحسان الباهرة ، أحد من تقدم على أهل الفضل، تقدم الاسم على الفعل، واستولى على النبل، استيلاء الشمس على الظل، وله صدر يسع الدهر كله، ولسان يحلق الشعر لو استحله ، وهو وان كان اليوم بالحضرة العظمى قرطبة يعسوب الاسلام، ومدار الأنام ، وجماع النقض والابرام فلهذا الشأن الذى تطديت لاقامة أوده بهذا الديوان، من عنايته أوفر نصيب، ولأهله من استقلاله، وكفايته حمى غير مقروب .. » (1)

ان المؤلف يشير الى أن لأبي عبد الله بن حمدين، قاضي الجماعة بقرطبة، فضلا عليه، وعناية بكتابه .

ونحن لا نزعم أنه هو الرجل الذى أهداه ابن بسام كتاب الذخيرة، لأن منحه المؤلف وكتابه « أوفر نصيب من العناية » ليس مما يكفي وحده ليجعلنا نرجح ذلك. وانما أحببنا أن نتوقف عنده قليلا لأسباب ثلاثة :

أولها: اننا لم نجد المؤلف يشير في تراجم الأدباء والعلماء الآخرين الى أن لواحد منهم فضلا عليه في اخراج كتاب الذخيرة. ومن هنا اكتسبت هذه الاشارة في سياق ترجمة أبي عبد الله ابن حمدين أهمية خاصة .

---

(1) ذ — 2/1 — ص 333 .

وثانيها: أن ابن حمدين امام عظيم، وقاض للجماعة ذو هيبة وجلال بالاضافة الى أنه — كابن بسام — من بنى تغلب، فهو من هذه الناحية قريب صلة النسب بالمؤلف الذى رأيناه يفتخر بتغلبيته .

وقد ذكر عبد الواحد المراكشى انتساب القاضى ابن حمدين الى تغلب، بمناسبة حديثه عن سطوة الفقهاء فى زمن ولاية أبى الحسن على بن يوسف ابن تاشفين .

ذكر صاحب كتاب « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » أن الشاعر ابن البنى قد هجا القاضى أبا عبد الله ابن حمدين بأبيات منها :

اذا سـئل العـرف حـك استـه
لـيثبت دعـواه فى تـغلب ...

وعلق عبد الواحد على ذلك بقوله: « وكان القاضى أبو عبد الله بن حمدين ينتسب الى تغلب ابنة وائل » (1)

وثالثها: — ولعل أهم تلك الأسباب الثلاثة، أننا وجدنا ابن بسام، فى الفصل الذى عقده للوزير الكاتب أبى مروان عبد الملك ابـن شماخ رسالة تسترعى الانتباه .

فبعد أن قال عنه « وأبو مروان هذا أحد من أدركته، وذاكرته، وأنشدنى شعره » (2) اختار له « رقعة خاطب بها الفقيه القاضى أبا عبد الله ابن حمدين » .

وتبدأ الرقعة بهذه الأبيات :

لـمـا وضـعـت صـحيفتى * فـى بطـن كـف رسـولها
قـبلتهـا لتمسـها * يمـنـاك عند وصـولهـا

(1) المعجب ص 235 وما بعدها.
(2) ذ — 2/1 — ص 323 .

وتـود عينى أنهـا انقـلـ ـبت ببعـض فصـولها
حتـى تـرى من وجهك الـ ـميـمـون غايـة سولها » (1)

ونقتطف من الرقعة المقتطفات التـى تهمنا .

قال ابن شماخ:

« خطبت ودك، فان ترنى كفؤا بلغت المبالغ الشاسعة، عفـوا ، ظمئت الى شمول تلك الشمائل، فان سقيتنى منها نغبة، سرت فى الأريحية حقبة، ما أرى الفقيه يعلم من أمرى أكثر من معرفته بشخصى ونجرى . سألمع لك فى شأنى بلمعة واختصر، فقد يروى — وان قل — الـزلال الخصر .

« كان مدة فى يدى زمام بلدى، ثم نقلت الى حمص، وكانت لخم متى شاءت أمرا لم تعص، فلما رمت بصنهاجة اللجج، وثار لـهم ذلك الرهج، فى يوم أشرعت فيه الأسنة، وأجهضت لشدة خطبه الأجنة ، فانتهب مالى كما انتهب مال المصر، وكسد فى حمص سوق النظم والنثر، زهدنا فيها فمقتناها، وسكتنا عن الكتابة فما أبناها، ولجأنا الى غافق، يعلق من الأدب غير نافق، بحيث يتساوى الجهل والعلم ، ويصفح البليغ الفدم .

« وانى — أعز الله الفقيه — وان كان أوطانى الله منها أوطانى ، وأعطانى منها أعطانى، وآوانى منها ايوانى لعدم الشكل، لغريب فيها بين الأحبة والأهل .

« فان تبك عين الفقيه الشفيق ، ضياع صديق، فلتبك منى لطائر كريم، رد الى وكر لئيم، ولترث لدرة سنية، ردت الى صدفة دنية . وحسبنا الله، أنا المصدور أكثرت نفثا، وشكوت بثا، أن كنت أطلت

(1) المصدر السابق .

الخطاب، فان حوار الفقيه لذ لى وطاب، وانتظارى لجوابه، انتظار الصائم للفطر، والسارى للفجر .

« واقرأ عليه من سلامى، عدد مناقب الفقيه، بل عدد محاسن أبى الحسن أبيه، فانها تجاوز الحد، ولا تطاوع العد » . (1)

هذه هى رقعة ابن شماخ التى خاطب بها القاضى أبا عبد الله ابن حمدين، كما أوردها له ابن بسام فى جملة مختاراته، وقد أتينا منها بأهم الفقرات التى لفتت منا الانتباه .

والذى جعلنا نتوقف عندها هو الشبه الذى وجدناه بين حال ابن شماخ، وحال ابن بسام :

كلاهما خرج مقهورا من بلده، وحل بمدينة حمص، وكلاهما جاءها صفر اليدين، خالى الوطاب، وكلاهما يشكو من كساد سوق الأدب بها ، وكلاهما يمتعض مما يلاقيه فيها من الغربة وقلة الصديق، والأهم من ذلك أن كلا منهما كان على اتصال بهذا القاضى ابن حمدين . فابن شماخ يطلب منه المساعدة، وينتظرها منه « انتظار الصائم للفطر » وابن بسام يذكر أنه لاقى من عنانيته أوفر نصيب. هذا بالاضافة الى أن بين الأديبين — ابن بسام وابن شماخ — علاقة تشبه الصداقة، اذ يصرح صاحب الذخيرة بأنه أدركه، وذاكره، وأنشد شعره .

فهل يكون ابن حمدين هو الذى رفع اليه ابن بسام كتابه ؟

الواقع أننا لا نستطيع ترجيح ذلك، لأن الأوصاف التى أطلقها المؤلف على « صاحبه » ليست أوصافا فقهية، وانما هى أقرب الى الكلام الذى يخاطب به عادة الملوك والأمراء .

(1) ق 1/2 — ص 324 — 325 .

7 — شهرة كتاب « الذخيرة » وحظه من الرواج فى العصور القديمة .

ما ان أخرج ابن بسام كتاب « الذخيرة » للناس حتى أقبلوا عليه ينتسخونه ويجنون ما فيه من ثمار الشعر والنثر والتاريخ. ويحدثنا المؤلف عن بعض ما لقيه كتابه من الاستحسان لدى المتأدبين بوجه عام، ولدى الأعيان منهم خاصة فيقول: « ولما سئلت أيضا انتساخ هذا الديوان، ورأيت شره أهل الزمان الى الاقتباس من نوره، بما يتلقطونه من شذوره، أحببت أن يجوب الآفاق، وتسير به الرفاق ... (1)

فالملاحظ أن ابن بسام يصف ذلك الاقبال الذى لقيه لدى الناس بالشره ، ويذكر أن بعضهم قد طلبوا منه انتساخه ، مما يبرهن على أنه قد أتيح للمؤلف أن ينعم بثمار جهاده ، وأن يعوض — ولو بمقدار — عن مجده التليد الذى سلبته منه حوادث شنترين ، بمجد طريف بناه له أدبه وقلمه .

وان الذى يعرف ما كان للمؤلف من أخلاق عالية ليستطيع أن يقدر بكل موضوعية نبرات الفخر فى فم رجل كابن بسام ، يمنع عليه تواضعه الجم — الذى تفصح عنه الذخيرة فى مواضع كثيرة لا تكاد تحصى — أن ينساق وراء الغرور ، للتزيد والمبالغة .

وليس عجيبا على كل حال أن يحظى كتاب الذخيرة بمثل هذا الاقبال ، وهو الذى ينبغى أن يعد بحق تحفة من تحف الفكر الأندلسى، لما بذل فيه مؤلفه من جهد ذكى ، مكنه من أن يغطى قرنا ونيفا من الحياة الأندلسية ، فوصل حلقات التاريخ بعضها ببعض ، وروى أهم حوادثها ، وترجم لفئات مختلفة من أعيانها وعلمائها ، فجاء الكتاب بحق موسوعة فى الأدب الأندلسى ، نستطيع اليوم بكل يسر ، أن نقدر فداحة المصيبة التى كانت تلحق بتاريخ الأدب العربى لو أنه فقد — أيضا — «ذخيرة»

(1) ق 1/1 — ص 10 .

ابن بسام ، ويكفى لتقدير هذا الجانب وحده من أهمية الكتاب أن نعرف أن كثيرا من الأدباء ، وكثيرا من النصوص الأدبية ، شعرا ونثرا ، وكثيرا من النصوص التاريخية التى نقلها المؤلف عن ابن حيان لا نجد لها ذكرا فى غير كتاب ابن بسام .

أما النجاح الذى لاقاه الكتاب لدى معاصرى ابن بسام فيسهل علينا أن نتصوره اذا أخذنا العناصر التالية فى الحسبان :

أ — معرفة الأوساط الأدبية فى الأندلس بمشروع ابن بسام المتعلق بتأليف كتاب الذخيرة . ذلك أن أبا الحسن لم يجلس لتأليف الكتاب على الطريقة الأكاديمية فيجمع المصادر فى بيته ويعكف على التحرير . وانما كان رجلا متصلا بالأدباء بصفة مباشرة حين يكون ذلك فى وسعه ، ولا سيما عندما يكون أولئك الأدباء على مقربة من محل اقامته ، وبالمراسلة حين يكونون فى الأصقاع البعيدة والمدن القصية . وبذلك كان الأدباء والمتأدبون على علم بما ينوى ابن بسام أن يقوم به ، فهم ينتظرون الكتاب ولعلهم كانوا يسألونه عنه ، بل ويستحثونه على اخراج أقسامه الباقية بسرعة كما رأينا .

ب — ان ابن بسام كان يدعو الى موقف متميز ، يتلخص كما أسلفنا فى ضرورة العناية بالأدب الأندلسى ، والاعتزاز به لأنه على حد تعبيرنا اليوم من « مقومات الشخصية الأندلسية » . لذلك نرى أنه من المستبعد جدا أن يكتفى صاحب دعوة كهذه ، لها من نفسه المكانة التى تطالعنا بها الذخيرة فى كل فصولها ، أن يكتفى بالكتابة عنها . ولعل الذى يكون أكثر مسايرة لما فطر عليه الانسان عندما يلجأ الى التبشير باحدى معتقداته الراسخة ، ولا سيما عندما يرى فى ذلك رسالة لانقاذ الجماعة ، أن يكثر الحديث فى ما يدعو اليه ، وأن يحاول اقناع من يتصل بهم ، وأن يعمل جاهدا لبث آرائه ، ونشر دعوته ، وتوعية الجمهور بالجوانب التى بنيت عليها الدعوة .

واذا كنا لا نميل الى القول بأن أبا الحسن بن بسام كان من الدعاة الذين يعتلون المنابر ، ويقصدون أماكن التجمع ، ويخطبون فى الجماهير، لأن موضوع الدعوة فى حد ذاته لا يتيح المجال لمثل هذا النشاط ، فان الذى نرجحه أن ابن بسام كان يبث دعوته فى الأوساط الأدبية ، وأيسر ذلك أنه كان يتحدث عن مشروع كتابه حين يتصل بالأدباء أو يراسلهم طالبا « ما عندهم » كما يقول ، فكان مضطرا الى الافصاح عن دوافعه والاعراب عن مراميه .

ج — ان النسيج الخلقى للكتاب يتمثل كما أسلفنا أيضا فى الدفاع عن الأدب الأندلسى ، ومن خلاله ، عن الشخصية الأندلسية فى فترة بدأت فيها الأخطار الحقيقية تحدق بالأندلس من كل صوب ، وبدأ البعض يتنبأ بالمصير المحتوم الذى سيقضى على الأندلس كموطن للحضارة العربية الاسلامية . وكم كان طبيعيا أن يروج كتاب يستثير الحمية الجماعية للأندلسيين بما يعرض من مفاخر البلد فى قالب « عقائدى » كما يقال ، هدفه التحريض على العناية بأحد الجوانب الهامة فى الكيان « الوطنى » والدعوة الى اعطاء الأولوية للعناصر الذاتية ، الداخلية ، الصميمة ، على العناصر الخارجية المستورده ، حتى ولو كانت الصلة بينهما قوية ، والقرابة حميمة .

ويكفى لتصديق ذلك — اذا كنا فى شك من أمره — أن نلاحظ مدى الرواج الذى تصادفه اليوم ، لدى العامة ، المؤلفات التى تخاطب الجمهور بهذه اللغة وتعزف له على هذه الأوتار .

د — لم يكن كتاب الذخيرة من ذلك النوع من الكتب الضيقة الاختصاص ، التى تهم طائفة دون أخرى ، وتقتنى للدرس والمطالعة المتروية ، أكثر مما تقتنى للمتعة ، والمطالعة التى يجد فيها كل واحد نوع الفائدة التى يؤهله لها مستواه ومبلغه من العلم . ان كتاب الذخيرة قد غطى تلك الحقبة الطويلة من التاريخ ، وجمع بين الخبر الطريف ، والسرد

التاريخى الدقيق ، والرواية المشوقة ، وفى تراجم الناس على اختلاف منازلهم فى الحياة وحظوظهم من الدنيا من عناصر التشويق قدر كبير ٠

كما جمع الى ذلك عيون النثر والشعر التى لا يقطع نظامها ويوقف سياقها الا تدخل ابن بسام من حين الى حين ، بعلمه الغزير ، واطلاعه الواسع ، واعتداله الغالب ، يفاضل بين هذا القول أو ذاك ، أو يدل على مكان وقع فيه الحافر على الحافر فى ميدان ما أكثر أفراسه وفرسانه ٠

ليس عجيبا أن ينال كتاب توفرت له هذه العناصر كلها أكبر قدر من الرواج ، وأوفى حظ من النجاح فى بلد قيل عنه ان الفلاح (فيه) وراء محراثه كان قادرا على نظم الشعر ، بله تذوقه وحب قراءته والاستمتاع اليه ٠

ولقد أحب ابن بسام لكتابه « أن يجوب الآفاق وتسير به الرفاق » ولعله كان يطمح فى سريرته الى أن تكون الآفاق أبعد من آفاق الأندلس، وأن يسير به الرفاق الى مواطن ذلك الأدب الذى شغف أهل بلاده حبا ، وألهاهم أو كاد ، عن موفور تراثهم العريق ٠

واذا كان من المؤكد أن ابن بسام قد أتيح له أن يرى الكتاب حقيقة واقعة بعد أن كان « أمنية لم يكن منها حول ولا حول ، كامنا بين العيان والخبز كمون النار فى الحجر ، وجاريا بين اللسان والقلب ، جرى الماء فى الغصن الرطب » ٠ (1)

وكان من المؤكد أيضا أن « الذخيرة » قد عرفت فى بلاد الأندلس والمغرب عامة نجاحا كبيرا بحيث أسرع الى الاستفادة منها ، الكتاب والمؤرخون من أمثال ابن خاقان ، وابن بشكوال ، والضبى ، وابن الأبار، ومؤلفو كتاب المغرب فى حلى المغرب ، ولسان الدين ابن الخطيب ، والمقرى ، وغيرهم كثيرون ، اذا كان ذلك كله مؤكدا ، بشهادة المؤلفات

---

(1) ذ — 1/1 — ص 9 ٠

الكثيرة التى نصت على قيمته الكبيرة ، فاننا لا نعرف بالضبط متى دخل الكتاب بلاد المشرق ، ولا نعرف اذا كان ذلك قد تم فى حياة المؤلف الذى عاش نحو أربعين سنة أخرى بعد تأليفه اياه ٠

ونحسب أننا لا نكون بعيدين عن الحقيقة اذا زعمنا أن الكتاب قد دخل بلاد المشرق فى السنوات الأولى لظهوره فى اشبيليا ٠ وحجتنا فى ذلك ما يلى :

أ — ربما تكون نظرة المشارقة الى الأدب المغربى قد تغيرت نوعا ما، بعد أن أتيح لهم أن يطلعوا على بعض الآثار الراقية التى أنتجت فى بلاد الأندلس ٠ وقد تكون عقدة التفوق التى تلخصها العبارة المشهورة « هذه بضاعتنا ردت الينا» قد زالت أو خفت حدتها بعد أن انقضى العهد الذهبى للأدب العربى فى المشرق وأخذت الحياة الأدبية هنالك تفقد حيويتها التى امتازت بها فى القرنين الثالث والرابع للهجرة ٠ فان ذلك من شأنه أن يجعل الناس أقل صدودا عما يجرى خارج بلادهم وأكثر انتباها الى ما يرد اليهم من الأصقاع الأخرى ٠

ب — ان عبارة « هذه بضاعتنا ردت الينا » كلمة حق أريد بها باطل ، حجبت كثيرا من الحقائق الناصعة وان كان للأدباء الأندلسيين فيها جانب كبير من المسؤولية ، هو ذلك الذى دفع ابن بسام الى تأليف كتابه ٠ والواضح أن المشارقة كانوا يعزفون عن المؤلفات الأندلسية حين يجدونها — على حد قولهم — صورة لما يجرى من نشاط فكرى فى بلاد المشرق ٠ أما وكتاب الذخيرة قد حوى تلك المعلومات الغزيرة عن أدباء الأندلس ، واشتمل على تلك النماذج الكثيرة من نثرهم وشعرهم ، فاننا نرجح أن يكون المشارقة قد بادروا الى اقتناء الكتاب ، لأنه يشتمل بالفعل على ما هم فى حاجة اليه من أخبار عن الأندلس وتراثها الأدبى ٠

ج — ان الكتب المؤلفة فى بداية القرن السابع الهجرى (توفى ابن بسام سنة 542) تطالعنا باهتمام كبير بكتاب الذخيرة بحيث نجد ابن

خلكان (1) يعتمد عليه في كثير من تراجم الأدباء المشارقة أنفسهم بله الأندلسيين وذلك في كتابه الشهير « وفيات الأعيان ، وأنباء أبناء الزمان ».

ثم نجد في القرن نفسه رجلين تختلف مشاربهمـا ، واهتماماتهما ، وأعمالهما يعكفان على اختصار الكتاب .

ــ الأسعد بن مماتي (2) يختصره في كتـاب يسميـه « لطائـف الذخيرة» وكان كتاب الذخيرة من بين الكتب التي تشتمل عليها مكتبـة السلطان الظاهر الأيوبي .

ــ وابن منظور (3) صاحب لسان العرب يختصر الكتاب كما يقـول الذين ترجموا له (4) ولكننا لا نعرف للأسف شيئا عنه الى حد الآن .

وهكذا يصح لنا أن نستخلص أن الكتاب قد راجت سوقه ، ووجد ما يستحق من الاهتمام فانتفعت به طوائف شتى من الأدباء والمتأدبين ، وبلغ اعجاب الأدباء به حدا جعلهم يختصرونه مرتين على الأقل في قـرن واحد ، ويتخذونه من المصادر الهامة لديهم ، ليس ذلك فيما يخص أهـل الأندلس والمغرب فقط ، بل وحتى فيما يتعلق بالأدباء المشارقة الـذين تعرض لهم ابن بسام في كتاب الذخيرة .

---

(1) مؤلف « وفيات الاعيان » توفي سنة 681 هـ.
(2) سنتحدث عنه بشيء من التفصيل .
(3) هو ابو الفضل محمد ابن مكرم ابن منظور الافريقي ولد في مصر، او في طرابلس الغرب سنة 630 هـ حيث ولي القضاء. توفي في مصر سنة 711 هـ. لـه مؤلفات واختصارات كثيرة .
(4) ذكر صاحب الاعلام في ترجمته (ج/7 ص 329) ان «له لطائف الذخيرة » اختصر به ذخيرة ابن بسام. والظاهر انه خطأ لان لطائف الذخيرة هي لابن مماتي .

6) ــ اختصارات الكتـاب :

لقد اختصر الكتاب كما أسلفنا مرتين . واذا كنا لا نعرف شيئـا عن العمل الذي قام به ابن منظور صاحب اللسان ، فاننا نتحدث بصفـة خاصة عن اختصار ابن مماتي الذي هو بين أيدينا .

أ ــ من هو ابن مماتي؟

هو أبو المكارم الأسعد بن مهذب (الملقب بالخطير) أبي سعيـد بن مينا بن زكريا بن مماتي . ولد بمصر سنة 544هـ (1149 م) وكان نصرانيا فأسلم هو وجماعة من أهله في ابتداء الدولة الصلاحيـة وكـان نـاظر الدواوين في الديار المصرية . (1)

وقد تقلبت به الأحوال ، وعبثت له الدنيا ففـر هاربا الى ديـار الشام فأقام في حلب واتصل بالأمراء الأيوبيين فيها ، وأصبح من أشهـر رجالات دولتهم .

له جملة مؤلفات منها : « قوانين الدواوين » و « ونظـم سيـرة السلطان صلاح الدين » و « نظم كليلة ودمنة » و « ديوان شعـر » و « الفاشوش في ديوان قراقوش » .

ب ــ عمل ابن مماتي في الذخيرة :

يبدو أن ابن مماتي قد أعجب بكتاب الذخيرة حين وجده في المكتبة السلطانية بحلب ، ولكنه رأى أن المعلومات التي تضمنها كثيرة جـدا ، وأن تدخلات ابن بسام النقدية كثيرا ما تقطع سياق القصيدة . وتصرف القارىء عن التذوق الخالص للشعر ، الى الملاحظات البلاغية وغيرها ، فأحب أن يختصر كل ذلك ، وأن يعيد تنظيم الكتاب .

---

(1) عن الاعلام ج/1 ــ ص 295 وانظر وفيات الاعيان، ومعجم الادباء الجزء السادس والخريدة القسم المصري الخ ...

ويحدثنا ابن مماتى عن ذلك فى فاتحة الكتاب فيقول :

« فخرجت من مصر خائفا أترقب ، هائما لا أدرى أين أذهب ، حتى أدانى الهرب الى المدينة الشهباء حلب ، فلجأت الى جانب سلطانها الملك الظاهر ، وتفيأت من ظلال دولته ما أذهب عنى حر الهواجر ، وحين وجدته ملجأ للجانى ، ومأمنا للعانى ... أنخت به مطايا الترحال ... وأطلق خاطرى بما أطلق يدى فيه من خزانة كتبه ، فكان من جمنتها كتاب « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة (1) تأليف أبى الحسن على بن بسام رحمه الله » . (2)

ثم يبدى ابن مماتى استحسانه للكتاب فيعبر عن ذلك بقوله :

« وهو كتاب جليل المقدار ، جميل الآثار ، منتظم من عقود عقول الفضلاء، وفصوص فصول الأدباء ، ما تغص به الأقطاب والأقطار ، يملأ ساحات ساعات الليل والنهار .. أبقاه الله الى أن اختار منه الطايل الطائر ، ونقصر فيه على الناد النادر ، فبادرت الى المرسوم ، وثابرت على العمل المفهوم » . (3)

أما مآخذه على الكتاب التى يبدو أنها دفعته الى اختصاره فيوجزها فى قوله : « ووجدت المصنف المذكور ، لم يلزم قانونا فى تقديم المقدم ، وتأخير المؤخر ، بل ذكر كل اسم على ما اتفق له من ذكره ، وخدم ذلك الاسم بما وجده من أخباره ، ونظمه ونثره ، وألم فى بعض الأشعار بالتنبيه على ما يشاكلها ، والاشارة الى ما يماثلها ، فجردت منه خيار ما وجدت فيه ، وأظهرت منه ما كان الاكثار يغمره ويخفيه » . (4)

---

(1) الملاحظ ان اختصار العنوان الحقيقى لكتاب ابن بسام بحذف كلمة « هذه » منه قد بدا فى وقت مبكر فى المشرق العربى . راجع ما كتبناه عن هذا الموضوع فى بداية هذا الفصل .

(2) لطائف الذخيرة ، مخطوطة القاهرة ، ص 2 .

(3) المصدر السابق ، ص 3 .

(4) نفسه .

وهكذا نستخلص من كلام ابن مماتى ما يلى :

1 — لم يفطن المختصر الى منهج ابن بسام فى تقديم من قدم ، وتأخير من أخر ، مع أنه أشار الى ذلك صراحة فى مقدمة الكتاب حين نبه الى أنه رتب تراجمه على حسب مكانة المترجم ومنزلته كما يراها هو . ويقول بأنه يبدأ بالكتاب « لأنهم صدور فى الآداب » ، الا أن يكون للمترجم « حظ من الرياسة أو يدعو الى تقديمه بعض السياسة » . حين ذلك يقدمه على الكتاب ، ثم يترجم للكتاب ثم الوزراء ثم أعيان الشعراء ثم المقلين .

2 — يبدو أن ابن مماتى كان يود أن يسترسل ابن بسام فى ايراد القصائد والمقطوعات النثرية دون قطع سردها بملاحظاته النقدية وتنبيهاته على المواضع التى يأخذ فيها هذا الشاعر عن ذاك ، وسيتجلى هذا المنهج واضحا فى الاختصار الذى صنعه للذخيرة .

3 — لقد حكم ابن مماتى بأن الاكثار من الشعر والنثر والأخبار قد جنى على بعضها باخفاء جمالها لذلك لجأ هو عند الاختصار الى الاكتفاء بعيون الشعر والنثر .

ومن الطبيعى أن لا تكون الاهتمامات هى نفسها عند من يختصر كتابا فهو مضطر الى اسقاط جزء كبير منه ليكون الاختصار دالا على شىء ، وبين من يتجرد للتعريف بأدباء حقبة زمنية معينة ، فهو مضطر الى التحدث عن كل من يدخلون فى صلب موضوعه مهما كان العدد ، ومهما أثر ذلك على حجم الكتاب، هذا بالاضافة الى أننا لا نكاد نجد ما نفسر به زعم ابن مماتى بأن الاكثار من ايراد القصائد والرسائل يخفى جمال ما هو جميل منها .

والحق أنه كان بوسع ابن مماتى أن يجد دوافع أخرى حقيقية وموضوعية تسوغ عمل الاختصار ، دون أن يركب الى ذلك هذا المركب

الصعب ، الذى طابعه التعسف وافتعال المسببات . وعلى كل حال فان الفرق شاسع بين أن يقوم أديب بانتقاء بعض النماذج الأدبية الرفيعة ليعرضها فى كتاب مستقل ، وبين من يرى أن ورود هذه النماذج الرفيعة الى جانب مقطوعة أخرى أقل قيمة منها ، فى كتاب موضوعه التأريخ للأدب فى عصر ما ، من شأنه أن يغمرها ويخفى جمالها .

ثم يعرض ابن مماتى منهجه فى اختصار الكتاب فيقول : « وجعلته ثلاثة أجزاء :

الأول : فى المختار من الأشعار ، على ولاء ما ألف ، ونسق ما صنف .

الثانى : فيما دل ابتسام نواجذه على دقائق مآخذه ، مما تشاكلت معانيه ، وتماثلت مبانيه .

الثالث : فى سحر عيون الأخبار وما يستدل به على أن وجوه الآثار ، ألسنة الأقدار وسميته: « لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة » . (1)

ولعلنا لسنا فى حاجة الى بذل كثير من الجهد لنتبين مدى الخطأ المنهجى الذى وقع فيه ابن مماتى ، مختصر الذخيرة ، حين انطلق فى تعليل دوافع اختصاره للكتاب من ملاحظات خاطئة ، أو عيوب وهمية لم يفطن الى جوانبها الايجابية التى توخاها المؤلف واعتمدها بناء على ذلك قصدا .

ومن ذلك أن ما عابه ابن بسام على الثعالبى من ايراد القطع النثرية أو الشعرية مقطوعة عن اطارها التاريخى قد وقع فيه ابن مماتى مرة أخرى ، وذلك على الرغم مما تجشمه مؤلف الذخيرة من عناء كبير لتلافى هذا النقص ، وذلك حين جعل مختصر الذخيرة الأشعار فى جزء والأخبار فى جزء آخر .

---
(1) لطائف ص 3 .

ثم ارتكب ابن مماتى هذا الخطأ مرة أخرى ، حين أفرد جزءا خاصا لما «تشاكلت معانيه وتماثلت مبانيه» ، كما يقول ، مما جعل الأبيات مقطوعة عن سياقها ، مبتورة عن أصلها حتى أصبح هذا الجزء من الكتاب شبيها بالمؤلفات العديدة فى باب السرقات الشعرية ، بينما كان الأمر ذا طابع آخر فى كتاب الذخيرة اذ كان مؤلفه يروى القصيدة أو المقطوعة، ثم يتوقف عند البيت الذى يرى أن فيه معنى مسروقا ، أو مأخوذا ، أو مسبوقا اليه ، فيطلق عليه حكمه ، ويورد على ذلك ما يحضره من الشواهد والأمثلة .

الأسباب الحقيقية لاختصار «الذخيرة» :

ان الأسباب التى ذكرها ابن مماتى غير مقنعة . وهو فى الحقيقة قد عبر عن بعض آرائه فى « الذخيرة » ثم بين منهجه فى اختصارها دون أن يعرض لما يصح أن يسمى دوافع اختصار الذخيرة .

ونحن حين نحاول كشف هذه الدوافع لا نكاد نظفر بطائل اذا استثنينا أن منطقة المشرق العربى بأكملها ــ وستشاركها فى ذلك باقى مناطق البلاد الاسلامية ومنها بلاد المغرب بعد سقوط الأندلس ــ كانت قد دخلت فى ما أصبح يسمى بعد ذلك بعصور الانحطاط . ولقد جمدت القرائح الخلاقة ، وانقضى عهد الابداع فكان منتهى ما يستطيع الأدباء القيام به هو جمع ما كان متفرقا ، وتفريق ما كان مجمعا ، وتوسيع ما كان مختصرا واختصار ما كان موسعا ، وذلك فى مختلف ميادين المعرفة ولا سيما فى اللغة والنحو والأدب والفقه .

ويبدو أن عمل ابن مماتى يدخل فى الصميم من هذا الاطار . ونحن حين نستعرض آثاره الأخرى نجدها لا تخرج عن هذا الأسلوب فى أغلبيتها . من نظم كليلة ودمنة الى نظم سيرة صلاح الدين ، بل الى أشهر كتبه « قوانين الدواوين » .

ولعلنا لا نكون بعيدين عن الصواب اذا أضفنا الى هـذا الدافـع واحدا آخر يتمثل فى الاسهام فى حركة تأليف المختارات الشعرية ، بكتاب فى المختارات من الشعر الأندلسى،لا سيما وأن شعر المغاربة والأندلسيين يظل شيئا مستطرفا لدى المشارقة مهما بلغ لديهم من الشيوع والانتشار.

قيمـة الكتـاب :

لو أنه قدر لكتاب الذخيرة أن يلاقى المصير الذى لاقته كثير مـن الأمهات الأندلسية لكان لكتاب ابن مماتى قيمة لا تقدر بثمن ، ولكن وجود الكتاب الآن كاملا فى عدة نسخ قد انتزع من عمل ابن مماتى معظم قيمته، على أنه تبقى له القيمة التاريخية التى حاولنا أن نبرز بعض ملامحها فى هـذه الأسطـر .

مخطوطات « لطائف الذخيرة ومحاسن الجزيرة » :

توجد نسخة مخطوطة منه فى دار الكتب المصرية تحت عنوان يبعث على الوهم اذ هو كما يلى : « لطائف الذخيرة ومحاسن الجزيرة لابـن بسام الأندلسى » ، وهى بخط مشرقى عادى ، وقد وقع الفراغ منها فى 11 رجب سنة 1114 هـ ، وكتبها يوسف بن محمد المسلوى (؟) .

9) ـ العناية الحديثة بكتاب « الذخيرة » :

يبدو أن المستشرقين كانوا هم السابقين الى اكتشـاف الكتـاب وتقدير قيمته الكبيرة اذ استفادوا منه استفادة جمة فى كتاباتهم عـن بلاد المغرب عامة ، وبلاد الأندلس على وجه الخصوص ، كما أن الـذين عنوا منهم بالتاريخ الأندلسى قد وجدوا فيما ينقله عن ابن حيان ، وفيما يورد هو من ملاحظاته الخاصة ، معينا ثرا لوصف الأندلس فى القرنـين الخامس والسادس ، والكتابة عن ملوك الطوائف .

وبدأ الكتاب العرب المهتمون بالدراسات المغربية والأندلسيـة أو الذين يكتبون فى تاريخ الأدب العربى الشامل وفى النقد ينتبهون الـى ما فى كتاب الذخيرة من الفوائد منذ فترة طويلة نسبيا . من ذلك أن كامل كيلانى ، وعبد الرحمن خليفة قد استخرجا أخبار ابن زيدون وشعـره وطبعاها تحت عنوان : « صفحات من كتاب الذخيرة لابن بسام » الا أن اهتمامهم الحقيقى به ، والاقبال الشديد عليه انما بدأ بعد صدور الأجزاء المطبوعة من الكتاب .

وهكذا فاننا لا نكاد نجد اليوم كاتبا يعالج شؤون الأندلس فى عصر ابن بسام ، أو يتعرض الى تاريخ الحركة النقدية فى الأندلس الا ويعتمد على ابن بسام فيما يكتب ، أو يخصه بفصل يتحدث فيه عن كتابـه ، أو عن الجوانب النقدية فيه بشكل خاص . (1)

10) ـ مخطوطات الكتـاب : (2)

القسم الأول : توجد مخطوطاتـه فى الربـاط ، وفى دار الكتـب المصرية ، والمكتبة التيمورية الملحقة بها ، ويوجد النصف (المجلد) الأول منه فى المكتبة الوطنية بباريس ، وكان المستشرق ليفى بروفنسال يملـك نسخة أخرى منه . وهو الآن مطبوع بجزئيه (القاهرة 1939 و 1942).

القسم الثانى : توجد مخطوطاته فى مكتبة بغـداد ، وفى مكتبـة أكسفورد وفى مكتبة المجمع التاريخى بمدريد ، وخزانة القصر الملكى فى الرباط ، ودار الكتب المصرية . وهو غير مطبوع . (3)

---

(1) انظر الدكتور احسان عباس فى تاريخ الادب الاندلسى، عصر ملوك الطوائف ، والدكتور زغلول سلام فى تاريخ النقد، والدكتور رضوان الداية فى تاريخ النقد الادبى فى الاندلس ، بالاضافة الى الدراسة القيمة التى كتبها الدكتـور مكـى فى كتابه « دراسة فى مصادر الادب » عن ابن بسام وكتابه .

(2) عن بروكلمان، ومكى، ومقدمة طبعة القاهرة للجزء الاول من كتاب الذخيرة .

(3) طبع المجلد الاول منه اخيرا بتحقيق الدكتور لطفى عبد البديع وصدر بالقاهرة فى عام 1975 وقد حصلنا على نسخة من المطبوع ونحن نراجع هذه الدراسة .

القسم الثالث : توجد مخطوطات هذا القسم في مكتبة غوتا بألمانيا، والمجمع التاريخي بمدريد ، والخزانة الملكية بالرباط ، ومكتبة بغداد . وهو غير مطبوع أيضا .

القسم الرابع : توجد مخطوطات هذا القسم بالرباط ، كما كانت توجد نسخة منه لدى المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال وقد نشر المجلد الأول منه في القاهرة (1945) .

ولقد عثر منذ سنوات قليلة على نسخة كاملة من كتاب «الذخيرة» في الخزانة الملكية بالرباط ، ويبدو أنها لم تتأثر كثيرا بمرور الزمان وتتابع الأيام ، فهي محتفظة بنوع من الجدة ، حسنة التجليد ، جيدة الخط . ولقد أنبأني بذلك السيد رشاد عبد المطلب (1) المسؤول عن المخطوطات بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وأكد لي ذلك الدكتور مكي .

ولقد أتيح لي أن أسافر الى المغرب في صيف سنة 1972 فتتبعت أخبار هذه النسخة المغربية ووصلت الى مكتب المؤرخ الرسمي للمملكة المغربية ، وتفضل باستقبالي في مكتبه بالديوان الملكي في الرباط ، وأكد لي أن النسخة موجودة بالفعل ولكن لا أحد يعر لها اليوم مكانا (!..) وفهمت وقتئذ أن هذا الكلام ربما كان مجرد ذريعة لحجب النسخة المذكورة عن الباحثين في انتظار اخراجها للناس مطبوعة محققة . وليت ذلك يتم بكل سرعة .

(1) توفي بعد ذلك رحمه الله .

(11) ــ مطبوعــات الكتــاب : (1)

فكرت جامعة القاهرة في طبع الكتاب اثر حديث جرى بين الدكتور طه حسين ، والمستشرق ليفي بروفنسال الذى استطاع أن يجمع أقسام الكتاب وكان ينوى نشره بليدن فعرض عليه طه حسين فكـرة نشره في القاهرة . وعندما وجهت اليه جامعة القاهرة دعوة للمحاضرة بها في سنة 1937 ، جاءها ومعه نسخ الكتاب .

وقد تقرر أن يعمل ليفي بروفنسال مع لجنة من طلبة قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة، لمعارضة النسخ، واعداد النص للطباعة، وكان أعضاء هذه اللجنة، بالاضافة الى المستشرق الفرنسي المذكور هم :

محمد عبده عزام ، وخليل عساكر ، وبخاطره الشافعي .

وشكلت لجنة ثانية من أساتذة الجامعة لمراجعة النصوص قبل تسليمها للطبع، وكان أعضاؤها ــ بالاضافة الى ليفي بروفنسال أيضا ــ هــم :

طــه حسين ، وأحمد أمين ، ومصطفى عبد الرازق ، وعبد الحميد العبادي، وعبد الوهاب عزام .

وبعد بضعة أشهر من بدء العمل على هذا النحو، اضطر المستشرق ليفي بروفنسال الى مغادرة القاهرة، ودعت الظروف الخاصة أحد أعضاء اللجنة الأولى (بخاطره الشافعي) الى الانقطاع عن العمل في اللجنة ، فعوضا باثنين من طلاب قسم اللغة العربية بكلية الآداب هما: عبد العزيز الأهواني، وعبد القادر القط .

(1) المعلومات المتعلقة بمطبوعات الكتاب مستقاة من المقدمات الثلاث التي صدرت بها المجلدات الثلاثة التي انجز طبعها من الكتاب .

وأما اللجنة الثانية فقد دعى أحد أعضائها (مصطفى عبد الرازق) الى الوزارة، فبقى فيها الأعضاء الآخرون دون أن يضاف اليهم أحد ٠

وهكذا صدر المجلد الأول من القسم الأول فى القاهرة سنة 1939 ٠ وفى أواخر سنة 1942 صدر المجلد الثانى من القسم الأول وقد صدر بمقدمة جاء فيها :

«وددنا أن لم يطل انتظار الأدباء لهذا المجلد بعد نشرنا المجلد الأول، ولكن مصاعب التصحيح وأزمات الوقت الحاضر (1) جاوزت كل تقدير، فنحن نعتذر الى الأدباء الذين طال تنظرهم ٠٠٠٠»

أما المشاركون فى اعداد الكتاب للطبع فان مقدمة المطبعة تعطينا فيما يتعلق بهم التوضيحات التالية: « فأما الأولون (يعنى الطلبة المكلفين بمقابلة النسخ وتصحيحها) فقد دأبوا على عملهم كما كانوا الا أن العضو الذى منعه السفر عن العمل فى المجلد الأول قد عاد فشارك زملاءه فى هذا المجلد ٠ وأما الآخرون (لجنة المراجعة والاشراف) فقد اضطر اثنان منهم الى التنحى عن العمل الى حين ٠٠٠٠ »

وفى سنة 1945 صدر المجلد الأول من القسم الرابع فجاء بالفعل طفرة مفاجئة، قد عللها القائمون على نشر الكتاب فى المقدمة التى صدر بها هذا المجلد بقولهم « ويعجب القارىء حين يسارع الى المجلد الذى طال تنظره فلا يجد المجلد الأول من القسم الثانى على الترتيب المألوف، والنسق المعروف، ولكن يجد المجلد الأول من القسم الرابع، والذى أخرجنا عن النسق اننا ننتظر من القسمين الثانى والثالث نسخا فى دور الكتب الأوربية نرجو أن نظفر بها بعد أن تضع الحرب أوزارها، وتعود الصلات بين الأمم سيرتها ٠٠٠٠»

(1) يشير الى الازمات الحادة التى نتجت عن الحرب العالمية الثانية ٠

ووضعت الحرب أوزارها، وعادت الصلات بين الأمم سيرتها ولكن الأوزار التى لحقت بكتاب ابن بسام لم توضع، والصلة التى قطعت بالذخيرة لم تعد، ولم تستأنف ٠

وهكذا تنتهى المبادرة الحميدة التى كان من المنتظر أن تضع بين أيدى الأدباء كتابا جليلا فى تاريخ الأدب الأندلسى٠ الا أن مجموعة من الظروف — لعل الحرب ليست الا غطاء ظاهرا لها — قد حالت مرة أخرى دون انصاف ابن بسام، وكأن الأيام قد أبت عليه أن يعرف كتابه الضخم طريقه الى المطابع، بعد أن وجد الطريق اليها من الكتب غث كثير، وذلك كما حرم من قبل ترجمة شافية فى الكتب المؤلفة فى هذا الغرض، على الرغم من أنها ترجمت لرجال لا يكاد يجد القارىء فى حياتهم وعملهم وآثارهم ما يستحق التعريف ٠

المحاولات الجارية الآن لطبع الكتاب :

1 — تجرى محاولة لطبع الكتاب فى ليدن من قبل بعض المستشرقين المهتمين بالدراسات الأندلسية ويبدو — على ما ذكر فى الموسوعة الاسلامية، مادة ابن بسام — أن الأعمال قد بدأت سنة 1968 ولكن لم تظهر أية نتيجة لها الى حد الآن ٠

2 — دعت دار الكتب المصرية الدكتور عبد العزيز الأهوانى الى الاشراف على تحقيق الكتاب، وقد حضرت جلسة عمل له فى دار الكتب المصرية مع الباحثين الملحقين بها فى ربيع 1969 ٠ (1)

3 — يبدو أيضا أن الدكتور احسان عباس عاكف فى بيروت منذ مدة على اعداد كتاب الذخيرة للطبع ٠

(1) يبدو أنه حصل بعض التعديل فى هذا البرنامج ، فقد قام الدكتور لطفى عبد البديع بتحقيق المجلد الاول من القسم الثانى وتمت طباعته بالقاهرة سنة 1975 ، وقد حصلنا على نسخة منه أثناء مراجعتنا لهذه الصفحات .

وهذه المحاولات كلها، أن دلت على شيء فانما تــدل على مقدار الاهتمام الذى يحظى به الكتاب، والذى حالت صدف عجيبة للــغاية دونه ودون المطبعة حتى كأن سوء حظ ابن بسام أبى الا أن يلاحقه حيا وميتا، والا فبماذا نعلل بقاء كنز من هذا النوع، وفيه ما فيه من أخبار الحياة الأندلسية، وفيه ما فيه من النثر الرفيع، والشعر الرائع، والأخبار الطريفة، بقــاءه أوراقا متآكلة فى المكتبات العمومية، وبعض المكتبات الخصوصية ٠

وهل يا ترى يكون يوم الخلاص لهذا العمل الجليــل ، قريبــا ؟ ذلك ما نرجوه ونتمناه ٠ (1)

(1) انظر هامش الصفحة — 2 — من هذا الكتاب ، حيث أشرنا الى أن الكتاب قــد طبع طبعة جيدة ، وصدر كاملا ، فى بيروت ، بتحقيق د. احسان عباس ٠

الفصــــل الـــــرابع

مصــــادر كتــــاب «الذخــيرة»

محتويات الفصل الرابع

(مصادر كتاب « الذخيرة »)

- مضامين الكتاب
- المصادر التاريخية عن الأخبار الأندلسية
- رأى ابن بسام فى المؤرخ ابن حيان
- المصادر الخاصة بالأدباء المشارقة والأخبار المشرقية .

المصادر التى اعتمد عليها ابن بسام فى تأليف كتاب « الذخيرة » ٠

يتميز كتاب الذخيرة كما أسلفنا فى الفصل الذى خصصناه للتعريف به، بتنوع محاوره الكبرى، أو مضامينه الأساسية التى تتألف منها مادته الفنية ٠

ويحسن أن نذكر بتلك المضامين، أو المحاور التى هى من ثلاثة أنواع، لندرس من خلالها نوعية المصادر التى اعتمد عليها أبو الحسن فى تأليفه ٠

فالمضمون الأول: يتمثل فى تراجم الأدباء الأندلسيين، والمختارات الأدبية التى أوردها المؤلف لهم ٠

والمضمون الثانى: يشمل الأخبار التاريخية التى سردها ابن بسام ليفسر بها الوقائع التى قيلت فيها تلك المختارات، أو ليمهد بها للحديث عمن له حظ من السياسة والرياسة، كما قال ٠

والمضمون الثالث: يتعلق بالأشعار والأخبار المشرقية والجوانب النقدية أو الثقافية العامة المتعلقة بها ٠

وقد لجأنا الى هذا التقسيم المصطنع لمحتويات الكتاب ــ وهى فى الحقيقة كل متكامل لا يتجزأ ــ لمجرد تسهيل المهمة فى الحديث عن المصادر التى استقى منها ابن بسام مادته٠ ذلك أن هذه المضامين الثلاثة، وان كانت منسجمة التأليف، متصلة الحلقات، مترابطة أشد الترابط، أو هكذا أراد لها المؤلف أن تكون، فانها مع ذلك مستمدة من مصادر مختلفة ومتمايزة فى نوعيتها وشكلها ٠

فأما تراجم الأدباء الأندلسيين وما اختاره لهم من الشعر والنثر فان مقدمة الكتاب تسعفنا مرة أخرى بمعلومات نفيسة عن المصادر التى استقى منها ابن بسام مادته اذ يقول عن كتابه: « ٠٠٠ فانما جمعته ٠٠٠ من تفاريق كالقرون الخالية، وتعاليق كالأطلال البالية، بخط جهال كخطوط الراح، أو مدارج النمل بين مهاب الرياح، ضبطهم تصحيف ووضعهم

تبديل وتحريف، أيأس الناس منها طالبها، وأشدهم استرابة بها كاتبها، ففتحت أنا أقفالها، وفضضت قيودها وأغلالها، فأضحت غايات تبيين وبيان، ووضحت آيات حسن واحسان » (1)

هذه الفقرة من المقدمة تشير بصراحة الى أن المؤلف قد استعان أثناء جمع مادته ببعض الكتب التى اشتملت على الأدب الأندلسى الا أن ابن بسام لا يذكر لنا شيئا ذا بال يفيدنا فى معرفة عناوينها أو مؤلفيها أو موضوعاتها ويغلب على الظن أنها لم تكن كتبا بالمعنى الصحيح للكلمة وانما هى دفاتر تضمنت جملة من الأخبار المتفرقة عن بعض الأدباء الأندلسيين وأدبهم. ونلاحظ أنه يحمل على الذين كتبوها حملة عنيفة اذ يصفهم بالجهل، ويذم خطوطهم الرديئة. ويستخلص من أقواله أن مضمونها نفسه كان يدعو الى الشك والريبة .

فاذا كانت هذه حال المصادر التى حاول المؤلف أن يأخذ منها، وكان موقفه منها كما رأينا فما مقدار استفادته منها ؟ وهل وجد ما هو أحسن منها ؟

يجيب ابن بسام عن كل ذلك فى فقرة أخرى من مقدمة كتابه حين يقول مستدركا بعد الفقرة السابقة مباشرة: « على أن عامة من ذكرته فى هذا الديوان لم أجد له أخبارا موضوعة، ولا أشعارا مجموعة تفسح لى فى طريق الاختيار منها، انما انتقدت ما وجدت وخالست فى ذلك الخمول، ومارست هناك البحث الطويل، والزمان المستحيل، حتى ضمنت كتابى هذا من أخبار أهل هذا الأفق، ما لعلى سأربى به على المشرق ... » (2) .

الواضح فى هذه الاجابة أن المؤلف لم يجد شيئا مكتوبا يصح أن يسمى مصدرا أو مرجعا بالنسبة الى أكثر الذين ترجم لهم فى كتابه، وأثبت

(1) ذ — 1/1 — ص 5 .
(2) ذ — 1/1 — ص 5 .

لهم نماذج من شعرهم ونثرهم . ويفهم منها كذلك أنه عول على نفسه أولا وأخيرا فمارس البحث الطويل، وتحمل العناء الكبير ليجمع ما جمع من أخبار أدباء بلاده.

وسنحاول فيما يلى أن ندرس المصادر الخاصة التى استعان بها فى كتابة كل واحد من المضامين الثلاثة التى قسمنا عليها مادة الكتاب .

أ — مصادره عن الأدباء الأندلسيين .

وهى فى رأينا زمرتان رئيسيتان: احداهما مصادر كتابية، والثانية مصادر شفهية .

فأما المصادر الكتابية: فمنها كتب الأخبار الأدبية من مثل كتاب « سر الأدب، وسبك الذهب » لأبى برد بن حفص الاصغر، ومنها كتاب « الحديقة » لأبى عامر بن مسلمة الذى ينقل عنه مقطوعات أبيات «لجماعة من الأدباء كانوا بعصر المعتضد عباد» (1) ، ومنها كذلك كتاب « البديع فى فصل الربيع » لأبى الوليد اسماعيل ابن عامر الملقب بحبيب»، وينقل عنه كثيرا من الأخبار والمقطوعات، كما فعل مثلا فى الفصل الخاص بالأديب أبى الحسن الأستجى (2) ومنه كتاب أبى محمد بن حزم « نقط العروس » كما فى ترجمة أبى الفتوح ثابت بن محمد الجرجانى (3)

ثم انه قد نقل كثيرا من كتب ابن رشيق عندما ترجم للمغاربة وأشار على الأخص الى كتابه الأنموذج، كما فعل فى التعريف بأبى عبد الله بن قاضى ميلة وغيره (4) .

(1) ذ — ق/2 — ص 124 مخ القاهرة .
(2) ذ — ق/2 — ص 120 مخ القاهرة .
(3) ذ — 1/4 — ص 97 .
(4) ذ — ق/4 — ص 158 مخ الرباط .

ومن هذه المصادر أيضا كتب فى التاريخ، ومنها كتاب ابن حيان نفسه، اذ استعان به فى أخبار كثير من الأدباء، ومنهم على سبيل المثال ابـــن دراج القسطلى (1) وكتاب « الهادى الى معـــرفة النســـب العبادى » للوزير أبى رافع بن على بن حزم الفارسى، كما فى ترجمة القاضى أبى القاسم محمد بن عباد (2) .

وأما المصادر الشفاهية فانها أيضا على نوعين: نوع مباشر وهو الذى يعبر عنه ابن بسام بقوله: « أنشدنى » فلان أو « سمعته ينشد » ونوع غير مباشر وهو الذى ينشده اياه رجل آخر من غير الأديب نفسه، وقد يروى ذلك عن سلسلة من الرجال على الطريقة المتبعـــة فى رواية الأحاديث النبوية وذلك حين يقول: أنشدنى فلان عن أبى فلان قال سمعت الأديب الفلانى الخ... والأمثلة متوفرة فى الكتاب ـــ على النوعين ـــ وفرة غالبة بحيث لا نظن أننا فى حاجة الى التمثيل ببعضها .

وهناك زمرة ثالثة من نوع متميز وهى ما يسميه ابن بسام «المخاطبة» ويعنى به الرسائل التى يوجهها الى الأدباء أنفسهم يطلب فيها منهم أن يزودوه بنماذج من شعرهم ونثرهم، والأمثلة كثيرة فى الكتاب، وقد احتفظ لنا المؤلف بعدد لا بأس به من الرسائل التى كتبها الى أولائك الأدباء ، والرسائل التى جاءته منهم ردا عليها .

ب ـــ مصادره التاريخية عن الأخبار الأندلسية :

لقد عول ابن بسام فى هذه النقطة على أبى مروان ابن حيان بصفة أساسية . فلقد رأى أنه لا يحسن الكتابة فى التاريخ فلم يشأ أن يخوض فيما ليس لـــه بـــه علم ، فقـــرر الاعتماد على مؤرخ ذائع الصيت ،

(1) ذ ـــ 1/1 ـــ ص 44 .
(2) ذ ـــ ق/2 ـــ ص 3 مخ القاهرة .

مشهور فى بلاد الأندلس بالدقة والأمانة، فأسلم اليه أمره، واستعار منه كل ما هو فى حاجة اليه من المعلومات التاريخية يوردها أحيانا بالنص، ويلخصها أحيانا أخرى عندما يخشـــى الاطالة وهو مذهب ـــ كما يقول الدكتور طه حسين ـــ « مستقيم حـــقا، ظاهره السهولة وايثار العافية والاعتماد على غيره، ولكنه فى حقيقة الأمر خصب دقيق كل الدقة » (1)

ويشرح ابن بسام مذهبه هذا فى مقدمته فيقول: « وتخللت ما ضمنته من الرسائل والأشعار بما اتصلت به أو قيلت فيه من الوقائع والأخبار، واعتمدت المائة الخامسة من الهجرة فشرحت بعض محنها، وجلوت وجوه فتنها، ولخصت القول بين قبيحها وحسنها.... وعولت فى ذلك على تاريخ أبى مروان ابن حيان، فأوردت فصوله، ونقلت جملـــه وتفاصيله، فاذا أعوزنى كلامه، وعزنى سرده ونظامه، عكفت على طللى البائد، وضربت فى حديدى البارد، على حفظ قد تشعب، وحظ من الدنيا قد ذهب .....» (2)

ولكن مـــن هـــو ابن حيان هذا الذى أسلمه ابن بسام القياد فى الجانب التاريخى كله، وما هو الكتاب الذى نقل عنه .

التعـــريف بابـــن حيـــان :

هو أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان (377 ـــ 469 هـ) وقد ترجم له بالانثيا فى كتابه تاريخ الفكـــر الأندلسى بما يلى : (3) « وأعظم مؤرخى هذا العصر (ملوك الطوائف) هو حيان بن خلف بن حيان. وهو قرطبى وكان أبو خلف من كتاب المنصور بن أبى عامر وقد درس على أبيه وعلى أحمد بن عبد العزيز بن الحباب النحوى وصاعد

(1) ص ج من المقدمة التى كتبها طه حسين لكتاب الذخيرة .
(2) ذ ـــ 1/1 ـــ ص 7 .
(3) ترجمة حسين مونس ص 208 .

البغدادى الأديب، وعمر بن نبيل المحدث، وتفقه وأتقن الآداب على أيديهم ثم انتظم فى سلك وظائف الدولة وشغل وظيفة صاحب الشرطة — أو صاحب المدينة — فى قرطبة زمنا ».

آثار ابن حيان :

ضاعت أكثر كتبه القيمة ولم تبق الا أجزاء من كتابيه « المتين » و « المقتبس » .

فأما المقتبس فكان يقع فى عشرة أجزاء تشتمل على تاريخ الأندلس من أيام فتحها على يد طارق بن زياد الى زمن المؤلف، وقد بقيت منه ثلاثة أجزاء .

وأما المتين فكان يقع فى ستين مجلدا لم تصل الينا منها الا نتف احتفظت بها الكتب التى نقلتها عنه .

فأى كتب ابن حيان كانت مصدرا لابن بسام ؟ هذا السؤال مشكل لم يتوصل أحد الى الاجابة عنه اجابة مؤكدة .

فابن بسام يقول: « وأكثر ما يمر فى هذا الكتاب، من هذا الباب، فعلى تاريخه الكبير عولت، ومن خط يده أكثر ما نقلت» (1) ولكن ما هو التاريخ الكبير الذى عول عليه، وكلا الكتابين، المقتبس والمتين، كبير، وان كان أحدهما أكبر من الآخر اذ يقع المقتبس كما أسلفنا فى عشرة أجزاء بينما يقع المتين فى ستين جزءا . ان أغفال ابن بسام لذكر عنوان الكتاب الذى نقل عنه قد أوقع الباحثين فى حيرة فمنهم من قال ان المقصود بالتاريخ الكبير هو المتين ومن هؤلاء ليفى برنفسال (2) وبالانثيا (3) وكأنهم اطمأنوا الى الاعتقاد المغرى بأنه لم يكن بوسع ابن بسام — وهو من هو فى الثقافة والاطلاع — أن يقصد بعبارة « التاريخ الكبير » كتاب

(1) ذ — 1/1 — ص 23 و 24 .
(2) البحث الذى ألقاه فى مؤتمر المستشرقين انعقد بأكسفورد سنة 1928 .
(3) تاريخ الفكر الاندلسى ، ترجمة مؤنس ص 208 .

المقتبس، وهو يعرف أن لابن حيان كتابا أكبر منه . أما بعض الباحثين الآخرين، ومنهم الدكتور الطاهر مكى فهو يرى أنه ليس فى « مطبوع الذخيرة وبعض مخطوطاتها ما يؤكد هذا الرأى » (1)

ومعلوم أنه كان من اليسير معرفة الكتاب الذى نقل عنه صاحب الذخيرة بالتأكيد لو أن الأيام أبقت على مؤلفات ابن حيان، أما وقد أصابها ما أصاب كثيرا من كتب التراث العربى فان التساؤل يبقى لغزا بلا حل الى أن تبرز معطيات جديدة تساعد على معرفة اليقين أو ترجيح أكثر الآراء حظا من الصواب .

رأى مؤلف الذخيرة فى ابن حيان .

ان ابن بسام قد خص ابن حيان بفصل من فصول كتاب الذخيرة، (2) ترجم له فيه وأورد له كثيرا من نماذجه النثرية، وهى غير التى يضمنها كتابه فى الفصول الأخرى لشرح الأحداث التاريخية .

وعلى الرغم من الفوائد العظيمة التى لم تكن لتتاح لمؤلف الذخيرة لو لم ينتفع بكتب ابن حيان، فانه مع ذلك لا يستسلم له ذلك الاستسلام الأعمى الذى قد يوهم به الثناء الجزيل الذى غمره به حين قال عنه : « أحرز فى وقته قصبات السبق، وبرز فى زمانه على جميع الخلق » (3) .

صحيح ان ابن بسام قد عبر عن ثقته فى ابن حيان تعبيرا عمليا حين اعتمد على تاريخه، ولم يجد أى حرج فى ادراج فصول كاملة له فى كتاب الذخيرة الا أن هذا الاحترام الصادق ، والتقدير العادل لجهد ابن حيان ، لم يمنع مؤلف الذخيرة من الاحتياط الشديد عند ايراد ما يرويه ابن حيان عن بعض الأحداث التاريخية أو الأدباء المترجم لهم . ولذلك نجد ابن

(1) كتاب دراسة فى مصادر الادب ص 339 .
(2) ذ — 2/1 — ص 84 .
(3) ذ — 1/1 ص 23 .

بسام فى كثير من الأحيان يخشى من تحمل مسؤولية ما ينقل عنه فيقول: « زعم ٠٠٠٠ » معربا بذلك عن شكه الصريح فيما يرويه صاحب التاريخ الكبير ٠

ولقد درسنا فى مكان آخر من هذا البحث الحملة التى حملها عليه بسبب تناوله لأغراض بعض الناس بالقدح مما لا يرضى عنه المنهج الأخلاقى لدى ابن بسام، فحذف أسماء المذمومين وأفقد بصنيعه ذلك كثيرا من قيمة فصوله التاريخية المنقولة عن ابن حيان ٠

هذا ولابد لنا من أن نشير أيضا ونحن نتحدث عن المصادر التاريخية أنه عول أحيانا على نفسه فكتب فصولا فى التاريخ حول الحوادث التى عاشها بنفسه، ويبدو أن توفيقه فيها قد أثار عليه بعض الحساد، وقد أشرنا الى هذا الجانب فى دراستنا لحياته فى الفصل الأول من هذا البحث٠

جـ ـ مصادره عن أدب المشارقة وسائر أخبارهم ٠

ويجدر بنا أن نبادر الى التصريح بأن الأشعار التى أوردها انما هى من حفظه فى الغالب، فاذا لم تكن كذلك فهى مأخوذة من دواوين أصحابها التى كانت شائعة متوفرة فى الأندلس لذلك فلا حاجة بنا الى الحديث عن هذه المصادر العامة ٠

أما الأخبار الأدبية على وجه الخصوص فان هناك بعضا منها يسردها دون أن يذكر من أين أخذها والغالب أنها من المصنفات الأدبية العامة من أمثال كتاب الأغانى وغيره ٠

وهو يشير مع ذلك الى عدد من الكتب التى أخذ عنها، أو المؤلفين الذين استعان بمؤلفاتهم ٠ ومن هؤلاء : أبو العباس النوبختى الذى

يسند اليه الحوار الذى جرى بينه وبين البحترى (1) والصولى الذى ينقل عنه بعض أخبار أبى تمام (2) ، وقد أخذ بعض الأخبار المتعلقة بالدولة العباسية عن تاريخ اليعقوبى، كما فى حديثه عن أحمد بن المدبر والمتوكل (3) ٠

وقد أشار أيضا الى الآمدى فى بعض مآخذه على أبى تمام (4) ونقل بعض أخباره عن المبرد فى كتابه الكامل، كما فى حديثه عن شعر مجنون ليلى (5) وذكر ابن قتيبة فى الحكاية الطريفة التى جرت لأبى دلامة مع الفارس الخارجى (6)

أما كتاب الثعالبى « يتيمة الدهر » فقد نقل عنه كثيرا من أخبار المشارقة، بل انه نقل أيضا أخبار بعض الأدباء الأندلسيين، كما فعل عند التعريف بابن دراج القسطلى (7) ٠

ويذكر من الكتب أيضا أخبار بغداد لابن طاهر (8) ٠

وهكذا كانت هذه المصادر كلها، بله التى لم نستطع كشفها من العيون الثرة التى استمد منها ابن بسام بعض ذلك الحشد الكبير من الأخبار والروايات والأشعار والتواريخ، وهى دليل آخر على مبلغ ما أتيح لابن بسام من الاطلاع الواسع، والثقافة المتنوعة، والالمام الرصين بكل ما أنتجته العبقرية العربية فى كل أقطار المملكة الاسلامية الواسعة ٠

---

(1) ذ ـ 1/1 ـ ص 59 ٠
(2) ذ ـ 1/1 ـ ص 238 ٠
(3) ذ ـ ق/2 ـ ص 507 مخ ، القاهرة ٠
(4) ذ ـ ق/2 ـ ص 397 مخ ، القاهرة ٠
(5) ذ ـ 1/1 ـ ص 313 و 314 ٠
(6) ذ ـ ق /2 ـ ص 30 مخ القاهرة ٠
(7) ذ ـ 1/1 ـ ص 44 ٠
(8) ذ ـ 1/1 ـ ص 314 ٠

الفصـــل الخـــامس :

منهج ابن بسام فى كتاب « الذخيرة »

محتويات الفصل الخامس

(منهج كتاب الذخيرة)

1 ـ فى تحديد الاطار الزمانى .

2 ـ فى تحديد الاطار المكانى .

3 ـ فى ترتيب المترجمين .

4 ـ فى التعريف بالأدباء .

5 ـ فى العناية بالبديع .

6 ـ فى تتبع المعانى .

7 ـ فى الاضراب عن تفسير الألفاظ والمعانى .

8 ـ فى العناية بالأخبار والروايات .

9 ـ فى ايراد المختارات .

منهج الكتاب مستمد من المقدمة

ان المنهج الذى يسلكه أى مؤلف فى كتابه ــ وبقطع النظر عن طبيعة الكتاب ــ مرآة أمينة تعكس ثقافته وقدرته على التخطيط ، ومقدار تمكنه من الضبط وحسن التصرف فيما يورد وما يهمل من الحقائق والوقائع .

والحق ، أننا بهذا المفهوم نعطى المنهج أوسع مدلولاته ، بحيث يكون عدم اتباع أحد المؤلفين لمنهج علمى ، منطقى ، مدروس ، فى حد ذاته طريقة يهتدي الدارس بواسطتها الى اكتشاف شخصية المؤلف من خلالها .

فالمنهج من هذا المنظور هو الطريق الذى يسلكه الكاتب الى الغرض الذى يهدف اليه من وراء تأليف الكتاب ، وهو حينئذ يتقبل جميع الأوصاف ، فيصح أن يكون مستقيما ، كما يصح أن يكون منحرفا أعوج ...

ولسنا نريد أن نحكم منذ الآن على منهج ابن بسام ، فنقوم طريقته ، ونبدي الرأى فى شكلها ومضمونها ، فلذلك مكان آخر ، وانما الذى نريد أن نبحثه قبل كل شيء هو : هل كان لابن بسام منهج واضح اتبعه عن وعى وسابق تفكير لتأليف كتاب الذخيرة ؟

ويزيد من قيمة هذا التساؤل ، فى نظرنا ، أننا لا نفقد فى الأدب العربى الأمثلة الكثيرة التى تصلح برهانا على طائفة الكتاب الذين يشرعون فى تدوين مؤلفاتهم دون سابق تفكير فى المنهج الذى سينتظم سيرهم ، أو ذلك ما يحسه القارىء منهم على كل حال .

وقد يكون لدي البعض فكرة رئيسية تنتظم الكتاب من أوله الى آخره ، يبتعدون عنها قليلا أو كثيرا ولكنهم يرجعون اليها فى النهاية . الا أن البعض الآخر تكاد تكون كتبهم مؤلفة بمحض المصادفة والاتفاق ،

تتشعب الموضوعات على هوى صاحبها ، ولا يكاد يكون لبعضها أدنى صلة بالبعض الآخر .

والذى يهمنا بالطبع هو التآليف الجادة التى راعى فيها مؤلفوها نوعا من المنهج كيفما كان . ولقد جرت العادة ، منذ فجر حركة التأليف العربية ، على أن يفتتح المؤلفون تآليفهم بمقدمات يتعرضون فيها من قريب أو من بعيد لما يمكن أن يسمى بمنهج الكتاب . ولعل كتاب ابن بسام « الذخيرة فى محاسن أهل هذه الجزيرة » يتبوأ موقعا خاصا فى هذا السياق . ذلك أن فى مقدمة « الذخيرة » أهم عناصر منهجها .

أهم عناصر المنهج فى المقدمة

ان الذى يستوقف الدارس « للذخيرة » هو الاهتمام الشديد الذى أحاط به أبو الحسن بن بسام قضية المنهج هذه ، بحيث نجدها تطالعنا منذ الفقرات الأولى لمقدمة الكتاب .

وهو لا يقنع بما يقنع به كثير من أمثاله فى افتتاحيات مؤلفاتهم من اشارة مجملة الى موضوع الكتاب ، واستعراض للظروف التى ألف فيها ، والغاية المقصودة من ورائه . وانما يأبى الا أن يتناول فيها كثيرا من المسائل الفرعية ، حتى أن الأمر ليصل به الى ذكر كل الملوك والأمراء والكتاب والشعراء الذين ترجم لهم أو ضمن كتابه بعضا من قطعهم النثرية أو الشعرية . ومن هنا كان بامكاننا أن نزعم بأنه باستطاعتنا أن نتصور المنهج الكامل الذى اعتمده ابن بسام وسار عليه بكل وعى لانجاز كتاب الذخيرة .

ونستعرض فيما يلى المقومات التى بنى عليها هذا المنهج سواء منها ما ذكره فى المقدمة وفى ثنايا الكتاب ، وما استنتجناه من دراستنا للذخيرة .

أولا: فى تحديد الاطار الزمنى

على الرغم من أن ابن بسام قد قصد ، أكثر ما قصد ، بتآليفه كتاب الذخيرة الى اظهار التراث الأندلسى البديع ، ومباهاة المشارقة بعيونه وروائعه ، وتوعية الأندلسيين بقيمة تراثهم الفكرى ، وضرورة الاهتمام به والدفاع عنه ، فاننا لا نجده مع ذلك يلجأ الى استعراض كل ما أنتجته الأندلس من أدباء وشعراء منذ الفتح الاسلامى لها . ولو أنه فعل ذلك لما آخذه عليه أحد ، لأنه يقع فى الصميم من الغرض الذى رمى اليه ، فليس أحسن للمفتخر من أن يستعرض جملة ما له من مفاخر .

بيد أن ابن بسام لم يفعل ذلك ، وانما فضل طريقة أخرى جعلته يعتمد عصرا معينا من العصور الأندلسية . وهو قد اختار ذلك عن ادراك كامل ، اذ نراه يعلل صنيعه هذا بحجة شديدة الوضوح ، سليمة المنطق ، حين يقول: «ولم أعرض لشىء من أشعار الدولة المروانية، ولا المدائح العامرية ، اذ كان ابن فرج الجيانى (1) قد رأى رأيى فى النصفة ، وذهب مذهبى فى الأنفة ، فأملى فى محاسن أهل زمانه « كتاب الحدائق » معارضا لكتاب « الزهرة » للأصبهانى (2) . فأضربت أنا عما ألف ، ولم أعرض لشىء مما صنف » . (3)

فالمؤلف قد استبعد اذن منذ البداية تكرار الحديث فى عصر سبق لغيره من الأدباء أن تناوله فى مؤلف خاص به . وهو موقف يتماشى تماما مع اتجاه ابن بسام المتمثل فى الكره الشديد للتطويل ، والضيق بكل مكرور ، لأن كل مكرور — على حد قوله — مملول . وسنتناول هذه النقطة ببعض من التوسع عندما نصل اليها .

---

(1) سبقت ترجمته .
(2) سبقت ايضا .
(3) ذ — 1/1 — ص 2 .

لقد أراد ابن بسام أن يحدثنا عن العصر الذى عاش فيـه ، أى القرن الخامس الهجرى ، فأنبأنا بذلك فى مقدمة كتابه حين قال :«واعتمدت المائة الخامسة من الهجرة ، فشرحت بعض محنها ، وجلوت وجوه فتنها، ولخصت القول بين قبيحها وحسنها ••• (1)

بل اننا نراه يذهب الى أبعد من ذلك حين يشترط على نفسه الالتزام بالاقتصار على الذين عاصروه من الأدباء ، معاصرة مباشرة أو غـير مباشرة • وهو يعبر عن ذلك بقوله فى المقدمة : « ولا تعديت أهل عصرى، ممن شاهدته بعمرى أو لحقه بعض أهل دهرى » • (2)

وهكذا كان الاطار الزمنى للعمل الذى تصدى له ابن بسام واضحا أشد الوضوح • ولا ريب فى أن صفاء الرؤية للاطار الزمنى حين تكـون بهذا المقدار ، تيسر السبيل على صاحب التأليف ، وتعطى لمنهجه ميـزة الضبط والتدقيق والتنظيم التى يكون الكتاب بدونها عرضة للتداخـل والفوضى •

لقد ألح ابن بسام كما رأينا فى مقدمة « الذخيرة » على هذا العنصر المنهجى وتناوله بالحديث مرارا ، مما ينم عن اهتمام زائد به • بقى أن نعرف مدى احترامه له فى التطبيق •

ذلك أن الاعلان عن المبادىء والنوايا شيء، واحترامها عند الممارسة والتطبيق شيء آخر ، فى هذا المجال كما فى غيره •

والواقع أن أجزاء الذخيرة كلها ، مطبوعها ، ومخطوطها ، شاهـدة على أن ابن بسام قد التزم بالاطار الزمنى الذى حدده لنفسه أشـد الالتزام • ولقد كان السياق يستفزه أحيانا الى الخروج عن الحـدود الزمنية المرسومة بمناسبة بعض الموضوعات العزيزة على نفسه ، ولكنه

---

(1) نفسه ص 7 .
(2) نفسه ص 2 .

كان يغالب الاستفزاز ، ويقاوم الاغراء ، فيعلن وكأنه يذكـر نفسه ، بأن الانسياق وراء السرد « خروج عن شرط هذا الديوان » يعنى كتاب الذخيرة • ونذكر لمجرد التمثيل ما اتفق له حين كان يترجم « لأبى مروان عبد الله بن زيادة الله الطبنى » • فلقد أشار الـى أبيه المسمى : أبا مضر الذى كان شاعرا أيضا ، ثم كأنه أحس أنه قد ينساق الى التحـدث عنه وعن شعره ، فأضاف بعد ذلك مباشرة : « وشعر أبى مضر ليس من نمط هذا المجموع لتقدم زمانه » • (1)

ولعل الذى يجدر بنا أن ننبه عليه فى هذا المقام هو أن الحـرص الذى أبداه ابن بسام على التمسك بهذه النقطة الهامة من مقومات منهجه قد حفظه بالفعل من أن يتيه فى ذلك البحر الخضم الذى دخل لجته •

وهو وان كان قد اختار من ناحية أخرى أن يمزج بين الجد والهزل ـ كما قال ـ وأن ينقاد فى كثير من الأحيان الى الاستطراد ،فان اخلاصه للمبدأ الذى اتخذه لنفسه ، حين استطاع أن يلتزم بالحديث عن الأدباء الذين عاشوا فى المائة الخامسة للهجرة ، دون سواهم ، قد كان له بمثابة العلامات البارزة على جانبى الطريق ، ترده اليها كلما دعته المغريات ، وما أكثرها ، الى الابتعاد عنها •

وانه لمن اليسير علينا أن نتصور مقدار التشويش الذى كان يصيب الكتاب ، والعنت الذى كان يلحق الكاتب ، لو انعدم هذا القيد التاريخى، أو الاطار الزمنى ، فى موضوع كالشعر والنثر ، ما أسهل على المتحـدث فيهما أن ينحرف الى الاستطراد والاسترسال وراء تداعى الأفكار •

بل ما لنا لا نشير الى ما وقع لابن بسام نفسه عندما تناول المسائل الأخرى التى لم يتقيد فيها بقيد •

---

(1) ذ — 1/1 — ص 53 .

ولننظر اليه مثلا عندما انطلق وراء المعاني يرد فروعها الى أصولها، ويبحث عن بداياتها ومختلف وجوهها . لقد ضرب — سعيا وراء ذلك — في مختلف عصور الأدب العربي في المشرق والمغرب ، وأتى في ذلك بما هو ثقيل على النفس ، يمل القارىء ويجهد الكاتب ، ويركبه مركب التعسف ، ليبرهن على أن هذا البيت مأخوذ من ذاك ، وهذه الفكرة شبيهة بتلك ، وأن هذا المعنى العباسي هو في الأصل لذلك الشاعر الجاهلي وهلم جرا مما سنتحدث عنه في حينه .

وعلى الرغم من هذه الاعتبارات كلها ، ومع كل ما حاولنا تبيينه من مزايا هذا المنهج الذي اختاره المؤلف ، ودون أن نزج بأنفسنا في مواقع التناقض ، بالتشكيك في محاسن هذا السجن الزمني — ان صح التعبير — الذي وضع فيه المؤلف نفسه بمحض اختياره ، على الرغم من كل ذلك ، لا بد لنا من أن نتساءل : هل عاد هذا المنهج بالفائدة على الأدب الأندلسي خاصة ، وعلى تاريخ الحركة الأدبية العربية بوجه عام ؟.

والحق أننا نقع في حيرة من أمرنا اذا نحن شئنا أن نقوم المسألة من هذا المنظور بالذات .

فنحن من ناحية ، لا يسعنا الا أن نحمد لأبي الحسن بن بسام هذا التصرف الذي أتاح له أن يتناول بالتدقيق والتفصيل واحدا من أهم العصور في تاريخ الأندلس من الجانب السياسي والأدبي . وأغلب الظن أنه لو صرف همته الى استعراض جميع الأدباء والشعراء الذين عاشوا في الأندلس منذ أن فتحها طارق بن زياد الى نهاية القرن الخامس الهجري لما تأتى له ذلك بمثل العمق والوضوح اللذين يتميز بهما كتاب الذخيرة .

ونحن حين نتذكر من ناحية أخرى فقدان بعض الكتب التي أرخت للعصور السالفة من أمثال كتاب « الحدائق » للجياني ، الذي تحدث عنه

ابن بسام ، نكاد نتراجع عن الرأي السابق ، ونؤاخذ ابن بسام على عدم التعرض للعصور التي سبقت المائة الخامسة للهجرة . ولربما كنا حينئذ نجد بعض التعويض عما فقدناه .

ولكن المتأني في النظر الى هذه المسألة ، لا يلبث أن يعترف بصواب مذهب ابن بسام . ان منهجه أقوم وأحكم من الناحية العلمية المجردة . أما فيما عدا ذلك فما كان له أن يتنبأ بمآل المؤلفات ، بل ولا أن يتنبأ بمآل كتابه هو بالذات . أليست نجاة كتاب كالذخيرة من المصير المؤلم الذي انتهى اليه كتاب « الحدائق » ، ومئات آلاف الكتب الأخرى ، مكسبا وأي مكسب للأدب العربي ؟

ومهما يكن من أمر ، فلقد تمكن المؤلف بفضل محافظته الشديدة على العنصر الزمني في منهج كتابه من تغطية القرن الخامس الهجري في الأندلس تغطية مستفيضة ، فأبرز لنا هذا العصر بكل ما عج فيه من الشعر والنثر ، وأورد لنا كمية ضخمة من الأخبار التاريخية ، والروايات والوقائع التي تعيننا على فهم ذلك الأدب ، وتساعدنا على تصور شامل لمختلف الجوانب السياسية والاجتماعية والعسكرية لذلك العصر .

لقد كان ابن بسام محقا في ما ذهب اليه ، مصيبا في رسم طريقه ، وهو على كل حال قد اختار وطبق منهجا يقره عليه المنطق والعقل السليم.

ثانيا: فى تحديد الاطار المكانى :

اذا كانت الغاية التى رمى اليها ابن بسام من وراء تأليف كتاب الذخيرة هى — كما سبق أن ذكرنا — الدفاع عن التراث الأندلسى ، بل عن الأندلس نفسها ، وأن وسيلته الى ذلك هى ابراز مكانتها الأدبية وقيمتها الفكرية ، فمن الطبيعى اذن أن يكون الاطار المكانى للعمل الذى تصدى له المؤلف هو بلاد الأندلس من أقصاها الى أقصاها •

وكذلك كان الأمر • فلقد أراد ابن بسام أن يحدثنا عن كل أديب نابه ، معروف ، فى الفترة المؤرخة — القرن الخامس الهجرى — وذلك فى مختلف أصقاع البلاد الأندلسية •

وتسهيلا للمهمة التى تصدى لها قام بتقسيم شبه الجزيرة الايبيرية الى ثلاثة أقسام هى :

أ — « قرطبة وما يصاقبها من بلاد متوسطة الأندلس » • (1)

ب — « الجانب الغربى من الأندلس و ••• أهل حضرة اشبيلية وما اتصل بها من بلاد ساحل البحر المحيط الرومى » • (2)

جـ — « الجانب الشرقى من الأندلس ••• الى منتهى كلمة الاسلام هنالك » • (3)

وقد أفرد ابن بسام لكل واحد من هذه الأقاليم الثلاثة قسما خاصا من أقسام كتابه الثلاثة الأولى •

أما القسم الرابع من « الذخيرة » فقد أفرده كما قال « لمن طرأ على هذه الجزيرة فى المدة المؤرخة من أديب شاعر ، وآوى الى ظلها من

(1) ذ — 1/1 — ص 11 •
(2) نفسه ص 13 •
(3) نفسه ص 16 •

كاتب ماهر ، واتسع فيها مجاله ، وحفظت فى ملوكها أقواله » • ثم يضيف بعد ذلك قائلا : « ووصلت بهم طائفة من مشهورى تلك الآفاق ، ممن نجم فى عصرنا بافريقية والشام والعراق » • (1)

وهكذا نلاحظ أن المؤلف قد وسع الاطار المكانى لكتابه فى هذا القسم الأخير ، بحيث لم يكتف بالحديث عن طائفة من الأدباء المشاهير الذين هاجروا الى الأندلس وعاشوا فيها ، واتصلوا بملوكها وأمرائها ، فأصبحوا كأنهم منها ، لم يكتف بهؤلاء بل عرج على باقى أصقاع البلاد العربية فتناول بالترجمة والتعريف بعضا من أعيان الأدباء الذين عاشوا أثناء القرن الخامس الهجرى فى بلاد افريقية والشام والعراق •

ثم نحن نعرف أن ابن بسام انما ذكر هؤلاء « ائتساء بأبى منصور ، فى تأليفه المشهور ، المترجم بيتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر » • (2)

ان افراد ابن بسام قسما كاملا من كتابه — أى ربعه على وجه التقريب — لهاتين الفئتين :

— المهاجرين الى بلاد الأندلس من الأدباء •

— المشهورين من رجال الأدب فى افريقية والشام والعراق يتطلب منا وقفة ، ولو قصيرة •

أما اهتمام المؤلف بأصحاب الفئة الأولى فانه أمر لا يحتاج فهمه وتعليله الى أى جهد • ذلك أن هؤلاء الأدباء الذين انخرطوا فى البيئة الأندلسية وعاشروا أهلها ، واتصلوا بملوكها وأمرائها ، ومارسوا التدريس فى حلقات مساجدها قد أصبحوا جزءا منها • ولو أن صاحب الذخيرة أغفل ذكرهم لاستحق منا العتاب والمؤاخذة •

(1) ذ — 1/1 ص 18 •
(2) ذ — 1/1 — ص — 90 •

ثم اننا نلاحظ أن عددا كبيرا من المذكورين فى هذه الفئة انما هم من المغاربة ، ولم يكن فى ذلك العهد فرق كبير بين الأندلس والمغرب ويزيد من قيمة هذه الملاحظة أن محور الكتاب الرئيسى هو مباهاة المشارقة ، والمغرب عند هؤلاء هو كل ما وراء الديار المصرية غربا ٠

والجدير بالذكر أن ابن بسام قد احتاط لنفسه ــ وهو فى معرض الفخر والمباهاة ــ فرد سلفا على من قد يظن أنه لم يجد من الأندلسيين الأقحاح من يستطيع أن يعول عليهم فى رفع راية الأندلس فذهب يبحث عن المهاجرين والنازحين الى البلاد الأندلسية ليشد بهم أزره ، ويدعم صفه ٠ قال صاحب الذخيرة « ولم آت بهذه الفرقة من أرباب هذا الفن الذى أنا فى اقامة أوده ، متعززا من ذلة ، ولا مستكثرا من قلة ، ولا لأنى لم أجد من أعيان وزرائنا وكتابنا من هو أبعد غاية ، ولا أبهر آية ، ولكنهم أسندوا الى أعلامها ، وترددوا بين جميمها وجمامها ، فصاروا من أهلها بالوفادة عليها ، وخلع أوطانهم اليها » ٠ (1)

بل اننا نرى المؤلف يذهب الى أبعد من ذلك حين يرد ما قد يكون لأدباء هذه الفرقة من سمعة وابداع الى الأندلس نفسها ، وذلك حين يقول ، بعد كلامه السابق مباشرة : « مع أن هذه الطائفة لم يسم الا بالأندلس ذكرهم ، ولا طار الا بمدح ملوكنا شعرهم ٠٠٠» (2)

وأما اهتمامه بمن سميناهم أهل الفئة الثانية ، أى مشاهير الشام والعراق خاصة ، فتلك مسألة أخرى ٠

ولعل التساؤل الأول الذى يتبادر الى الذهن هو : هل أراد ابن بسام بصنيعه هذا أن يثبت مدى اطلاعه على الآداب المشرقية ؟

لا نظن ذلك ، لأن سعة اطلاعه على الثقافة المشرقية ، ليست موضع شك ولا خلاف ، وهى تظهر بكل تأكيد فى الأقسام الثلاثة الأولى من

(1) ذ ــ 1/4 ــ ص 1 ٠
(2) نفسه ٠

الكتاب أكثر مما تظهر فى هذا القسم الأخير الذى اكتفى فيه بالتعريف ببعض الشعراء المشارقة ٠

ويبقى بعد ذلك تساؤل آخر : هل أراد ابن بسام أن يهون من قيمة الأدب المشرقى بالتصدى فى آخر كتابه لطائفة من أعلامه المشاهير ، الذين ليسوا فى الحقيقة من أهل الطبقة الأولى ، ولا هم ممن يمثلون الانتاج المشرقى الرفيع الذى أعجب به الأندلسيون ؟

نحن نستبعد هذا الاتجاه بصفة قاطعة لأننا لا نلمس لدى المؤلف على امتداد كتاب الذخيرة ، ما يشتم منه التعصب على المشارقة ، أو تعمد الاساءة اليهم ، بل نراه ، على عكس ذلك ، فى كثير من الأحيان يفضل الأدباء المشارقة على الأدباء المغاربة ويبدى اعجابه الشديد بمعانيهم حتى ليخيل الى القارىء أحيانا أنه وقع هو نفسه فيما كان يلوم أهل الأندلس عليه ٠

واذا كان الأدباء الذين اختارهم من الأصقاع المشرقية ليسوا من الذين يرقى انتاجهم الى المستوى الذى أخذ على الأندلسيين لبهم ، وصرفهم ــ أو كاد ــ عن أدبهم ، فما ذلك الا لأن الفترة المؤرخة هى القرن الخامس الهجرى ، وأن الأدب المشرقى فى هذه الفترة قد شرع فى الانحدار ، وفقد رونقه الذى كان له أثناء القرنين الثالث والرابع ٠

فاذا لم نرض هذا ولا ذاك تفسيرا لصنيع ابن بسام ، فانه لم يبق لنا الا أن نكتفى بما صرح به هو نفسه حين قال بأنه فعل ما فعل « ائتساء بأبى منصور ــ يعنى الثعالبى ــ فى تأليفه المشهور » (1) الذى هو يتيمة الدهر ، أو حين قال فى بداية الجزء الذى خصصه لهذه الطائفة : « وقد أثبت أيضا آخر هذا القسم ، طرفا من كلام أهل المشرق، وان كانوا لم يطرأوا على هذه الأفق حذو أبى منصور الثعالبى ، فانه

(1) ذ ــ 1/1 ــ ص 20 ٠

ذكر فى يتيمته نفرا من أهل الأندلس ، فعارضته أو ناقضته والأدب ميدان يليق فيه المتاح ، ويستحسن فيه الجماح» • (1)

ومهما يكن من أمر فان الذى لا شك فيه هو أن ما فعله ابن بسام ، وما فعله الثعالبى قبله ، يدل دلالة واضحة على أن أهل التاريخ الأدبى ، سواء فى المغرب أم فى المشرق كانوا فى القديم ينظرون الى الأدب العربى نظرة شاملة تتجاوز الظرف السياسى والاعتبارات « الاقليمية » • وهى نظرة على درجة كبيرة من الأصالة والوعى بوحدة الأدب العربى والثقافة العربية وان تناءت بيئتهما ، وبشموليتهما التى هى من جوانب القـــوة فيهمـــــا •

وانه لمن المؤسف حقا أن لا ينتصر هذا الاتجاه ، وأن لا تستمر هذه التقاليد ، وأن يكون الانتصار والاستمرار للتقوقع ، والنظرة الضيقــة الى الأدب العربى تلك التى حرمت الأجيال من الالمام بأدبها وأدبائها فى مختلف أصقاعهم وديارهم •

فنحن اذن لا نؤاخذ ابن بسام على ما فعل ، بل اننا لنقدره أحسن التقدير على ذلك وانما كنا نتمنى أن لا يخصص هذا القسم الأخير مــن كتبه لمجرد التعريف بعدد من الشعراء المشارقة وسرد بعض ما لهم مــن أشعار، بل أن يخصصه لدراسة «مقارنة» بين عدد من شعراء المشرق وعدد من شعراء المغرب ، فتكون دراسة تطبيقية رائدة يبين فيها من هو المبدع ومن هو المقلد ، ويفاضل بواسطتها بين القيم الجمالية فى الأدب العربى فى المشـــرق والمغـــرب •

(1) ذ — 1/4 — ص 1 .

ولكن ألسنا نظلم ابن بسام بمثل هذا التمنى ؟ لقد أراد أن يعرف بأدباء بلاده فاستكمل عمله بالتعريف ببعض أدباء الأقاليـــم العربيـــة الأخرى ، ولم يكن أبدا يهدف الى القيام بدراسة نقدية مقارنة بالمعنـــى الذى نعرفه اليوم ، على أنه لم يهمل ذلك ، بل تناوله بطريقة أخرى فى تصديه للمعانى ، يحك بعضها على بعض ، ويفاضل بينها ، ويبين مقدار ما لأصحابها من الأصالة أو التقليد •

ولعله من المفيد لنا، قبل الخوض فى هذا الموضوع، محاولة التعرف على الطريقة التى اتبعها فى تصنيف وترتيب الأشخاص الذين ترجم لهم فى كتاب « الذخيرة » •

ثالثا: فى ترتيب المترجمين :

اذا كان الإطار الزمنى واضحا : المائة الخامسة للهجرة ، واذا كان الاطار المكانى محددا : بلاد الأندلس بوجه خاص ، فانه من الجدير بنا أن نبحث فى الطريقة التي اعتمدها المؤلف لترتيب طوائف المترجمين ، وهم يتفاوتون فى تاريخ الميلاد والوفاة ، وفى المكانة الاجتماعية، والمنزلة السياسية ، كما يختلفون فى الأنواع أو الفنون الأدبية التي يمارسونها ، وفى نصيبهم من الاجادة والشهرة .

ولم يهمل ابن بسام هذه القضية أيضا بل فكر فيها ، واعتمد لهـا طريقة واضحة تناولها بكل دقة فى مقدمة الذخيرة . ولعل الفقرة التاليـة تلخص لنا أحسن تلخيص منهج المؤلف فيما يتعلق بهذه النقطة .

قال : « وبدأت بذكر الكتاب ، اذ هم صدور فى أهل الآداب ، الا أن يكون من له حظ من الرياسة ، أو يدعو الى تقديمه بعض السياسة» . (1) هذا هو المبدأ العام الذى يتحكم فى منهجية الترتيب أو فى فلسفتها ، ان صح التعبير ، عند ابن بسام . وهو يتيح لنا — فيما يتيحه — اكتشاف ما يمكن أن ندعوه « سلم القيم » عند صاحب الذخيرة ..

فلو أن المؤلف اختار واحدا من أنواع الترتيب التى لا تـؤثر فيها العواطف والأهواء الشخصية كالترتيب الألفبائى ، أو الترتيب الذى يكون حسب الوفيات مثلا ، لما ترك لنا مجالا كبيرا لهذا الاكتشاف . أما وقـد اعتمد المنهج الذى ذكرناه ، بعباراته ، منذ حين ، فاننا نجد أنفسنا رأسا أمام اختيار محدد ، ينبىء عن موقع الكتاب فى سلم القيم الذى أشرنـا اليه قبل قليل . فهو يقول : « الكتاب هم صدور فى أهل الآداب » أى بتعبير واضح : هم أرفع شأنا وأجل منزلة من الشعراء . وهذا موقـف ينطوى على كثير من العناصر الجديدة ، اذ أن المألوف لدى النقاد العرب

(1) ذ — 1/1 — ص 21 .

هو تسبيق الشعر على النثر ، والاحتفال بالشعراء أكثر من الاحتفـال بالكتاب . وسندرس هذه الظاهرة فى كتاب الذخيرة عندما نصل الـى الفصل الخاص بالجوانب النقدية فيه .

لقد اعتمد المؤلف اذن فى منهجية ترتيبـه تسبيـق الكتـاب على الشعراء . ولكن هذا التسبيق ليس فى جميع الأحوال ، لأننا وجدنـاه يسارع الى استثناء رجال السياسة من هذه القاعدة ، وذلك حين يقول : « وبدأت بذكر الكتاب ، اذ هم صدور فى أهل الآداب ، الا أن يكون من له حظ من الرياسة ، أو يدعو الى تقديمه بعض السياسة » . (1)

فالقاعدة العامة هى اذن تقديم الكتاب . ولكن يستثنى منها الملـوك والأمراء ومن لهم علاقة سياسية بهم ، اذ أن هؤلاء جميعا أحق عنـده بالتسبيـق .

ويأبى المؤلف الا أن يعطينا المزيد من التدقيق كعادته دائما كلما تعلق الأمر بتوضيح المنهج الذى اتبعه فى تأليف كتابه ، فنراه يلجأ الى اعطاء مثل لهذه الطريقة فى الترتيب مطبقة على احدى المناطق الجغرافية الأندلسية . يقول بعد الكلام السابق : « فأول من ذكرت من أهل قرطبة:

1) — من كان بها من ملوك قريش فى المدة المؤرخة من أهل هـذا الشـأن .
2) — ثم من تعلق بسلطانهم أو دخل فى شيء من شأنهم .
3) — وتلوتهم بالكتاب .
4) — والـوزراء .
5) — ثم بأعيان الشعراء .
6) — ثم بطوائف من المقلين منهم » . (2)

(1) ذ — 1/1 — ص 21 .
(2) نفسه .

ويخشى المؤلف من أن يظن القارىء أن هذا الترتيب هو خاص بمنطقة قرطبة لذلك يؤكد منهجه بقوله بعد ذلك : «وكذلك فعلت فى كل قسم : بدأت بالملوك ، ثم استمر على ما وصفته من الترتيب ، وانتظم على ما شرحته من التبويب » (1)

هذا هو منهج ابن بسام فى الترتيب : أهل السياسة ثم الكتاب ثم الشعراء •

ويبقى سؤال مع ذلك : ما هى المقاييس المعتمدة لديه فى البدء بذكر هذا الكاتب بدل ذلك ، أو هذا الشاعر بدل الآخر ؟ والجواب أن المقياس هو دائما عند أبى الحسن مقياس قيمى من زاوية ما • فكما أنه قدم الكتاب على الشعراء لميله وتفضيله للأولين ، فانه كذلك يقدم واحدا من الكتاب أو الشعراء على غيره لجودة انتاجه • بل ان الانتاج نفسه ليس هو المقياس دائما • فهناك عناصر أخرى تدخل فى الحساب من جملتها الاستقامة الأخلاقية ، أو نباهة الذكر ، أو التعبير عن شيىء يوافق ما فى نفس ابن بسام •

والمؤلف لا يخفى ذلك بل يشرحه بكل وضوح عندما يقول : « وقد أذكر الرجل لنباهة ذكره ، لا لجودة شعره ، وأقدم الآخر لاشتهار احسانه ، مع تأخر زمانه» • (2)

وهكذا استبعد المؤلف فى جميع الأحوال المقياس الزمنى • لم يعتمده الا فى الفصل الخاص بأدباء « بطليوس وسائر بلاد البحر المحيط الرومى » فهو يقول فى بداية هذا الفصل : « فلنذكر الآن من نشأ من أرباب المنثور والمنظوم بعقر هذا الاقليم ، ولنقدم منهم من تقدم فى الزمان» • (3)

---

(1) ذ — 1/1 — ص 21 .
(2) ذ — 1/1 ص 20 .
(3) ذ — ق/2 ص — 39 مخ القاهرة .

ولقد فاجأنا المؤلف حقا بخرق القاعدة التى وضعها لنفسه ، والانحراف عن المنهج الذى اختاره لترتيب المترجمين فى كتابه • فلئن كان يسهل علينا أن نفهم نفور ابن بسام من الطريقة الجامدة التى تعتمد المقياس الزمانى وحده ، نظرا الى أن المضمون الأدبى لكتابه وما فيه من موضوعات عاطفية تستعصى على التقنين الصلب ، وتضيق بالترتيب الجامد الذى لا يلتفت الا للتواريخ التى ولد أو مات فيها الأدباء المترجمون ، فاننا لم نجد تفسيرا نرضى عنه لخروج المؤلف فجأة عن هذا المنهج ، واعتماد القاعدة التى تقول « بتقديم من تقدم فى الزمان » •

وربما خطر له أن يجربها فى القسم الثانى من كتابه بعد أن أرشده اليها بعض معاصريه ، أو لامه على عدم اعتمادها آخرون ، ثم لم تعجبه فعدل عنها فى الأقسام الأخرى من الكتاب •

ومهما يكن من أمر هذه التجربة القصيرة ، أو الخروج المؤقت عن القاعدة التى سار عليها فى سائر الكتاب ، فان الذى لا شك فيه أن اختيار ابن بسام قد جاء أقرب الى طبيعة كتابه ولعله قد تمكن بفضل ذلك من عدم الوقوع فى صيغة « معاجم الأدباء » التى تتميز بالجفاف ، وسيطرة الاهتمام بالترتيب التاريخى أو الألفبائى على الجوانب الجمالية الأخرى• وقد جاء كتاب الذخيرة بالفعل حيا ، حارا ، يعكس فى كل صفحة من صفحاته ذوق مؤلفه ورأيه بصفة ضمنية أو بصفة صريحة فى انتاج ذلك العدد الضخم من الأدباء والشعراء الذين تناولهم بالترجمة والتعريف •

ويجدر بنا فى هذا المقام أن نتساءل عما اذا كان صاحب الذخيرة قد أحصى كل أدباء الأندلس فى الفترة المؤرخة ، أو على الأقل ، كل رجالها المشاهير من أرباب هذا الفن ؟

واذا كان بوسعنا أن نجزم بأن كتاب الذخيرة قد اتسع — بالاضافة الى المشاهير — لكثير من الأدباء والمتأدبين الذين ليسوا حتى من الطبقة الثانية ، فانه من المستحيل أن نطالب أبا الحسن باستيفاء كل أدباء عصره

وتناولهم جميعا بالتعريف والترجمة ٠ ذلك أن الأدب يكاد يكون في البلاد العربية — على مر العصور — قدرا مشتركا بين عدد هائل من الناس ، وان الفرق بينهم انما هو في تعاطيه على سبيل الهواية أو على سبيل الاحتراف ٠ ولقد روى أن الفلاح الأندلسي كان يقرض الشعر وهو وراء محراثه ٠ لذلك كان من العبث أن نتوقع من ابن بسام أن يتصدى لكل من حدث له أن نظم مقطوعات من الشعر ، أو كتب بعض الرسائل ٠

والمؤلف لا يدعي أنه أحاط بكل الأدباء ، بل نراه يعترف في كثير من التواضع الخليق بأمثاله بأنه لا يستبعد أن يكون قد أغفل المشاهير بله الخاملين وذلك حين يقول في فاتحة القسم الثاني من كتابه : « ولقد فاتني كثير من الكتاب ، وأعيان من أعيان الشعراء ، ممن كان في ذلك التاريخ ، منهم من لم أسمع بذكره ، ومنهم من لم يسمح نقدي باثبات ما بلغني من شعره » ٠ (1)

وقد كنا أشرنا في فصل سابق الى أن من الأدباء من سعى ابن بسام الى الاتصال بهم لطلب مقطوعات من انتاجهم بهدف جعلها في كتابه ، وأن منهم من كانوا يسعون لدى ابن بسام — وقد علموا بما هو بصدده من تأليف لكتاب الذخيرة — لاطلاعه على انتاجهم ، وطلب فسح المجال لأدبهم فيه ٠

وعلى كل حال فان هذه المسألة قد شغلت ابن بسام كثيرا فيما يبدو لأنه أثارها في القسم الثاني من الكتاب كما أشرنا آنفا ونحن نجده قبل ذلك يتناولها بالحديث في مقدمة الذخيرة حين يقول : « ولعل بعض من يتصفحه (2) سيقول : اني أغفلت كثيرا ، وذكرت خاملا ، وتركت مشهورا ، وعلى رسله ، فانما جمعته بين صعب قد ذل ، وغرب قد فل ، ونشاط قد قل ، وشباب قد ودع فاستقل ٠٠٠» ٠ (3)

---

(1) ذ — ق/2 — ص 3 مخ القاهرة ٠
(2) يقصد كتاب الذخيرة طبعا ٠
(3) ذ — 1/1 — ص 4 ٠

والجدير بملاحظته في هذه الفترة أنه يحاول أن يعلل ما قد يكون وقع له من نسيان أو اغفال لشاهير الأدباء بالحالة النفسية المتأزمة ، والظروف الصعبة التي واكبت جمعه لمادة الكتاب ، والتي جاءت نتيجة لنزوحه من بلاده شنترين بعد سقوطها في يد الاسبان ، وما انتاب المؤلف عقب ذلك من ويلات ، ومصائب ، وعسر في المعيشة ، وضيق بالدنيا وأهلها ، مما كنا قد شرحناه في فصل سابق ٠

ولعلنا لاحظنا أن ابن بسام لا يترك فرصة أخرى تفوته دون أن يجدد الاشارة الى هذه المسألة وكأنما كان يحز في نفسه ألا يتمكن من الاحاطة بكل أديب أنتجته الأندلس ٠ ففي معرض التعليل لما قام به من التعريف بالأدباء الذين هاجروا الى الأندلس ، نجده يقول : « وكم في شعرائنا ممن عاصرني ولم أسمع بذكره ، ولا وقع الى شيء من شعره ، ولعله كان أخلق بأن يذكر ، وأحق بأن تنتقى آياته وتسطر ، لكن يبلغ المرء جهده ، والاحاطة لله وحده » ٠ (1)

وتبقى نقطة تتعلق بمسألة ترتيب التراجم أثارها الدكتور مكي في كتابه « دراسة في مصادر الأدب » وذلك حين قال عن ابن بسام : انه ربما كان وحيد عصره في وضع فهرس مفصل لأقسام الكتاب الأربعة والمترجم لهم في كل قسم ٠ (2)

ذلك أنه مما يلفت الانتباه حقا أن نرى ابن بسام يختم الافتتاحية التي صدر بها كتاب الذخيرة ، بقوائم طويلة تتضمن الأدباء المترجم لهم في كل قسم من الأقسام الأربعة لتأليفه ٠

ففي القسم الأول المخصص لأهل قرطبة وما صاقبها يقول : « ويشتمل من الأخبار وأسماء الرؤساء وأعيان الكتاب والشعراء على جماعة هم :

---

(1) ذ — ق/4 — ص 1 ٠ مخ، الرباط ٠
(2) دراسة في مصادر الادب للدكتور طاهر مكي ٠ ج 1 ٠ ص / 333

1) ـ المستعـين بالله ٠٠٠

2) ـ المستظهر بالله ٠٠٠

3) ـ الأديب أبو عمر أحمد بن دراج القسطلي ٠

4) ـ أبو حفص بن برد الأكبر ٠

5) ـ الخ ٠٠٠ ويستمر في سرد أسماء الأدباء الى أن يستوف أصحاب هذا القسم وهم 34 أديبا ٠

ثم ينتقل الى القسم الثاني فيعدد 46 أديبا ٠ ثم يعدد في القسم الثالث 33 ، ويصل أخيرا الى القسم الرابع فيذكر 19 اسما لطائفة الأدباء التي هاجرت الى الأندلس ، و 32 من أدباء افريقيا والشام والعراق ٠

ولقد أصاب الدكتور مكي بالفعل عندما لاحظ أن ابن بسام ربما كان وحيد عصره في هذا الصنيع ذلك أنه لم تجر العادة لدى أصحاب هذا النوع من الكتب بتحرير فهارس على هذه الدرجة من الدقة والتفصيل تشتمل على تسمية كل الأدباء المترجم لهم واحدا ، واحدا ، حسب الاقليم الجغرافي الذي ينتسبون اليه ، وجزء الكتاب الذي ورد ذكرهم فيه ٠ (1)

وهو على كل حال عمل لا يستغرب من رجل استطعنا أن نتبين في الصفحات الماضية مدى اهتمامه بالمنهجية ، ومقدار حرصه على الدقة والضبط ، اللذين سيتجليان بكل وضوح في الفقرات التي كتبها للتعريف بالأدباء ٠

---

(1) نغتنم هذه الفرصة لنشير الى الخطأ الذي لم ينتبه اليه محققو الجزء الاول المطبوع من الذخيرة. ذلك ان كثيرا من الادباء المغاربة المعروفين أمثال علي بن رشيق وأبي اسحاق الحصري، وأبي عبد الله بن قاضي ميلة الخ... قد وردوا تحت عنوان « ذكر من كان منهم بالمشرق » المقدمة ، ق 1 / 1 ص 19 و 20 ٠

رابعـا : في التعريف بالأدبـاء :

لقد ميزنا، حين تناولنا بالدراسة أدب التراجم والمختارات (1) بين الكتب التي انفردت بالتراجم من مثل معجم الأدباء وغيره، والكتب التي انفردت بالمختارات من مثل الحماسات وغيرها ٠ وكنا أشرنا وقتئذ الى أن « ذخيرة » ابن بسام ليست من هذه الفئة ولا من تلك، لأنها جمعت بين الميزتين، وتناولت كلا الجانبين، ولذلك رأينا تصنيفها في فئة ثالثة من المؤلفات، هي تلك التي اعتنت في وقت واحد بالمقطوعات الأدبية، وبأخبار قائليها من الشعراء والكتاب، فهي لذلك كتب تراجم ومختارات، أو كتب في التاريخ الأدبي ٠

والذي أعطى كتاب «الذخـيرة» هذه الصفة ، وأتاح له أن يدرج ضمن هذه الفئة الثالثة من المؤلفات، هو تلك المقدمات التي صدر بـها المؤلف المختارات الأدبية، والتي تناول فيها القدر الذي بدا له ضروريا من التعريف بأصحابها، وهو ما يسمى عادة « ترجمة » الأديب ٠

ونحن نود أن نلاحظ في باديء الأمر أن المؤلف لم يشر الى هذا الجانب من منهج كتابه في المقدمة ٠ فلقد ذكر الكثير من المسائل التي تحدثنا عنها أو سنتحدث عنها مما لها اتصال بمنهج الكتاب ولكنه عندما جاء الى ذكر النماذج الأدبية التي سيضمنها كتابه، وتوقعنا أن نراه يذكر خطته في التعريف بأصحابها رأيناه ينحرف بالكلام ، ويشرع في الحديث عن مسائل أخرى ٠

ولعل الاشارة الوحيدة التي تتصل بأخبار الأدباء، هي التي جاءت في كلام المؤلف حين قال: « على أن عامة من ذكرته في هذا الديوان لم أجد له أخبارا موضوعة، ولا أشعارا مجموعة ٠٠٠ » (2)

---

(1) الفصـل الثاني ٠

(2) ق ـ 1/1 ـ ص 5 ٠

ومهما يكن من أمر، فان عدم اشارة المؤلف الى هذه النقطة المنهجية لا يؤثـر فى شيىء على حقيقة أخرى ثابتة وهي أنه أولى عناية فائقـة للتعريف بكـل أديب حتى انه لم يعقد لأى أديب فصلا من الفصـول للتحدث عن شعره ونثره ، الا وافتتح ذلك الفصل بترجمة له ، باستثناء بعض الحالات الشاذة التى ذكر فيها أنه لم يجد شيئا من الأخبار عن ترجمة صاحب الفصل (1)

ولقد راودتنا، ونحن ندرس هذه القضية، فكرة مؤداها أن عناية المؤلف كانت منصبة بالدرجـة الأولى على القطع الأدبية لانها هي التى تخدم واحدا من الأغراض الأساسية للكتاب، وهو مباهاة المشارقة، وتلك المباهاة انما تتم بالتركيز على النماذج الأدبية الرفيعة ، واستعراض أكبر قدر منها، أما التعريف بالأدباء فيأتى فى الدرجة الثانية .

وهذه الفكرة، ربما كانت على جانب كبير من الصواب، ولكنها لا تنفى عناية ابن بسام بالتراجم ، تلك العناية التى هى جزء من منهجه العام المتمثل فى عدم قطع الآثار الأدبية عن اطارها الشامل، وظروفها المحيطة بها مما هو ذو اتصال شديد بحياة قائليها .

وآية اعتناء المؤلف بالأديب، بما لا يقل عن عنايته بالقطع الأدبية، أنه اختار أن يبنى فصول كتابه على أساس الأدباء، اذ قسم بلاد الأندلس الى أقسام، خص كل واحد منها بقسم من كتابه، ثم عقد لكل أديب أو متأدب من الملوك والأمراء فصلا يعطى فيه لمحة من حياة الأديب، ثم يأخذ فى استعراض أجود ماله من الشعر والنثر، فمحاور الكتاب هى أعلام الشعر والنثر، وكان بامكانه أن يتصور منهجا آخر، وبناء مغايرا للكتاب، كأن يبنيه على فنون القول من نسيب، ومدح ووصـف وغير ذلك ، ...

(1) انظر على سبيل المثال : الذخيرة 1/2 ص 176 .

وسنحاول فى الصفحات التالية أن نستخرج النقاط التى يعتمد عليها منهجه فى التعريف بالأدباء والترجمة لهم .

1 — الحرص على الاشارة الى الألقاب الرسمية والعلمية :

اذا استثنينا قلة قليلة من الأدباء الذين ذكرهم ابن بسام بأسمائهم المجردة من كل لقب، فان الأغلبية الغالبة من الأعلام الآخرين لم يذكرهم الا مع اضافة أسمائهم الى ألقابهم ، سواء كانت ألقابا رسمية أم علمية .

فالوزراء منهم أشار اليهم بلقب الوزير ، وذوو الوزارتين ذكرهم بهذا اللقب، وكذلك فعل مع القضاة.

وذكر أصحاب الألقاب العلمية باللقب الذى اشتهروا به، فيذكر : الأديب فلان، أو الأديب العالم.

بل لقد جمع أحيانا بين اللقبين: الرسمي والعلمى، فقال مثلا الوزير الفقيه، وقال الفقيه القاضى.

ويذكر الملوك والأمراء فى الغالب بأسمائهم وألقاب الدولة المضافة الى اسم الجلالة مثل: المستعين بالله سليمان بن الحكم، والمستظهر بالله أبى المطرف عبد الرحمن بن عبد الجبار الناصري .

أما سائر الأعلام من الأدباء فيشير اليهم بلقب الأديب ... أو الشاعر ... أو الكاتب ... وقد يجمع بين ذلك.

2 — الحرص على ذكر الألقاب التى اشتهر بها بعض الأدباء حتى غطت على أسمائهم الحقيقية .

وحسنا فعل المؤلف حين انتبه الى هذا الجانب، اذ أن بعض الأدباء قد اشتهروا بألقاب ليست هى أسماء حقيقية لهم، ولكنها بلغت من الشهرة حدا تضاءل أمامه الاسم الحقيقى، بل كاد أن لا يذكر أبدا، والأمثلة

كثيرة على ذلك، فهى لا تكاد تحصى فى أعلام الأدب العربى، فى المغرب والمشرق. فهناك مئات من الناس يسمون « أحمد بن الحسين » ، ومنهم عدد كبير من الشعراء، ولو تحدث أحد عن الشاعر أحمد بن الحسين ، لظن أغلب الناس أن هذا الاسم لشاعر مغمور، نكرة، يعرفه المتخصصون فى دراسة الفترة الزمننية التى نشأ فيها، أما اذا قيل: الشاعر المتنبى، فان الذهن حينئذ ينصرف مباشرة الى ذلك الرجل الذى «ملأ الدنيا وشغل الناس » كما قال ابن رشيق .

ولذلك كان صاحب الذخيرة يشير فى كل مرة الى هذه الألقاب التى اشتهر بها الأدباء شهرة غطت على أسمائهم الحقيقية .

ومن هذا القبيل قوله عندما ترجم للوزير الفقيه أبى الوليد اذ أضاف بعد ذلك مباشرة « المعروف بابن الفرضى » (1) وكذلك فعل مع ابن القصيرة، اذ قال « ... ذو الوزارتين أبو بكر بن سليمان المعروف بابن القصيرة »

وعند تناول ترجمة المنفتل، قال: « فصل فى ذكر الأديب أبى أحمد عبد العزيز بن خيرة القرطبى، المشتهرة معرفته بالمنفتل ...» (2)

ويحدث أحيانا أن لا يكون المؤلف متأكدا من اشتهار أديب بلقب ما ، فيحتاط للأمر، كعادته دائما فى الحرص على الأمانة العلمية. ونمثل لذلك بقوله فى ترجمة الأديب ابن فتوح، فقد ابتدأ الفصل الخاص به هكذا «ذكر الأديب أبى المطرف عبد الرحمن بن فتوح ، واثبات جملة من شعره فى الغزل والمديح » ثم يبدأ الحديث عنه قائلا: « بلغنى أنه كان يعرف بابن صاحب الاسفيريا» (3) ويشرع بعد ذلك فى ايراد ما لديه من أخباره .

---

(1) ذ — 2/1 ص 130 .
(2) ذ — 2/1 — ص 259 .
(3) ذ — 2/1 — ص 273 .

وكم كنا نتمنى أن يحقق ابن بسام فى أمر هذا اللقب، وأن يشرح لنا معنى هذه التسمية، وما هى الاسفيريا التى نسب اليها أبوه ...

3 — **الاشارة الى الوظائف الرسمية التى تقلدها الأديب** : وهذا يتماشى مع منهج ابن بسام فى الاهتمام بذوى الرياسة ، أو من كان لهم حظ من السياسة، مما كنا عرضنا له عند الحديث عن طريقته فى ترتيب التراجم . ونحن لم نجد أنه يعظم الوزراء أو كتاب الدولة بما يفوق كثيرا تعظيمه لسائر الأدباء ، وانما هى خطة التزم بها ، فأشار الى كل من تقلد منصبا رسميا فى الدولة ، من حيث أن ذلك حدث بارز فى حياة الأديب ، وهو بحق ذو علاقة بتحديد ملامح أدبه .

وعلى ذلك ذكر مثلا « الوزير الكاتب أبا حفص بن برد الأكبر » وتحدث عن مكانته وقيمته الأدبية فى بضعة سطور، ثم قال: « وقلد أبو حفص هذا ديوان الانشاء بعد ابن الجزيرى، ثم كتب عن سليمان المستعين وغيره من أمراء الفتنة ، فأسمع الصم بيانا ، واستنزل العصم ابداعا واحسانا ....» (1)

والطريف أن ابن بسام يشير أحيانا — فى معرض ترجمته لبعض الأدباء — الى أن المترجم لم يتقلد أية وظيفة رسمية، كأنه يريد أن يقول انه كان جديرا بها، أو كأنه يرى أن من حق كل أديب محسن أن يرقى الى المناصب السامية فى الدولة. قال فى ترجمته أبى فحص عمر بن الشهيد: « وأبو حفص هذا، فى وقتنا، كان فارس النظم والنثر، وأعجوبة القران والعصر، ونهاية الخبر والخبر ،.... وهو وان لم يزر للملك ولم تدر عليه رحى ملك، فليس بمتأخر عن طبقات المحسنين، ولا بسكيت حلبات الكتاب المجيدين » . (2)

---

(1) ذ — 1/1 — = 84 .
(2) ذ — 2/1 — ص 180 — 181 .

ولكن الغريب فى كل ذلك هو كيف نعته ابن بسام بالوزير، فى عنوان الفصل المعقود له حين قال : «فصل فى ذكر الوزير الكاتب أبى حفص عمر بن الشهيد» (1) مع أنه كما قال «لم يزر لملك» . أم أن هذا اللقب يطلق كذلك على المجيدين من الكتاب حتى وان لم يزروا حقا لأى ملك ؟ اذا كان ذلك فان هذا مما يزيل جانبا من الغموض فى حياة ابن بسام نفسها ، اذ وجدنا كما أسلفنا فى الفصل الذى عقدناه لدراسة حياته ، من ينعته بالوزير .

4 — ذكر المحن التى أصابت الأدباء المقربين من الأمراء :

لم تكن هذه المحن للأسف نادرة الوقوع ، فقد كان الأدباء يلمعون فى سماء الممالك ، وينالون فى البلاطات الجاه الرفيع ، والجانب المنيع ، ثم لا تلبث أحوالهم أن تتغير ، فتتنكر الأيام بعد صفاء ، ويحل الجفاء بينهم وبين أولياء نعمهم محل الود والاخاء ، واذا بالأديب يهوى من سماء العز الى حضيض الذلة والاحتياج .

وابن بسام حين يعرض لمثل هذه الحالات يطيل فيها الكلام ، ويكثر فيها التفصيل ، مبديا نحوها عواطف رجل مؤمن بالقضاء والقدر ، منبها على ما فيها من مواطن الاعتبار .

والأمثلة على ذلك كثيرة منتشرة فى كتاب الذخيرة كله ، يمكن أن نذكر منها ما حدث لابن زيدون وما لاقاه من مرارة السجن ، والهروب والتشرد (2) كما يمكن التمثيل لذلك بما حدث للوزير عيسى بن سعيد المعروف بابن القطاع الذى كان « قيم دولة ابن أبى عامر ، وحامل لوائها ، والمستقل بأعبائها ومالك زمام اعادتها وابدائها ، » (3) والذى تغيرت به الحال بعد ذلك مما حمل ابن بسام على أن يشرح : «كيف كان غروبه

(1) ذ — 2/1 ص 180 .
(2) ذ — 1/1 ص 289 .
(3) ذ — 1/1 — ص 102 — 103 .

وطلوعه ، ومن أين اتفق طيرانه ووقوعه » . وما أكثر ما تطلع فى الأندلس شموس الأدباء ، وما أسرع ما تغرب . . .

5 — ذكر مؤلفات المترجم حين يكون من المؤلفين : وهذا أيضا جانب حرص ابن بسام على استيفائه أشد الحرص ، اذ كان لا يمر بأديب له مؤلفات ما ، ولا سيما اذا كانت فى الأدب أو التاريخ ، الا سردها فى الترجمة . قد يحدث له أن يعرف بمضمون تلك الكتب باختصار . قال فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن أحمد بن الحداد : « وله فى العروض تأليف ، وتصنيف مشهور معروف ، مزج فيه بين الأنحاء الموسيقية ، والآراء الخليلية ، ورد فيه على السرقسطى المنبوز بالحمار ، ونقض كلامه فيما تكلم عليه من الأشطار» (1) . وفى ترجمة ابن برد الأصغر يشير الى افتخار هذا الأديب بجده أبى حفص الأكبر «فى كتابه الموسوم بسر الأدب ، وسبك الذهب» (2) . ويذكر ابن بسام تلك المؤلفات حتى حين تكون كثيرة . قال فى ترجمة ابن فتوح : « وله تأليف فى الأدب ترجمه بكتاب (الاغراب فى رقائق الآداب) ورفعه الى المأمون بن ذى النون ، وتصنيف آخر ، سماه بـ (كتاب الاشارة الى معرفة الرجال والعبارة) وكتاب سماه (بستان الملوك) رفعه الى ابن جهور أيام امارته بقرطبة» (3) .

وهكذا كان صاحب الذخيرة صادق الحدس حين اعتنى بهذا الجانب ، وأى جانب يكون أهم من ذكر ما للرجل من مؤلفات ، فى معرض التحدث عن أخبار حياته . أليس تأليف كتاب حدثا بارزا فى حياة كل مؤلف ؟ . . .

(1) ذ — 2/1 — ص 201 .
(2) ذ — 2/1 — ص 18 .
(3) ذ — 2/1 ص 273 .

6 — التنبيه على بيوتات الأدب الأندلسية :

ان الأدب ، هو من بعض جوانبه صناعة ، وربما حدث أن يتوارثها الأبناء عن الآباء • ومن عادة مؤرخي الآداب أن يهتموا بهذه النقطة فيذكروها فى تآليفهم • ولقد فعلوا ذلك مع أقدم الشعراء فقالوا مثلا : ان بيت زهير بن أبى سلمى ، من بيوت الشعر ، فهو شاعر ، وابنه كعب شاعر ، وحفيده عقبة شاعر ••• الخ •••

ولقد أتيح لابن بسام أن يشير الى هذا الجانب عندما أمكنه ذلك • ومن أمثلته قوله فى ترجمة أبى مروان عبد الله بن زيادة الله الطبنى : « كان أبو مروان هذا أحد حماة سرح الكلام ، وحملة ألوية الأقلام ، من أهل بيت اشتهروا بالشعر اشتهار المنازل بالبدر ••• » • (1)

كما أتيح له أن ينبه على هذه الظاهرة فى الفصل الذى عقده للحديث عن أبى عمر ابن الباجى وأدبه فقد قال : «وكان أبو عمر يوسف بن جعفر المعروف بابن الباجى من بلغاء الكتاب ، وأغرب شأو جده الباجى فى الولادة كل الاغراب ، فى صلة حبل البلاغة على جميع كتاب الاسلام ، لأنه أنجب أربعة من حملة الأقلام وفرسان الكلام : أولهم جدهم يوسف ، وابنه جعفر بن يوسف ، وعبد الله ويوسف ابنا ابنه جعفر •••» • (2)

7 — العناية بالرحلة فى حياة الأديب :

ان قيمة الرحلة معروفة فى الحضارة الاسلامية ، وهى ذات أصل دينى ، اذ أن من مبادىء طلب العلم فى الاسلام السفر الى مواطنه ، وذلك منذ أن قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « اطلب العلم ولو فى الصين» • وقد ظل المؤرخون للأدب بعد ذلك يشيرون الى الأدباء الذين

---

(1) ذ — 2/1 — ص 52 •
(2) ذ — 1/2 — ص 159 —

قاموا برحلة علمية للتحصيل ، كما ظلوا يشيرون الى العلماء الذين كان يرحل اليهم ، ومن هنا كان أبلغ المدح أن يقال فى انسان ما : «كانت تضرب اليه آباط الابل » •

واعتنى ابن بسام بهذين الجانبين على حد سواء ، فأشار الى من رحل الناس اليه كما فى ترجمته لأبى منصور الثعالبى اذ قال عنه ، فى جملة ما قال : « ••• سار ذكره سير المثل ، وضربت اليه آباط الابل ••• » (1) كما أشار فى ترجمته «للفقيه القاضى أبى الوليد المعروف بابن الفرضى » الى أنه «رحل ورحل اليه ، وأخذ وأخذ عنه» • (2)

8 — التنبيه على براعة الأديب مع حداثة السن :

وهو مما يستأهل أن يلفت الانتباه ، ومما يستحق أن ينبه عليه •

ولقد نبه ابن بسام على ذلك فى ترجمته للمستظهر بالله أبى المطرف عبد الرحمن بن هشام ، حين قال : « وكان على حداثة سنه ذكيا، يقظا ، لبيبا ، أديبا ، حسن الكلام ، جيد القريحة ، مليح البلاغة ، يتصرف فيما شاءه من الخطابة بديهة وروية ••• الخ» • (3)

ولعل قارئا لهذا الكلام يذهب به الظن الى أن ابن بسام انما نبه على هذا الجانب لدى المستظهر بالله ، تملقا منه لهذا الأمير • ومع أن المؤلف قد عودنا على الصراحة ، سواء تحدث عن الملوك أم عن سائر الناس ، فهذا مثال آخر عن رجل ليس من ذوى الرياسة ولا من أهل السياسة • انه « الأديب الأريب أبو العباس أحمد بن قاسم المحدث » الذى يقول عنه صاحب الذخيرة : « وهو فتى وقتنا بحضرة قرطبة ،

---

(1) ذ — ق/4 — ص 167 • مخ. الرباط •
(2) ذ — 2/1 — ص 130 •
(3) ذ — 1/1 — ص 40 •

معلة عين العصر ، وصفحة وجه الدهر ، تبريزا فى النظم والنثر ، وقد أثبت من كلامه قطعة تنبىء عما طالعه من علوم ، ونظر فيه من أنواع التعاليم ، على صغر سنه ، ولدانة غصنه» . (1)

9 — الاشارة الى حدوث الوفاة فى سن مبكرة :

وتلتحق هذه النقطة بالنقطة السابقة ، فهى مكملة لها ، من حيث أن الذى يهتم بالنبوغ المبكر ، يهتم بالوفاة المبكرة ، وهذه لا تكون جديرة بالاهتمام الا لأن المتوفى قد نبغ فى سن مبكرة . وعلى ذلك فقد أشار ابن بسام الى هذه المسألة ونبه عليها كلما مر بأديب تنطبق عليه .

ففى ترجمته «للوزير الكاتب أبى المغيرة عبد الوهاب بن حزم» قال : « وامتزج بملوك العصر ، امتزاج الماء بالخمر ، ولو طال مداه ، لم يذكر معه سواه ، ولاعترف بفضله أحبته وعداه » . (2)

وهذا المنهج ليس نادرا فى تعريفات ابن بسام بأدباء بلاده ، بل هو كثير الورود ، ونحن لا نريد أن نستقصيه فى كل التراجم ، ونحصى كل المواطن التى ورد فيها ، وحسبنا أن نعزز المثل الأول بمثل ثان ليتضح فى الأذهان .

ففى الفصل الذى عقده المؤلف للأديب أبى بكر بن ظهار ، قال فى مستهل ترجمته : « وكان أبو بكر هذا من فتيان الأدباء فى ذلك الأوان ، ثم اعتبط وماء معرفته غير ممتاح ، وركن ابداعه غير مراح ، فى شرخ شبيبته وأوان ظهوره ، ولولا ذلك لبز أهل عصره» . (3)

(1) ذ — 2/1 — ص 391 .
(2) ذ — 1/1 — ص 110 .
(3) ذ — 2/1 — ص 288 .

10 — ذكر تاريخ وفاة الأدباء :

من الثغرات الكبيرة التى نلاحظها فى منهج ابن بسام بصدد تراجم الأدباء ، اغفاله الذى كاد يصبح القاعدة السارية فى جميع الأحوال ، لتاريخ ولادة الأدباء المترجمين ووفاتهم .

صحيح أن أكثر أدباء كتاب الذخيرة ، هم من المعاصرين لابن بسام ، وصحيح أنه لم يكن من عادة المؤرخين للأدب مساءلة الأدباء الأحياء عن تواريخ ولادتهم ، ولكن ما هو العذر فى عدم الاشارة الى تواريخ الأدباء الذين قضوا نحبهم سنوات عديدة قبل شروع المؤلف فى جمع كتاب الذخيرة .

ولقد خرج ابن بسام عن تلك القاعدة أحيانا نادرة فأشار فى ترجمة الوزير أبى حفص بن برد الأكبر الى أن وفاته « كانت بسرقسطة سنة ثمانى عشرة وأربعمائة ، وقد نيف على الثمانين» . (1)

ومن هذا القبيل أيضا ما ذكره فى ترجمة أبى بكر ابن الملح حيث قال : « ومد لأبى بكر هذا فى العمر وعاش الى وقت تحريرى هذا المجموع سنة خمسمائة ، وتوفى رحمه الله فى شهر رمضان منها » . (2)

11 — الاشارة الى الأدباء الذين خالطهم المؤلف :

وهذه أيضا من الحالات النادرة . فلو أن ابن بسام التزم بتنبيه قرائه الى كل الأدباء المترجمين الذين كانت له بهم علاقات خاصة ، سواء بلغت درجة الصداقة ، أم كانت دون ذلك ، لأتاح لهم ، ولأتاح لمن يدرسون كتابه على الأخص ، أن يرفعوا بعض الحجب عن حياته المغلفة بالظلام . ولكن من أين له أن يتنبأ بأننا سنحتاج الى ذلك منه ، أما كان

(1) ذ — 1/1 — ص 84 .
(2) ذ — 2/3 — ص 287 . مخ القاهرة .

من حقه ، وهو الذى عرف بالعشرات من أدباء بلاده ، أن يتوقع نهـوض بعض مواطنيه بمهمة التعريف به ــ حق التعريف ــ بعد وفاته ؟

ولسنا ندرى لماذا شذ هذه الأحيان القليلة ، فأشار الى ذلك كمـا فعل فى تعريفه بالوزير الكاتب أبى مروان عبد الملك بن محمد ابن شماخ، اذ افتتح ترجمته له بقوله : « وأبو مروان هذا أحد من أدركته ، وذاكرته، وأنشدنى شعره ، وكان باهر الضوء ، صادق النوء ، ينفث بالسحر فى عقد النظم والنثر ... » . (1)

12 ــ التقويم العلمى والأخلاقى فى سياق الترجمة :

وهى واحدة من أهم نقاط منهجه فى التعريف بالأدباء ، بل هى ، دون شك ، أهم النقاط على الاطلاق . ففيها يتركز مضمون الترجمة للأديب، وفيها خلاصة رأى المؤلف فى أدب المترجم له .

ومع أننا لا نعرف بالضبط أين تقف حدود العلم وأين تبدأ حـدود الأخلاق عند ابن بسام ، لشدة الارتباط والتداخل بينهمـا ، بحيـث أن القالب الأخلاقى يكاد يكون لدى صاحب الذخيرة هو المعيار العام الذى يقيس به الجودة والاحسان فى كل شىء ، ومع ذلك فاننا سنحاول التمييز بين الجانبين لتسهيل تناول كل جانب منهما بالدراسة على حدة .

أ ــ التقـــويم العلمـــى :

من الواضح أننا نقصد بهذه العبارة ، الملاحظات السريعة التى أبداها ابن بسام عن أدب الاعلام الذين تناو لحياتهم بالتعريف . أما تقويـم المقطوعات الأدبية ، واصدار الأحكام النقدية عليها ، فذلك سنؤجل النظر فيه الى فصل لاحق .

---

(1) ذ ــ 2/1 ــ ص 323 .

حاول المؤلف ، فى بعض الأحيان ، أن يوجز رأيه فى أدب المترجم ، فوجدنـاه مثلا فى الفصل الذى عقـده لأبى القاسـم خلف بن فـرج الألبيرى ، المعروف بالسميسر يقول : «له طبع حسن ، وتصرف مستحسن فى مقطوعات الأبيات ، وخاصة اذا هجا وقدح ، وأما اذا طول ومدح ، فقلما رأيته أفلح ولا أنجح ... » . (1)

هنا نموذج من التقويم الخاطف ، اذ نبه ابن بسام الى أن الشاعر السميسر يحسن الهجاء والقدح ، ولا يحسن المدح ، ويحسن القول فى المقطوعات لا فى القصائد المطولات .

وقد يكون التقويم أعم وأشمل ، وذلك على غرار ما نجده فى ترجمة ابن فتوح ، اذ يقول عنه ابن بسام : « وله شعر كثير ، الا أن احسانه نزر يسير ثم يضيف بعد أسطر : « وابن فتوح هذا كثير الاهتدام لأشعار سواه ، قبيح الأخذ فى كل ما انتحاه ، وشعره كثير البرد ... » . (2)

ب ــ التقويـــم الأخلاقـــى :

لقد أسلفنا الحديث عن مدى التداخل بين التقويم العلمى والتقويم الأخلاقى لدى صاحب الذخيرة ، بحيث أن الجانب الثانى كثيراً ما يكون هو المعيار الأهم لتقويم الجانب الأول .

ونحن لدينا على ذلك أمثلة كثيرة جـدا ، ولكـن نريد أن نكتفـى بأبرزها . ولنعد الى المثالين السابقين اللذين ذكرناهما فى التقويم العلمى، ولنلاحظ كيف يقلل ابن بسام من شأن أبى القاسم ابن فرج الألبـيرى المعروف بالسميسر اذ أن هذا الشاعر قلما «يفلح أو ينجح» اذا « هجا وقدح » . ونحن لا نستطيع أن نتبين حقيقة هذا الحكم الا اذا أدركنا

---

(1) ذ ــ 2/1 ــ ص 372 .
(2) ذ ــ 2/1 ــ ص 273 .

مدى نفور ابن بسام من شعر الهجاء والقدح ، نفورا بلغ من الشدة درجة جعلت المؤلف يستبعد تضمين كتاب الذخيرة الأشعار والرسائل التى قيلت فيه • ولنسمع الى المؤلف يؤكد هذا المنهج : فى ترجمة السميسر نفسه : وله مذهب استفرغ فيه مجهود شعره ، من القدح فى أهل عصره ، صنت الكتاب عن ذكره» • (1)

وفى ترجمة ابن فتوح ، نلاحظ بكل يسر قلة احترام ابن بسام له ولأدبه • ولو أننا حاولنا التعمق فى فهم أسباب هذه الجفوة ، ان صح التعبير ، لتبينا أن واحدا من أهم أسبابها هو كونه « كثير الاهتدام لأشعار سواه » • وهذا النوع من أخذ المعانى والألفاظ يعده ابن بسام سرقة وسطوا • ويرى أن مرتكبهما يستحق عقابا شديدا • وواضح أن ابن بسام ينظر الى السرقة — حتى لو كانت فى الشعر — نظرة أخلاقية •

ونسوق بعد هذين المثالين ، نموذجين آخرين لشدة احتكام ابن بسام الى المعايير الأخلاقية فى وزن الأدباء وتقويم انتاجهم •

ففى ترجمته للشاعر أبى طالب عبد الجبار ، الذى قال انه يعرف بالمتنبى ، أشار المؤلف الى ناحية أخرى يمقتها أشد المقت ، وهى الخلاعة والمجون ، فكيف وقد جمع هذا الأديب بين ناحيتين ، كلتاهما فى القبح سواء : المجون ، والغزل الفاحش • قال فى ثنايا ترجمته له « وكان بلغنى بعد نفسه الملك ، وينخرط للمجون فى سلك لا يبالى أين وقع ، ولا يحفل بشىء صنع •••» (2) ثم يضيف بعد ذلك : « على أنه استفرغ مجهوده فى وصف صنت الكتاب عن ذكره» (3) ولذلك نرى ابن بسام لا يعجبه من شعر هذا الشاعر الا القصيدة التى نظم فيها أهم حوادث التاريخ

(1) ذ — 2/1 — ص 372 .
(2) — 2/1 — ص 401 .
(3) نفسه .

الاسلامى الى دولة المرابطين ، فهو يقول عنها : « وله أرجوزة فى التاريخ أغرب فيها ، وأعرب بها عن لطف محله من الفهم ، ورسوخ قدمه فى مطالعة أنواع العلم ، وقد أثبتها على طولها ، لاشتمال فصولها على علم جليل ، وباع فى الخبر طويل ••• » • (1)

ان ابن بسام لم يعرب عن اعجابه الا بهذه القصيدة التاريخية التى لا يظهر فيها مجون الشاعر ، أما القصائد الغزلية فقد صان كتابه عنها كما يقول •

أما حين يكون الرجل من أصحاب الأخلاق القويمة ، والمنهج الذى يرضى عنه ابن بسام فانه يغض الطرف عن العيوب الأدبية ويتسامح فى عدم التنبيه الى تواضع المكانة العلمية ، بالالحاح على ابراز الجوانب الأخلاقية اللامعة •

قال فى ترجمة المستظهر بالله أبى المطرف عبد الرحمن بن هشام : « ويصوغ قطعا من الشعر مستجادة ••• يزين ذلك بطهارة أثواب وعفة ، وبراءة من شرب النبيذ سرا وعلانية ، وكان فى وقته نسيج وحده ••• » (2)

ويجدر بنا أن لا ننهى القول فى هذا الجانب المنهجى من كتاب الذخيرة قبل الاشارة الى أن المسائل الأخلاقية عند ابن بسام لا تنحصر — كما قد يظن — فى الغزل الفاحش أو فى الهجاء والقدح ، أو شرب النبيذ ، أو فى السرقة الأدبية التى هى نوع من السرقة بأوسع معانيها ، بل انها تتسع لتشمل كل المظاهر الايجابية أو السلبية التى دعت اليها الأخلاق الاسلامية أو حرمتها وحذرت منها •

ونجد فى الفصل الذى عقده « للوزير الكاتب أبى جعفر أحمد ابن

(1) ذ — 2/1 ص 401 .
(2) ذ — 1/1 — ص 40 .

عباس» نموذجا آخر لاهتمامات ابن بسام وانشغالاته الأخلاقية . قال في ترجمته : « كان أبو جعفر هذا قد بذ أهل زمانه في أربعة أشياء :

ـ المال أولا : لم تجتمع ـ زعموا ـ عند أحد من نظرائه ما اجتمع عنده من عين وورق ، ودفاتر وخرق ، وآنية ومتاع ، وأثاث وكراع .

ـ والعجب : فلم يكن الفضل بن يحيى ، ولا معلمه عمارة بن حمزة ... في ذلك الا بعض قوى سببه ، وحثالة واطىء عقبه .

ـ والبخل : حتى لو أن الجاحظ رآه ، ما ضرب في البخل مثلا ، ولا ذكر في رسالته رجلا ، له في ذلك أخبار تخرق سجف العادة ...

ـ والكتابة : وهي أقل أربعته . وعلى كل حال فله بها يد ، ونفس ممتد ، وفيها يوم وغد ، وعدة وعدد ... » . (1)

وهكذا ، فالبخل أيضا من العيوب التي تغض من قيمة الرجل في عين ابن بسام ، وكذلك العجب ، وهما صفتان مكروهتان قد شدد الاسلام في توبيخ من يتصف بهما . ولقد أثرتا ـ كما رأينا في كلام ابن بسام ـ في القيمة الأدبية للرجل ، ولئن لم يجرده منها بالتمام ، فقد بدا لنا وكأنه في صراع مع نفسه لانصاف أبي جعفر ، والاعتراف له بأن له في الكتابة يدا ونفسا ممتدا ، ويوما وغدا .

من المؤكد أنه اتضح لنا الآن مقدار تعويل المؤلف على الفضائل أو النقائص الأخلاقية في تقويم الرجال . وليس صدور ذلك عن رجل من طراز ابن بسام بمستغرب ، وهو على كل حال منهج دائم يطالعنا في كتاب الذخيرة، وهو الذي يحتكم اليه المؤلف حتى في ما يبدو لنا ظاهريا بعيدا كل البعد عن الميزان الأخلاقي . ولكن صاحب الذخيرة من علماء الدين ، وهو لعله ينتسب الى فئة المصلحين ، الذين يضيقون بانحرافات المجتمع، وشذوذات الأفراد ، لذلك غلب عليه هذا المنهج وبدا واضحا في الفقرات

---

(1) ذ ـ 2/1 ـ ص 151 ـ 153 .

التي ترجم فيها لأدباء كتابه ، كما بدا في جوانب أخرى تحدثنا عنها سابقا ، أو سنتحدث عنها في مكانها من هذه الصفحات .

على أن ما قلناه من غلبة المقاييس الأخلاقية في نظرة ابن بسام الى رجال كتابه، لا يعني مطلقا أنه يستجيد شعر أصحاب الأخلاق الفاضلة، حتى حين يكون قبيحا لا مكان للاحسان فيه ، أو انه يستقبح أدب الذين عرفوا بانحرافهم عن المنهج الأخلاقي القويم ، حتى حين يكون ذلك الأدب من النوع الرفيع . ولو أنه فعل ذلك لكان مجانبا للصواب ، بعيدا عن الانصاف . والحق انه حاول ما استطاع أن يكون عادلا . فالنظرة الأخلاقية كانت بدون أي شك تتحكم في كثير من أحكامه الأدبية كما رأينا ، ولكنها لم تبلغ به أبدا درجة تجريد الأديب من كل فضل حين يكون من المحسنين ، لمجرد انحراف سلوكه الأخلاقي ، كما أن استقامة ذلك السلوك لم تغر أبدا صاحب الذخيرة برفع الأديب المتأخر الى درجة المجيدين والمحسنين .

13 ـ الثناء والذم في تراجم الأدباء :

ان الذي يستعرض كل الفقرات التي افتتح بها ابن بسام فصول المختارات الأدبية في كتابه ، والتي عرف فيها بالأدباء من أصحاب تلك المختارات ، وهي ما سميناه تراجم الأدباء ، يخرج بملاحظة كبيرة تطغى على كل ملاحظة سواها ، وهي أن المؤلف قد سلك في التعريف بالأدباء كل سبيل من المبالغة ، ووزع الثناء الغزير على معظم الأعلام الذين ترجم لهم ، حتى كأن منهجه الوحيد هو الاعجاب الشديد بكل ناظم وناثر .

أجل ، هذه هي الملاحظة التي نخرج بها من استعراضنا لتراجم ابن بسام ، والعبارات الفخمة تطن في آذاننا ، وتسد علينا الآفاق .

فواحد : «فرد من أفراد الشعراء والكتاب ، وبحر من بحور المعارف والآداب ، شق كمام الكلام عن أفانين النور والزهر ، ورفل من

النثر والنظام ، بين الآصال ٠٠٠ » ٠ (1)

وآخر : « أحد حماة سرح الكلام ، وحملة ألوية الأقلام » ٠ (2)

والثالث : « كان فى ذلك العصر شيخ الصناعة ، وامام الجماعة ، سلك الى الشعر مسلكا سهلا ، فقالت له غرائبه مرحبا وأهلا ٠٠٠ » ٠ (3)

والرابع : « كان ٠٠٠ وقته أحد أئمة الكتاب ، وشهب الآداب ، من سخرت له فنون البيان ، تسخير الجن لسليمان ، وتصرف فى محاسن الكلام ، تصرف الرياح بالغمام ٠٠٠ » ٠ (4)

ويطول بنا السرد ، لو أننا حاولنا أن نحصى كل هذه الصيغ الفضفاضة ونورد كل النماذج المتميزة من تعابيره الرنانة ، لبيان منهجه فى المبالغة ، ووصف كرمه الحاتمى فى التبرع على المترجمين بالثناء الجزيل ٠

والحق أن الذى يقف عند هذه الملاحظات وحدها ، لا يأخذ عن ابن بسام الا صورة مشوهة ، تعكس بعض الحقيقة ، ولكنها لا تعكس الحقيقة كلها ٠ ولعل واقع الأمر أقل بساطة من ذلك وأشد تعقيدا ٠

نعم ان ابن بسام ما كان باستطاعته أن يحدث ثورة فى المناهج التى سار عليها الأقدمون ، وتوارثها مؤلفو كتب التراجم جيلا عن جيل ٠ فقد اعتاد أولائك الكتاب أن يعطوا لعبارة « ترجمة الأديب » مفهوما مغايرا لما نفهمه منها نحن اليوم ٠ فليست سيرة مفصلة لأطوار حياته ، وتحليلا دقيقا لتياراتها الكبرى ، والعوامل التى أثرت فيها ، والحوادث الداخلية والخارجية التى وجهتها ، وجعلتها تأخذ هذا المسار دون غيره ٠ لا ، لم يكن يدور بخلد مؤلفى كتب التراجم القدامى شيىء من هذا ، بل كان همهم

(1) المقصود هو ابو محمد بن مالك القرطبى — الذخيرة 2/1 — ص 245 ٠
(2) المقصود هو ابو مروان عبد الملك بن زيادة الله الطبنى — الذخيرة 2/1 — ص 18
(3) المقصود هو ابو بكر بن عبادة بن ماء السماء — ذ — 2/1 ص 19 ٠
(4) المقصود هو ابو جعفر بن اللمائى الذخيرة 1/1 — ص 132 ٠

هو التعريف الموجز بأهم أخبار الأديب ، ذلك التعريف الذى كثيرا ما كان يقتصر على شيوخه ، والأمراء الذين اتصل بهم ، فاذا اتفق له فى بلاط أولائك الأمراء أخبار مستطرفة أو مستظرفة تتصل ببديهته ، أو بذكائه وحضور ذهنه ، رويت عنه وتناقلتها كتب الأدب بعد ذلك على سبيل النكتة أو على سبيل التمثيل ٠٠٠

واحتاج الذين جمعت كتبهم بين المختارات والتراجم ، الى التعريف بالأدباء أيضا تعريفا يختلف من كتاب الى آخر ، بل يختلف داخل الكتاب الواحد ، ولكنه فى جملته من النوع الذى أشرنا اليه بحيث يهتم أكثر ما يهتم بالشيوخ ، ومقدار التأثر بالحوادث التاريخية والسياسية الكبرى من ثورات وحروب وغير ذلك ، كما يهتم بالوفاة حين تكون فى ظروف غير عادية ، أو حين ترتبط بحادث مشهور ٠ أما العناية بأخبار الأدباء فى بلاطات الملوك ، وما يحدث لهم هناك مع الأمراء ورجال الدولة ، فهو يكاد يكون القدر المشترك بين جميع المؤلفات من هذا النوع ٠ ويكون التعبير عن ذلك بمبالغة عجيبة فى الثناء على المترجم ، واطلاق الأوصاف البراقة عليه ، ونعته بأحسن الأسماء والألقاب ٠

أما فى حالة ابن بسام فيبدو لنا أن تفسير غلوه أو مبالغته فى الثناء ترجع الى عدة عوامل لا بد من الوقوف عند كل واحد منها ، وذلك بالاضافة الى ما أسلفناه من أنه كان حبيس منهج متوارث ، وسنة دأب عليها أمثاله من المؤلفين فى المشرق والمغرب :

أ — كان ابن بسام غريب الدار فى اشبيلية — أو حمص كما يحلو له دائما أن يسميها — حين اضطرته الظروف التى استوفينا تفاصيلها فى فصل سابق (1) الى النزوح اليها من بلاده شنترين بأقصى الغرب ٠ ونحسب أن وضعه فى اشبيليا لم يكن حين شرع فى تأليف كتاب الذخيرة — وعلى الرغم من المكانة التى بدأ يتبوأها فى الوسط السياسى والأدبى

(1) الفصل الاول الذى عقدناه لحياة ابن بسام

وارتباطه بصداقة عدد كبير من وزراء الدولة ورجالها النافذين — لم يكن من الثبات والاستقرار بحيث يستطيع الرجل أن يبيح لنفسه التصرف المطلق فى ما هو بصدده من تراجم أدباء المناطق الأندلسية ، فيقول كل رأيه فيهم ، ويعرض نفسه لزوبعة لا تحمد عقباها ، لا سيما أن عددا هائلا من أعلام كتابه هم من وزراء الدولة وقادتها ورجالها المقربين. لقد عودنا ابن بسام فعلا على الشجاعة فى الرأى، والنزاهة فى الحكم، ولكن بين الشجاعة والتهور خطوة لا نعتقد أن ابن بسام كان يستطيع أن يخطوها دون تعريض حياته الى هزة أخرى، وهو لم يشف تماما من آثار الهزة الأولى .

ب — ثم علينا ألا ننسى ابدا ، وكيفما كان الجانب الذى نقومه من كتاب الذخيرة ، أن ابن بسام انما ألفه بالدرجة الأولى ، كما أسلفنا ، لرد الاعتبار الى الأدب الأندلسى وبيان قيمته، ولتوعية الأندلسيين بقيمة كنوزهم الأدبية فيخففوا من تعلقهم بالمشرق وأخباره، ويلتفتوا نحو أندلسهم المهددة بالضياع .

واذا كان ذلك صحيحا ، فانه بامكاننا أن نستعير اصطلاحا عصريا لتطبيقه على كتاب الذخيرة فنقول انه « عمل هادف » أو « ملتزم » من حيث أنه يخدم قضية معينة ذات أبعاد سياسية. ولذلك كان على المؤلف أن يسخر منهج كتابه لخدمة هذا الغرض الأساسى. وبديهى أننا لم نقل انه يستطيع أن يزيف الحقائق، أو يحرف الوقائع لخدمة غرضه. وانما نعتقد أنه لم يكن يتسنى له بحال من الأحوال أن يبلغ شيئا من أهدافه اذا شرع هو ، قبل غيره ، فى اعمال المعول ، وهدم البناء الذى يريد أن يفتخر به، ويلفت انتباه الناس الى آيات الفن والبراعة فيه .

ومن هنا جاز لنا ، فيما نقدر ، أن نعتبر هذه المقدمات الفضفاضة وهذا الثناء الكثير نوعا من الاغراء يريد به المؤلف أن يشوق قراءه الى

قراءة القطع الأدبية المختارة ، ويستدرجهم الى تذوق القصائد والرسائل التى انتخبها لأولئك الأدباء .

جـ — وأخيرا يجب علينا أن نتذكر موقف ابن بسام من الهجاء بصفة عامة. وهذا الموقف له جذور أخلاقية — دينية عميقة. فهو يرفض أن يتناول أعراض الناس بالتجريح ، وهو قد أبى أن يضمن كتابه هذا تلك الأشعار القبيحة التى قالها الشعراء فى الذم والقدح، وهو قد حمل تلك الحملة الشعواء على المؤرخ ابن حيان الذى كان قد صرح مرارا عن احترامه له، وثقته به الى درجة أنه اعتمد فصولا بأكملها من كتابه الكبير فى التاريخ ، وعول عليه كما قال، وولاه «خطة ما سطر وصنف ، اقرارا بالفرق ، واعفاء لنفسى من معارضة من أحرز فى أفقنا قصب السبق، وبرز فى زمانه على جميع الخلق...» (1)

ولكنه حين يتناوله من زاوية ذمه للرجال الذين تحدث عنهم فى كتبه التاريخية، يقسو عليه ويبلغ معه درجة من الشدة نادرا ما نجدها فى كتاب الذخيرة. ومن ذلك قوله فيه: « وان كان فيما قرع من هذا الباب قد مرى سحابه فصاب ، فانه أخطأ التوفيق وما أصاب اذ جاء أكثر كلامه كما قال ابن الرومى:

مهما تقل فسهام منك مرسلة
وفوك قوسك ، والاعراض، أغراض
وما تكلمت الا قلت فاحشة
كأن فكيك للاعراض مقراض

ومن علم أن كلامه من عمله ، أقل الا فيما ينفعه ، ومن اعتقد أنه مسؤول عما يقول ، ويكتب عليه ما يكتب ، لم يستفرغ المجهود فى القول ، فضلا عن ان يثلب، ولله در القائل :

فلا تكتب بكفك غير شىء
يسرك فى القيامة أن تراه » (2)

---

(1) ذ — 1/1 — ص 23 .
(2) ذ — 2/1 — = 84 — 85 .

وهكذا يتضح لنا الموقف الأخلاقي من الهجاء ، بل من القول والكتابة معا، فالقائل أو الكاتب مسؤول عما يقول أو يكتب، وما أحراه اذن أن لا يقول أو يكتب الا شيئا لا يخشى عاقبته يوم القيامه .

وإذا كانت هذه هي المبادىء الأخلاقية ــ الدينية التي يقيم عليها ابن بسام وظيفة الكاتب، فانه يتجلى لنا مقدار نفوره من تناول حياة الأدباء بالذم والتجريح اللهم الا ما كان متصلا منها بالجانب الأخلاقي نفسه ، وقد كنا عالجناه قبل حين .

على أن الذي لا يتسطرق اليه الشك بحال من الأحوال ، وسواء صحت لنا هذه التأويلات التي قدمنا فيها القول عن الأسباب التي نراها في تعليل ظاهرة المبالغة في الثناء التي يمتلىء بها كتاب الذخيرة ، أم لم تصح فان الاعتقاد بأن ابن بسام لم ينظر الى الأدباء الذين ترجم لهم في كتابه الا بعين الرضى الكليلة عن كل عيب ، وأنه لم يلتفت الى مطاعنهم ومآخذهم، اعتقاد بعيد كل البعد عن الحقيقة، وهو أيضا بعيد كل البعد عن نفسية ابن بسام ومنهجه في الحياة بشكل عام .

وقصارى ما في الأمر أن المؤلف حاول أن يميز بين حياة الأديب وبين انتاجه الأدبي من شعر ونثر . فأما حياته فقد تحرج من سرد وقائعها السيئة، ولم يتعرض لها الا بكثير من الحيطة والحذر كما فعل في ترجمة ولادة بنت المستكفي وما شهر عنها من تساهل واباحية . (1)

وأما الانتاج الأدبي فقد مارس نقده بكل حرية، ولخص أثناء ترجمة الأديب، موقفه من ذلك الأدب في عبارات عامة ولكنها واضحة الدلالة ، أمينة في ترجمة ذوق ابن بسام، ورأيه في الشاعر أو الكاتب بكل صراحة.

ونحاول أن نبين فيما يلي، اعتمادا على الأمثلة المختارة من كلام ابن بسام، كيف قدر الثناء والذم، وكيف وزعهما بصفة متفاوتة حسب

(1) ذ – 1/1 – ص 376 .

حالات الرجال الممدوحين أو المذمومين، بحيث يمكن أن نستخرج سلما يتدرج فيه الكلام من الذم الصريح، الى الثناء الغامر مرورا بالثناء المتزن، والقدح المتوارى .

أ ــ الذم الصريح :

قال ابن بسام في ترجمة الأديب أبي عبد الله محمد بن مسعود : « وكان رحمه الله ظريفا في أمره، كثير الهزل في نظمه ونثره.... فضاقت ساحته، وقصرت راحته، واعياه الصريح فمذق، ولم يحسن الصهيل فنهق ... » (1)

فهذا كلام في الذم واضح، وهو منصب على أدب المترجم ولكنه مع ذلك وثيق الصلة بقضية الأخلاق التي أسلفنا فيها القول ، اذ أن الأديب أبا عبد الله بن مسعود « كثير الهزل في نظمه ونثره » والهزل أو المبالغة فيه مما لا تتسع له أخلاق ابن بسام ، ومع ذلك فانه من العسير أن نزعم أن قساوة حكم صاحب الذخيرة على الأديب المذكور لا علاقة لها بالانتاج الأدبي ، بل هي في الصميم منه ، لأنها تعكس ذوق ابن بسام ورأيه في أدب ابن مسعود .

وهذا مثال ثان كنا أشرنا اليه في الصفحات السابقة، وهو في ترجمة الأديب أبي المطرف عبد الرحمن بن فتوح حيث يقول: « وله شعر كثير، الا أن احسانه نزر يسير » (2)

ب ــ الاحتياط في الثناء :

ونسوق على ذلك لابن بسام مثالين اثنين .

فالأول منهما نجده في ترجمة أبي عبد الله بن سراج المالقي حيث

(1) ذ – 2/1 – ص 66 .
(2) ذ – 2/1 – ص 273 .

يقول عنه: « محسن من أهل عصره معدود، وشاعر بنى حمود، وله فيهم غيرما قصيد، ومقطوعات فى النسيب، وجدتها بخط الأديب أبى على ٠٠٠» (1) وهذه الترجمة من النوع الذى كاد يخلو من كل ثناء، فهو أقرب الى الحياد التام منه الى المدح والاطراء، ونحن اذا استثنينا هذه العبارة « محسن من أهل عصره معدود» فاننا لا نعثر فى التعريف على أى شيىء آخر يمكن أن يستوحى منه المدح أو الثناء ٠

ولعل المثال الثانى أوضح فى الدلالة على احتياط ابن بسام فى الثناء، وهو الذى نستخرجه من ترجمة الأديب أبى أحمد عبد العزيز بن خيرة القرطبى، المشتهرة معرفته بالمنفتل، حيث يقول المؤلف: « والمنفتل أيضا ممن نثر الدر المفصل ، وطبق فى بعض ما نظم المفصل ٠» (2)

ولا نظن أن هذا الكلام يحتاج الى تعليق ٠

جـ ـ الثناء الجم ، والاعجاب الشديد :

مع أننا نجد الثناء نفسه ـ فى تراجم ابن بسام ـ درجات متفاوتة، كما نجد الاعجاب باعلام الأدباء متباينا فانه من الصعب ايجاد الصفات التى تميز بها بين هذا النوع من الثناء وذاك، وبين هذا الضرب من الاعجاب وذاك٠ ونورد فيما يلى نموذجا للثناء الجم، ثم نتبعه بنموذج لاعجاب ابن بسام بأحد أدباء بلاده ٠

قال فى ترجمة أبى منصور الثعالبى صاحب كتاب « يتيمة الدهر » :

« كان أبو منصور فى وقته راعى قلعات العلم، وجامع أشتات النظم والنثر، أسوة المؤلفين فى زمانه، وامام المصنفين بحكم قرانه، سار ذكره سير المثل، وضربت اليه آباط الابل، وطلعت دوائبه فى المشارق والمغارب،

(1) ذ ـ 2/1 ص 273 .
(2) ذ ـ 2/1 ـ ص 259 .

طلوع النجم فى الغياهب، وتواليفه أشهر مواضعا، وأبهر مطالعا، وأكثر راويا لها وجامعا، من أن يستوفيها عد أو وصف، أو يوفيها حقوقها نظم أو رصف ٠٠٠» (1)

ونلاحظ أننا فى حاجة الى التنبيه على مدى مبالغة ابن بسام فى المدح والاطراء، وان كنا لا نشك فى أن صاحب الذخيرة صادق كل الصدق فيما أطلقه من الأوصاف على أبى منصور الثعالبى، مما ينبىء بشدة احترامه له واعجابه به ٠

ونأخذ النموذج الثانى من ترجمة أبى عمر أحمد بن دراج القسطلى حيث يقول ابن بسام: « كان أبو عمر القسطلى وقته لسان الجزيرة شاعرا، وأولا حين عد معاصريه من شعرائها المشهورة، وآخر حاملى لوائها، وبهجة أرضها وسمائها، وأسوة كتابها وشعرائها، له عقد فخرها المحمول وسهم، به بدىء ذكرها الجميل وختم ، حل اسمه من الأمانى، محل الأنس، وسار نظمه ونثره فى الأقاصى والأدانى، مسير الشمس ، وأحد من تضاءلت الآفاق عن جلالة قدره، وكانت الشام والعراق أدنى خطى ذكره ٠٠٠» (2)

ويجدر بنا أن نشير الى أن الفرق ضئيل، أو لعله فرق مصطنع ، بين الحالة الأولى التى وصفناها بالثناء الجم، وبين هذه الحالة الثانية التى أطلقنا عليها نعت الاعجاب، ولعل كلا منهما يمكن أن تكون فى الوقت ذاته نموذجا للثناء الجم والاعجاب الشديده ولو أننا أخذنا بهذا المنهج لما ابتعدنا عن الصواب كثيرا لأن ابن بسام هو حقا من المعجبين بأبى منصور الثعالبى، وبابن دراج القسطلى، كما هو معجب بابن زيدون، وبابن حزم، وبابن شهيد، وغيرهم من أدباء الأندلس ورجالها الأفذاذ ٠٠٠

(1) ذ ـ ق 4 ـ ص 167 مخ . الرباط .
(2) ذ ـ 1/1 ـ ص 43 .

وهكذا نكون قد أتينا على جملة العناصر التى أحببنا أن ندرس على ضوئها منهج كتاب الذخيرة، أو منهج ابن بسام فى هذا الكتاب، فى جوانبه المتعلقة بتراجم الأدباء المذكورين فيه. وقد بينا كيف أهمل المؤلف الاشارة الى هذه النقطة المنهجية فى سياق استعراضه لمنهج الكتاب العام، وحاولنا أن نستخرج أو نستنبط ذلك المنهج من دراسة تراجم الأدباء، فوضعنا العناصر التى كان يهتم بها أشد الاهتمام، والعناصر الثانوية التى كان يشير اليها كلما أمكنه ذلك.

ثم توقفنا عند مشكلة كثيرا ما أثارها الدارسون لكتب التراجم العربية وهى قلة غنائها فى التعريف الحقيقى المفيد بالأدباء المترجم لهم. ولقد حاولنا أن نعلل هذه الظاهرة فى كتاب الذخيرة، وأن نلتمس لها بعض الأسباب الذاتية التى لها اتصال ببيئته. وبينا فى الختام أن الثناء فى التراجم التى كتبها ابن بسام ليس دائما فى صيغته المطلقة بل انه فى كثير من الأحيان ينطوى على تقويم منصف لانتاج الأديب ومسلكه وان كان ذلك التقويم يصدر فى الغالب عن نظرة أخلاقية دينية متأصلة فى نفس صاحب الذخيرة.

واذا كانت بعض تراجم ابن بسام هى فعلا من النوع الأجوف الذى لا يقدم أية فائدة، ولا يضيف الى معلوماتنا شيئا ذا بال عن الأديب المترجم، اذ لا تعدو أن تكون صيغة من صيغ المجاملة والتلاطف بين الأدباء، اذا كان ذلك صحيحا، فان الصحيح أيضا أن بعض التراجم هى نموذج جيد للتدقيق، والتحليل، وايراد التفاصيل المثرية لجوانب حياة المترجم، واثبات الوقائع التى كان لها أبلغ الأثر فيما أنتجه ذلك الأديب من شعر ونثر، ونمثل لذلك بترجمة ابن زيدون (1) اذ كانت أمامه مادة مكتوبة ينتخب منها ما يشاء، ويختار منها ما يراه صالحا لكتابه.

(1) الذخيرة 1/1 — ص 289.

أما حين كانت تعوزه المادة، وتصبح حياة الأديب فى علم ابن بسام مجرد خبر عام، أو حديث يتردد فى الأندية الأدبية، فانه لم يكن بامكانه أن يفعل أكثر مما فعل. أما تلك الألقاب الفخمة، وتلك النعوت الضخمة، فهى تقليد أدبى، كالسجع أو كأى نوع من أنواع البديع، موجة العصر، تلام عليها حقبةتاريخية بأكملها، أكثر مما يؤاخذ عليها كاتب بعينه.

خامسا : فى العناية بالبديع

ليس من المستغرب أن يعتنى ابن بسام بالبديع، وهو ينتمى الى فترة من تاريخ الأدب العربى بلغ فيها هذا الفن أوجه، حتى أخذ على كل ناظم وناثر عربى سبيله ونهجه، وهذا أوسع ميدان يتنافس فيه الأدباء، وأهم مقياس للتفاضل بينهم ، وواحد من أهم معايير الجودة والاحسان فى نقد انتاجهم .

أليس ابن بسام من رجال النصف الثانى من المائة الخامسة للهجرة ؟ أليس من أبناء الأندلس المتأنقة المتبرجة، الطافحة بالألوان، الميالة الى الزخارف ؟ والبديع أليس فى حقيقته تجاوبا فكريا مع التأنق الحضارى حين يشيع حتى يضفى ظلاله على شتى الجوانب المادية والمعنوية للحياة ؟ .... بلى، انه مسايرة التعبير لواقع الحياة وقد تعقدت أساليبها، وتداخلت سبلها، وتنوعت مناحيها .

ولقد عرفت حضارات أخرى، سبقت حضارتنا فى الزمان أو تأخرت عنها مثل هذا التداخل والتشابك، فتعقدت أساليب التعبير فيها أيضا ، وانما كان الاختلاف بينها فى الصيغ التى اكتساها ذلك التعقيد، والقوالب التى اختارها الأدباء والمفكرون للتعبير عن الواقع الجديد بما يتماشى مع طبيعة لغة قومهم وعبقريتها الخاصة. وتلك سنة التطور: على قدر بساطة الحياة تكون بساطة التعبير، وعلى قدر تعقيدها يكون تعقيده، ومن هنا كانت اللغة بحق شبيهة بالكائن الحى فى أنها بنت البيئة التى تنمو فيها ، تغنى بغناها، وتفتقر بفقرها، والغنى والفقر درجات وأنواع ..

ولعل الذى كان جديرا باثارة الاستغراب فيها هو أن يشذ ابن بسام عن ذوق عصره، وأن لا يولى « علم البديع » تلك العناية التى كرر التصريح بها عدة مرات فى مقدمة الكتاب أولا ، ثم فى ثناياه بعد ذلك .

لقد أعلن صاحب « الذخيرة » عن منهجه فيما يتعلق بمسألة « البديع » هذه عندما تناول موقفه من الشرح والتفسير فقال: « وهذا الديوان هو لسان منظوم ومنثور ، لا ميدان بيان وتفسير ... لكن ربما ألمت ببعض القول بين ذكر أجريه، ووجه عذراء أريه لا سيما أنواع البديع ذى المحاسن» (1)

ونحن فى الحقيقة أمام مفهوم خاص للبديع اذا صح فهمنا وتأويلنا لكلام ابن بسام. انه لا يرى فى البديع مجرد تحسين للفظ والمعنى ولكنه يرى فيه ، بالاضافة الى ذلك أداة لسبر أغوار المعانى التى يعبر عنها الأدباء فى نثرهم ونظمهم. فبيان وجوه البديع فى واحد من الأبيات الشعرية مثلا هو نوع من التفسير والشرح لألفاظه ومعانيه، وذلك هو وجه العذراء الذى يرمى ابن بسام الى رفع الحجاب عنه حتى يراه القارىء ويشارك المؤلف فى الاعجاب بحسنه وجماله. وبدون هذا التأويل فاننا لا نكاد نفهم معنى تحدث ابن بسام عن البديع فى سياق الاعتذار عن عدم الخوض فى تفسير الألفاظ والمعانى، وشرح معماها. ذلك اننا اذا لخصنا الفقرة السابقة التى أوردناها له وجدنا أن الفكرة هى بالضبط كما يلى : لا أشرح الألفاظ والمعانى لكن ربما بينت ما فيها من جمال بكشف جوانب البديع فيها، وبيان الجمال فى أى شىء لا يخرج عن أن يكون نوعا من أنواع التفسير. والذى لا شك فيه على كل حال أن ابن بسام حين استدرك على نفى التفسير والبيان بامكان التعرض للبديع، قد أقام بينهما علاقة صريحة .

ونسوق فيما يلى مثالين فقط نستشهد بهما على استخدام صاحب الذخيرة للبديع فيما يمكن أن يكون تفسيرا وبيانا. قال ابن بسام. بعد أن أورد بيتا للشاعر الأندلسى المعروف بالرمادى:

---

(1) ذ — 1/1 — ص 6 .

ولم أر أحلى من تبسم أعين
غداة النوى عن لؤلؤ كان كامنا

« وبيت الرمادى من قول ابن عبد ربه :

وكأنما غاص الأسى بجفونها
حتى أتاك بلؤلؤ منثور

« فاحتال الرمادى حتى أتى باللؤلؤ، وعوض من الغائص التبسم، ووقعت له استعارة التبسم للعين موقعا لطيفا ، وانما هو للثغور بسبب توسط اللؤلؤ الذى هو للعيون والثغور ٠٠٠» (1)

وفى مكان آخر من كتاب الذخيرة، وبعد صفحات من المثال الأول، نجد ابن بسام يورد لابن زيدون هذا البيت:

شباب أفق هم أن يشيبا
بادرت سعيا هل رأيت الذيبا ؟

ويعلق عليه بهذه الكمات « قوله هل رأيت الذيبا » أخذه من قول الراجز (جاؤوا بضيح هل رأيت الذئب قط)

وهذا التشبيه عند أهل النقد نوع من أنواع الاشارة لأنه أشار الى تشبيه لونه بالماء الذى غلب على اللبن فصار كلون الذئب » (2)

وبديهى أننا لا نريد أن نحمل هذه الظاهرة عند ابن بسام أكثر مما تحمل فى الحقيقة، فهو لا يستخدم البديع فى كل الأحيان هذا الاستخدام الذى يتيح له أن يتناول المعانى الطريفة أو المتميزة بنوع من الشرح والبيان، وقصارى ما نهدف اليه انما هو لفت الأنظار الى هذا المنهج الذى لاحظناه فى كتاب الذخيرة والذى لا يخلو من بعض الطرافة والتميز ٠

ومهما يكن من أمر ، فان اهتمام ابن بسام بالبديع لم يأت عرضا فى كتاب الذخيرة، وانما جاء نتيجة لمنهج مقصود، وخطة معتمدة، وقد

(1) ذ — 1/1 — ص 276 — 277 .
(2) ذ 1/1 — ص 317 .

ذكره فى سياق استعراضه للمنهج العام فى كتابه كما أشار الى العناصر المنهجية الأخرى ، بل ولقد ألح على ذكره مثلما ألح على ذكر بعض المسائل الأخرى التى اعتبرها ذات أهمية خاصة ٠

وعلى ذلك فاننا نجده فى الفقرة التى سبق لنا ايرادها قبل حين يعطينا رأيه بكل وضوح فى البديع بقوله: « ٠٠٠ لا سيما أنواع البديع ذى المحاسن، الذى هو قيم الأشعار وقوامها، وبه يعرف تفاضلها وتباينها، فلا بد أن نشير اليه وننبه عليه ، ونكل الأمر فى كل ما نثبته ، ونرد الحكم فى كل ما نورده الى نقد النقدة المهرة، وتمييز الكتبة الشعرة الذين هم رؤساء الكلام، وصيارفة النثار والنظام » ٠ (1)

ثم انه لم يكتف بهذا القدر من الايضاح لمنهجه فى مسألة البديع بل يعود اليه فى مقدمة الكتاب، مرة أخرى، ويقول: «وحقائق العلوم أولى» منا من أباطيل المنثور والمنظوم، وعلى ذلك فقد وعدت أن ألمح فى هذا المجموع بلمح من ذكر البديع، وأن أمهد جانبا من أسبابه، وأشرح جملا من أسمائه وألقابه » (2)

واذا كان الآن قد اتضح لنا مقدار حرصه على البديع وعنايته به من خلال هذا الالحاح الذى لاحظناه فى سياق المنهج العام لكتاب الذخيرة، فان الذى يستحق منا الالتفات ، بالاضافة الى ذلك هو تصنيف ابن بسام للبديع فى جملة العلوم ٠ فلقد رأيناه يستهل هذه الفقرة من حديثه بالتهوين من شأن الأدب نثرا وشعرا، واضافتهما الى الأباطيل، « أباطيل المنثور والمنظوم » ويرى أن العناية يجب أن تنصرف قبل كل شىء الى « حقائق العلوم» وذلك ما قد يوحى الى القارىء بأن ابن بسام قد أثار فى وقت مبكر الخصومة الحديثة بين الأدب والعلم وتقييم كل منها على أساس الفائدة الاجتماعية والحضارية المرجوة منهما، الا أن الدارس لهذه

(1) ذ — 1/1 — ص 6 .
(2) ذ 1/1 — ص 7 .

الفكرة لا يلبث أن يجد نفسه أمام مفهوم ضيق « للعلم »، اذ ليس هو ما نسميه اليوم بالعلوم الدقيقة من رياضات وفيزيا ، وما الى ذلك مما لا يتسع للأباطيل، وانما هو شيء لا يختلف فى جوهره عن الأدب، بل انه لا يعدو أن يكون أداة فنية من أدوات « المنظوم والمنثور »، انه « البديع » الذى يضاف أحيانا الى العلم، كما تضاف البلاغة أو النحو اليه، فيقولون علم النحو، وعلم البلاغة الخ...

وتبقى مع ذلك مسألة لابد من توضيحها .

هل قصر ابن بسام العلم الذى يرى أهمية العناية به على «البديع»؟ وهل ينحصر موقف ابن سام من العلم والأدب فى الحدود الضيقة التى تبدو للوهلة الأولى من حصره للعلم فى الأدوات الفنية التى بدأت تستقل أو استقلت فعلا عن الأدب ولكنها ظلت أداة من أدواته، ووسيلة من وسائله ؟

الحق أننا لا نجرؤ على المغامرة بالذهاب الى أن فى موقف ابن بسام بذور الصراع بين الفن والعلم، لأننا لا نجد فى كلامه ما يخول لنا مثل هذه المغامرة، ولكن ضيق ابن بسام بالأدب، وتعبيره الصريح عن هذا الضيق، فى أماكن عدة من كتابه، مما سنتعرض له بالتفصيل فى حينه، يرجع بكل تأكيد فى رأينا الى أن صاحب الذخيرة لا يقصر العلم على البديع وما شاكله من الأدوات الفنية التى تخدم الأدب ، بل أن العناية بالبديع فى حد ذاتها تكشف لنا موقفا مبدئيا لا تناقض فيه وهو ميل ابن بسام الى المسائل التى تخضع للتقنين وتتطلب التفكير واعمال العقل . ولا يمكننا فى هذا السياق الا أن نقر بالفرق من حيث التقنين أو اللجوء الى استعمال العقل والمنطق، بين نظم قصيدة والبحث عن الاستعارات والتشبيهات فى مقطوعة نثرية أو شعرية، ولعل هذا ما يفسر لنا من ناحية أخرى احتفال ابن بسام، ذلك الاحتفال العظيم، برد المعانى الى أصولها، وتتبع القوالب

التى صيغت فيها، لدى الأدباء العرب عبر العصور ، مما سنقف عنده فى حينه ان شاء الله.

فاذا كان هذا موقف ابن بسام، وكان هذا رأيه فى « أباطيل المنثور والمنظوم » ، أليس من التناقض الصارخ أن يتجشم هذا العناء كله لجمع التراث الأدبى الأندلسى فى كتاب الذخيرة، مع أن ما جمعه منه لا يخرج عن أن يكون « أباطيل منثور ومنظوم » ؟ على حد قوله .

هذا سؤال جوهرى لا بد أن نجيب عنه .

ويبدو أننا نحتاج لفهم هذا التناقض الى ادراك الملابسات التى تكتنف الموقفين: موقف جمع الأدب الأندلسى والافتخار به، وموقف الميل الى الصرامة العلمية ، والآراء المنطقية ، والتبرا من أباطيل المنظوم والمنثور .

فأما الموقف الأول فهو صادر عما يمكن تسميته « بضرورات البقاء » (1) اذ أن الحال التى آلت اليها البلاد، والأخطار التى تتراصدها، تفرض على رجال النخبة الواعية من أبناء الأمة أن يبحثوا عن العلاج الناجع، كل فى دائرة قدرته واختصاصه. ومن هنا كان على ابن بسام أن يقوم بشيىء يرد به أنظار مواطنيه عن التعلق بالآداب المشرقية ، ويبعث فى نفوسهم العصبية لتراثهم كوسيلة من الوسائل لربطهم بواقع البلاد، وتلك خطوة تمهيدية لابد منها لتنمية احساسهم بوجوب الدفاع عنها ، والتصدى للأخطار المحدقة بها. ومن الواضح أن الدفاع عن الكيان يسبقه حتما الوعى بذلك الكيان والتمسك به .

وأما الموقف الثانى فهو صادر عن شخصية ابن بسام بالذات ، عن اقتناعه الخاص ، ومذهبه الذى تضافرت عوامل لا تحصى على تكوينه .

(1) أو « غريزة البقاء » بالذات .

فهو بحكم تلك العوامل يميل الى اعمال الرأي ، وتناول المسائل التي تتسع لذلك من فقه وبلاغة وبديع ، ولكنه دخل ميدان الأدب ونهض بجمع عيونه لقضاء حاجة في نفسه ، وأداء رسالة لا سبيل الى التفريط فيها .

وهكذا تتضح لنا طبيعة التناقض الذي يبدو في كلام ابن بسام . وهو واقع بالفعل ، ولكنه تناقض بين مثل الانسان وبين المحيط الـذي ينمو فيه ، وأين الذي يستطيع أن يوفق دائما بين مثله العليـا وواقـع الحياة التي تعج بالمتناقضات من كل نوع ...

ان التناقض الذي اضطر اليه ابن بسام هو الوسيلة التي يتنفس بها في هذا الخضم الأدبي « المفروض » عليه . لذلك وجـد في البديـع فرصة سانحة يخفف بها « كبته » فوعد بأن يتناولـه بالحـديث ، وأن « يمهد جانبا من أسبابه ، ويشرح جملا من أسمائه وألقابه » ، ممـا سنتحدث عنه بالتفصيل في القسم الذي خصصناه للجوانب النقديـة في الكتــاب .

وينبئنا كتاب الذخيرة من ناحية أخرى بأن اعتناء ابن بسام بالبديع لم يقتصر على هذا الجانب وحده من تنبيه القارىء على ما يرد منه في شعر الشعراء ونثر النثار ، بل أنه مارسه بصفة تطبيقية في القصائد التي كان ينظمها هو بالذات .

واذا كان يعوزنا في الوقت الحاضر المقدار الكافي من شعر ابن بسام الذي يتيح لنا أن نتبين من خلاله مقدار حذقه للبديع وتصرفه في أنواعه فان المؤلف قد أورد لنا مقطوعة من الشعر مدحه بها أبو العباس أحمـد بن قاسم المحدث وقد أثنى فيها على براعة ابن بسام في استخدام فـن البديع . ونقتطف من تلك المقطوعة الأبيات التالية :

ويـرى البديـع بـه (1) بغير تكلف
مـا بـين منفـرد وبـين تـوءام
متقسـم متقـابـل متطـارد
متجانـس متطـابـق الاقســام
ان رمـت تشبيهـا أتيـت بكـل مـا
يجد الشجي من لوعـة وغـرام
أو رمـت تشبيهـا قرنـت مشبهـا
بمشبـه في غـايـة الاتمـــام
حذقـا بمـا تأتـي ومعـرفـة بـه
وتصرفـا في أفـق كـل كـلام (2) .

وهكذا كان شأن علي بن بسام مع البديع ، رأى فيه « العلم » ذا الحقائق الذي يتسع للبحث وأعمال الفكر فهرب اليه من حين الى حين لأنه يجد فيه المتنفس من شعر ونثر مليئين « بالأباطيل » ، أكثرهما « خدعة محتال ، وخلعة مختال » ولكن حكمه الصارم عليهما لم يمنعه مـن أن يمارسهما ممارسة تطبيقية حقيقية ، فنثر كتاب الذخيرة كله وحشاه بمما شاء من أنواع البديع ، ونظم شعرا ليس الآن بين أيدينا لنحكم علـى نصيب البديع فيه ، ولكنه كان يشتمل على نصيب وافر منه اذا احتكمنا الى المقطوعة التي مدح بها ، وهي صادقة دون شـك اذا تذكـرنا مدى اعجاب ابن بسام « بالبديع ذي المحاسن ، الذي هو قيم الأشعـار وقوامها ... » (3) .

---

(1) الضمير يعود على شعر ابن سام .
(2) ذ – 2/1 – ص 394 .
(3) ذ – 1/1 – ص 6 .

سادسا : فى تتبع المعانى

من المؤكد أن تتبع المعانى واستقصاء أصولها وتطور مراحلها عبر العصور على يد مختلف الشعراء والأدباء العرب فى المشرق والمغرب من أهم جوانب كتاب الذخيرة وأبرز الأركان التى يستند اليها بناؤه .

ويجب علينا بادىء ذى بدء ، وقبل دراسة هذه الظاهرة التى يكاد يتميز بها كتاب الذخيرة ، من بين الكتب التى هى من نوعه ، أن نشير الى أنها هى أيضا فى صميم المنهج الذى اختطه ابن بسام لتأليفه . ولقد عرض لها فى مقدمة الكتاب ، كما عرض للمسائل المنهجية الأخرى الهامة فقال : « واذا ظفرت بمعنى حسن ، أو وقفت على لفظ مستحسن ، ذكرت من سبق اليه ، وأشرت الى من نقص عنه أو زاد عليه . ولست أقول : أخذ هذا من هذا قولا مطلقا ، فقد تتوارد الخواطر ، ويقع الحافر حيث الحافر ، اذ الشعر ميدان ، والشعراء فرسان » . (1)

بهذه الجمل القليلة رسم لنا مؤلف الذخيرة كل المنهج الذى سار عليه فى المسألة التى نحن بصدد الحديث فيها . ولقد فعل ذلك بدقة متناهية ووضوح يدعو حقا الى التقدير والاعجاب .

ولو أننا أردنا تصنيف عناصر هذا المنهج المحكم لاستخرجنا منه هذا التصميم .

1 — التوقف عند المعانى الحسنة .

2 — التوقف عند الألفاظ الجيدة .

3 — استقصاء هذه المعانى والألفاظ لبيان من سبق اليها من الأدباء .

---

(1) الذخيرة 1/1 — ص 8 .

4 — ذكر الصورة التى وردت فيها تلك المعانى والألفاظ لدى الأدباء الآخرين .

5 — الاشارة الى مدى تصرف الأدباء فى المعانى والألفاظ التى سبقوا اليها وتوضيح مدى توفيقهم أو تقصيرهم فى استعارتها .

6 — عدم اطلاق الأحكام الصارمة بأن هذا الشاعر قد أخذ عن ذاك بعض المعانى أو الألفاظ .

7 — الاعتماد فى النظر الى هذه المسائل على المبدأ المشهور : قد تتوارد الخواطر ... اذ الشعر ميدان ، والشعراء فرسان .

هذا هو المخطط المنهجي الذى سطره ابن بسام لنفسه فى قضية تتبع المعانى والبحث عن أصولها ، وهو المنهج ذاته الذى التزم به فى كل ما كتب عن هذه القضية فى كل أقسام «الذخيرة» .

والذى يبدو لنا بوضوح أن ابن بسام قد استبعد منذ البداية ، وبطريقة منهجية متعمدة ، تناول قضية تشابه المعانى ، أو حتى الألفاظ ، لدى الشعراء من زاوية السرقة . فقد سماها « الأخذ » كما ورد فى الفقرة التى أثبتناها من كلامه ، وكما يردد ذلك كثيرا فى ثنايا الكتاب ، وكأنه بذلك يميز بين الأخذ والسرقة ، فيقيم بينهما حاجزا منيعا ، اذ يعطى مفهوم السرقة مضمونا أخلاقيا قريبا من المضمون الدينى ، بينما يجعل الأخذ نوعا من التأثر بين الأدباء حين يستعير أحدهما من الآخر عددا من المعانى والألفاظ ، ثم يأتى أديب آخر بعده فيأخذها عنه ، أو يستعيرها منه ، وهكذا دواليك .

أما الأخذ الذى يسميه سرقة ، فله شأن آخر ، وموقفه منه يختلف اختلافا بينا عن الحالات التى هى نوع من الاستعارة كما أسلفنا .

ونسوق فيما يلى فقرات من كلام ابن بسام للتمثيل على المواطن التى لا يتحرج فيها من تسمية الأخذ بالسرقة . قال فى الفصل الذى عقده

للحديث عن الشاعر الأندلسي ابن فتوح : « وقد أكثر الناس فى قصر الليل وطوله ، فمنهم من استهدف فيما وصف ، ومنهم من عدل وأنصف ، كقول بشار :

لم يطل ليلى ولكن لم أنم
ونفى عنى الكرى طيف ألم

« وانما أخذه من قول الأعرابي :

ما أقصر الليل على الراقد
وأهون السقم على العائد

« وممن بلغ الغاية فى الانصاف ، لو سلم له من الاستلاب والاختطاف ، قول ابن بسام البغدادي :

لا أظلم الليل ولا ادعى
أن نجوم الليل ليست تغور
ليلى كما شاءت ، فان لم تجد
طال ، وان جادت فليلى قصير

«وهذا بجملته منقول عن قول علي بن الخليل حيث يقول :

لا أظلم الليل ولا ادعى ... أن نجوم الليل ليست تزول
ليلى كما شاءت : قصير اذا ... جادت ، وان ضنت فليلى طويل

« وهذه السرقة كما قال بديع الزمان فى التنبيه على الخوارزمى فى بيت أخذ وزنه ومعناه وبعض لفظه : ان كانت قضية القطع تجب فى الربع ، فما أشد شفقتى على جوارحه أجمع ، ولعمري ما هذه سرقة ، انما هى مكابرة محضة ، وأحسب أن قائله لو سمع هذا لقال : هذه بضاعتنا ردت الينا ، فحسبت أن ربيعة بن مكدم ، وعتيبة بن الحارث

ما كانا يستحلان من النهب ما استحله ، انما كانا يأخذان جله ، وهذا الفاضل قد أخذه كله » . (1)

والى جانب تتبع هذه المعاني والألفاظ فى الشعر ، اعتنى ابن بسام كذلك بتتبعها فى النثر ولكنه لم يكثر منها . ولقد تجلت هذه العناية فى رده للمعاني الواردة فى الشعر الى أقوال ينسبها أحيانا لأصحابها عندما يكونون من المعروفين ويكتفى أحيانا بعبارة : « قال الآخر » أو « قال أعرابي» عندما لا يكون القول منسوبا الى علم معروف .

ولقد رد معاني النثر الى الشعر وهو ما يسميه « المحلول » من قول الشاعر الفلاني ، كما رد معاني الشعر الى النثر عندما تكون منظومة من قول الناثر .

ونحن نمثل لهاتين الحالتين بمثالين اثنين .

فعن المعنى المحلول من الشعر قال ابن بسام فى حديثه عن أبي حفص بن برد الأكبر : «قوله : فحجته نعمنا عنده ، وخصمته عوارفنا لديه ، محلول من قول أبي تمام حيث يقول :

ألبس هجر القول من لو هجوته
اذن لهجانى عنه معروفه عندي » (2)

وبالنسبة الى المعنى المنظوم من النثر ، أثبت المؤلف فى الفصل الذى عقده لأبى بكر عبادة بن ماء السماء مقطوعة له ، آخرها هذا البيت :

وزع الاله بيأسه وعقابه
ما لم يزع بالنص من تنزيله

(1) ذ — 2/1 — ص 275 — 276 .
(2) ذ — 1/1 — ص 101 .

ثم قال : « ومعنى البيت نظمه من قول الحسن بن أبى الحسن البصرى : يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » • (1)

كانت هذه نماذج من التشابه الكبير فى المعانى والألفاظ التى استقبحها ابن بسام وعبر عن استقباحه لها بلفظ صريح وان لم يجرؤ على تسريق الشعراء الا فى أحيان نادرة كما أسلفنا • ولقد لاحظنا كيف جاء هذا الاستقباح متفاوتا فى الحدة •

أما حين يكون التشابه بين ألفاظ الشعراء ومعانيهم غير بارز ، أو غير واضح الى حد الافتضاح ، فان لابن بسام ، فى التنبيه عليه ، ألفاظا وعبارات معينة ، بعضها من الشائع المتداول بين الذين عالجوا هذا الضرب من النقد ، ومن تلك العبارات قوله عن المعنى أو البيت من الشعر، « ذكرت به » أو « يلمح » قول فلان ، أو « ينظر اليه من قريب » الخ مما سنتناوله فى المكان الملائم من هذه الدراسة •

كانت هذه أهم الجوانب المنهجية ، من الناحية النظرية والتطبيقية، فى مسألة « تتبع المعانى » • ولقد بدا لنا من خلالها اعتماد ابن بسام على النظريات الشائعة لدى غيره ممن عالجوا مسألة السرقات فى الأدب، وتميز موقفه باعتدال رصين حين رفض المجازفة بالأحكام القاطعة ، الا فى الحالات التى تجاوزت فيها السرقة الحدود المعقولة ، وأصبحت سطوا مفضوحا ، فنظر اليها حينذاك نظرة الفقيه ، وحكم عليها اعتمادا على المبدأ الأخلاقى الذى سنرى أى شأن له فى أحكام ابن بسام كلها •

ولكن دراسة هذه الظاهرة فى كتاب « الذخيرة » تبقى ناقصة مع ذلك، اذا نحن لم نتناولها من الزوايا الأخرى التى لا ترتبط بمنهج الكتاب فحسب ، وانما ترتبط بذاتية المؤلف وتكوينه الفكرى بصفة عامة •

---

(1) = — 2/1 — ص 9 .

لقد تعرضنا لاحدى هذه الزوايا فى القسم الذى درسنا فيه مسألة « البديع » فى كتاب الذخيرة ، وموقف ابن بسام منه ، وبينا أو حاولنا أن نبين ، كيف كان هذا الفن مهربا ومتنفسا لصاحب الذخيرة يتسع لأرضاء ميله الى « حقائق العلوم » كما قال ، ويستجيب لتكوينه الفقهى المبنى على النظر فى القضايا وتقليبها على جميع وجوهها ، واطالة التأمل فى بعض جوانبها مما هو قريب من الاجتهاد أو هو الاجتهاد نفسه •

وهذا المذهب ، يصح — فى رأينا — تطبيقه على مسألة تتبع المعانى أيضا • أليس التروى فى معانى الشعر والنثر وألفاظهما ، واستحضار ما حفظه المؤلف منهما ، واقامة الصلات بين ما هو قدر مشترك بينهما ، ثم تحديد هذا القدر ووزنه لاطلاق المصطلح الملائم له ، أليس فى هذه العملية المعقدة ما هو بحق أقرب — فى نظر ابن بسام ، وفى مفهومه للأشياء — الى « حقائق العلوم » ، أو ، على الأقل ، لما هو مغاير «لأباطيل المنثور والمنظوم» حتى ولو كان موضوع ومحور هذا « النظر العلمي » هو تلك « الأباطيل » بالذات ؟•

أن هذا التفسير هو الكفيل، فيما نرى، بادراك حقيقة الحوافز التى جعلت ابن بسام يكثر من تتبع المعانى، ويبالغ فى تتبع أصولها، لا يرضى ولا يطمئن حتى يشعر بأنه استوفى زاده ، وأفرغ ما عنده ، ضاربا من أجل ذلك فى كل العصور الأدبية •

على أنه لم يكن دائما يستوفى ذلك الزاد، وانما كان يشعر هو نفسه فى بعض الأحيان بأنه أثقل على قارئه، وحمله ما لا يطيق، فيستسلم للواقع، ويسكت على مضض• وقد أشار الى ذلك بمنتهى الصراحة والذكاء حين قال: « والباب طويل ، والاكثار مملول، وتتبع كل معنى يعترض ،

يخرج بى عن الغرض، فان سكت فترفيها، وان ألمعت بشىء فدلالة على الأدب وتنبيها ..» (1)

ان الرجل شاعر بأن هذه المبالغة المفرطة فى تتبع المعانى تخرج به عن غرض الكتاب، ولكن أيقسو على نفسه فيحرمها من هذه المتعة ، أم يقسو على قارئه فيكلفه السير فى دروب لا يجد فيها كل الناس ما يجد فيها هو من اللذة ؟ ولعله أراد أن يتوسط كعادته فى كثير من الأشياء، وأن يأخذ نفسه بالاعتدال، فكان ينساق مع رغبته طورا، ويتذكر قراءه طورا آخر فيسكت للترفيه عنهم من هذا العناء .

وعلى الرغم من اقتناعنا بهذا التفسير، فاننا لا نراه كافيا وحده لتوضيح ظاهرة الاهتمام الكبير بتتبع المعانى فى كتاب الذخيرة .

ولا بد للاحاطة بهذه المسألة من جميع جوانبها ، من التوقف عند عاملين اثنين لدراسة طبيعتهما، وأخذهما بعين الاعتبار .

فالعامل الأول هو شخصية ابن بسام: ان ما استطعنا اعادة رسمه من صورة حياة ابن بسام الممزقة لا يترك مجالا للشك فى أن شخصية الرجل كانت على جانب كبير من القوة . ولعله كان يكون له شأن آخر لو لم تتوال الحوادث على اقليمه حتى وقعت بلاده فى يد الأسبان وخرج منها على النحو الذى وصفه فى مقدمة كتابه . وهو على الرغم من ذلك لم يذعن للحوادث، بل أعاد بناء حياته، كما نقول اليوم، ووصلت به همته، وهو الغريب المشرد ، الى أن «يتصرف باشبيلية مضطرا ، فى بعض الأعمال السلطانية» .

ثم ان اخراجه لكتاب الذخيرة، وحرصه على جمع ما أهمله الآخرون، بل والدعوة الى العناية بالشخصية الأندلسية فى ميدان الفكر والأدب

(1) ج 1/2 ص 130 .

ليس الا نعكاسا لشخصية ابن بسام القوية ، والا فكيف ينهض للدفاع عن شخصية البلاد كلها من لم يجمع مقومات شخصيته الفردية ؟

والعامل الثانى هو طبيعة كتاب الذخيرة : انه ، اجمالا ، كتاب تراجم ومختارات. ومهما تكن الفرص المتاحة لظهور شخصية المؤلف من خلال ذوقه فى اختيار القطع الأدبية ، وتدبيج تراجم الأدباء ، فان كتب التراجم والمختارات ليست الميدان الملائم لبروز شخصية جامعها ومنسقها مهما أوتى من البراعة .

وهكذا، فان ابن بسام، صاحب الشخصية التى لا نشك فى قوتها وتميزها، وجد نفسه يعالج مادة هى أضيق ما تكون بابراز شخصية من يعالجها فكان لابد له من ايجاد مهرب يتنفس فيه بحرية، ويفك فيه بعض القيود عن شخصية المكبلة .

ومن هنا كان ، فيما نقدر اختراع ابن بسام لهذا الركن الذى بدا فى الأول مجرد مهرب يلجأ اليه فى بعض الأحيان القليلة للترويح عن نفسه، ثم تحول فى كثير من الأحيان الى مسرب يتكرر افلات ابن بسام بواسطته حتى لقد يتوهم القارىء أحيانا أن المؤلف قد تحول عن الموضوع الأصلى للكتاب .

ونحن لم نخترع شيئا عند ذهابنا فى تفسيرنا لتلك الظاهرة هذا المذهب، فقد أشار ابن بسام الى هذا فى آخر الفقرة التى أوردناها له قبل حين، وذلك حيث يقول: « فان سكت فترفيها، وان ألمعت بشىء فدلالة على الأدب وتنبيها » (1)

أجل انه حين يأخذ فى تتبع المعانى، انما يفعل ذلك للدلالة على الأدب ، على أدبه هو ، الذى أملى عليه هذه العبارة المشحونة .

(1) المصدر السابق .

وكيفما كانت الحال فان ابن بسام قد أثقل فى بعض الأحيان على كتابه أولا وعلى قرائه ثانيا بمبالغته فىتتبع المعانى، وتوهم التشابه حيث لا تشابه أبدا، ولكنه مع ذلك قد أثرى كتابه بعنصر رفع عنه فى الغالب رتابة السرد الممل لقصائد الشعراء ورسائل الكتاب، وأبدى فى ذلك براعة منقطعة النظير فى معرفته بالمعانى وادراكه لخصائصها التى تتفاوت بها من أديب الى آخر، ودل على قدرة عجيبة فى الحفظ، واستحضار المحفوظ.

ونعتقد أننا وقد قرأنا كتاب الذخيرة فى الصورة التى ارتضاها له مؤلفه ، سنحرم من عنصر مشوق وهام فى هذا الكتاب الجليل ، لو جربنا تجريده من كل الفقرات التى مارس فيها ابن بسام تلك الرياضة الفكرية الطريفة وهو يتتبع المعانى الأدبية، ويبحث عن أصولها لدى مختلف الأدباء .

وماذا أبقى لأدباء الأندلس ؟

هذا هو السؤال الذى طرحه بالحاح بعض المؤلفين العرب المحدثين عندما تناولوا بالدراسة ظاهرة تتبع المعانى عند ابن بسام . (1)

وهو سؤال فى محله، لأنه مما يلفت الانتباه فعلا أن يدافع ابن بسام عن الأصالة والابداع لدى مواطنيه، بمثل الحرارة التى رأيناها، وأن يؤلف كتاب الذخيرة لاثبات التفوق لأدباء بلاده على أدباء المشرق، ثم يكون أول من يهدم هذا البناء بارجاع أجود المعانى الواردة فى قصائد الشعراء الأندلسيين الى الفحول من شعراء المشرق .

والحق أن التسرع فى اطلاق هذا الحكم، بهذه الصرامة، قد يحرمنا من النظر المتعمق فى هذه المسألة، لأنها ليست على هذا القدر من البساطة فى واقع الحال .

ولنحاول أن ندرسها من قريب .

وأول سؤال نطرحه هو: هل نفى ابن بسام تأثر الأندلسيين بالمشارقة ؟

الجواب القاطع: لا ، لم ينف هذا التأثر، بل أكده أكثر من مرة حين وصف لنا اعجاب الناس — والأدباء جزء منهم — بأدب المشارقة . فكيف لا يتأثر أدباء الأندلس باخوانهم فى المشرق، وأهل بلادهم يعدون النماذج التى وصلت اليهم من المشرق أرقى ما يستطيع انتاجه أديب عربى. وتأثر الأدباء بعضهم ببعض أمر عادى، مألوف. ومن يستطيع أن ينكر أن ابن بسام ما كاد يترك — أيضا — لواحد من فحول المشرق معنى خاصا له: فأبو العلاء متأثر بأبى الطيب، وهذا مستأثر بأبى التمام، وأبو تمام

(1) نذكر منهم الدكتورين رضوان الداية واحسان عباس ، الأول فى كتابه تاريخ النقد الأدبى فى الأندلس والثانى فى كتاب « تاريخ الأدب الأندلسى » .

متأثر بالأخطل، والأخطل متأثر بامرىء القيس وهكذا٠٠ فلماذا نريد أن يستثنى المؤلف الأندلسيين من هذا القانون العام، أليسو عربا ؟ أليس حقهم فى التراث العربى القديم، وفى شعر امرىء القيس والأخطل وغيرهما، هو نفس الحق الذى للمعرى والمتنبى ؟

واذا طرح سؤال آخر له مكانه فى هذا السياق: لماذا لم يؤثر الأندلسيون فى المشارقة، بالقدر الذى تأثروا فيه بهم ، فان الجواب بكل بساطة هو: لأن المشارقة قد « اختاروا » أن لا يهتموا بالأدب الأندلسى، وأن لا يطلعوا عليه، بينما كانت أوضاع الأندلس، وطبيعة ظروفها التاريخية تفرض عليها أن تتطلع الى المشرق، وأن تتابع كل ما يجرى فيه ٠

والذى نراه أقرب الى الصواب، وأكثر حظا من الانصاف والاعتدال هو أن نوازن بين ما أخذه الأندلسيون عن أدباء غيرهم من المشارقة ، وما أخذه هؤلاء من معانى الأدباء العرب الذين تقدموهم فى الزمان ٠ وعلينا أن لا ننسى فى جميع الأحوال المنهج الذى سلكه صاحب الذخيرة فى رد المعانى الى أصولها، فلقد ذكرنا أنه كان ينطلق من الشاعر الأندلسى، فيذكر ما يشبه المعنى الوارد فى شعره لدى معاصريه من شعراء الأندلس، ثم ينتقل الى تتبع أصول ذلك المعنى لدى الفحول من شعراء المشارقة المعاصرين لهم أو القريبين منهم، ولا يترك ذلك المعنى — فى الغالب — حتى يصل به الى بيت لامرىء القيس، أو بيت لزهير بن أبى سلمى ، أو قول لأحد الأعراب ٠

فذلك المعنى هو — فى الحقيقة — معنى عربى تداوله شعراء المشرق والمغرب على السواء، وحظ كل فئة منه، لا يقل عن حظ الفئة الأخرى ٠

ومن هنا فنحن لا نرى أى تناقض بين أن يهب ابن بسام للدفاع عن كيان بلاده، وشخصية أدبائها، وأصالة تراثها، وبين أن يرد أكثر معانى الشعراء فى الأغراض التقليدية على الخصوص (المدح والنسيب) الى

أقدم شعراء العربية ، أولئك الذين ما زالت بعض معانيهم مما يتداوله الشعراء العرب — على وجه من الوجوه — الى يوم الناس هذا ٠

وخلاصة القول، فيما نرى، أن معانى الشعر كانت بمثابة رصيد أدبى مشترك، متاح لأدباء العربية أينما كانوا، وأن تأثر الأدباء الأندلسيين بتلك المعانى لا ينقص شيئا من قيمة ابداعهم ٠ واذا شئنا أن نقوم عناصر الفن الشعرى لدى أدباء المشرق من جهة، والأندلسيين من جهة أخرى، فان ذلك لا يعقل الا فى نطاق بحث استقصائى نجريه حول تصرف كل فريق، فى هذه المعانى المشتركة، لنرى كيف كانت أساليب التعامل معها، ومواطن الجمال فيها ٠

سابعا : فى الاضراب عن تفسير الألفاظ والمعانى

تعرض المؤلف فى افتتاحية كتابه الى نقطـــة منهجية أخرى تتعلق بمسألة الشرح والتفسير لما قد يكون فى المختارات التى يوردها للأدباء من الألفاظ المستغلقة، أو المعانى الغامضة، فحدد موقفه منها بكل دقة حين قال:

« وهذا الديوان انما هو لسان منظوم ومنثـور ، لا ميـدان بيـان وتفسير • أورد لأخبار والأشعار لا افك معماها ، فى شىء من لفظها ولا معناها ••••»• (1)

فهذا الكلام واضح الدلالة على أن ابن بسام كان يريد أن يحافظ على الغرض الأساسى للكتاب وأن يتجنب كل ما من شأنه أن يجره الى الانحراف عنه • فالكتاب على حد قوله انما هو لسان منثور ومنظوم • أى أنه ، بعبارة أخرى ، معرض للأدب الأندلسى نثره وشعره فى فترة محددة، فلا ينبغى له اذن أن يشغل نفسه بشرح الألفاظ والمعانى، وهو مجال واسع لو أنه دخله لما أمن على نفسه تشويه الصورة التى كان يحرص على اعطائها لانتاج الأدباء الأندلسيين ، بالاضافة الى أن ذلك يتطلب منه جهدا أكبر، ويؤدى الى مضاعفة حجم الكتاب •

والذى يبدو لنا أن صاحب الذخيرة قد كان على صواب حين اختار هذا المنهج • وليس معنى ذلك أننا ننكـر استقامة الخطة مع الاعتناء بالشرح والتفسير ، وانما نرى أن المسألة كلها وقف على محور الكتاب والغرض من تأليفه، اذ هناك فرق فى التصور وفرق فى التخطيط بين أن يهدف مؤلف ما الى ايراد مختارات شعرية أو نثرية لغرض معين ، وبين القيام بشرح ديـوان من الشعر أو مجموعة من المقطوعات الشـعرية والنثرية •

(1) ذ — 1/1 — ص 6 •

أما اختيار ابن بسام فلقد كان واضحا منذ البداية : انه يريد أن يبرز نصيب بلاده من الجودة والاحسان فى فنون القول، فهمه قبل كل شيىء هو ايراد أكبر قدر ممكن من النثر والشعـر ، أما شرح معانيهما وألفاظهما فتلك مسألة أخرى •

على أن ابن بسام قد خرج عن هذه القاعدة عدة مرات فتناول بعض الألفاظ والمعانى المبهمة بشيىء من التعليق والتوضيح •

من ذلك ما جاء فى الفصل الذى خصصه « للأديب أبى عمر أحمد بن دراج القسطلى » فقد أورد له قصيدة يقول فى أحد أبياتها:

حتى بـدا الصبـح مشمطـا ذوائبـه
يطـارد الليـل مـــوشيا اكارعـه

فعلق على ذلك بما يلى: « قوله (موشيا أكارعه) جعل ذوائب الصبح مشمطة من ممازحة الليل له ، وجعل أكارع الليل موشية من ممازجةالصبح لها ،••• وأصاب فى الاشارة الى التشبيه، لأنه أومأ الى أن الصبح كالثور الوحشى وهو أبيض، والثـيران الوحشية كلها بيض، وأكارعها موشية خاصة •••» (1)

ومثل ذلك حدث له أيضا فى الفصل الخاص بأبى عبد الله محمد بن أحمد بن الحداد اذ اختار له — فى جملة ما اختار — مقطوعة شعرية فيها هذا البيت:

والقارظان : جميـل صبـرى والكـرى
فمتـى أرجـى منك طيف خيـال ؟

ثم عقب على ذلك شارحا: « والقارظان رجلان ذكرتهما الشعراء قديما، قال أبو ذؤيب:

وحتـى يـؤوب القارظـان كلاهمـا
وينـشر فى الـهلكى كـليب لوائـل

(1) ذ — 1/1 ص 69 •

فاحدهما فقد فى طلب القرظ ، نهشته حية ، واسمه عامر بن رهم بن هميم من النمر بن قاسط ، ولا حديث له ، وأما حديث الآخر فسببه كان خروج قضاعة من مكة ٠٠٠» الخ (1)

الى أمثلة أخرى قليلة من هذا القبيل اضطر فيها ابن بسام الى الخروج عن المنهج الذى رسمه لنفسه ٠ أما فيما عداها ، وهى قطرة من بحر، فقد تقيد أشد التقيد بعدم الخوض فى تفسير الألفاظ وشـرح المعانى ٠

ومن المؤكد أن كتاب الذخيرة من المؤلفات التى تصلح لعموم الناس وليست وقفا على طبقة متخصصة ، ومن المؤكد أيضا أن فيه من الألفاظ المستغلقة ، والمعانى الغامضة ما يصعب هتك حجبه على كثير من القـراء المتبصرين، بله العموم، ومع ذلك فاننا نعتقد أن قصارى ما يمكن أن نلوم عليه المؤلف هو عدم اعتماد سبيل وسط يتيح له التعليق الموجز والشرح المختصر فى بعض الحالات الضرورية، الا أننا فى جميع الأحوال نقدر بالفعل منهجه اذ أنه لو لم يتقيد بما اشترطه على نفسه من عدم الخوض فى المعانى والألفاظ لجنى على كتابه باخراجه عن غرضه ، والانزلاق به الى متاهات التحقيقات اللفظية ، والتأويلات المعنويـة ، والتخريجات النحوية ٠

ونحن نعلم أن ابن بسام لم يكن جاهلا بهذه الجوانب كلها، لذلك ألف كتابا خاصا أفرده لتفسير المسائل التى تستحق الـشرح والبيان وسماه «سر الذخيرة» (2) ٠

(1) — 2/1 ص 223 ٠

(2) انظر ما كتبناه عن مؤلفات ابن بسام فى الفصل الاول من هذه الدراسة ٠

واذا كنا نرى صواب ابن بسام فيما ذهب اليه، فان اضراب لجنة تحقيق الكتاب، التى طبعت أجزاء ثلاثة منه فى القاهرة، عن كل شرح وعن كل تعليق أمر لا نظن أن له من الصواب نصيبا ٠ ولعل تحقيقا جديدا للكتاب يستدرك ما فلت على المحققين الأولين،ويستكمل فائدة القراء منه بتهميشه بالتوضيحات اللفظية والمعنوية الضرورية ، سيتاح لـه يوما أن يرى النور ٠ (1)

أما ابن بسام فلئن اختار راضيا أن لا يفك للألفاظ والمعانى شيئا من معماها، وأن يهمل ما يتعلق بهما من شرح وتفسير اهمالا كليا، فلقد اعتنى بالأخبار والروايات عناية فائقة، وهى فى جوهرها نوع من التفسير له أهمية كبيرة ٠

(1) وذلك ما قام به الدكتور لطفى عبد البديع فى تحقيق المجلد الاول من القسم الثانـى الذى صدر أخيرا فى القاهرة ، (1975) ووقعت الينا نسخة منه منذ عهد قريب ٠

ثامنا : فى العناية بالأخبار والتاريخ

أجل، ان رواية الحادثة التى قيلت فيها القصيدة، ورواية الأخبار المتعلقة بالظرف الذى كتبت فيه الرسالة هى بلا جدال نوع من التفسير، وعنصر أساسى فى فهم الأبعاد الحقيقية ، للأثر الفنى ، من الناحيـة النفسية والجمالية وغيرهما .

ذلك أن اللفظ الغامض نزيل غموضه بالبحث عن دلالاته المختلفة فى المعاجم، والمعنى المبهم أو المستغلق قد نصل الى فك رموزه، وهتك أسراره بأعمال الفكر،واطالة التأمل فى ظاهره وباطنه،أما السياق التاريخى الذى ولد فيه الأثر الفنى، والظرف الذى أملاه، والمناسبة التى جعلت الشاعر ينظم هذه القصيدة، والكاتب يدبج هذه الرسالة، فمعلومات ان لم تسجل فى وقتها فربما ضاعت الى الأبد ، واستحال الوصول اليها . بل ان كثيرا من المعانى نفسها تتضح باتضاح الظرف الذى صيغت فيه .

وقد فطن ابن بسام الى هذه الحقائق كلها، فبرهن بذلك على قدرته الخارقة فى التنظيم، وتنبهه العجيب الى ما كان يغفل عنه كثير من أمثاله الذين تصدوا لمثل ما تصدى له من عمل .

وقد رسم منهجه فيما يخص هذه النقطة انطلاقا من الملاحظات التى اجتمعت لديه اثر مطالعته، أو دراسته، لكتاب أبى منصور الثعالبى « يتيمة الدهر » فهو يقول: « انى رأيت أكثر ما ذكر الثعالبى من ذلك (1) فى يتيمته، محذوفا من أخبار قائليه ، مبتورا من الأسباب التى وصلت به وقيلت فيه ، فأمل قارىء كتابه منحاه ، وأحوجه الى طلب ما أغفله فى سواه » (2) .

(1) يعنى المقطوعات الشعرية والنثرية .
(2) ذ — 1/1 — ص 23 .

ان ما يأخذه ابن بسام على أبى منصور هو فى الحقيقة طراز رفيع من النقد الموضوعى لمنهج الثعالبى، أو لمنحاه كما قال، فكتاب الثعالبى انما هو فى الغالب مختارات شعرية ونثرية، قد رص بعضها الى جانب بعض، دون أى اهتمام بالمعلومات التاريخية المفيدة التى توضح السياق الذى جاءت فيه، فكانت بحق مبتورة عن أسبابها كمـا قـال صاحب « الذخيرة » .

ولا يكتفى ابن بسام بهذه المآخذ، بل يعالج نقطة أخرى تتعلق بالقارىء وهو فى ذلك انما يعطينا انطباعاته الشخصية، وذلك حين يرى أن هذه الطريقة من شأنها أن تدخل الملل الى نفس القارىء، وهى ملاحظة موفقة جدا ، اذ كيف لا يمل القارىء من هذه النصوص المتتابعة .

أما القارىء الذى يبحث عن الفائدة فان كتاب الثعالبى لا يحمله على الملل فقط، بل يجشمه أيضا أصنافا من التعب، اذ كان لابد له من أن يرجع الى مصنفات أخرى يستخرج منها ما أغفله الثعالبى من الأخبار اللازمة للفهم، وما أهمله من التراجم التى لا غنى عنها للاطلاع على حياة الأديب وأحواله .

انه لمن حسن حظ الأدب الأندلسى ، ومن حسن حظ قراء كتـاب « الذخيرة » أن يكون ابن بسام قد انتبه الى كل هذه الحقائق . بقى أن نعرف المنهج الذى اختاره هو لاغناء كتابه بكل هذه المعطيات القيمة .

يعرض المؤلف لهذه النقطة فى مقدمة كتابه مـرة أولى فيقول : « وتخللت ما ضممته من الرسائل والأشعار بما اتصلت به، أو قيلت فيه من الوقائع والأخبار ... » (1) ونلاحظ بادىء ذى بدء هذا الحرص من المؤلف على الدقة فى التفريق بين «ما اتصلت به » و « ما قيلت فيه »

(1) ذ — 1/1 — ص 7 .

ومن المؤكد أن ابن بسام قد أثقل هو أيضا على قارئه ـ من حيث لم يشعر ـ بسرد تلك الفصول الطويلة من التاريخ على ضعف صلتها بالموضوع ، ولكن عذره فى ذلك وشفيعه أن « اللفظ (كان) يتتبع الهم بين الجوانح » ، وأن صدق حزنه على وطنه ، وشدة سخطه على التافهين من رجاله ، وعمق تأثره بكل ذلك هى العوامل التى دفعته الى الخروج ـ أحيانا ـ عن الحد المعقول ... كانت نفسه تمتلىء بذلك الهم فيفيض ويطيل بصفة لاشعورية ، على سبيل التنفيس .

ولقد انتفع من مآخذه على أبى منصور الثعالبى فى كتابه « يتيمة الدهر » فتجنب كثيرا من أخطائه ، ووفق من هذه الناحية كل التوفيق حين استطاع ألا يجعل من كتاب « الذخيرة » مجرد ديوان مختارات شعرية ونثرية ، اذ أثراه بمعطيات تاريخية على جانب كبير من الأهمية ، يزيد من قيمتها أن كتاب ابن حيان الذى ذكر باسم « التاريخ الكبير » لم تصل الينا منه الا نتف قليلة ، ونوعه بمقدار هائل من الأخبار والروايات التى تفيد دارس الأدب من حيث اكتشاف الكثير من الحقائق التى تساهم فى توضيح المختارات الأدبية ، كما تفيد دارس التاريخ ، والاجتماع ، والسياسة ، لفهم مختلف مناحى الحياة الأندلسية .

تاسعا : فى ايراد المختارات الشعرية والنثرية :

ان القصائد والرسائل وسائر المقطوعات الشعرية والنثرية التى ضمنها ابن بسام كتاب الذخيرة هى أهم محتويات الكتاب على الاطلاق، وهى محوره الأساسى والغرض الرئيسى فيه .

ونحسب أن هذا الأمر لا يحتاج الى دليل اذ أن الهدف البارز لتأليف كتاب الذخيرة انما هو كما رأينا اظهار العبقرية الأندلسية فى ميدان الانتاج الأدبى . أما الجوانب الأخرى التى تتوزع محاور الكتاب من أخبار تاريخية ، وتعريف بالأدباء ... فليست الا روافد تغذى النهر الكبير .

ومن الطبيعى أن يهتم ابن بسام بهذا الجانب ، وأن يوليه العناية الكبرى لأنه ، فى النهاية ، بيت القصيد . لذلك ، لم يغفل الحديث عنه فى مقدمة كتابه وهو يستعرض المنهج العام الذى سار عليه فى بناء فصوله وأبوابه . قال مشيرا الى قضية المختارات التى نحن بصددها : « وقد أودعت هذا الديوان الذى سميته بكتاب الذخيرة فى محاسن أهل هذه الجزيرة ، من عجائب علمهم ، وغرائب نثرهم ونظمهم ما هو أحلى من مناجاة الأحبة ، بين التمنع والرقبة ، وأشهى من معاطاة العقار على نغمات المثالث والأزيار » . (1)

والذى يفهم من هذه العبارات ، وهو واضح كل الوضوح ، أن مؤلف « الذخيرة » قد أراد أن يجعل منها معرضا لأعلى النماذج الأدبية الأندلسية ، وديوانا لأجود ما جادت به قرائح الكتاب والشعراء فى بلاد الأندلس خلال المائة الخامسة للهجرة . وليس فى هذا القول أى مجال للاستغراب ، اذ أن هذا هو الهدف بالذات من جمع الكتاب ، والا فما معنى أن يفتخر بأدب نازل ، أو أن يباهى المشارقة بانتاج ساقط .

(1) ق ـ 1/1 ص ـ 3 .

ولقد عاد ابن بسام الى هذه الفكرة نفسها فى مكان آخر من كتاب الذخيرة ، فتناولها بقوله : « تحريت فى الجملة حر النظام ، وتخيرت جيد الكلام ، وجردت جملة الفصول والأقسام» • (1)

ومع ذلك ، فلا بد من الاشارة الى أننا نعثر فى الكتاب على عبارات تختلف اختلافا بينا عما صرح به المؤلف فى الفقرتين السابقتين • ذلك أننا نجده يقول ، فى سياق ترجمة أحد الأدباء ، بعد أن ذكر أنه ليس من المحسنين المتفوقين : « ولما كان هذا المجموع كتاب أدب ، وعقدا لجمع الدر والمخشلب ، رأيت أن لا أخليه من ذكره ، وهذه فصول من نظمه ونثره » • (2)

وهكذا نستطيع أن نستخلص ملاحظة أولى لها قيمتها فى فهم المنهج الذى سار عليه المؤلف فى جمع مادة كتابه ، وهى أنه رمى فعلا الى ايراد أعلى النماذج الأدبية الأندلسية ، وسرد أجود ما للأندلسيين فى الفترة المؤرخة من شعر ونثر ، ولكنه لم يجبر نفسه على التقيد بهذه القاعدة فى كل الأحوال ، بل أورد أحيانا نماذج أدبية ليست من النوع الراقى المتاز ، وفسر ذلك بقوله ان كتاب الذخيرة كالعقد الذى يجب أن يشتمل على « الدر » ، وعلى « المخشلب » والواقع أن الدر ، أو ما يراه ابن بسام درا هو الذى يحتل الجانب الأكبر من الكتاب ، وأن ما سماه « المخشلب » لا يعدو أن يكون قطرة فى بحر •

أما وقد وضحنا موقع منهجه فى ايراد المختارات من المنهج العام لكتاب الذخيرة ، فاننا نريد أن نتناول مرتكزاته المنهجية الخاصة بهذا الجانب واحدا ، واحدا ، لندرسها بالتفصيل فى النقاط التالية :

---

(1) ذ — 1/1 ص — 20 .
(2) ذ — 2/1 ص 66 .

1 — تقديم النثر على الشعر عادة :

لقد سبق لنا أن بينا موقف ابن بسام من الشعر والنثر ، والحكم القاسى الذى أصدره على الشعر حين قال متبرئا منه ، واصفا اياه بأقبح النعوت : « وما لى وله ، وانما أكثره خدعة محتال ، وخلعة مختال ، جده تمويه وتخييل ، وهزله تدليه وتضليل ، وحقائق العلوم ، أولى بنا من أباطيل المنثور والمنظوم •••» (1) • وربطنا ذلك ، بانصرافه الى العلم ، وبينا نوع العلم الذى يقصده ابن بسام بكلامه •

ولقد انعكست هذه النظرة على منهج كتابه بصفة عامة . فوجدناه مثلا يصرح بتقديمه للكتاب «اذ هم صدور فى أهل الآداب » (2) ، وكان طبيعيا أن تمتد هذه النظرة الى المختارات الأدبية نفسها ولذلك حرص على تقديم المقطوعات النثرية على المقطوعات الشعرية للأديب الواحد ، حين يكون ممن له حظ من الفنين •

ومع أن هذا الأسلوب فى ايراد مختارات الأديب ، هو المنهج ، وهو القاعدة العامة التى لم يخرج عنها المؤلف الا فى حالات معدودة ، فانه لا بد من توضيح ذلك ببعض الأمثلة •

من ذلك هذا الفصل : « فى ذكر الوزير الكاتب أبى المغيرة عبد الوهاب ابن حزم واثبات ما تخيرت له من النثر والنظم ، مع ما يتعلق به ، ويذكر بسببه » • (3)

ونلاحظ بادىء ذى بدء أن المؤلف قد قدم النثر على الشعر فى العنوان حين قال : « ما تخيرت له من النثر والنظم » معربا بذلك عن منهجه • وقد يظن أن السجع الذى اقتضاه الكلام السابق هو الذى

---

(1) ذ — 1/1 ص 7 .
(2) ذ — 1/1 — ص 21 .
(3) ذ — 1/1 — ص 110 .

ذلك ان القطعة الأدبية قد لا تكون مما قيل مباشرة فى الحادث وانما لها صلة به .

ثم يعود الى هذه المسألة من منهج كتـابه مرة ثانية فيتناولها من جديد موضحا هذه المرة ما يمكن أن نسميه سياسته الخاصة فى الربط بين المختارات الأدبية والأخبار المتصلة بها، يقـول ابن بسام بـهذا الخصوص: « واذا مر معنى غريب، وتعلق به خبر مشهور، وأمكننى فيه شعر كثير ، مددت أطنابه ، ووصلت أسبابه » . (1)

هذا جانب من خطته يوضح لنا كيف يحرص على الخبر ، بل كيف يتحكم الخبر نفسه فى توجيه قلمه نحو الافاضة والاطناب مما يدل بصراحة على أن المؤلف يسخر — أحيانا — المختارات الأدبية لخدمة أخبار الوقائع ، ورواية الحوادث .

وهناك جانب ثان نكتشفه فى منهج ابن بسام ، بل انه هو الـذى يكشفه لنا بكل صراحة ، وذلك فى قوله بعد الكلام السابـق مباشرة : «وقد أذكر الشاعر الخامل ، وأنشد الشعر النازل لأرب يتعلق به ، أو لخبر أذكره بسببه » . (2)

الى هذا الحد بلغ اعتنـاؤه بالأخبـار . انـه لأمـر عجيـب ! ولعل تفسير هذا الضرب من المغالاة يكمن فى خوفه مـن الاثقـال على القارىء فيصيبه الملل الذى أصاب ابن بسام وهو يطالع كتاب الثعالبى . بيد أن له ، هو ، حيلا أخرى لتلافى هذا الاملال ، منها الاستطراد الذى سنتحدث عنه فى مكان آخر .

على أن انصاف الرجل يقتضينا أن نشير الى أن عنايتـه الفائقـة بالأخبار لا تعنى أنه كان يعتسف الطريق اليها اعتسافا ، وأنـه كـان

(1) ذ — 1/1 ص 20.
(2) ذ — 1/1 ص 20.

يتصيدها فى كل مكان ، ويقحمها حيث لا مجال لاقحامها ، فالواقع أنـه كثيرا ما كان يهملها حين لا تتوفر فيها الشروط المحددة ، حتى انه يشـير مثلا الى خبر معين ثم يتحاشى سرده وينبه القارىء على أنه لم يروه لأنه لم يتعلق به شعر ولا نثر . (1)

فالخبر الذى يهم ابن بسام ، ويحرص على ايراده كل الحرص ، هو ما اتصل به شىء من الشعر والنثر ، يرويه ولو كان بعيد الصلة بمـا هو فيه ، ويذكر أطرافه ، ويترجم للأدباء المذكورين فيه ولو كانوا مـن الخاملين ، أما الخبر الذى لا يتصل به شىء من الأدب فهو يهمله كمـا رأينا ، وهذه سياسة واضحة لم يقصر المؤلف فى الاعلان عنها والتذكـير بها فى كل مناسبة .

ولنلاحظ مدى الحاحه على هذه النقطة ، اذ هو لا يكاد يفرغ مـن تناولها فى مقدمة « الذخيرة » حتى يعود اليها فى الصفحات الأولى مـن القسم الأول المخصص لقرطبة وما يصاقبها ، وكأنه يخشى من القارىء أن يذهب به الظن الى أن هذه الأخبار انما هى استطراد من المؤلف غير مقصود ، بل ربما كان ذلك أسلوبا يستخدمه ابن بسام لتشويق القارىء .

وكيفما كان الأمر ، فانه يعود الى معالجة هذه القضية ، قائلا على سبيل التذكير بالوعد : «وقد وعدت ، فى صدر هذا الكتاب ، بأن أتخلل أشعار الشعراء، ورسائل الكتاب والوزراء، بما عسى أن يتعلق بأذيالها، ويساير أفياء ظلالها ، من أنباء فتن ذلك الزمان البعيد — كان — طلقها ، المفرق لشمل (الأمر) (2) فى هذه الجزيرة نسقها . ونلمع بنبذة مـن مشهور وقائعها ، ونشير بأسماء طوائف توابعها وزوابعها ... ليجمع هذا المجموع بين الماء والزهر ، والزمان بين الأصائل والبكر . (3)

(1) ذ — ق/2 — ص 27 ، مخ ، القاهرة .
(2) هكذا اثبتها المحقق ولعلها : (الامة) فهى انسب لكلمة الشمل .
(3) ذ — 1/1 — ص 23

ويمكن لمن يدقق النظر فى هذه الفقرات المقتطفة من أقوال ابن بسام، والتى تدور حول مسألة الاهتمام بالأخبار، أن يلاحظ بأن المؤلف ربما كان يراعى نوعا من التفريق بينها. فمنها ما هو أقرب الى السياق العادى الذى ولد فيه الأثر الفنى شعرا كان أم نثرا ، فهو من قبيل الأحداث الصغيرة والملح التى كانت تمتلىء بها المجالس وقتئذ ، وقد تكون من قبيل الذكريات ، والحوادث التى لا تخلو منها حياة مخلوق فهى تضىء ترجمة الأديب ، وتكشف القناع عن بعض الجوانب التى تتيح فهما أعمق وأشمل لانتاجه الأدبى . ومنها أخبار هى فى صميم التاريخ السياسى لبلاد الأندلس . فهى تروى الوقائع الكبرى ، وأنباء الفتن والحروب ، وتستعرض تفاصيل الثورات التى كانت تقوم فى مختلف النواحى، وتقف عند أسبابها ونتائجها .

ولعله يحسن بنا فى هذه الدراسة لمنهج كتاب الذخيرة أن نفرق نحن أيضا بين « الأخبار » وبين « التاريخ » وان كان المؤلف كثيرا ما يطلق عليهما معا تسمية واحدة .

ويخيل الينا أن المؤلف أراد أن يوضح للقارىء السياقين اللذين تندرج ضمنهما كل محاور الكتاب :

— سياق أول : هو السياق الشامل الذى نستخرج منه الصورة السياسية للأقاليم الأندلسية ، وبالتالى للأندلس كلها . فالأدب ابن بيئته ، والأدب العربى خاصة وثيق الصلة « بالبيئة السياسية » . لذلك، كان ابن بسام يمهد للحديث عن الأدب والأدباء فى احدى مناطق الأندلس بوصف الأوضاع السياسية السائدة فيها، فتتجمع لدى القارىء معلومات اضافية عن شؤون الملوك والأمراء وعلاقات المسلمين بالاسبان المتربصين بهم ، وأحوال الشعب ، وأنباء المعارك ، الى غير ذلك مما هو الخلفية الحية لكل نشاط فكرى فى كل بقعة من الأرض .

— وسياق ثان : أقرب الى الأديب المترجم نفسه أو الى قطعة محددة من نثره أو شعره ، يبين مناسبتها ، أو الحادث الذى ارتبط بها ، أو موقعها من حياة الأديب فى مرحلة من مراحلها ...

والذى لا شك فيه أنهما سياقان متكاملان ، أحدهما ينير الحياة العمومية والثانى ينير الحياة الخصوصية ، وكلاهما يعطى الأثر الفنى أبعاده التى تجعل منه بالفعل قطعة من الحياة .

والحق أن اهتمام ابن بسام بالجانب التاريخى يفوق كثيرا ما كنا لاحظناه من اهتمام لديه بالأخبار العادية . ذلك أن التاريخ عنده ليس مجرد سرد للوقائع ، ووصف للمعارك ، واستعراض لتقلب الأحوال وحوادث الزمان ، بل هو زفرات تصعد من فؤاده المروع ، ونقمة على العابثين الذين يصرفون وقتهم فى توافه الأمور بينما تتوالى الضربات القاضية على البلاد ، وسخط شديد على الأوضاع المتردية ، والفتن المنتشرة ، والمؤامرات التى يحوكها المسلمون بعضهم لبعض فى الليل وفى النهار ...

قال ابن بسام فى كتاب الذخيرة : « واعتمدت المائة الخامسة للهجرة فشرحت بعض محنها ، وجلوت فتنها ، ولخصت القول بين قبيحها وحسنها » . (1)

وانظر اليه كيف يلمس المواطن التى تحز فى نفسه ، وكيف يصل غضبه على حكام الأندلس الى حد النقمة الجارفة التى لا تبقى ولا تذر : « وأحصيت على استيلاء طوائف الروم على الاقليم ، وألمعت بالأسباب التى دعت ملوكها الى اجتثاث فرعهم وأصلهم» . (2)

(1) ذ — 1/1 — ص 7 .
(2) ذ 1/1 — ص 7 .

ثم يضيف بعد ذلك مذكرا بمدى حزنه على ذلك ، ومقدار تألمه له : «وعبرت عن أكثر ذلك بلفظ يتتبع الهم بين الجوانح ، ويحل العصم سهل الأباطح » ٠ (1)

أجل ما كان يملك صاحب الذخيرة أكثر من التعبير الحار ، والعاطفة الجياشة وهو يصف مهازل قومه ، وخلافاتهم التى لا تنتهى الا بسحق الأجنبى لهم واجتثاث أصلهم وفرعهم ٠

غير أنه لا يغفل أيضا — وهو فى معرض الفخر — عن التغنى بالأمجاد العسكرية لبلاده ، فهو يصف المعارك التى كتب النصر فيها للمسلمين ، ويطنب فى ذكر الوقائع التى تشرف تاريخ العرب فى تلك الأرض الأوربية ٠ وهو يشير الى ذلك ، ويتخذه واحدا من عناصر منهجه فى تأليف كتاب الذخيرة ، يقول بهذا الخصوص : « وسينخرط فى سلك ما أوشح به هذا التصنيف ، من تلخيص التعريف بأخبار ملوك الجزيرة، وسرد قصصهم المأثورة ، ووقائعهم المبيرة المشهورة ، لابن حيان فصول من غرائبه ، وجمل وتفاصيل من عجائبه ٠٠» ٠ (2)

فهو اذن لا يهمل المفاخر والأمجاد ، ولكن الظروف شاءت أن يكون العصر الذى يؤرخ له قليل الحظ منها ، لذلك كنا نجد فى كتاب الذخيرة هذا المقدار الضخم من النصوص التى تصف سوء أحوال الأندلس ، وتفرق كلمة أهلها ٠ وان القارىء لها ليخرج فعلا بصورة قاتمة للمجتمع الأندلسى الموزع بين الفتن والثورات ، وغزوات الروم وما يتبعها من سبى وسلب وتدمير ، وبين مجالس الأنس ، وما يشيع فيها من الانحلال والتفسخ والدعارة ٠

مجتمع لاه بزق وقينة ، وحكام : كل واحد منهم يفكر فى القضاء على الآخر ، والرجال الصالحون الذين يمثلون وعى الأمة ، وضميرها

(1) ذ — 1/1 — ص 7 .
(2) ذ — 1/1 — ص 23 .

الحى ، قلة قليلة ، كل واحد منهم يعمل على انفراد ، فتذهب صيحاتهم جميعا أدراج الرياح ٠

ومن المعلوم أن أبا الحسن بن بسام ليس مؤرخا ، وهو يعترف بذلك بتواضعه المألوف ويصرح بأنه اعتمد على المؤرخ الكبير ابن حيان ، وقد تعرضنا لهذا الجانب بالتفصيل فى الفصل الذى عقدناه لدراسة مصادر كتاب « الذخيرة » ، وانما مرادنا الآن أن ندرس المنهج الذى سار عليه فى اثبات المسائل التاريخية الواردة فى كتابه ٠

ونحن نجده ، هذه المرة أيضا ، يتناول هذه النقطة ويحدد منهجه فيها بكل دقة :

يقول متحدثا عن ابن حيان : « لأنى اذا وجدت من كلامه فصلا قد أحكمه ، أو خبرا قد سرده ونظمه ، عولت على ما وصف ، ووليته خطة ما سطر وصنف ، اقرارا بالفرق ، واعفاء لنفسى من معارضة من أحرز بأفقنا ، فى وقته ، قصب السبق ، وبرز فى زمانه على جميع الخلق » ٠ (1)

هذا الكلام يوضح لنا ناحية هامة من منهجه بصدد المسألة التاريخية ، والمهم فيها أن ابن بسام يعول على ابن حيان ، ولكنه تعويل مشروط ، فهو يعتمد عليه كل الاعتماد ، ويوكل اليه الأمر كله حين يجد فى ما كتب خبرا يقتنع بأنه أجاد نظمه ، وأحكم سرده ٠

فى هذه الحالة يخبرنا ابن بسام بالكتاب الذى أخذ منه ، وبالطريقة التى عامل بها النصوص المستعارة يقول : « وأكثر ما يمر فى هذا الكتاب ، من هذا الباب ، فعلى تاريخه (2) الكبير عولت ، ومن خط يده

(1) ذ — 1/1 — ص 23 .
(2) يعود الضمير على ابن حيان .

أكثر ما نقلت وتحريت جهدى اقتضاب ما طول ، وتخفيف ما ثقل ، واجمال ما شرح وفصل» • (1)

ونحن نجد فى هذا القول اشارات منهجية على جانب كبير من الأهمية • فالمؤلف يحرص كما نرى على تنبيهنا ، حتى لا نقع فى الخطا ، الى أنه قد أخذ حريته — كما نقول اليوم — مع النصوص التى اقتطفها من التاريخ الكبير لابن حيان ، وعلى ذلك فانه لم يكن دائما يثبت فصول ابن حيان بحذافيرها ، ويوردها بدون أدنى تصرف فيها ، بل كثيرا ما كان يتناولها بالتغيير الذى يساير سياق « الذخيرة » ، ويستجيب لما فى نفس مؤلفها • وهكذا كان مثلا يختصر ما يبدو له طويلا فيها ، ويخفف ما يرى أنه ثقيل منها •

ولكن ، هل كان ابن بسام يفوز بما يلبى رغبته كلما طرق باب ابن حيان ، وبعبارة أخرى ، هل النصوص التاريخية الواردة فى كتاب الذخيرة هى كلها لابن حيان فى جوهرها ، وان أدخل عليها صاحب الذخيرة ما شاء من التعديل والتغيير ؟ أم أن منها ما ترجع نسبته الى أصل آخر ؟

ويتولى ابن بسام نفسه الجواب على هذا السؤال اذ يقول : «فاذا أعوزنى كلامه (2) وعزنى سرده ونظامه ، عكفت على طللى البائد ، وضربت فى حديدى البارد ، على حفظ قد تشعب ، وحظ من الدنيا قد ذهب» • (3)

وهكذا يتضح لنا أن صاحب « الذخيرة » قد مارس الكتابة التاريخية وأن منهجه بالنسبة الى المادة التاريخية يتخلص فى المواقف التالية :

— التعويل على ابن حيان ، والنقل من كتابه الكبير فى التاريخ •

(1) ذ — 1/1 — ص 23 و 24 .
(2) الضمير عائد على ابن حيان .
(3) ذ — 1/1 — ص 7 .

— التصرف فى النصوص التى يقتبسها منه بادخال ما يعن له من التغيير عليها •

— التعويل على نفسه ، وممارسة الكتابة فى التاريخ ، حين لا يجد عند ابن حيان ما هو فى حاجة اليه •

ولعله يجدر بنا أن لا نختم الكلام فى هذه النقطة من غير الاشارة الى أن صاحب « الذخيرة » لا يدعى اتقان كتابة التاريخ ، ولا يزعم أنه من فرسان هذا الفن وأعلامه ، بل انا نراه ، على عكس ذلك ، لا يترك فرصة تفوته دون التنبيه — فى تواضع جم — على أنه ليس من المتخصصين فى هذا الفن • وهو كلما أشار الى المواطن التى يعول فيها على نفسه فى كتابه التاريخ ، ذكر ذلك بلفظ بعيد عن كل غرور وتطاول • ففى الفقرة السابقة التى أوردناها من كلامه نجده يقول : « عكفت على طللى البائد، وضربت فى حديدى البارد••• » (1) وهو فى مكان آخر يردد المعنى ذاته فيقول « ونفخت فيما لم أجد من كلامه رمادى ، وأنفقت فى ذلك من تافه زادى ••• » (2)

ولكنه مع ذلك شاعر بقدرته على الكتابة التاريخية ، وقد حدثنا عن الحسد الذى تعرض له حين رأى الناس اجادته للكتابة فى هذا الفن ، وقد تناولنا هذه القضية بالتفصيل فى الفصل الذى عقدناه لحياته •

وهكذا كان ابن بسام مؤلفا صادق الحس وأديبا يقدر ما للسياق من قيمة فى توضيح الأثر الفنى وشرح أبعاده ، فاهتم الاهتمام الأكبر بالأخبار والروايات والتاريخ ، فأعطى للمختارات الأدبية منظورها على مستويين : مستوى قريب خاص ، يتصل بمناسباتها ، وملابساتها وظروفها ذات الصلة الوثيقة بها ، ومستوى عام ، شامل يصف الخلفية «القومية» أو « الوطنية» للآثار الأدبية ، باستعراض أهم وقائع التاريخ وحوادثه، مع الحرص على ابقاء الخيط الدقيق الذى يربط كل ذلك بالموضوع •

(1) ذ — 1/1 ص 7 .
(2) المصدر السابق ص 24 .

جعل النظم يتأخر ليوافق لفظة « حزم » ، ولكن لدينا أمثلة لا تعد ولا تحصى على ما ذهبنا اليه ، دون أن يكون للسجع فى ذلك أى دخل .

بعد ترجمة عبد الوهاب ابن حزم يضع المؤلف هذا العنوان الفرعى «جملة من رسائله فى أوصاف شتى» (1) ويشرع فى ايراد المختارات النثرية التى انتخبها له ، وبعد قرابة الأربعين صفحة ، يضع عنوانا فرعيا آخر هو : «ما أخرجته من شعر أبى المغيرة فى أوصاف شتى» (2) ويأخذ فى سرد عدد من مقطوعاته الشعرية .

ويمكن الاعتراض على ما أثبتناه هنا من أن أبا المغيرة ابن حزم انما اشتهر بالنثر أكثر من اشتهاره بالشعر ، ولذلك كان من الطبيعى أن يبدأ صاحب الذخيرة بايراد المقطوعات النثرية التى انتخبها له ، وهذا اعتراض سديد ، لو لم يكن لدينا عدد كبير من الأمثلة على الأدباء الذين لم يمنع المؤلف اشتهارهم بالشعر من تقديم ما لهم من مقطوعات نثرية . ونختار منهم للتمثيل أبا عمر بن دراج القسطلى . ومن يستطيع يا ترى، أن ينكر أن معظم الناس يعرفونه شاعرا أكثر منه كاتبا ، بل ان شهرته فى بلاد الأندلس فى زمانه لم تقم الا على شعره .

أما صاحب الذخيرة ، فلقد ترجم له (3) ثم أورد له مقطوعات نثرية استغرقت نحو خمس صفحات ، ثم قال : «ونثر أبى عمر رحمه الله دون نظمه الرائق بكثير ، فلذلك ما ألمت منه بالشيىء اليسير ، وعولت على عارض شعره المتين الغزير» . (4)

---

(1) ذ — 1/1 — ص 111 .
(2) ذ — 1/1 — ص 147 .
(3) ذ — 1/1 ص 43 .
(4) ذ — 1/1 — ص 50 .

ثم يضع ابن بسام هذا العنوان « ما أخرجته من قصائده السلطانيات» (1) ويأخذ فى ايراد القصائد والمقطوعات الشعرية التى اختارها له .

وهكذا نلاحظ أن أبا عمر بن دراج القسطلى ليس ممن يصح أن يسلك فى الأدباء الذين أنتجوا فى النثر والشعر ، لأن ما وجد له المؤلف من النثر لا يكاد يذكر ، بالاضافة الى أنه من النوع الساقط وأن تأدب معه ابن بسام فاكتفى بتفضيل شعره على نثره . ولكن الشاهد فى كل هذا أن صاحب الذخيرة أبى الا أن يقدم نثره على شعره ، من حيث الترتيب فى ايراد المختارات .

والحق أن هذا هو المنهج الذى سار عليه ابن بسام فى أغلب الأحيان ، لم يخرج عنه الا فى بعض المرات القليلة التى منها ما نجده فى الفصل الذى عقده لأبى الوليد ابن زيدون اذ رأيناه بعد ترجمته له (2) يأخذ فى ايراد نثره وشعره دفعة واحدة ، وذلك تحت عنوان « جملة من نثره مع ما ينخرط فى سلك ذلك من شعره » (3) ويورد رسالة وجهها ابن زيدون الى ابن جهور تتضمن الكثير من قصائده ومقطوعاته الشعرية .

ولو أننا تعمقنا فى النظر فى هذه المسألة لما وجدنا فيها هى أيضا أى خروج عن المنهج ، وانما هى حالة شاذة اقتضتها طبيعة رسائل ابن زيدون الاستعطافية التى يكثر فيها صاحبها من ايراد العديد من القصائد والمقطوعات الشعرية . ودليل ذلك أننا نجد صاحب « الذخيرة » يثبت له رسائل مطولة تحت عنوان « ما أخرجته من شعر ابن زيدون فى المديح مع ما يتشبث به من سائر الأوصاف » (4) وذلك كما فى قوله : «وكتب الى المظفر سيف الدولة أبى بكر بن الأفطس من رقعة ، وضمنها قصيدة أولها ...» (5) وبعد أن يورد ابن بسام مطلعها ، يأخذ فى سرد رسالة

---

(1) ذ — 1/1 ص 50 .
(2) ذ — 1/1 ص 289 .
(3) ذ — 1/1 ص 292 .
(4) ذ — 1/1 ص 322 .
(5) ذ — 1/1 ص 332 .

طويلة قد استغرقت صفحتين ونصفا من صفحات كتابه ، وبعد ذلك فقط يرجع الى القصيدة ليوردها كاملة ، وهى تقع فى نحو خمسين بيتا ٠

والظاهر أنها طريقة اختارها ابن بسام لمواجهة انتاج ابن زيدون المتميز بتداخل الشعر والنثر ، أكثر مما هى خروج عن المنهج العام الذى يقتضى تقديم النثر على الشعر حيثما كان ٠

2 — الاعتناء بما قيل فى المدح والنسيب والوصف :

ويبدو لنا أن الاعتناء بالمدح هو أيضا امتداد — على صعيد المختارات الأدبية — لمنهج عام كنا درسناه أثناء تناولنا لمسألة التقسيم الاقليمى لبلاد الأندلس ، وتوزيع أقسام كتابه وفقا لذلك بحيث يكون كل قسم منه مختصا باقليم منها ، ثم ينفرد القسم الرابع لمن طرأ عليها من الأدباء ، ولسائر المشاهير منهم فى بقية الأمصار الاسلامية ٠

ونتذكر أننا رأينا حينئذ كيف اعتمد مبدأ تقديم الأمراء ومن اتصل بهم من رجال السياسة على سائر الفئات الأخرى من الأدباء ، وعبر عن ذلك بقوله : « وبدأت بذكر الكتاب ... الا أن يكون من له حظ من الرياسة ، أو يدعو الى تقديمه بعض السياسة ٠ فأول من ذكرت من أهل قرطبة من كان بها من ملوك قريش ... ثم من تعلق بسلطانهم ، أو دخل فى شيىء من شأنهم ... » ٠ (1)

فابن بسام حين يقدم شعر المدح على غيره انما يبقى فى حدود منهجه العام وكأنما يطبق القاعدة التى وضعها حين قال : « أو يدعو الى تقديمه بعض السياسة » والشعر المديحى يقع فى صميم السياسة ٠

ويمكننا أن نمثل لهذه الحالة بما فعله المؤلف مع أشعار ابن زيدون، مع أنه لم يشتهر بالمدح اشتهاره بالغزل ٠ ويمكن أيضا أن نمثل بما نجده

(1) ذ — 1/1 ص 21 ٠

فى الفصل الخاص بذكر « الوزير الكاتب أبى حفص عمر بن الشهيد »(1) فلقد أورد له مؤلف « الذخيرة » مقتطفات من رسائله ومقاماته ثم خلص الى شعره فقال : « ومما وجدت له من المدائح فى المعتصم بن صماح »(2) وشرع فى ايراد تلك الأشعار ٠ فلما انتهى منها ، انتقل الى « شعره فى الأوصاف » (3) ٠

وتصح هذه الملاحظة على كثير من المقتطفات النثرية اذ كثيرا ما يبدأ المؤلف بايراد ما كان موجها منها الى القادة ورجال الدولة ٠

ولكن اهتمامه بشعر المديح كان يبرز أكثر ما يبرز فى الفصول التى خصصها لأدباء اشتهروا بمخالطة الأمراء والتردد على بلاطهم ، أما عنايته الكبرى فلقد انصرفت الى شعر النسيب ، ويليه مباشرة شعر الوصف ، وكثيرا ما يتداخلان بحيث تكون القصيدة موزعة بين الغزل ، ووصف الطبيعة ووصف الخمر وآنيتها ومفعولها فى الشاربين ٠

ويطول بنا المقام لو أننا أخذنا نسرد أمثلة اعتناء المؤلف بهذا الجانب ، أو بهذه الجوانب الثلاثة على الأصح ٠ وحسبنا أن نشير الى ذلك اشارات موجزة ٠

ففى الفصل الخاص بالأسعد بن ابراهيم بن أسعد بن بلنيطة يقول بعد الفراغ من ترجمته : « ما أخرجته من شعره فى النسيب وما يناسبه من الأوصاف » (4) ويأخذ فى سرد القصائد والمقطوعات ٠ والطريف أنه أخر المدح هذه المرة اذ قال بعد أن استفرغ ما عنده من شعر الغزل والوصف « ومن شعر الأسعد فى المديح وما يتصل به » ٠ (5)

(1) ذ — 2/1 — ص 180 ٠
(2) ذ — 2/1 — ص 195 ٠
(3) ذ — 2/1 — ص 199 ٠
(4) ذ — 2/1 ص 291 ٠
(5) ذ — 2/1 — ص 297 ٠

ومن أمثلة ما نحن بصدده أيضا ما نجده فى الفصل الخاص بأبى عبد الله محمد بن أحمد بن الحداد . فلقد افتتح مختاراته الشعرية بقوله : «من ذلك ملحه فى نويرة» (1) وأخذ فى سرد المقطوعات التى قالها فى هذه الجارية النصرانية التى أحبها حبا « ذهب بلبه كل مذهب » كما وصفه ابن بسام .

والأمثلة على ذلك لا تعد ولا تحصى لأنها أكثر وأوسع ما فى الكتاب من أشعار .

والذى يستحق منا وقفة أطول هو موقف ابن بسام من هذا الغزل وهذه الأوصاف ولكننا نفضل أن نسترسل فى دراسة مرتكزاته المنهجية فى ايراد المختارات الشعرية والنثرية حتى نستوفيها كلها ، ثم نتناول ذلك الموقف بشىء من التفصيل فى الفصل الذى نعقده للجوانب النقدية فى كتاب الذخيرة .

3 — الاهتمام بالرسائل أو القصائد التى تتميز بموضوعها :

مما يلفت انتباه القارىء ، بله الدارس ، لكتاب الذخيرة ، ما يلاحظه من اهتمام مؤلفه بكل طريف مستندر سواء كان من قبيل الأخبار أم من قبيل المقطوعات الأدبية الشعرية منها والنثرية .

فهو مثلا عندما عقد فصلا للأديب الأندلسى الشهير ابن شهيد (2) استطرف رسالته المعروفة التى سماها «التوابع والزوابع» ، فلم يعاملها معاملته لسائر القطع النثرية الأخرى التى أثبتها له ، وانما خصها بقسم مستقل من الفصل الذى عقده لصاحبها ، وأورد مقتطفات كثيرة منها تحت عنوان : « فصول من رسالة سماها بالتوابع والزوابع ، وان صدرت عنه مصدر هزل ، فتشتمل على بدائع وروائع » . (3)

(1) ق 2/1 — ص 213 .
(2) ق 1/1 ص 161 .
(3) ق 2/1 ص 210 .

من المؤكد أنه فطن الى شكلها غير المألوف ، وموضوعها الطريف ، وما فيها من محاورة ابن شهيد للجن ، والخوض معهم فى شؤون الحياة الأدبية ، والتذاكر حول أبيات مشهورة للأقدمين ، ولكنه لم يستطع أن يدرك ادراكا واضحا شكلها الجديد ولم يغتنم هذه الفرصة ليقارن — وهو المعجب بأبى العلاء المعرى — بينها وبين رسالة الغفران التى تشترك معها فى أكثر من نقطة ، وقد ثبت الآن أن الأندلسية كانت هى السابقة فى الزمان .

وهناك مثل ثان نضربه لعناية ابن بسام بالمقطوعات الأدبية المتميزة ، وهو ذلك الذى نجده فى الفصل الخاص بالأديب أبى طالب عبد الجبار . فلقد أشار فى ترجمته (1) الى أن « له أرجوزة فى التاريخ أغرب فيها ، وأعرب بها عن لطف محله من الفهم ، ورسوخ قدمه فى مطالعة أنواع العلم ، وقد أثبتها على طولها ، لاشتمال فصولها على علم جليل ، وباع فى الخبر طويل .... » . (2)

وهى قصيدة طويلة جدا تقع فى نحو 450 بيتا من الرجز ، استهلها بالتحميد ، ثم تحدث عن « الاستدلال على الصانع تعالى من الصنعة » ، وبعد أبواب أخرى تحدث عن « بدء الخليقة ، وذرء البرية » وهكذا الى أن جاء الى الحديث عن تاريخ « الخلفاء الأربعة ومن تلاهم من بنى أمية » ثم « الدولة العباسية » وخلص بعد ذلك الى الأندلس فتحدث عن أهم الحوادث التاريخية التى وقعت فيها ، وجعل آخر باب لأرجوزته « دولة المرابطين بالأندلس » .

أما موقف ابن بسام من هذه الأرجوزة ، فهو نفس الموقف الذى وجدناه له مع رسالة ابن شهيد المسماة بالتوابع والزوابع . أعجبته القصيدة ، أو قل استطرف موضوعها ، فأثبتها كاملة ، دون أية محاولة

(1) ق 2/1 ص 401 .
(2) ق 2/1 — ص 402 .

لتناول هذا الفن ، الذى ليس من الألوان الشائعة فى الأدب العربى ، بالدراسة والتحليل ، واعطاء رأيه فى قيمته •

وكيفما كان الأمر ، فان منهج ابن بسام واضح منذ البداية ، فهو لم يقصد أبدا الى التحليل والمقارنة ، وانما رأى فى هذه الأرجوزة وفى تلك الرسالة ما لفت انتباهه ، فأثبتهما على طولهما لاظهار جانب آخر من عبقرية الأدباء الأندلسيين •

4 — بيان موضوع المقطوعة ومناسبتها فى أغلب الأحوال

الحق أن مؤلف « الذخيرة » لم يتبع قاعدة مستقرة فى قضية بيان موضوع المقطوعات الأدبية التى يوردها ، والمناسبة التى قيلت فيها • ففى فصل «أبى عبد الله محمد بن أحمد بن الحداد» (1) نراه يورد له رسالة اقتطف منها عدة « فصول » — كما يسميها — استغرقت نحو ثمانى صفحات من كتابه ، ولكنه اكتفى فى تقديمها بقوله : « فصل من جواب عن كتاب عتاب» (2) بل ونجده بعد ذلك بقليل يورد لنفس الأديب رسالة أخرى تحت هذا العنوان الذى لا يمكن أن يفيد بشيىء « وله من أخرى» • (3)

ومثل هذا الموقف لا يختص بالنثر بل نجده أيضا فى المقطوعات الشعرية ، اذ نراه على سبيل المثال فى الفصل الخاص بالأديب « أبى الحسن على بن حصن الاشبيلى » (4) يفتتح مقتطفاته الشعرية بهذا العنوان « جملة من أشعاره فى صفات مختلفة » (5) ويأخذ فى ايرادها ، دون أية اشارة الى موضوعها ، بقوله : « قال » ، « وقال » ، « وقال »

(1) ذ — 2/1 — ص 201 .
(2) ذ — 2/1 — ص 202 .
(3) ذ — 2/1 — ص 211 .
(4) ذ — 1/2 — ص 133 .
(5) ذ — 1/2 — ص 134 .

ويقطع السرد ليتتبع أصول بعض المعانى الواردة فى شعره ، ثم يستأنف المقتطفات بعبارة « وقال ابن حصن » الخ •••

ولكن هذه الملاحظات لا تصح على كل المقطوعات الأدبية التى اختارها ، ذلك أننا نجده أحيانا يدقق فيها ، ويورد تفاصيل كثيرة عن ملابساتها مع أنها ليست بالغة الأهمية ، وليست حتى من المقطوعات الطوال • ونذكر للتمثيل ما نجده فى الفصل الذى عقده للأديب « أبى مروان عبد الملك بن زيادة الله الطبنى » (5) حيث نرى ابن بسام يأخذ بعد الترجمة له فى سرد جملة من أشعاره • ويورد له أول ما يورد بيتين من الشعر هما :

انى اذا حضرتنى ألف محبرة
تقول أنشدنى طورا واخبرنى
يا حبذا السن الأقلام ناطقة
« هذى المكارم لا قعبان من لبن »

وقبل ايرادهما ، يقدم لهما بهذا الكلام : « أخبرنى الفقيه أبو بكر بن العربى ••• أن أبا مروان الطبنى لما رجع من بلاد المشرق الى قرطبة ، واجتمع اليه فى مجلس الاملاء أنشد (البيتين السابقتين) » •

والموضوع كله يتعلق ببيتين ، وأى بيتين • فلو كانت قصيدة من عيون أدبه لما صعب علينا تأويل هذا الحرص فى التدقيق •••

ولكن ذلك لا يعنى أن ابن بسام لا يدقق حين يكون الأمر متعلقا بالمقطوعات الهامة ، والأمثلة هنا أيضا كثيرة نذكر منها ما قاله المؤلف تقديما لقصيدة أبى عمر بن دراج القسطلى التى مطلعها :

لك الخير قد أوفى بعهدك خيران
وبشراك قد وافاك عز وسلطان

(1) ذ — 2/1 — ص 52 .

فقد مهد لها بهذه العبارات : « وقال أبو عمر فى الخليفة خيران العامرى صاحب المرية وهو متوجه الى سرقسطة سنة سبع وأربعمائة ... » (1) فنحن نرى كيف استوفى التعريف من جميع جوانبه، فأخبر عن موضوعها ، وأخبر عن الظرف الذى قيلت فيه « وهو متوجه الى سرقسطة » بل وأضاف الى كل ذلك بيان التاريخ الذى تمت فيه الرحلة التى نظمت أثناءها .

وخلاصة الرأى عندنا ، أن صاحب الذخيرة لا يصدر فى اثباته لموضوع المقطوعة الأدبية ومناسبتها عن هوى يزين له تارة أن يفصل ذلك ، وتارة أن يغفل الاشارة اليهما ، وانما هو مقيد بمقدار ما تحت يده من المعلومات الخاصة بالأديب الذى يترجم له ويورد مقطوعاته . فهو حين تتوفر لديه أخباره وأخبار انتاجه الأدبى يفيدنا بالتفاصيل ، ويزودنا بمعلومات على جانب كبير من الأهمية لفهم المقطوعات الأدبية . ولكنه حين تعوزه المادة يكتفى بالسرد فاذا بالمقطوعات كلها تتتابع لا يفصل بينها الا « وقال » أو « له أيضا » أو « ومنها » الى غير ذلك من العبارات التى يستخدمها للانتقال من مقطوعة الى أخرى .

5 — جمع قصائد لشعراء مختلفين قيلت فى مناسبة واحدة :

مما يلفت انتباه الدارس لكتاب الذخيرة ذلك الفصل الذى عقده ابن بسام لجمع القصائد التى قيلت فى رثاء أحد الأعلام الأندلسيين تحت هذا العنوان «فصل فى ايراد أشعار رثى بها الوزير الفقيه أبومروان ابن سراج رحمه الله » (2) وهو فصل طويل الى حد ما ، يقع فى ما هو قريب من العشرين صفحة ، أورد فيه مقتطفات من المراثى التى قيلت فى ابن سراج ، وعرف تعريفا موجزا بأصحابها وهم على الترتيب الذى

(1) ذ — 2/1 — ص 52 .
(2) ذ — 2/1 — ص 307 .

ذكرهم فيه : أبو بكر بن خازم ، وابن شانجه ، وأبو عبد الله بن مكى ، وعبد الجليل بن وهبون ، وأبو الوليد بن طريف ، وأبو بكر بن عبد العزيز ، وأبو عبد الله القرشى المروانى الناصرى، وأبو العباس أحمد بن محمد الكتانى .

واقحام هذا الفصل فى الكتاب مما يدعو الى الحيرة حقا . ففى الفهرست الذى ضمنه مقدمة كتابه نجده يذكر فى أدباء القسم الأول : «الأديب ابن مالك الطغنرى من أهل قرطبة» (1) ولو اكتفى المؤلف بذكره كما ذكر باقى الأدباء لما وجدنا فى ذلك أى شىء يدعو الى الاستغراب . ولكنه أضاف بعد ذلك قوله : « وجملة قصائد لغير واحد فى تأبين ابن سراج » .

وقد يظن أن لابن مالك الطغنرى هذا علاقة بابن سراج ، ولكن المؤلف لا يربط بينهما أية علاقة من أى نوع كان . فنحن نجده فى الفصل الذى عقده له يفتتح الكلام عنه بقوله : «لم أقف من ذكر هذا الرجل الا على أبيات من شعره ، وفصلين من نثره ، ويستدل على الشجر ، بالواحدة من الثمر» (2) ويسرد له الفصلين والأبيات وهى كلها لا تستغرق أكثر من ثلاث صفحات . ثم نجد هذا العنوان : « فصل فى ايراد أشعار رثى بها الوزير الفقيه أبو مروان بن سراج رحمه الله » .

فما الذى جعل ابن بسام يقحم هذا الفصل اقحاما بين فصول كتابه المتناسقة على منهاجه . أهى مكانة المؤبن ؟ هو وزير وفقيه ، وهو رجل فاضل فيه جل الصفات التى يحبها ابن بسام ، ولكن هذا التفسير يقتضى أن يعامل ابن بسام كل عظماء الأندلس التى تتوفر فيهم مثل تلك الصفات هذه المعاملة . ونحن لا نجده يفعل ذلك .

(1) ذ — 1/1 — ص 13 رقم 27 .
(2) ذ — 2/1 — ص 303 .

ولقد رجحنا فى فترة من فترات دراستنا لهذه المشكلة أن يكون ابن سراج هذا هو الذى أهدى اليه ابن بسام كتاب الذخيرة ، وهو الذى أشار اليه فى مقدمة الكتاب بقوله : « طالعت حضرته المقدسة بهذا الكتاب على حكمه ، مطرزا بسمته واسمه ، مستدلا عليه بمجده ... الخ » (1) فيكون اعتناء ابن بسام به سهل التفسير ، يسير الفهم . ولكن كيف يكون ابن سراج هو المقصود بكلام ابن بسام ، وكيف يعقل أن يكون هو الذى أهدى اليه كتابه ، ونحن نعلم أن ابن بسام كان عاكفا على تدوين الذخيرة سنة 500 هـ . أما الوزير الفقيه أبو مروان بن سراج فقد « كانت وفاته ليلة الجمعة لثلاث خلت لذى الحجة سنة تسع وثمانين وأربعمائة » . فابن سراج قد توفى اذن قبل أن يبدأ ابن بسام فى تبييض كتاب الذخيرة. وعلى ذلك فلا يمكن أن يكون ابن سراج هو الذى أهدى اليه المؤلف كتابه .

بل اننا نستطيع أن نؤكد أن ابن بسام لم يتصل اطلاقا بابن سراج لأنه حل بقرطبة سنة 494 بينما توفى فيها ابن سراج قبل ذلك بنحو خمس سنوات (عام 489) .

وهكذا لم يبق لنا اذن الا أن نستنطق ما كتبه ابن بسام فى مقدمة هذا الفصل المحير لعلنا نصل بذلك الى بعض الحقيقة . قال ابن بسام فى بداية الفصل المذكور : « وهى جملة قصائد لغير واحد من أهل العصر ، منهم من يأتى ذكره فيما بعد ، ومنهم من لم يسمح باثبات شعره النقد . وقد وجدت الكاتب أبا الوليد بن طريف قد أثبت فى جزء لطيف جملة هذه القصائد ، ولم يسلك فيها أسلوب ناقد ، ضنانة منه بحظها من التسامى بالمؤبن بها ، وتثبيتا لذكر اسمه المطرزة به حواشيها ، فنشر طى كل نسيجة عن منوالها وأثبتها بحالها . وقد أثبت أنا منها ما يليق بالكتاب ،

(1) ذ — 1/1 — ص 10 .

فرارا من الاطناب ، وسردت الفصل الذى أدار عليه أبو الوليد رحاه ، وقدمه صدقة بين يدى نجواه» . (1)

ولعل التخريج المعقول لهذه المسألة الشاذة فى منهج ابن بسام هو ما نستنتجه من العبارات السابقة التى لاحظنا كيف ينحى فيها المؤلف باللائمة على أبى الوليد بن طريف لاثباته جملة القصائد غثها وسمينها دون نقد لها وتمييز بين ما يصلح منها وما لا يصلح ، وكيف يشير الى أنه مارس شيئا من ذلك النقد والتمييز فانتخب منها ما يصلح لكتابه .

ولو أن الفصل كله جاء تحت عنوان التعريف بابن سراج وبادبه لكان الاستطراد الى القصائد التى قيلت فى رثائه أمرا معقولا للغاية ، ولو جاءت هذه القصائد فى سياق التعريف بهذا الاديب الذى جمع القصائد فى (جزء لطيف) والذى هو (أبو الوليد بن طريف) لما كان فى ذلك ما يدعو الى الحيرة . ولو أن ابن بسام ترجم لابن المؤبن المدعو أبا الحسين والذى هو أيضا (الوزير الفقيه) ثم استطرد الى ذكر ابيه وأشار الى القصائد التى قيلت فى رثائه ، والى الجزء الذى جمعه ابن طريف ، لما كان فى ذلك ما يستغرب كذلك . ولكن خروج ابن بسام عن هذه الاساليب كلها ، واقحام هذا الفصل ، على ماله من قيمة يبقى أمرا محيرا للغاية ، وذلك على الرغم من التعليل الذى اقترحناه .

(1) ذ — 2/1 — ص 307 .

6 — الحرص على ايراد النصوص التي يكمل بعضها بعضا :

من الاشياء الثابتة في منهج ابن بسام ، والتي يحافظ عليها محافظة شديدة ، حرصه على ايراد النصوص التي لها علاقة وثيقة بالنص الذي يريد اثباته لهذا الكاتب أو ذاك الشاعر . فاذا كان السياق يقتضي اثبات قطعة ادبية ما لأحد الادباء ، وكانت هذه القطعة — مثلا — ردا على رسالة أخرى وردت اليه من اديب آخر ، فان ابن بسام يثبت الرسالتين (جمعا للشمل ومقابلة للشكل) على حد قوله (1) . وهكذا ففي الفصل المعقود لابي المغيرة عبد الوهاب بن حزم (2) اراد ابن بسام ان يثبت رسالة ضمنها الجواب عن رقعة كتبها اليه ابو على بن الربيب القروي ، فبدأ برسالة القروي واثبتها كلها فيما يبدو ، لأنه لم يشر الى أنه اقتطف منها فقرات معينة ، وهي على مذهب ابن بسام في الانتصار للتراث الاندلسي ، ومعاتبة الاندلسيين على اهمال تدوين مالرجال بلادهم من العلم والفضائل ويبدؤها صاحب الذخيرة هكذا : «اني فكرت في بلدكم أهل الاندلس ، اذ كان قرارة كل فضل ، ومقصد كل طرفة ، ومورد كل تحفة ، ان بارت تجارة أو صناعة فاليكم تجلب ، وان كسدت بضاعة فعندكم تنفق ، مع كثرة علمائه ، ووفور أدبائه ، وجلالة ملوكه ، ومحبتهم للعلم وأهله ، ورفعهم من رفعه أدبه ... (ف) نطق العيي ، وشعر البكي .. وتنافس الناس في العلوم . ثم هم مع ذلك في غاية التقصير ونهاية التفريط ، من أجل أن علماء الأمصار دونوا فضائل أعيانهم ، وقلدوا الكتب مآثر أقطارهم ، وأخبار الملوك والأمراء ، والكتاب والوزراء ، وعلماؤكم مع استظهارهم على العلوم ... لم يتعب نفسا أحدمنهم في مفاخر بلده ... ولابل قلما بمناقب كتابه ووزرائه ... » (3)

---

(1) ذ — 1/2 — ص 107 .
(2) ذ — 1/1 — ص 110 .
(3) ذ — 1/1 — ص 112/111 .

وهي رسالة طريفة حقا ، طرافتها في أن الذي اشفق على تراث الأندلس قد ارتفع صوته من بلاد المغرب العربي . ومن المؤكد أن هذه الرسالة قد نزلت على قلب مؤلف الذخيرة بردا وسلاما .

وبعد ذلك يرجع ابن بسام الى رسالة ابي المغيرة بن حزم التي وقع هذا الاستطراد من أجلها ، فيقول : «فراجعه ابو المغيرة برقعة حذفت أكثر فصولها لطولها ، منها : ...» ويبدو أن هذا الرد لم يعجب ابن بسام ، وآية ذلك أنه حذف كثيرا من الفقرات الواردة فيه . ولعله لم يستسغ دفاعه عن الاندلس وسرده لمؤلفات رجالها فأعطى القضية صبغة التنافس بين اقليمين اسلاميين ، بينما كانت رسالة ابن الربيب تحلل الاوضاع الفكرية في الاندلس تحليلا موضوعيا ، بل انها رسالة مدح للأندلس والأندلسيين ، فكم كان حريا بابن حزم أن يعمق التحليل .

وعلى كل حال فابن بسام قد علق على رد أبي المغيرة بن حزم بقوله : «وخرج ابو المغيرة في رسالته هذه الى التطويل ، وبالغ في الاحتجاج بفصول ، هي عادلة عن هذه السبيل ، وختمها بذكر جملة من تواليف أهل الاندلس ، أضربت عن تسميتها لشهرتها » . (1)

ولعل عبارته : «وبالغ في الاحتجاج بفصول هي عادلة عن هذه السبيل» تنم عن جانب من المرارة التي شعربها المؤلف ، وربما كان يتوقع أن يجد فيها شيئا آخر غير الاحتجاج الذي مصدره الحمية والعصبية الجوفاء ...

هذا جانب من منهج صاحب الذخيرة في « جمع الشمل ، ومقابلة الشكل» . وهو هنا يدور حول رسالتين تبادلهما أديبان معروفان . ولكن ابن بسام يستخدم هذا الأسلوب أيضا في غير هذا الوجه . من ذلك

---

(1) ذ — 1/1 — ص 116 .

أنه عندما أراد أن يثبت «لابى الوليد اسماعيـل الملقب بحبيـب » (1) رسالة عارض بها اباحفص بن برد فى تفضيل الورد على سائر الازهار ، حـرص على أن يثبت الرسالتين كلتيهما • فأثبت أولا رسـالة ابن برد «على حكم الاحسان ومقتـضى النقد» (2) ثم اثبت رسالة ابى الوليد اسماعيل بن محمد الملقب بحبيب •

والعجيب أنه اقتطف من رسالة ابن برد فقرات طويلة استغرقت ما يقرب من ثلاث صفحات من كتابه • أما الرسالة التى هى فى مكانهـا من الفصل فلم يختر منها الا فقرات قليلة لا يبلغ مجموعها صفحة واحدة•

ويمكننا أيضا أن نسرد مثالا آخر نجده فى الفصل الخاص بالمؤرخ أبى مروان بن حيان (3) فلقد أورد الرقعة التى كتبها اليه الشاعر ابن زيدون ورد ابن حيان عليها (4) •

والامثلة كثيرة جدا ويكفى ما اثبتناه منها لمعرفة مقدار حرص ابن بسام على هذا الجانب من منهجه • والحق أنه منهج قويم حين يسلم من المبالغة ، اذ من المفيد أن يلم الدارس أو القارىء بالنصوص المتكاملة ، التى يكمل بعضها بعضا ، فاذا بالرسالة أو القصيدة تامـة الابعـاد ، واضحة الجوانب • ولو لم يورد ابن بسام رسالة ابن الربيب القروى لما استطعنا أن نحكم على رسالة أبى المغيرة بن حزم ، أو نوافق على حكم ابن بسام على صاحبها بأنه عدل عن السبيل •••

---

(1) ذ — 1/2 — ص 105 .
(2) ذ — 1/2 — ص 107 .
(3) ذ — 2/1 — ص 84 .
(4) ذ — 2/1 — ص 93 و 94 .

7 — بين التطويـل والاختصـار :

لقد اتيح لنا ونحن نستعرض المسائل المنهجية المتقدمة أن نلاحظ عند الاستشهاد بالمقطوعات الادبية كيف يتعامل ابن بسام معها فى أغلب الاحيان بالحذف تارة ، وبالتلخيص تارة أخرى •

ويلاحظ الدارس للمختارات الادبية التى تضمنها كتاب الذخيـرة انها تتفاوت من حيث الطول والقصر تفاوتا شديدا بحيث أن بعضهـا يستغرق صفحات كثيرة كما هو شأن رسالة التوابـع والزوابـع (1) والأرجوزة التاريخية لأبى طالب عبد الجبار (2) بينما لا تتعـدى بعض المقطوعات الاخرى اسطرا قليلة كما نجد ذلك فى الفصل لخاص بالمؤرخ أبى مروان ابن حيان (3)حيث نراه مثلا يختار له هذين السطرين تحت عنوان «فصل» وهما : «وتوفى فلان وما علم بموته لخموله ، وأخنى الدهر على أهل بيته ، على أنه كان خالفة منهم تطبعا ، عاطلا من كل خلة تدل على فضيلة ، وله أولاد سخف تاسموه الجهل شق الأبلمة » •(4) وهو يورد له فصولا كثيرة من هذا النوع ، ومن هذا الحجم ، تبلغ العشرين عدا أو تتجاوزها • وليس هذا وقفا على ابن حيان بل نجـده كثيرا لدى سائر الادباء الآخرين فى الشعر والنثر •

والمؤلف لا يشير هنا الى أنه اختصر أو لخص على عادته عندما يفعل ذلك مما يدل على أن هذه الفصول كما يسميها ربما جـاءت على هذا الشكل فى مؤلفات اصحابها •

اما عندما يتدخل هو لتشذيب المقطوعات الادبية ، واعمال المقص فيها ، فانه يصدر أكثر ما يصدر عما يسميه النقد ، وما نسميه نحو ذوق

---

(1) ذ — 1/1 — ص 210 .
(2) ذ — 2/1 — ص 402 .
(3) ذ — 2/1 — ص 84 .
(4) ذ — 2/1 — ص 108 .

ابن بسام، فحين تكون المقطوعة مما تستجيب له نفسه، ويتقبله هواه، ويرى أنها من النظم الرائق، والنثر الفائق، فانه يتغاضى عن الطول فى أكثر الأحيان، فاذا اضطر الى الحذف لافراط القصيدة أو الرسالة فى الطول، حذف منها ما لا يضر بها، أما حين يكون أمام أدب لا يعجبه فان مقصه يصبح بلا شفقة ولا رحمة، حتى ان المقطوعة لتمسخ مسخا منكرا من جراء ذلك، ويكفى أن نمثل بالرسالتين اللتين أسلفنا القول فيهما، رسالة ابن برد فى تفضيل الورد، ورسالة أبى الوليد اسماعيل الملقب بحبيب فى معارضتها. ولقد أشرنا وقتئذ الى محاباة ابن بسام لابن برد، واتيانه بأهم فقرات رسالته، بينما لم يأت من رسالة حبيب الا ببعض الفقرات مع أنها هى الواقعة فى الصميم باعتبار ان الفصل الذى جاءت فيه خاص بصاحبها. أما ابن برد فله فصل آخر خاص به كذلك.

على أنه من الانصاف أن لا نتهم مؤلف الذخيرة بالتحيز فى جميع الاحوال، فهو رجل يختار على ذوقه، وهذا حق من حقوقه لا ينازعه فيه أحد. ثم انه من الانصاف ايضا أن لا ننسب قصر المقطوعات كلها الى ماالحقها من حذف ابن بسام لها. فلقد رأينا مثلا أن فصول ابن حيان المفرطة فى الايجاز لم تكن نتيجة للحذف ولا للاختصار، وانما هى كذلك فى أصلها، أو ذلك ما رجحناه.

انه لمن الثابت لدينا أن المؤلف يكره التطويل كرها شديدا. ومن المؤكد أن هذا الكره موقف منهجى قار، مرده الى طبيعة ابن بسام، وثقافته وسلوكه وأخلاقه، وليس أسلوبا يستخدمه للتمييز بين هذا وذاك، أو حيلة لاهمال هذا الاديب، والاهتمام بذلك، فيمد حبل الاختيار حين يرضى عن الاديب ويستسيغ أدبه، ويثنيه للتخلص منه ومن أدبه حين لا يجد فيه ما يعجبه ويروقه. وذلك على الرغم من تمسكنا بالفكرة التى اسلفناها والتى تذهب الى أن ابن بسام كان يعول

على ذوقه، ومتى استطاع أن يتخلص من ذوقه أديب ينتخب المقطوعات الأدبية؟ أليس فى لفظة الانتخاب نفسها، أو الاختيار، أهم عناصر التذوق؟.

ثم يجب أن لا ننسى أبدا الهدف المنشود من تأليف الكتاب، انه جمع عيون الانتاج الأدبى الأندلسى، ومباهاة المشارقة بروائعه، فهل يقبل أو يعقل أن يتعمد ابن بسام هضم حق الادباء الذين يفتخر بهم، وهو فى هذا الموقع من المنافسة والصراع ان صح التعبير؟.

ومهما يكن من أمر فليس الحذف وحده هو المسؤول عن اختلال التوازن بين المقطوعات الادبية من حيث الطول والقصر، بل ان هناك عنصرا آخر لعله يتحمل المسؤولية الاولى فى هذا الاختلال الملاحظ، وهو قلة المادة التى ينتخب منها ابن بسام، حتى انه احيانا يعقد الفصل للأديب ثم لا يكاد يجد له شيئا من الانتاج يورده له فيتشبث بالامل فى المستقبل، ويشير الى أنه سيضيف اليه فى وقت لاحق ما قد يعثر عليه من شعره أو من نثره.

ومن هذا القبيل ما نلاحظه فى الفصل الخاص بالاديب «أبى عبد الله بن مالك الطغنرى من غرناطة» (1) اذ نجد المؤلف يقول عنه: «لم أقف من ذكر هذا الرجل الا على ابيات من شعره، وفصلين من نثره، ويستدل على الشجر بالواحدة من الثمر» (2)

ومثل هذا ايضا نجده فى فصل «أبى أحمد عبد العزيز بن خيرة القرطبى المشتهرة معرفته بالمنفتل» (3) فقد قال فى التعريف به: «ولم يحضرنى فى وقت تحرير هذه النسخة من شعره الا النزر القليل، وقد يعرب عن العتق الصهيل، ويكفى من البياض الغرة والتحجيل» (4).

(1) ذ — 2/1 — ص 303.
(2) ذ — 2/1 — ص 303.
(3) ذ — 2/1 — ص 259.
(4) ذ — 2/1 — ص 259.

ويمكن أن نسترسل فى ايراد الامثلة من هذا القبيل ، فانها كثيرة وأغلب الظن أن ما أوردناه منها يكفى لمعرفة منهج ابن بسام فى هذه المسألة الهامة التى تتعلق بطول المختارات الادبية وقصرها . واحسب أننا نستطيع أن نجمل الرأى فيها فنقول ان المؤلف قد عالج المقطوعات الطويلة ، المفرطة فى الطول ، بالحذف والتقصير ، واعتمد فى كثير من الاحيان على ذوقه ، وهو حق من حقوقه التى لا ينازعه فيها أحد ، ولكنه لم يكن يصدر فى ذلك عن أية فكرة مسبقة بالانحياز الى هذا الاديب أو ذاك ، مما يتعارض مع الهدف الذى توخاه من تأليف كتاب الذخيرة . ان من مبادىء منهجه التى حرص أشد الحرص على التمسك بها ، مبدأ كرهه التطويل ، ومن اساليبه التى اعلن عنها اكثر من مرة ، اللجوء الى الحذف وطلب الاختصار ، ولكن ما نلاحظه فى كتابه من اختلال شديد فى التوازن بين المقطوعات التى يطول بعضها حتى يستغرق اكثر من عشرين صفحة ، ويقصر بعضها الآخر حتى لا يكاد يتجاوز بيتين من الشعر ، أو سطرين من النثر ، مرده بالدرجة الأولى الى توافر المادة الأدبية عن عدد من الأدباء فتنطلق يد ابن بسام فى الاختيار ، وانعدام تلك المادة بالنسبة الى عدد آخر منهم ، فلا يجد مؤلف «الذخيرة» غير ايراد ما فى يده من تلك المادة الشحيحة ، فيكون الاختلال فى التوازن أمرا محتوما ويكون التفاوت فى الطول والقصر شيئا لا مفر منه .

8 — الاستطراد :

الاستطراد ظاهرة شائعة فى كتب الأدب العربية القديمة ، وهو فى كتاب الذخيرة ليس أكثر مما فى غيره من الكتب . والذى حملنا على أن نفرده بالدرس هو أنه لا يأتى عند ابن بسام على أنه انحراف لا شعورى — كما نقول اليوم — عن الخط المرسوم ، ينساق اليه المؤلف انسياقا يفرضه عليه الموضوع الذى هو بصدده ، أو تدعو اليه بعض المناسبات وما أكثرها فى كتب التراجم والمختارات . لا ، ليس هذا شأن الاستطراد

عند ابن بسام ، ولعله لو كان كذلك لما استحق منا أن نقف عنده ، لانه كما اسلفنا لم يبلغ الحد الذى يجعل كتاب الذخيرة يتميز به من غيره من المؤلفات التى هى من نوعه .

الاستطراد عند ابن بسام «استطراد منهجى» ان صح التعبير فهو شاعر به ، عالم بالمسالك التى يأخذها ، مدرك للحالات التى يعرض فيها . فهو لا ينساق وراءه انسياق المضطر مثلما كنا لاحظناه عند درسنا لتتبع المعانى عنده . وانما نجده هنا يعلله ويقيمه على مبادىء نظرية ، ان صح التعبير مرة أخر ى ، ويحمله وظيفة محددة هى الترويح عن القارىء والتخفيف عليه . فهو فى هذا جاحظى المنهج والطريقة .

وهو قد تناول هذا الجانب من منهجه فى مقدمة كتابه ، كما فعل مع الكثير من الجوانب الأخرى التى بدت له أهميتها ، والتى أشرنا اليها فى حينها ، قال : « وتألفت عنن الشارد ، وأغنيت عن الغائب بالشاهد ، وتغلغلت بقارئه بين النظم والنثر ، تغلغل الماء أثناء النور والزهر ، وانتقلت من الجد الى الهزل ، انتقال الضحيان من الشمس الى الظل ، واستراحة البهير من الحزن الى السهل ، وتخللت ما ضمنته من الرسائل والأشعار ، بما اتصلت به أو قيلت فيه من الوقائع والأخبار » (1)

هذا هو مذهب المؤلف فى الاستطراد ، يريد أن يمكن القارىء بهذه الطريقة من اللذة التى يحسها الانسان الذى ينتقل الى مكان ظليل بعد أن اشتدت وطأة الشمس على جسمه ، ومن الراحة التى يجدها من طال سفره بين المسالك الجبلية العسيرة حين يفضى به المسير الى السهول المنبسطة اليسيرة .

أما بعد ذلك فكل شىء يصلح لفتح باب الاستطراد . فاذا أورد المؤلف قصيدة لأبى حفص بن برد الأصغر يقول فيها :

(1) ذ — 1/1 — ص 6 .

بـــخـــداع عـنـــــلــــوه   وبـــهـــجـــر وصـــلـــــوه
لـــم يبـــالـــــوا يـــــوم صـــــد   اى وجـــد حمـــلـــــوه (1)

أثبتها بقولـــه : « وذكرت بهـــذه القطعـــة قطعـــة على وزنهـــا ورويها ، ويتعلق بها خبر من سيىء الأخبار وشرها » ، ويأخذ فى سرد هذا الخبر : « قالوا كان الأمين محمد بن هارون يوما على بركة ماء وقد عضه ببغداد الحصار ، وأخذت عليه الأقطار ، اذ دخل عليه غلامــه كوثـــر الخادم الوسيم ، ... وقد أصابه سهم خرق حجاب قلبه فخر لحينه ، فجزع عليه الأمين جزعا كان دونه الجنون ، ثم قال :

قـــتـــلـــوا قـــــرة عـــيـــنـــى   ومـــن أجـــلـــى قـــتـــلـــوه
يـــا هـــلال الـــدجـــن قـــل لـــى   مـــا لـقـــومـــى جـهـــلـــوه » (2)

ولكن استطراد ابن بسام لا يتوقف هنا ، فهناك الاستطراد داخل الاستطراد نفسه ، اذ يضيف بعد ذلك : « وذكر بعض الرواة أن أبـــا محمد التيمى زاد فى هذه الأبيات فقال :

مـــن رأى النـــاس لـــه فـــضـــــلا   عليهـــم حـســـــدوه .
مثلمـــا قـــد حـــســـد الـــقـــمـــا   ئـــــم بالملـــــك أخـــوه» (3)

ثم يعود الى الأمين فيذكر بعض أخباره واشعاره فى كوثر هـــذا فيقول : « وفى غلامه كوثر يقول وقد نظر الى طلوع البدر ، وهو يشرب على الفسطاط ... » ويورد الأبيات وهى أربعة ، ثم يضيـــف : « وهو القائل فيه حين يئس من نفسه» ويورد البيتين من الشعر اللذين قالهما الأمين فى غلامه . وهنا ينتهى ما لدى المؤلف من أخبار الأمين وغلامه ، أو لعله قدر أن هذا المقدار من الاستطراد يكفى للترويح عن القارىء ، فيعود الى ما كان فيه بعبارة : «وقال ابن برد» (4)

---

(1) ذ — 2/1 — ص 43 .
(2) ذ — 2/1 — ص 44 .
(3) ذ — 2/1 — ص 44 .
(4) ذ — 2/1 — ص 45 .

هذا نموذج من الاستطراد يكون الداعى اليه شعـــر يشتـــرك فى الوزن والقافية . وهناك نموذج آخر يكون بمناسبة ذكر اسم من الأسماء فى بعض المقطوعات الأدبيـــة ، وتكون لصاحب الاسم حكاية طريفـــة ، فيأبى ابن بسام أن يحرم قارئه منها ، لا سيما اذا كانت تنطوى علـــى العبر التاريخية التى يفضلها على ما سواها .

وينطلق الموضوع كله من بيت شعر فى قصيـــدة « للوزير الكاتـــب أبى المغيرة عبد الوهاب بن حزم» (1) مطلعها :

أمـــن البـــراق التـــاح بـــرق مـــا ســـرى   الا ورد الأفـــق مـــرطـــا أحـــمـــرا

والبيت المقصود هو :

لا غرو جئت البحـــر اذ أجلى الحيـــا   ورأيت يحيى حـــين لم ار منـــذرا (2)

ففى هذا البيت اشارة الى رجل اسمه (منذر) فاذا بابن بســـام ينتظر حتى يفرغ من ايراد باقى أبيات القصيدة ثم يضع هذا العنوان «لمع من أخبار منذر الذى ذكر» (3) ويأخذ فى سرد قصتـــه نقلا عـــن ابن حيان : «كان منذر بن يحيى صاحب سر قسطة رجلا من عرض الجند ، وترقى الى القيادة آخر دولة ابن أبى عامر ، وتناهى أمره فى الفتنة الى نيل الامارة ، والانتباذ من العسكر الى الثغر الأعلى بلده ، ... وكان أبوه من الفرسان غير النبهاء ، فأما ابنه منذر فكان فارسا لبق الفروسية ، بهى الشارة ، مليح التقلب على الدابة ... وأما غـــدره فالنـــار برأس اليفاع ، من أفحشه صنعه بهشام المخلـــوع مولى نعمتـــه ... فانقلب

---

(1) ذ — 1/1 — ص 110 ، والقصيدة ص 150 .
(2) ذ — 1/1 — ص 151 .
(3) ذ — 1/1 — ص 152 .

ناصرا لعدوه ، وغزاه فى عقر داره ... وباع دماء عشيرته أهل قرطبة مجانا ... الخ » (1) والحكاية طويلة قد استغرقت نحو سبع صفحات من مطبوع كتاب الذخيرة .

ولكن ابن بسام لا يقف عندها ، بل لابد له من استطراد آخر داخل هذا الاستطراد لذلك نراه يأخذ الكلمة من ابن حيان ، فيقول : « واذكر بهذه الغدرة الصلعاء ، والفتكة الشهيرة الشوهاء — اذ الشيىء يذكر مع ما جانسه ، ويضم الى ما التف به ولابسه — ما اتفق من مثلها فى ملك المناديين ، الغالبين الى وقتنا هذا على طرف افريقية الأدنى الى الأندلس ، المستقرة رياستهم بقلعتهم المنسوبة الى جدهم حماد ، وذلك أنه لما أفضى ملكهم الى بلقين بن محمد منهم ، أحد جبابرة الاسلام ...» (2)

ويمضى ابن بسام فى سرد حكاية الغدرة الصلعاء كما سماها ، وبنهايتها ينتهى الفصل المعقود لأبى المغيرة عبد الوهاب بن حزم .

هذا نوع ثان من الاستطراد ، وهناك نوع ثالث ينطلق من اشتراك الأدباء فى اسم واحد بحيث يكون أحدهما سميا للآخر .

من ذلك أنه عقد فصلا للأديب «أبى عبد الله بن مسعود» (3) وأورد له بعض المقطوعات النثرية ، ثم عدة قصائد ومقطوعات شعرية ثم ختم الكلام عنه بهذا العنوان : «محمد بن مسعود آخر» (4) وأخذ يعرف به فقال : « وكان أيضا قبله بحضرة قرطبة محمد بن مسعود آخر يعرف بالبجانى ، وينتمى فى غسان ، وكان شاعرا مجددا ، جزل المقاطع ، حسن المطابع ، جيد الابتداء ، لطيف الاختراع ، كثير الغوص على

(1) ذ — 1/1 — ص 152 و 153 .
(2) ذ — 1/1 — ص 158 وما بعدها .
(3) ذ — 2/1 — ص 66 .
(4) ذ — 2/1 — ص 79 .

دقيق المعانى حسن الاستخراج للألفاظ الرائقة ، والتصريف لمستعمل الكلام ... » الخ (1)

ونحن من حقنا أن نتساءل : اذا كان لابن مسعود هذا كل هذه الفضائل وكان لشعره وكلامه كل تلك الصفات فلماذا لم يخصه المؤلف بفصل مستقل كما فعل مع باقى الأدباء ، ومنهم من لم يحظ بجزء ولو قليل من هذا الثناء الذى يغدقه عليه ؟

وهذا ما لم يفت ابن بسام ، ولكنه حريص على نقطة منهجية أخرى لها عنده شأن عظيم وهى الالتزام بالحديث عن أدباء المائة الخامسة وحدهم من معاصرية أو معاصرى معاصريه على الأكثر . ولذلك نراه يجيبنا وكأنه توقع هذا السؤال منا : « وليس من طبقة كتابى لتقدم زمانه ، وانما جر حديثه حديث سميه المتقدم الذكر » ، (2)

ولكن ذلك لم يمنعه من ايراد عدد لا بأس به من قصائده ومقطوعاته

وهناك نوع رابع من الاستطراد ينطلق من الموضوع ، كما فعل فى الفصل الخاص بابن شهيد حين أورد له مقطوعة عن الحمام (بالتشديد) (3) فأتبعها ابن بسام بقوله : « وننشد هنا بعض مقطعات تتعلق بذكر الحمام . قال المنفتل ... وقال ... ومما يتعلق أيضا بصفته قول آخر ... ودخل الحمام يوما من أهل عصرنا الأديبان: أبو جعفر ابن هريرة التطيلى ، وأبو بكر ابن بقى ، فقال أبو جعفر ... ثم أعجبه هذا المعنى أيضا فقال فيه ... وقال أبو بكر ... الخ ... (4) .

(1) ذ — 2/1 — ص 79 .
(2) ذ — 2/1 — ص 81 .
(3) ذ — 2/1 — ص 257 .
(4) ذ — 2/1 — ص 258 .

ونعتقد أن هذه النماذج كافية لبيان أهم أنواع الاستطراد لدى ابن بسام ، ويهمنا أن نلح على أن هذا الاستطراد لا يأتى فى الغالب على أنه انسياق مع تداعى الأفكار ، وانما يحرص كل الحرص على أن يجعله فى خدمة شيىء ما ٠ فقد يخدم راحة قارئه ، وقد يخدم به غرضا تاريخيا ، وقد يضيف بواسطته معلومات جديدة الى موضوع معين ، أو يثرى به محورا من محاور الكتاب ٠ على أنه ينبغى أن نشير الى أن أكثر أنواع الاستطراد التى تصادفنا فى كتاب الذخيرة هى النوع التاريخى ٠ وقد رأينا فى الفصول السابقة مدى عناية ابن بسام بالأخبار والوقائع التاريخية ٠

بقى علينا أن نعترف بأن الاستطراد الذى نلاحظه فى كتاب الذخيرة ليس من النوع الثقيل ، الممل الذى ينسى الانسان ما هو فيه ، بل هو فى الغالب معتدل يروح على القارىء بالقدر الذى يبقى صلته بالكتاب وموضوعه الأساسى ٠ واذا كان لابد من تحديد نوع يكون الاستطراد أثقل فيه من غيره فذلك هو التاريخ ، لا سيما عندما يأتى فى صورة مقتطفات متناثرة تروى أنباء فتنة من الفتن ، أو حرب من الحروب أما الاستطرادات الأدبية فهى ممتعة تدل على باع ابن بسام فى الاطلاع ، وذوقه فى الاختيار ، وقدرته على ربط الصلة حتى لتبدو تلك الأخبار أحيانا وكأنها ليست من الاستطراد فى شيىء ٠

وبذلك نكون قد استوفينا أهم المرتكزات المنهجية التى لاحظنا اعتماد ابن بسام عليها فى ايراد المختارات الأدبية وسوق المقطوعات الشعرية والنثرية ٠ وهو ، كما حاولنا أن نبين، منهج ذو مبادىء ثابتة، استطاع المؤلف أن يحترمها فى أكثر الأحيان ، وضاق ببعضها أحيانا فخرج عنها ، وكان فى ذلك الخروج يبدو كالمضطر ، بمناسبة الحديث عن بعض الأدباء الذين لا يكاد يخضع انتاجهم لنفس القواعد التنظيمية التى يخضع لها انتاج آخر بكل سهولة ٠

والذى لا نشك فيه أن مؤلف كتاب «الذخيرة» قد بذل كثيرا من الجهود الموفقة لتنظيم هذا السيل الزاخر من الشعر والنثر ، فسلم كتابه الى حد كبير من الفوضى والتداخل ، وجاءت فصوله فى أغلب الأحيان واضحة المعالم ، صحيحة البناء ، مختصة بموضوع واحد هو الأديب الذى عقدت له ، متسلسلة الأغراض الأدبية ، تبرز فيها أهم الجوانب التى اشتهر بها الأديب ، مزودة للقارىء بما يحتاج اليه من المعلومات التكميلية التى هى من قبيل التاريخ أو الأخبار ، أو نصوص الأدباء الآخرين التى لها علاقة بالنصوص المختارة للأديب المترجم ٠

ولعل ما يلخص لنا خير تلخيص الجهود العظيمة التى بذلها ابن بسام لاحكام منهجه هو هذا المخطط الدقيق الذى اعتمده فى جميع الفصول على الاطلاق والذى هو :

— التعريف بالأديب على قدر المستطاع ، تعريفا يتناول فيه أهم ما لديه من أخبار حياته ٠ فاذا قل ما فى يده أشار الى ذلك ، ورجا أن يتمكن من الحصول على قدر أكبر منها فى المستقبل ٠

— ثم اثبات ما يكون بلغه من نثره مهما قلَ ٠

— ثم اثبات الشعر ٠

ويركز فى الحالتين على أهم الجوانب لدى الأديب ، فاذا كان ممن اتصل بالأمراء بدأ بأدبه السياسى ٠

— النظر فى أهم المعانى الشعرية والنثرية وذكر ما يشبهها من معانى الأدباء الآخرين ٠

— اثراء الفصل بالأخبار التاريخية التى تمنح الأديب وأدبه الامتدادات السياسية أو الاجتماعية التى توضح كثيرا من جوانبهما ٠

ونعتقد أن التزام ابن بسام بهذا المخطط فى جل الفصول ، ان لم يكن فيها جميعا ، لم يكن سهلا ولا ميسورا ٠ ولقد أبدى فى ربط جوانب

كتابه المتباينة ، واقامة الصلة بينها على تباعـدها ، ما هو جديـر حقا بالاعجاب .

ولقد لاحظنا أثناء الدراسة التفصيلية للمرتكزات التى نهض عليها بناء الكتاب كثيرا من العيوب المنهجية التى حاولنـا تعليلها أو تفسيرها فى وقتها ، ولكن يجب أن لا يغيب عن بالنا مرة واحدة أننا بصدد كتاب ألف فى القرن الخامس الهجرى، وأنه بالنسبة الى عصره، وموضوعه، تحفه منهجية حقيقية .

ولعله لا يليق بنا أن نختم هذا الفصل دون الاشارة الـى مقدمة كتاب الذخيرة التى هى بحق درس من نوع رفيع فى التناول المنهجى ، والاشارات الدقيقة المحكمة لأهم أسس الكتاب وأركانه .

الفصل السادس

الجوانب النقدية فى كتاب «الذخيرة» .

محتويات الفصل السادس :

(الجوانب النقدية فى كتاب «الذخيرة»)

1 ــ كتاب «الذخيرة» والنقد

2 ــ المواقف النقدية المبدئية

3 ــ أهم الاتجاهات النقدية فى كتاب «الذخيرة»

ــ النقد الاخلاقى

ــ النقد الدينى

ــ النقد التاريخى

ــ النقد الفنى

كتاب «الذخيرة» والنقد

كتاب الذخيرة ، ليس كتابا فى النقد ٠ هذه حقيقة جلية لامراء فيها، لأن المؤلف أنبأنا منذ البداية بأن «هذا الديوان هو لسان منظوم ومنثور» (1)ولأن ما نعرفه من بواعث تأليفه يمكننا من الجزم بأن ابن بسام لم يكن يهدف أبدا الى تمحيص الادب ، واطالة النظر فيه ، واستخراج خصائصه ومميزاته ، واخضاعه للقواعد التى وصل اليها النقاد العرب فى منتصف المائة الخامسة للهجرة ٠ وانما كان همه ، كما أسلفنا ، انتخاب جملة من القصائد والرسائل ، والمقطوعات الشعرية والنثرية التى تثبت رسوخ قدم الأندلس فى هذا الفن ، وتبرهن لأبناء الجزيرة المولعين بتتبع أخبار المشرق ، المتعلقين بما يأتيهم من شعره ونثره ، بأن لهم أدبا لا يقل فى شيىء عن أدب المشارقة ، بل لعله يفوقه من حيث الجودة ٠

ولكن المؤلف لم يقتصر على ايراد المنتجات الشعرية والنثرية ، بل تخلل ذلك بالتنبيه على مواقع البديع فى تلك المقطوعات ، واهتم بتتبع المعانى، فبحث عن أصولها ، وما آلت اليه على ايدى مختلف الشعراء وعلق على ذلك معربا عن رأيه فى تلك المقطوعات ، مقوما مدى توفيق الأدباء الذين تناولهم من هذه الناحية فى اتقان صنعه البديع ، ومقدار أصالتهم وابداعهم فى السمو بتلك المعانى المتداولة التى تعاورها الشعراء والكتاب منذ أقدم الأزمنة ٠

هذه العناصر الثانوية فى خطة ابن بسام من حيث الهدف المنشود، وان لم تكن ثانوية من حيث المنهج ، كما بينا اثناء الفصل الماضى ، اذ كانت مسألة تتبع المعانى من الاركان الاساسية فى الكتاب ، كما كانت قضية الاهتمام بالبديع محور اهتمام كبير من قبل المؤلف ، هذه العناصر هى التى منحت كتاب الذخيرة جوانبه النقدية التى نريد أن تدرسها الآن٠

---

(1) ذ — 1/1 — ص 6٠

على أنه ينبغى أن نضيف اليها عنصرا لا يقل خطرا عن العناصر السابقة ، وهو شخصية المؤلف ، ذلك أن طبيعة عمل الاختيار — فى الشعر وفى النثر ، كما فى غيرهما — تخضع بصفة أساسية لذوق المختار ، ومن هنا لم يكن يستطيع المؤلف أن يكتم فى كل حين صوته، ولا أن يمنع تدخله ، فكان يعلق على ما يورد من الشعر والنثر ، وعلى ما يسوق من أخبار الأدباء ، تعليقات أدخلت كتابه فى النقد من بعض وجوهه ، وجملته ينطوى على عدد من المظاهر النقدية .

وسنحاول أن نستكمل دراسة الكتاب ، بالالمام بهذه الجوانب كلها، فندرس بعض مبادىء المؤلف العامة ، وأهم اتجاهاته النقدية ، وتطبيقاتها فى كتاب الذخيرة .

أولا — المواقف المبدئية

نحن نعنى بعبارة «المواقف المبدئية» وجهة نظر ابن بسام فى المسائل الكبرى تلك التى يتكون منها المذهب النقدى عند مؤلف ما ، عندما يتوفر لها الانسجام فيما بينها ، والتكامل بين عناصرها ، وشمولية النظرة اليها .

ولن نحكم منذ الآن على نظرة ابن بسام فنقول انها تكون أو لا تكون مذهبا نقديا ، وانما نريد أن نستعرضها قبل ذلك .

أ — موقف ابن بسام من الأدب عامة

ابن بسام رجل أديب . هذه من الحقائق البديهية التى لا حاجة بنا الى تكلف أثباتها . فبتلك الصفة عرف ، أثناء حياته وبعد موته ، وهو الذى كتب واحدا من أشهر كتب الأدب الاندلسية، ولعله أشهرها، وأكثرها نفعا على الاطلاق ، وألف غيره كتبا عديدة نعرف عناوينها ، ولا نعرف الآن مكانها ، ونظم الشعر واحتفظ لنا كتاب الذخيرة ببعضه القليل . ثم

انه — قبل ذلك كله — امتعض لحال الأدب فى بلاده ، ومصير الأدباء فيها ، واستفزته الغيرة على بدورها أن تعود أهلة ، كما قال ، فنهض يعرف بطوائف كثيرة منهم ، ويلفت انتباه الناس فى الجزيرة الى قيمة ما لهم من كنوز النثر والشعر .

هل يصنع كل هذا رجل ليس له من الأدب نصيب ؟ بل هل يقوم بكل هذا رجل يكره الأدب ، ويتبرأ منه ؟

ان الجواب المنطقى عن هذين السؤالين يكون بالنفى . ولكننا نجد ابن بسام مع ذلك يعبر بكل صراحة عن ضيقه بالأدب بما يكاد يوحى بأنه انصرف الى ما انصرف اليه من «اقامة أوده» مضطرا، أو هذا ما نفهمه من كلامه ، على كل حال ، حين نسمعه يقول : «وحقائق العلوم أولى بنا من أباطيل المنثور والمنظوم .» (1)

ولقد تطرقنا بشىء من الحديث الى هذه النقطة فى الفصل الذى عقدناه لدراسة منهج الكتاب ، وبينا أثناء ذلك أن هذه العبارة قد جاءت فى سياق الاشارة الى العناية بالبديع ، مما يوحى الينا بأن نوع العلم الذى يجب المؤلف أن ينصرف اليه ، هو علوم اللغة من نحو وعروض وبلاغة وما اليها . لأننا لا نعرف لابن بسام عناية خاصة بواحد من العلوم الأخرى التى هى من طراز الطب أو الكيمياء أو الرياضيات ... على سبيل المثال .

ويعنينا ونحن ندرس هذه المواقف المبدئية أن نسجل فى هذه المرحلة من البحث أن ابن بسام يبدى نوعا من التبرم بالأدب الخالص شعره ونثره .

فاذا نحن دققنا فى العبارة السابقة ، فاننا نجده ينسب هذا الأدب الخالص الى الأباطيل فى قوله السابق : «أباطيل المنثور والمنظوم» .

---

(1) ذ — 1/1 — ص 7 .

والذى يسترعى الاهتمام هو كلمة «أباطيل» بالذات •

ونعتقد أن سر هذا النفور من الأدب، والتبرم به يكمن فى تقويم المؤلف اياه من الناحية الأخلاقية التى سنخصها بكلام مفصل بعد حين•

انها ثورة عارمة على الادب كله ، يقابلها تمجيد للعلم وحقائقه ، وهذا موقف آخر لعل ابن بسام من أوائل من تناوله فى الاندلس بهذا الشكل من الصراحة والوضوح • واذا كان من المؤكد أن الشعر والنثر يصلحان كلاهما للنفاق والتملق ، وقد سخرا فعلا لمثل هذه الاغراض الدنيئة فى وقت مبكر من عمر الحضارة العربية ، وكانا لدى جميع الامم ميدانا فسيحا للغرائز ، والاهواء ، والعواطف ، فان ذلك لا يعنى أن العلم ليس قابلا للتسخير فى مثل هذه الاغراض الساقطة ، وانه لم يستخدم بالفعل فى المهمات الرذيلة •

ولكن نقمة ابن بسام قد صبها على الشعر بصفة خاصة ، فأدانه وأدان الشعراء معه مرتين :

— أدانه فى التطبيق حين قدم الكتاب على الشعراء ، معللا ذلك بقوله : «وبدأت بذكر الكتاب ، اذ هم صدور فى أهل الاداب» •(1)

وهذا لعمرى موقف فيه كثير من الغرابة ، يدعو صدوره عن رجل كابن بسام فى القرن الخامس الهجرى ، وفى الاندلس العاطفية ، الشاعرة ، الى الاستغراب ، فلقد كانت النغمة المألوفة هى تفضيل الشعراء على الكتاب ، فالشعر عند العرب سيد الكلام ، والكلام يكون عاديا ليس فيه ما يستلفت الانتباه ، فاذا نظمه الشاعر المقتدر فى بيت أو فى عدة أبيات من الشعر الجيد ، اصبح محط الاهتمام وعد نوعا من الاعجاز • والشعراء هم زينة البلاطات الملكية ، فلا يصعد للملك أو للأمير نجم ، الا اذا قدر له شاعر يتغنى بامجاده ، ويذيع فى الناس آيات كرمه

(1) ذ — 1/1 — ص 21 •

وشجاعته • وللشاعر على الناثر درجة ، بل درجات ، فكل متكلم يخاطب الملك واقفا، والشاعر يخاطبه جالسا، وكل متكلم يخاطبه بضمير الجماعة ، والشاعر يخاطبه بضمير المفرد • فما لابن بسام حينئذ يستبعد الشعراء من الصدارة بهذه الطريقة الحاسمة ، ويجعلها من نصيب الكتاب ؟

ويبدو أن هذا الموقف متأصل فى نفس ابن بسام ، ذو جذور راسخة، وليس مجرد تحزب عابر لهذه الطائفة من الادباء ، أملته اعتبارات ظرفية محددة أو فورة نقدية زائلة •

— وأدانه فى النظر حين تبرأ هو من الشعر ، ووجه اليه التهم القاسية قائلا : «ومع أن الشعر لم أرضه مركبا ، ولا اتخذته مكسبا ، ولا ألفته مثوى ولا منقلبا ، انما زرته لماما ، ولمحته تهمما لا اهتماما رغبة بعز نفسى عن ذله ، وترفيعا لموطىء أخمصى عن محله ، فاذا شعشعت راحه لم أذقه الا شميما ، ولا كنت الا على الحديث نديما ، ومالى وله ، وانما أكثره خدعة محتال ، وخلعة مختال ، جده تمويه وتخييل ، وهزله تدليه وتضليل ، وحقائق العلوم ، أولى بنا من أباطيل المنثور والمنظوم» (1)

وهذا الموقف غاية فى الصراحة ، وان كان أيضا غاية فى القسوة على الشعر ، فلماذا ياترى ؟

اننا نستطيع أن نستخرج الاسباب التالية :

1 — غيرة ابن بسام على كرامته وعزته ، والشعر يسيىء الى هذه الكرامة وهذه العزة •

2 — انطواء الشعر على الخداع •

3 — حمله الشعراء على الغرور والاختيال •

4 — انطواؤه على تمويه ظاهره الجد •

5 — انطواؤه على تضليل ظاهره الهزل •

(1) ذ — 1/1 — ص 7 •

وهكذا تخرج صورة الشعر والشعراء قاتمة ، وتبلغ هذه الدرجة من السوء فى نظر ابن بسام، وواضح أنها نظرة أخلاقية الى فنون القول ، فيها جانب دينى ، وفيها جانب يتصل بشخصية ابن بسام ، وغيرته الشديدة على كرامته .

ولعنا نبتعد عن الحقيقة بعض الشيىء اذا نحن لم ننبه الى أن ابن بسام لا يقصد — فى الغالب — مطلق الشعر ، وانما يقصد نوعا خاصا منه ، هو الذى اتخذه بعض الناس حرفة ، بل مورد رزق يتكسبون به ويسخرونه من أجل ذلك مطية ذلولا لبلوغ شتى أغراضهم ، يسترضون به السلاطين ، فيركبون من أجل ذلك كل مركب من الخداع والنفاق ، والتملق، والتمويه، مما لا ترضاه النفس المستقيمة ، ولا يقبله الانسان الحر ذو الكرامة والشرف .

واذا كان ابن بسام قد شرح هذا الموقف بالتفصيل ، وشرع فى « تنظيره » ان صح التعبير ، واعطائه كل ابعاده الأخلاقية ، لانه فى صميم الاخلاق الفاضلة ، فاننا نجد بذوره الاولى عند الشاعر أبى المغيرة عبد الوهاب بن حزم (1) ، اذ أورد له المؤلف فى الفصل الذى عقده له قصيدة نقرأ فى آخرها هذين البيتين :

« غيرى الذى اتخذ المدائح مكسبا
وسواى من جعل القوافى متجرا
أنا ما شعرت لأن أنبه خاملا
لكن لامنع شاعرا أن يشعرا . » (2)

والطريف أن هذين البيتين قد وردا فى قصيدة يمدح بها الشاعر (أبو المغيرة ابن حازم) منذر بن يحيى صاحب سر قسطة ، وان قال قبلهما :

(1) ترجم له صاحب الذخيرة فى 1/1 ، ص 110 وهو في ابن عمه الفقيه ابن حزم الظاهرى .
(2) ذ — 1/1 — ص 152 .

فاذا أتيتك مادحا لك ، لم يجىء
شعرى ليسأل ، أتاك ليفخرا (1)

ولعل هذه الابيات لا تنطوى على موقف حقيقى ، وانما هى اسلوب فى المدح ، أوتعريض ببعض الشعراء الذين بالغوا فى التكسب بشعرهم ، فتكون حينذاك اشارة البيت الثانى من هذا القبيل ، اذ قال : «لكن لامنع شاعرا أن يشعرا» .

والذى يظهر لنا من موقف ابن بسام أن بينه وبين الشعر جفوة متأصلة فالشعر قد أصبح وهو لا يكاد ينطلق الا فى ميادين التكسب ، وما يؤدى اليه من مدح كاذب أساسه النفاق والتمويه ، والتصاغر أمام الملوك ، وتمريغ الكرامة من أجل عطائهم ، وابن بسام حاد الوعى بشرف انتسابه ، وسمو قدره ، وعلو منزلته . ومن هنا فان التناقض بينهما كبير فلا غرو أن تكون بينهما هذه الجفوة .

واذا كان ابن بسام قد عبر عن هذا الموقف الاصيل ، الشجاع فاننا لا نملك الا أن نهنئه على هذا المذهب الذى لو قدر له أن ينتصر على يده، وعلى يد امثاله ممن كانت لهم آراء مشابهة ، لا تخذ الشعر العربى مسارا آخر ولكان تخفف من كثير من الاعباء التى كبلته على مر العصور ، وحالت دونه ودون الانطلاقة الحقيقية نحو آفاق الابداع التى وهب الشاعر العربى كل أسبابها ومقوماتها . ولكن بين رفض التكسب بالشعر ، وادانة الشعراء الذين سخروا موهبتهم الفنية لاغراض لا علاقة لها بالفن والجمال من ناحية ، وبين التبرأ من الشعر عامة والنفور منه بصفة مطلقة فرق شاسع ما كان يجب أن يخفى على رجل كابن بسام .

ان الشعر أو الادب بصفة عامة يستطيع أن يتسع لقيم أنبل ، ولقد كان أجمل بابن بسام أن يبشر بهذه القيم النبيلة ، وأن يشق طريق الناس اليها بافراد كتاب خاص بها ، يضمنه ثورة تكون ايجابية ، تهدم القيم البالية ، وترفع صرح القيم الجديدة ، وتشهر بمواقف الاحتيال

(1) ذ — 1/1 — ص 152 .

والاختيال ، وتأخذ بيد الاجيال الفتية نحو عوالم الفن الخالص الذى لا يسخر لكسب القوت المهين ، ولا تستباح حرمته الجليلة على عتبات التملق والنفاق •

ب ــ الميــل الــى الجــديــد

الحق أننا بعد أن استخرجنا لحياة ابن بسام صورة نعتقد أنهــا قريبة الى ما كانت عليه فى واقع الحال ، وبعد أن استنتجنا مقدارا لا بأس به من الخطوط العريضة لسلوكه ومذهبه فى الحياة ، لم نكد نصــدق أن الرجل ممن يميل الى الجديد ، بله أن يكون ممن يدافع عنه ، ويتبناه موقفا فى تقويم المنثور والمنظوم •

ومع ذلك فلا مجال للبحث عن تخريج آخر للأقوال الصريحــة الصادرة عنه والتى تضمنتها المقدمة •

قال ابن بسام : «وقد مجت الاسماع (يا دارمية بالعليا فالسند) ، وملت الطباع (لخولة أطلال ببرقة ثهمد)، ومحت (قفانبك) فى يد المتعلمين ورجعت على ابن حجر (1) بلائمة المتكلفين ، فأما (أمن أم أوفى) فعلى آثار من ذهب العفا • أما آن أن يصم صداها ، ويسأم مداها ؟» (2)

فمن يصدق أن ابن بسام المحافظ فى سلوكه ، يستطيع أن يكــون له هذا النفس الحماسى فى التشهير بالقديم ، والخروج عليه • بل من كان يتوقع أن يجد ابن بسام يضع أولئك الاقطاب من عليــاء سمائهم ، ويتناول أكبر وأعظم وأشهر شعراء العربية من أصحاب المعلقات الجاهلية ــ وهى النموذج الادبى الاعلى للادباء العرب على مر الاجيال ــ بمثل هذه السخرية وهذا التجريح •

---

(1) يقصد امرأ القيس الكندى ، الشاعر الجاهلى صاحب المعلقة الشهيرة •
(2) ذ ــ 1/1 ــ ص 2 •

ولا يتوقف صاحب الذخيرة عند ذلك الحد ، بل يستمر على نفس الوتيرة ، وبنفس الحماسة ، حتى كأنه أحد المؤمنين الاوائل يهدم فى حرم الكعبة أصنام قريش • يقول بعد الكلام السابق : «وكم من نكتة أغفلتها الخطباء ، ورب متردم غادرته الشعراء ، والاحسان غير محصور ، وليس الفضل على زمن بمقصور ، وعزيز على الفضل أن ينكر ، تقدم به الزمان أو تأخر ، ولحى لله قولهم : الفضل للمتقدم ، فكم دفن من احسان ،وأخمل من فلان ولو اقتصر المتأخرون على كتب المتقدمين ، لضاع علم كثير ، وذهب أدب غزير» •

انها جرأة عظيمة يتناول بها ابن بساما ما يشبه المقدسات فى التراث العربى الادبى ، بل انها ثورة عميقة الاغوار هذه التى تعلن مبادىء على هذا المستوى من النبل كما فى قوله : «الاحسان غير محصور ، وليس الفضل على زمن بمقصور ، والفضل هو الفضل تقدم به الزمان أو تأخر»، وتعاكس القيم التقليدية السائدة من مثل المواقف التى يمثلها قولهم المأثور أحسن تمثيل : الفضل للمتقدم ، أو تساؤل الشاعر الجاهلى عنترة العبسى الذى ذهب فى الناس مثلا : «هل غادر الشعراء من متردم» •

نحن نعلم أن موقف الانتصار للحديث ، وانصاف المعاصرين ليس مما سبق اليه ابن بسام ، فمن أشهر من ناضل عن مثل هــذه المبادىء الناقد المشرقى ابن قتيبة (1) صاحب كتاب «الشعر والشعراء» الذى قال فى مقدمته :

«ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، والى المتأخــر بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيت كلا حظه ، ووفرت عليه حقه • فانى رأيت من علمائنا من يستجيــد الشعــر السخيف لتقدم قائله ••• ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب له عنده ،

---

(1) هو أبو محمد عبد الله بن قتيبة الدينورى المتوفى سنة 276 هـ •

الا أنه قيل في زمانه ، أو أنه رأى قائله ، ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثا في عصره ، وكل شريف خارجيا في أوله ...» الخ(1)

ان بين كلام الرجلين كثيرا من التشابه وابن بسام قد اطلع دون شك على كتاب ابن قتيبة ، أو لم يكن على الاقل يجهله . ولكن شتان بين لهجة الأناة والتؤدة في كلام ابن قتيبة حتى لكأنه يدافع عن شيء ليس مقتنعا به أشد الاقتناع ، وبين الاندفاع والحماسة اللذين رأيناهما في لهجة ابن بسام .

ثم أن الفرق الجوهري بين الموقفين هو أن ابن قتيبة يدافع عن فكرة تتمثل في ضرورة الاعتناء بالمحدثين ، وابن بسام يدعو الى تناسي الاقدمين ، فالرجلان مختلفان اذن من حيث أن الاول في حالة دفاع عن الأدباء المحدثين يسعى الى فسح شيء من المجال لهم ، والثاني قد تجاوز الدفاع الى الهجوم اذأن وضعه مختلف عن وضع ابن قتيبة ، لأن كتاب الذخيرة هو كله للمحدثين ، ولا يأتي فيه ذكر القدماء الا عرضا .

ولكن هل أخلص ابن بسام لهذا الموقف ، وهل هو موقف راسخ في الفؤاد لا تقوى الاعاصير على زعزعته ، أم هو فورة حماسية لا تلبث أن تنبخر ؟

من المؤسف أن نعترف بأن ابا الحسن قد خيب ظننا في موضعين اثنين ، هما كل ما نملك من الوسائل للحكم على مدى صدقه في تلك الثورة العارمة التي أعلنها، لان كتاب الذخيرة — وهو كله للمحدثين كما أسلفنا — لا يصلح أن يكون مجالا لتقصي الاثار التطبيقية لهذا المذهب النظري .

---

(1) الشعر والشعراء ص 10 .

— أما الموضع الأول ففي القسم الرابع من الكتاب حيث نجد المؤلف يترجم لأبي اسحاق الحصري (1) صاحب كتاب « زهر الآداب » ويتحدث عن كتابه هذا فيقول : « عارض أبا بكر الحافظ بكتابه الذي وسمه : بزهر الآداب ، وثمر الألباب ، فلعمري ما قصر مداه ، ولا قصرت خطاه ، ولولا أنه شغل أكثر أجزائه وأنحائه ، ومزج (؟) (2) حمى أرضه وسمائه ، بكلام أهل العصر ، دون كلام العرب ، لكان كتاب الأدب لا ينازعه ذلك الا من ضاق عنه الأمد ، وأعمى بصيرته الحسد » . (3)

وهكذا نلمح في كلام ابن بسام ما يشبه التنكر لمبدأ كان قد دافع عنه بتلك الحرارة وتلك الحماسة . انه يؤاخذ الحصري على عدم اعتنائه بكلام العرب الأقدمين ، واقتصاره في كلامه على كلام المعاصرين . هذا مع العلم بأن الحصري لم يكن يستطيع أن يبدي عناية بالقدامى أكبر من التي تجلت في كتابه ، لأنه كتاب بلاغة وبديع بالدرجة الأولى ، وهو لذلك مضطر بحكم هذه الموضوعات الى الاكثار من الاستشهاد بأشعار العباسيين من أمثال ابن المعتز ، ومسلم بن الوليد ، وبشار ، وأبي نواس وغيرهم ممن تكثر الأصناف البديعية في شعرهم .

والحصري قد استشهد بكثير من شعراء الجاهلية والاسلام ، ولكنه لم يؤلف كتابا في الشعر والشعراء فيخصص أبوابا لعدد من الشعراء الأقدمين وانما هو كتاب نقدي تناول فيه المسائل الشائعة في ذلك العصر من قضايا اللفظ والمعنى والسرقات ، والبديع ، وكان طبيعيا أن يكون أكثر زاده في ذلك من شعر المولدين .

---

(1) هو أبو اسحاق ابراهيم بن علي بن تميم المعروف بالحصري ، ذكر ابن بسام أنه قد يكون توفي سنة 453 هـ .
(2) كلمة غير مقروءة .
(3) ذ — ق/4 — ص 175 مخ . الرباط .

— وأما الموضع الثانى فهو الأخطر ، وهو الذى يدفعنا الى الشك الكبير فى صدق ثورة ابن بسام على التقليد الأدبى ، وذلك بمناسبة موقفه من الموشحات ٠

موقف ابن بسام من الموشحات :

جاء حديث ابن بسام عن الموشحات عرضا فى التعريف بواحد من أعلامها الأوائل : أبى بكر عبادة بن ماء السماء ٠ قال المؤلف : « وكان أبو بكر فى ذلك العصر شيخ الصناعة ، وامام الجماعة ٠٠٠ وكانت صنعة التوشيح التى نهج أهل الأندلس طريقتها ، ووضعوا حقيقتها ، غير مرقومة البرود ، ولا منظومة العقود ، فأقام عبادة هذا منآدها ، وقوم ميلها وسنادها ، فكأنها لم تسمع بالأندلس الا منه ، ولا أخذت الا عنه » ٠ (1)

الى هذا الحد من كلام ابن بسام لا نقف على ما يستحق الالتفات مما نحن بصدده ٠ فحديثه هنا مدح خالص لما بذل عبادة بن ماء السماء من جهد فى تنظيم الموشحات ٠ ولكن الذى يسترعى الاهتمام يأتى بعد الكلام السابق مباشرة ، حين يقول المؤلف عن عبادة وموشحاته : « واشتهر بها اشتهارا غلب على ذاته ، وذهب بكثير من حسناته » ٠ (2)

هذه أول بادرة من ابن بسام تنبىء بما يخبئه لنا من المفاجآت ٠ ان الاشتهار بنظم الموشحات مما يذهب الكثير من الحسنات ! هذا هو الرأى عند صاحب الذخيرة ٠

وينتقل الى التعريف بهذه الموشحات ، فيعطينا معلومات تاريخية عن نشأتها ، هى على جانب كبير من الأهمية ٠ ولقد أفاد منها كل من تحدث فى العصر الحديث عن الموشحات وأرخ لظهورها وتطورها ٠

---

(1) ذ — 2/1 — ص 1 ٠
(2) ذ — 2/1 — ص 1 ٠

قال المؤلف : « وهى أوزان كثر استعمال أهل الأندلس لها فى الغزل والنسيب ، تشق على سماعها مصونات الجيوب ، بل القلوب ٠ وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقنا ، واخترع طريقتها — فيما بلغنى — محمد بن حمود القبرى الضرير ٠ وكان يصنعها على أشطار الأشعار غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة ، يأخذ اللفظ العامى والعجمى ، ويسميه المركز ، ويضع عليه الموشحة دون تضمين فيها ولا أغصان ٠ وقيل ان ابن عبد ربه صاحب كتاب « العقد »أول من سبق الى هذا النوع من الموشحات عندنا ٠ ثم نشأ يوسف بن هارون الرمادى، فكان أول من أكثر فيها من التضمين فى المراكيز ، يضمن كل موقف يقف عليه فى المركز خاصة ٠ فاستمر على ذلك شعراء عصرنا كمكرم بن سعيد، وابنى أبى الحسن ٠ ثم نشأ عبادة هذا فأحدث التغيير ، وذلك أنه اعتمد مواضع الوقف فى الأغصان فيضمنها ، كما اعتمد الرمادى مواضع الوقف فى المركز » ٠ (1)

ولا يشك أحد يقرأ هذه الفقرة فى أن ابن بسام معجب بالموشحات، اذ يصفها بأنها مما تشق عليه « مصونات الجيوب ، بل القلوب » ، وأنه جيد الاطلاع على أخبار منشئيها ، حسن المعرفة بالمراحل التى مرت بها ، والأعلام الذين أتاحوا لها ذلك التطور ٠ وهو ملم الى ذلك بأهم مصطلحاتها من مركز ، وأغصان ، وتضمين وغيرها ٠ ولكنه مع ذلك يراها تذهب بالحسنات ٠

ولقد كنا نستطيع أن نقبل منه هذا الحكم عليها ، فهى ليست أكثر من واحد من فنون القول ، لكل ناقد مطلق الحرية فى أن يقومها من الزاوية التى شاء ، فلا بن بسام حينئذ أن يقومها من زاويته الأخلاقية التى لها الكلمة الأخيرة عنده فى كل شيىء ، بل له أن يعتقد أنها تذهب بحسنات الأديب الذى يتعاطى نظمها ، وتغض من قدره ٠ أجل له ذلك ،

---

(1) ذ — 2/1 — ص 1 — 2 ٠

ولكن هل له أن يحرم الأجيال منها ، وأن يحكم عليها بالاعدام فيقصيها من ديوانه ؟ ذلك ما لا نستطيع أن نقره عليه من حيث المبدأ .

ولقد عبر عن ذلك الحكم الصارم فقال : «وأوزان هذه الموشحات خارجة عن غرض هذا الديوان ، اذ أكثرها على غير أعاريض أشعار العرب ، وقد أثبت من شعر عبادة فى هذا الفصل ومن سائر كلامه ما يدل على تقدمه واقدامه » . (1)

وأعجب ما فى الأمر أن صاحب الذخيرة قد تخلى بمحض ارادته واختياره عن سلاح فعال فى معركة التباهى التى يخوضها بالأدب الأندلسى فى وجه الأدب المشرقى ذلك أنه قد أهمل حجة قوية كان بالامكان استغلالها فى بيان ابداع الأندلسيين وقدرتهم على الاختراع .

وهكذا يتضح لنا أن ابن بسام لم يستقر على ذلك الموقف الرائع الذى اتخذه من الأدب القديم ، والذى ينعكس فى حقيقته جوهر الصراع بين التجديد والتقليد ، بين الاتباع والابداع .

ونحن لا محالة نستطيع أن نجتهد فى تأويل موقفه من الموشحات ، فنذكر أن الذى نفره منها على الأخص هو اشتمالها على كثير من الألفاظ العامية والأعجمية . بل اننا نستطيع أن نربط هذا الموقف ، بموقف آخر أشمل وأهم هو الذى كان من جملة دوافعه الى تأليف الذخيرة ، وهو المحافظة على الشخصية الأندلسية ، وكيانها العربى الاسلامى مما يحمل على الاحتفال بكل ما تتجلى فيه الأصالة العربية ، وانتباذ كل ما قد يؤدى الى تضعضع ذلك الكيان ، وذوبانه فى المحيط الطاغى من حوله . وأيسر ذلك أن يساهم المؤلف فى تشجيع ظاهرة مزج لغة العرب باللغة الأعجمية.

---

(1) ذ — 2/1 — ص 2 .

ولكن هذا التأويل يظل مجرد احتمال لم يقم عليه دليل قاطع أما الذى لا شك فيه فهو أن صاحب الذخيرة قد استطاع أن يرسم لنفسه ، على الصعيد النظرى ، موقفا رائدا فى الانتصار للجديد ، وازالة القداسة المترمتة عن القديم ، ولكنه تقهقر عند التطبيق ، وبدت محافظته أرسخ من أن تقتلع جذورها تلك الثورة ، على ما بلغته من القوة ، والجرأة ، فى الميدان النظرى .

ثانيا ــ أهم الاتجاهات النقدية

فى كتــاب « الذخــيرة »

اذا كان المذهب النقدى لدى ناقد ما لا يمكن الا أن يكون واحــدا لأنه خلاصة المقومات التى يتألف منها ، فانه يصح ــ فى رأينــا ــ أن تتعدد الاتجاهات أو المناحى النقدية لدى الناقد الواحد .

ومن هنا كان رأينا فى أن ابن بسام ربما ظلم بعض الظلــم حــين اقتصر المحدثون ممن كتبوا عنه على الاهتمام بناحية واحدة فى نقــده ، هى الناحية الأخلاقية . والحق أنها ليست الا اتجاها مــن اتجاهاته فى النقد ، وان كان أهمها على الاطلاق .

ولقد سبق لنا أن بينا مرارا أن النظرة الأخلاقية عند ابن بســام ليست اتجاها نقديا فقط ، بل هى فوق ذلك وقبله سلوك عام فى الحيــاة، ومنهج لا يكاد يصدر ابن بسام الا عنه ، ولا يكاد يتصرف فى كبيرة ولا صغيرة الا بوحى منه .

أما نظراته النقدية فسندرسها مميزين بين ما يلتحق منها بالنقــد الأخلاقى ، وما هو من قبيل النقد الدينى ، والنقد البلاغــى ، والنقــد الفنى ، معتمدين فى كل ذلك على الجوانب التطبيقية لهذه الاتجاهات ، كما نجدها فى كتاب الذخيرة .

ونبدأ فيما يلى بحديث فيه بعض التفصيل لما يمكن أن نسميــه « النقد الأخلاقى فى كتاب الذخيرة » .

أ ــ النقــــد الأخــلاقى :

ما كان للأندلس أن تشذ عن سنة التطور ، ولا أن تحيد عن الطريق الذى سلكته الحضارة العربية فى المشرق ، والحضارات الأخرى قبلهــا وبعدها . فلقد أعقب جيل الفاتحين الأوائل الذين كانوا أقرب الى الحياة البدوية منهم الى الحياة الحضرية ، أجيال نشأت وترعرعت فى بيئة فيها ما فى البيئات الراقية من تقدم حضارى ، ويسر فى المعيشة ، وتفنــن فى الحياة ، وفيها ما يصاحب ذلك عادة من تساهل فى قواعــد الأخــلاق ، واقبال على مختلف أساليب التمتع بطيبات الدنيا حلالها وحرامها .

وكان طبيعيا والحالة هذه ، أن لا تخلو الأندلس من تيار معارض يدين التفسخ ، ويستنكر الانحلال ، ويدعو الى التمســك بالأخــلاق الفاضلة والتعاليم الاسلامية .

ولسنا نملك مقدارا كافيا من تفاصيل حياة ابن بسام لنستدل بهــا على مدى انتمائه الى هذه الفئة من المصلحين ، ولكننا رجحنا ونحن نعرف به أن يكون من ذوى الثقافة الفقهية الرصينة ، كما رجحنــا أن يكــون واحدا من المصلحين الذين ارتفعت أصواتهم فى الأندلس اللاهية بالدعوة الى اطراح العبث ، والرجوع الى المنهج الاسلامى القويم ، وساعدنــا على ترجيح هذا الرأى كثرة معارفه من الفقهاء ورجال الدين الذين يذكر أنه اتصل بهم ، أو روى عنهم الأخبار والأشعار ، وتقويمه لفنون القول بل للفن عامة من زاوية النظرة الأخلاقية والدينية .

أجل انه لم يقوم الأدب وحده من هذه الزاوية بل قــوم الفــن بصفة عامة ، وكل سلوك انسانى بصفة أعم من خــلال هــذه النظــرة الأخلاقيــة .

ولعله يحسن بنا أن نشير الى واحد من هذه المواقف التى لا علاقة لها بالأدب ، والتى شملها مؤلف الذخيرة بتلك النظرة .

عقد فصلا فى القسم الرابع من كتابه تحت هذا العنوان : « ذكر الخبر عن بعض ما تناهى اليه المأمون من تشييد البنيان بقصور طليطلة» قال فيه : « ثم أخذ المأمون فى بناء مجلسه الكبير ، المكرم ، بناء باء باثمه ، وخلا سريعا من اسمه ... » . (1)

ولسنا فى حاجة الى التعليق على قوله : « باء باثمه » فهو ممن يرى أن التطاول فى البناء اثم يرتكبه من أمر به ، ويستحق عليه العقاب. وفى خلو ذلك القصر من اسم صاحبه سريعا ، عبرة لمن يريد أن يعتبر .

ولكن الذى نريد أن نتناوله بشىء من التفصيل هو موقفه من بعض الأغراض الشعرية التى يتجلى فيها — أكثر من غيرها — الموقف الأخلاقى الذى يصدر عنه ابن بسام فى اطلاق أحكامه النقدية ، والتى تنحصر على الأخص فى الهجاء والغزل . وقبل ذلك نتحدث بشىء من التفصيل عن موقفه من ابن حيان .

1 — موقف ابن بسام من المؤرخ ابن حيان :

ان الموقف الأول الذى يصدم الدارس لكتاب ابن بسام هو الاجراء السلبى الذى اتخذه ، والذى يتمثل فى اغلاق باب « الذخيرة » فى وجه الأشعار التى قيلت فى الهجاء . قال : « و ... صنت كتابى هذا عن شين الهجاء ، وأكبرته أن يكون ميدانا للسفهاء » . (2)

ونجد المؤلف يكرر مثل هذا الكلام فى مواطن عديدة من تأليفه ، منها قوله فى ترجمة السميسر : «وله مذهب استفرغ فيه مجهود شعره من القدح فى أهل عصره ، صنت الكتاب عن ذكره » . (3)

---

(1) ذ — 1/4 — ص 114 (المطبوع) .
(2) ذ — 1/1 — ص 61 .
(3) ذ — 2/1 — ص 373 .

ونحن نتذكر أنه اتخذ نفس الاجراء السلبى مع الموشحات حين أضرب عن ايراد شيىء منها فى تصنيفه . وان لم يبلغ التزامه بهذا الموقف فى الهجاء كما بلغ فى الموشحات .

ولكن الهجوم الكبير الذى شنه على الهجاء والهجائين قد استهدف له ابن حيان (1) المؤرخ الذى نقل عنه بعض فصوله التاريخية ، أكثر مما استهدف له أى أديب آخر .

ونحن لا بد أن نقف وقفة قصيرة عند هذه القضية لأننا كنا نظن أن ابن حيان قد أحرز على كل ثقة ابن بسام . ولكننا وجدناه فى الفصل الذى خصصه له ، يحمل عليه حملة شديدة حتى كأنه من ألد أعدائه .

ذلك أن الخلاف بين الرجلين خلاف عميق لأن موضوعه الجانب الأخلاقى . وهذه هى الزاوية الثانية التى يقوم من خلالها ابن بسام وهى التى حجبت عليه كثيرا من فضائل الرجل وحسناته فجاء حكمه عليه قاسيا للغاية اذ تجاوز القيمة الأخلاقية الى القيمة الأدبية نفسها .

فما هو ذنب ابن حيان فى نظر ابن بسام ؟

ان الذنب الأكبر الذى يؤاخذه عليه هو : تناول أعراض الناس . وفى ذلك يقول : « فانه أخطأ التوفيق وما أصاب ، اذ جاء أكثر كلامه كما قال ابن الرومى :

مهما تقل فسهام منك مرسلة
وفوك قوسك ، والأعراض أغراض
وما تكلمت الا قلت فاحشة
كأن فكيك للأعراض مقراض » (2)

---

(1) ترجمنا له فى الفصل الرابع .
(2) ذ — 2/1 ص 84 .

ثم يبسط مآخذه عليه مستعملا أسلوب تأكيد الذم بما يشبه المدح حتى لكأن عبقرية ابن حيان لا تكون الا عند ايذاء الناس • يقول ابن بسام : « فقد كان (أى ابن حيان) سهما لا ينمى رميه ، وبحرا لا ينكش آذيه ، لو ثلب الماء ما نقع ، أو تعرض لابن ذكاء ما سطع ، يتناول الأحساب قد رسخت فى التخوم ، وأنافت على النجوم فيضع منارها ، ويطمس أنوارها ، بلفظ أحسن من لقاء الحبيب غب الموعد ، وأمكن من عذر الطبيب عند العود» • (1)

على أن ابن بسام لم يطلق هذا القول دون دعمه بالحجج القاطعة التى تمثلت فى تلك الكثرة الكثيرة من الفقرات التى أوردها لابن حيان وكلها فى ذم الناس ، وكشف مثالبهم ، والتشديد على عيوبهم ونقائصهم • (2)

والعجيب أن ابن بسام قد اتخذ أسلوبا منافيا لأمانة النقل حين لجأ الى كل هذه الفقرات المتضمنة للقدح وكشف العيوب فحذف أسماء الرجال وعوضها بقوله « فلان » وهو بذلك أرضى منهجه الأخلاقى ، وأخضع النص الذى ينقله عن غيره لنظريته الخاصة ، وان أسخط كثيرا من الناس الذين وجدوا فى ذلك — وهم على حق — انه بفعلته تلك قد أفقد النصوص قيمتها التاريخية • ونحن الآن أشد احساسا بقيمة هذه الخسارة لأننا لا نملك وسيلة لمعرفة هؤلاء الرجال نتيجة لفقدان الجانب الأكبر من كتب ابن حيان •

ومن الطبيعى أن يختلف الرجلان لأنهما لا ينظران الى الحياة نظرة واحدة ، فأحدهما أديب ولكن الجانب الاصلاحى هو الطاغى عليه يريد أن يقوم ما انحرف من الحياة العمومية فهو حريص على استبعاد كل ما لا يخدم هذا الهدف ، وهو حريص من ناحية أخرى على التشهير بمن

(1)ذ — 2/1 ص 85 .

(2) يمكن مراجعة هذه الفقرات فى كتاب الذخيرة 2/1 من ص 97 الى ص 113 .

يتعاطون نشاطا يرى فيه تجسيدا لذلك الانحراف الذى يحاربه • والثانى رجل همه أن ينقل الواقع وأن يسجله لتتداوله الأجيال ، فهو لا يقوم معوجا ، ولا يصلح فاسدا ، وانما يتحدث عن الفاسدين كما يتحدث عن الصالحين ، لأنه يلتقط صورة المجتمع فى مرحلة من مراحل مسيرته الزمنية ، وليس يعنيه بعد ذلك أن يصلح ما أفسد الدهر •

كان هذا ، فى الواقع ، موقف ابن بسام مما يمكن أن نسميه القدح بأوسع معانيه ، لأن ابن حيان لم يهج انسانا هجوا أدبيا بالمعنى المعروف لهذه الكلمة فى تاريخ الأدب العربى • أما موقف ابن بسام من الشعر الهجائى خاصة ، فتلك قضية أخرى نتناولها فيما يلى ببعض التفاصيل •

2 — موقفه من الشعر الهجائى :

لقد أثبتنا لابن بسام ، منذ حين ، عبارات أعلن فيها قراره القاضى بصون كتاب الذخيرة عن الذم والقدح ، لأنه لا يرتضى له أن يكون ميدانا للسفهاء • ونحن نجد له بعد ذلك عبارات أخرى أشد صراحة فى التبرأ التام من كل ما له علاقة بالشعر الهجائى ، وردت فى التعريف بأخبار ولادة بنت المستكفى بالله ، صاحبة ابن زيدون • فلقد قال عنها : «وكانت زعموا — تقرض أبياتا من الشعر ، وقد قرأت أشياء منه فى بعض التعاليق ، أضربت عن ذكره ، وطويته بأسره ، لأن أكثره هجاء ، وليس له عندى اعادة ولا ابداء ، ولا من كتابى أرض ولا سماء » • (1)

وهكذا أفقدنا ابن بسام بتصلبه فى هذا الموقف جانبا من انتاج هذه الأديبة المتميزة ، التى ربما كان اطلاعنا على قصائدها الهجائية هذه يزيدنا معرفة بها وبأدبها ومجالسها ، وما وراء الهجاء من أخبار عظيمة الأهمية •

(1) ذ — 1/1 — ص 379 .

والطريف أن ابن بسام لا يكتفى باضرابه هو عن ايراد شعر الهجاء ، بل يلوم أبا منصور الثعالبى ، صاحب كتاب « يتيمة الدهر » على ايراده مثل هذا الشعر فى كتابه ، وذلك حيث يقول : « فان أبا منصور الثعالبى كتب منه (أى من الهجاء) فى «يتيمته» ، ما شانه وسمه ، وبقى عليه اثمه» (1) ونحن نعرف مقدار احترام المؤلف للثعالبى ، ومقدار احترامه لكتابه ، فاذا قال عنه ما قال فلأنه يشفق عليه من اثم صنيعه ، ويود أن لو أهمل هذا الجانب من الشعر .

أقسام الهجاء عند ابن بسام :

قسم المؤلف الهجاء الى أقسام ، انطلاقا من اهتماماته الأخلاقية بالذات ، اذ كان عليه أن يميز الحد الفاصل بين ما يمكن قبوله والسماح به ، وما لا يمكن بحال من الأحوال أن يقبل لأنه مناف للأخلاق منافاة شديدة .

قال المؤلف : « والهجاء ينقسم قسمين ، قسم يسمونه :

ـ هجو الأشراف : وهو ما لم يبلغ أن يكون سبابا مقذعا ، ولا هجرا مستبشعا ، وهو طأطأ قديما من الأوائل ، وثل عرش القبائل ، انما هو توبيخ وتعيير ، وتقديم وتأخير ...» (2)

ـ السباب الذى أحدثه جرير وطبقته :

وكان يقول : اذا هجوتم فأضحكوا وهذا النوع منه لم يهدم قط بيتا ولا عيرت به قبيلة ، وهو الذى صنا هذا المجموع عنه ، وأعفيناه أن يكون فيه شىء منه » . (3)

---

(1) ذ ـ 1/1 ـ ص 63 .
(2) ذ ـ 2/1 ـ ص 61 .
(3) ذ ـ 2/1 ـ ص 61 ـ 63 .

ونحن لن نورد كل الأمثلة التى ضربها للقسم الاول من الهجاء ، وكان همه فيها أن يبين أن ذلك النوع من الهجاء أوجع للمهجو ، وأبقى أثرا فى النفوس ، على ما هو عليه من قلة البذاءة ، وخلوه من الفحش ، بل أن قوة تأثيره فيمن قيلت فيه قد بلغت حدا جعل المهجوين يستعدون الخلفاء على الشعراء ، وكاد أولئك أن يحدوهم لولا أنهم درؤوا الحد بالشبهات ، كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع النجاشى .

أما الهجاء الذى أحدثه جرير وطبقته ، أى الفرزدق والأخطل وغيرهما ، فانه يجمع الى بذاءته ، وفحشه ، سطحية التأثير اذ « لم يهدم قط بيتا ، ولا عيرت به قبيلة » .

ولقد بالغ ابن بسام دون شك فى التهوين من أثر هذا النوع الثانى من الهجاء ، بينما نعرف من الروايات التاريخية المشهورة أن أشعار جرير والفرزدق قد كان لها أبلغ الأثر فى تشويه سمعة القبائل والغض من شأنها ، ولكن يبدو أن ابن بسام لا يقصد بشعر جرير وطبقته كل ما قالوه من شعر فى الهجاء وانما يميز فيه بين ما هو من قبيل هجو الأشراف ، وما هو من قبيل السباب ، ولذلك نراه يعترف لبيت جرير المشهور ، فى بنى نمير ، بقوة التأثير ، وشدة الوقع . وهو قوله :

فغض الطرف انك من نمير
فلا كعبا بلغت ولا كلابا .

ولعلنا قد لاحظنا أن ابن بسام الناقد ، وابن بسام المصلح لا يكادان يفترقان ، فهو قد ميز بين أنواع الهجاء ليدل على قيمة نوع معين ، وهو يتناول من الناحية الفنية الخالصة النوعين ويبين أن هجاء الأشراف أجود وأرقى . وكأنه يدعو الهجائين الى الأخذ بالنوع الأول ان كان لا بد لهم من ذلك .

وهناك قسم فرعى من الهجاء يسمى التعريض ، ولكن ابن بسام يبدى سخطه عليه ، ذلك أن التعريض ليست له حدود واضحة المعالم

تفصله عن الهجاء الفاحش • ولعل الأصح أن نقول ان ابن بسام يكره من التعريض هذا النوع الذى لا تكون بينه وبين الهجاء مثل تلك الحدود•

أورد مقطوعة من الشعر لأبى عامر بن شهيد ، هى :

ابو جعفر رجل كاتب
مليح شبا الخط ، حلو الخطابه
تملأ شحما ولحما وما
يليق تملؤه بالكتابه
وذو عرق ليس ماء الحياء
ولكنه رشح فضل الجنابه
جرى الماء فى سفله جرى لين
فأحدث فى العلو منه صلابه • (1)

وكان ابن شهيد قد قال فى التمهيد لهذه المقطوعة متحدثا عن أبى جعفر المهجو :

« فلم أستحسن الافحاش ، فقلت فيه معرضا ، اذ التعريض من محاسن القول » • (2)

ويعلق ابن بسام على أقوال ابن شهيد بهذه العبارات « وليت شعرى ما التصريح عند أبى عامر (ابن شهيد) اذ سمى هذا تعريضا ؟ ولولا أن الحديث شجون ، و التتابع فيه جنون ، والكلام اذا لان قياده ، سهل اطراده ، واذا قرب بعضه من بعض ، لم يفرق فيه بين سماء وأرض ، لما استجزت أن أشين كتابى بهذا الكلام البارد معرضه ، البعيد عن السداد غرضه ، وقد يطغى القلم ، وتجمح الكلم» • (3)

---

(1) ذ — 1/1 — ص 263 •
(2) نفسه •
(3) نفسه •

وواضح من هذا الكلام أن صاحب « الذخيرة » قد ندم على ايراده مثل هذا الشعر الفاحش ، وانما انساق وراء الكلام انسياقا ، لأن القلم فى يد الكاتب — أى كاتب — يجمح أحيانا بحيث يعسر رده •

ولا يعتقدن أحد أن المؤلف يكره الشعر الفاحش لمجرد فحشه ، فهو حين يأخذ فى البحث عن المعانى المتشابهة يورد أبياتا هى غاية فى الفحش والبذاءة • من ذلك أنه توقف عند البيت الثالث من المقطوعة التى أوردناها منذ حين لابن شهيد « وذو عرق ليس ماء الحياء » البيت • فأورد بعض الأبيات التى تتضمن معانى مشابهة لمعناه ، أين منها فحش ابن شهيد ! ولولا ضرورة استيفاء هذه الظاهرة حقها عند المؤلف لما أقدمنا نحن على اثبات تلك الأبيات •••

ونحن نفضل ألا نورد من تلك الأبيات والمعانى شيئا ، مراعاة منا للأخلاق العامة ••• وهى ثابتة فى النسخ المطبوعة من الكتاب فليرجع اليها من شاء الوقوف عند حقيقة هذه الظاهرة لدى ابن بسام • (1)

والذى تبين لنا بوضوح أن ابن بسام انما يتحرج من ايراد مقطوعة أو قصيدة من الهجاء فى شخص يذكر باسمه ، فذلك فيه ايذاء للناس ، ومس بأعراضهم لا ترتضيهما الأخلاق الفاضلة ، أما اقتطاف بيت من قصيدة ، ليس فيه أية اشارة الى انسان بعينه ، ولا فيه ما يوحى بشخص معروف ، فابن بسام لا يجد حرجا فى ذلك مهما بلغ الشعر من الفحش والبذاءة •

وهكذا نستطيع أن نستخلص أن السباب كالتعريض الذى هو أقرب الى التصريح ، نوعان يكرههما ابن بسام أشد الكره ، وأنه ربما استجاز

---

(1) ذ — 1/1 — ص 264 •

هجو الأشراف الذي لا « تستحي العذراء من انشاده في خدرها » (1)
أما النوع الذي هو أحسن أنواع الهجاء في نظره فهو التلويح بالمعاريض .

التلويح بالمعاريض : أحسن أنواع الهجاء :

وسبب تسامح ابن بسام مع هذا النوع واضح أشد الوضوح لأنه يخبرنا عنه بنفسه حين يقول : « وقد أرخص الفقهاء في المعاريض ، وقال بعض السلف : في المعاريض مندوحة عن الكذب » . (2)

والتلويح بالمعاريض انما هو ايماء الى شيء معين ، معروف في الغالب ، دون التصريح به . ويكون التلويح بالمعاريض في الهجاء كما يكون في غيره وقد تحدث ابن بسام طويلا عنه ، وأورد أمثلة كثيرة من السيرة النبوية وتاريخ الخلفاء .

فمن المعاريض «قوله عليه السلام للمرأة : علمي حفصة رقية النملة ، وكانت حفصة عليها السلام عندما يريدها صلى الله عليه وسلم ربما تأبت ، فأراد أن يلحن لها برقية النملة ، وكانت العرب ترقيها في الجاهلية . يقول لها : العروس تكتحل وتحتفل ، وكل شيء تفتعل ، غير تعاصى الرجل» . (3)

وليس في هذا المثال بالطبع شيء من الهجاء ، ولكن النوع الذي هو من قبيل المدح والذم والهجاء نجده في أمثلة أخرى يذكرها ابن بسام . منها قوله : « وحضر باب عبد الملك (ابن مروان) ناس من العرب فيهم تميمي ونميري ، فمر عليهم رجل يحمل بازيا ، فقال التميمي : ما أحسن هذا البازي ، فقال النميري : أجل ، وهو يصيد القطا . أراد التميمي قول جرير :

(1) ذ — 2/1 — ص 62 .
(2) ذ — 1/1 — ص 409 .
(3) ذ — 1/1 — ص 408 .

أنا البازي المطل على نمير
أتيح لها من الجو انصبابا

وأراد النميري قول الطرماح :

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا
ولو سلكت سبل المكارم ضلت » (1)

الى غير ذلك من الأمثلة التي ساقها ابن بسام وهي كثيرة .

والحق أن هذا هجاء من نوع خاص ، لا يسب فيه الرجل الرجل بقول من عنده ، وانما يومىء الى قول معروف من أقوال شاعر ما ، فيرد عليه الآخر باشارة من النوع نفسه .

هذا هو النوع الذي ترتاح اليه نفس ابن بسام . ومصدر هذه الطمأنينة هو دون شك ترخيص الفقهاء بهذا الضرب من الكلام وان كنا لا ندري بالتأكيد هل سمح الفقهاء بالمعاريض التي هي من طراز المثال الأول وحده ، ذلك الذي روى عن الرسول والذي ليس فيه شيء لا من القدح ولا من السباب ، أم سمحوا أيضا بالمعاريض التي هي من طراز المثال الثاني ، والتي هي لعمري هجاء أو شيء ليس بالبعيد جدا عن الهجاء . فالقدح فيما نرى هو هو ، سواء كان بلفظ الرجل نفسه ، أم بلفظ غيره .

وهكذا كان موقف ابن بسام من الهجاء ، رأى فيه مساسا بالأعراض، وايذاء للناس ، فسعى الى اجتنابه ، وصيانة كتابه عنه . ووقف منه موقفا شديد الحزم والصرامة ، فلم يسترخص الا ما سمح به الفقهاء . على أن قلمه كان يجمح أحيانا ، فينساق معه الى شيء من الهجاء كما وقع له في الفصل الذي تحدث فيه عن ابني حزم : أبي المغيرة وأبي محمد ، وان كان ما أورده منه أقرب الى عتاب رجل لابن عمه ، منه الى القدح والسباب .

(1) ذ — 1/1 — ص 406 .

ولعله يحسن بنا أن لا نختم الحديث عن موقف ابن بسام من الهجاء قبل أن نشير الى أن هذا الموقف ليس فى الحقيقة رفضا مطلقا لشعر القدح ، ذلك أننا وجدناه يذكر فيما يذكر من تآليفه كتابا له سماه «ذخيرة الذخيرة» وقد تناولناه بالحديث فى الفصل الأول من هذه الدراسة ، وبينا آنذاك أنه خصصه لشعر الهجاء الذى لم يستسغ تضمينه كتاب الذخيرة، ولفتنا الانتباه الى أن المستشرق الاسبانى بلنثيا قد توهم أنه من شعر ابن بسام نفسه ، وتابعه فى هذا الرأى بعض الذين كتبوا عن صاحب الذخيرة من العرب المحدثين .

ومما لا شك فيه أن بين الموقفين تعارضا كبيرا يصعب تفسيره . فهو من ناحية قد شن حملته المعروفة على شعر الهجاء وأضرب عن ايراد شىء منه فى كتاب الذخيرة ، وهو من ناحية ثانية يفرد كتابا بأكمله لهذا الفن ويسميه « ذخيرة الذخيرة » .

والتفسير الوحيد الذى نستطيع أن نقدمه لتعليل هذا التناقض هو أن صدور الأجزاء الأولى من « الذخيرة » ربما كان قد لفت أنظار بعض الأدباء وأصحاب الآراء الأدبية الى أن خلو الكتاب من هذه الأشعار ثغرة فيه ، ونقص كبير يسيىء اليه . وربما فاتحوا المؤلف فى ذلك . ونظر ابن بسام فى الأمر فرأى أنه لا يمكن أن يتخلى عن موقفه بالنسبة الى كتاب « الذخيرة » بالذات ، لأنه أمنية العمر التى تحققت ، والتحفة التى يبغى اخلاءها من كل عيب لتتوارثها الأجيال سليمة من كل مطعن أخلاقى كبير، ورأى أن فى مآخذ قرائه نصيبا من الحق فقرر التوفيق بين الموقفين بافراد كتاب للأشعار التى كان مكانها الحقيقى فى كتاب الذخيرة ، وسماه « ذخيرة الذخيرة » .

وسواء صح هذا التفسير أو لم يصح ، فاننا لا نستطيع أن نجزم برأى مقبول فيه دون أن نتمكن من دراسة هذا الكتاب ، وتحليل مادته ، ومعرفة نوع الأشعار الهجائية التى تضمنها .

3 ـ موقف ابن بسام من شعر النسيب :

من المؤكد أن شعر الغزل ، أو النسيب كما يحلو لابن بسام أن يسميه فى أغلب الأحيان ، موضوع يصلح للتقويم الأخلاقى أكثر من سائر الموضوعات الأخرى . وصاحب الذخيرة قد شمله ، كما هو متوقع ، بنظرته الأخلاقية ، فأحب منه ما ترضى عنه الأخلاق ، وكره منه ما لا ترضاه .

ولعل أحسن ما يمثل لنا هذا الموقف من الغزل بحث المؤلف فى الأثر النبوى الشريف عما يستأنس به من الأقوال المأثورة . فلقد قدم لبعض المقطوعات الغزلية بقوله : « ثم أعود الى ملح أهل أفقنا وأرجع اليها ، وأكر بعد عليها . وأقدم أولا الحديث : من أحب فعف ومات فهو شهيد . والعفاف مع البذل . كالاستطاعة مع الفعل » . (1)

وواضح أن شعر النسيب الذى يراه صاحب « الذخيرة » جديرا بالاعجاب انما هو ذلك الذى وصف فيه قائله مواقف العفة والامتناع عن الانسياق وراء الغرائز .

وفيما يلى نستعرض نماذج من الغزل العفيف ومواقف ابن بسام منها . ونبدأ بالمقطوعة التى أثبتها للاديب أحمد أبى جعفر بن الابار الذى قال عنه انه « أحد شعراء المعتضد المحسنين » . وهى :

لم تدر ما خلدت عيناك في خلدى
من الغرام ولا ما كابدت كبدى
أفديك من زائر رام الدنو فلم
يسطعه من غرق في الدمع متقد
خاف العيون فوافاني على عجل
معطلا جيده الا من الغيد

(1) ذ ـ ق/2 ـ ص 78 مخ القاهرة .

سقيتــه الكــأس فاستحيت مدامعهـا

من ذلك الشنــب المعســـول بالبرد

حتى اذا غازلــت أجفانـــه سنـــة

وصيرتـــه يد الصهبـــاء طوع يــــدى

أردت توسيــده خـــدى وقــل لــــه

فقال كفك عنـــدى أفضـــل الوســــد

فبـــات في حـــرم لاغـــدر يذعـــره

وبت ظمآن لــم أصدر ولــم أرد (1)

ويعلق ابن بسام على هذه المقطوعة الرائعة حقا بقوله : « وهى ... رائقة ، ومتأخرة سابقة، فى التزام العفاف مع السلاف، وما سمعت بأبدع منها لاحد من هذا الافق» (2) . ثم يضيف بعد كلامه السابق مباشـرة « وانما اثبت هنا بعض مقطوعات فى معناها لاهل المــشرق » ويأخذ فى ايراد بعض المقطوعات من اشعار المشارقة فى الغزل العفيف مبتدئا بقول أبى مسلم بن الوليد صريع الغواني .

الا رب يـــوم صـــادق العيش نلتـــه

بهـــا ونـدامــاى العفافـــة والبـــذل

والذى يلفت الانتباه أنه وجد لبعض الفقهاء شعرا فى الغزل فوقف عنده، وأثبت حكاية المقطوعتين اللتين أوردهما منه، وكأنه يفعل ذلك لتطمئن نفسه أكثر الى أنه على الطريق المستقيم فيما ذهب اليه من أمر النسيب.

يقول ابن بسام : « واجتمع أبو الـــعباس ابن سريج الشافعــى ، وابو بكر ابن داود القياسى فى مجلس الوزير ابن الـــجاج ، فتناظرا فى الايلاء، فقال له ابن‌سريج أنت بقولك : من كثرت لحظاته، دامت حسراته أبصر منك بالكلام فى الايلاء . فقال له ابو بكر فان قلت ذلك فانى أقول:

---

(1) ذ — ق/2 — ص 78 ، مخ . القاهرة .

(2) نفســه .

أنزه في روض المحاســـن مقلتـــى

وأمنع نفســى أن تنـــال المحرمــــا

وأحمل من ثقل الـــهوى ما لـــوأ نـــه

يصـــب على الصخر الاصـــم تهدمـــا

وينظر طرفى عن مترجـــم خاطـــرى

فلولا اختـــلاســـى رده لتكلمــــا

رأيت الهوى دعوى من النـــاس كلهـــم

فلست أرى حبـــا صحيحـــا مسلمـــا

فقال أبو العباس : بم تفخر على ، ولو شئت أنا أيضا لقلت :

ومطاعـــم الشهـــد من نفثاتـــــه

قدبـــت أمنعـــه لـــذيـــذ سناتـــه

صبـــا بحســـن حديثـــــه وكلامـــه

وأكرر اللحـــظات في وجناتـــــه

حتى اذا مـــا الصبـــح لاح عمـــوده

ولـــى بخـــاتـــم ربـــه وبـــراتـــه

فقال أبو بكر : يحفظ عليه ما قال حتى نقيم شاهدى عدل أنه ولى بخاتم ربه . قال أبو العباس يلزمنى فى ذلك ما يلزمـك بقولك : أنزه فى روض المحاسن مقلتى ، البيت . فضحك الوزير ابن الـــجاج وقال لقد جمعتما ظرفا ولفظا ، وفهما وعلما» . (1)

ويستمر كذلك فى ايراد النماذج الجيدة من شعر المشارقة فى الغزل العفيف فيورد مقطوعـــة للشريف الرضى ، وبيتين للمتنبى ، ثم يعـــود للأندلسيـــين ويبـــدأ بمقطوعتين للشاعر الرمـــادى ، ثم ينتقـــل الى مقطوعة للحصرى الكفيف ، ولكن المقطوعة التى اعجبته انما هى للجيانى صاحب «الحدائق» ، والتى يقول فيها :

---

(1) ذ — ق/2 — ص 80 مخ . القاهرة .

وطائعة الوصال غدوت عنها
وما الشيطان فيها بالمطاع
وما من لحظة الا وفيها
الى فتن القلوب لها دواع
فملكت الهوى جمحات شوقى
لاجرى في العفاف على طباعى
كذلك الروض ما فيه لمثلى
سوى نظر وشم من متاع (1)

ويختم ابن بسام هذه الجولة فى الشعر الغزلى العفيف بالعودة الى أبى جعفر ابن الابار — الذى جاءت هذه المقطوعات فى الفصل المخصص له — فيورد له مقطوعة أخرى فى نفس الموضوع ، نقتطف منها الابيات الاربعة الاخيرة :

فأردت جنة نحره
ونعيمها دانى القطاف
وضممت ناعم عطفه
ضم المضاف الى المضاف
فورعت فى حسن الجنى
وكففت عن فوق الكفاف
وعصيت سلطان الهوى
واطعت سلطان العفاف (2)

ويعلق ابن بسام على المقطوعة السابقة بقوله : « وما أملح هذه الملح ، وما أقبح ما أنشدت فى ضدها لعبد الجليل حيث يقول ... » (3). بهذه العبارة ينتقل ابن بسام الى النوع الذى لايعجبه من الغزل ، وهو

(1) ذ — ق/2 — ص 82 مخ . القاهرة .
(2) ذ — ق/2 — ص 83 .
(3) ذ — ق/2 ص 83 — 84 .

الغزل الفاحش ، أو الصريح كما يسميه . ويورد لعبد الجليل هذه الابيات :

تعرض لى ليسقط فى حبالى
سقوط تعمد شبه اتفاق
وبات على المدامة لى نديما
وبين جفونه للغنج ساق
الى أن مال من سنة الحميا
وقام الليل ممدود الرواق
وحل معاقد الهميان عنه
بسمط كاد يعقدها رقاق
وصار على كرامته بساطا
ولفت بيننا ساق بساق (1)

ويتوقف صاحب « الذخيرة » عند هذا الحد لايتعداه ، اذ يبدو أن الابيات التالية قد غلا فيها صاحبها ، وجاوز الحد الذى يستطيع ابن بسام أن يتحمل مشقة قبوله فى كتابه . ولذلك نجده يقول : « وبعد ما أضربت عنه ، وصنت كتابى منه» . (2)

والحق أننا لا نجد فى ما أورده من أبيات هذه المقطوعة الفحش الذى كنا نتوقعه ، فان الطابع الغالب عليها يبقى على كل حال هو الايماء والاشارة الدالة ، باستثناء البيت الاخير . وليست القصيدة الكاملة بين أيدينا لنستطيع الحكم على مدى ما فيها من الفحش ، ولكن الذى لفت انتباهنا هو اضرابه عن ايراد بقية الابيات ، وتصريحه بأنه يصون كتابه عما فيها من الفحش ، وهو موقف شبيه بموقفه من أشعار الهجاء حين ربأ بكتابه أن يكون ميدانا له، وللسفهاء من الشعراء . ولو أنه استمر على هذا

(1) ذ — ق/2 ص 83 .
(2) ذ — ق/2 — ص 84 .

ونجد ابن بسام يخص باللوم الشاعر الفرزدق حين يعده « ممن سلك ايضا هذا السبيل من الشعراء المجاهرين بالمجون ، الناطقين بألسن الشياطين » (1) وذلك لمجرد قوله :

هما دلتاني من ثمانين قامة
كما انقض باز اقتم الريش كاسره

ومما لاشك فيه أن موقف ابن بسام من شعر النسيب الفاحش قد جاء ألين بكثير من موقفه من شعر الهجاء . والذى نحسه من قراءة ما كتبه بنفسه ، وما قاله فى تعليقاته على المقطوعات التى اوردها أنه كان فى صراع مع نفسه بين المعانى الجميلة التى نعرف درجة تأثره بها ، وبين المنهج الاخلاقى الذى يمنعه من المبالغة فى استحسانها . فكان لذلك يعود فى الفينة بعد الفينة الى التذكير بمبادئه الاخلاقية فيقول مثلا : « وما أقبح ما أنشدت فى ضدها » أو يكرر عبارته السابقة فى الفرزدق ومن سلك مسلكه من أهل المجون .

على أن هذا الكلام لايعنى فى نظرنا أن ابن بسام ليس صادقا فى تحرجه من هذه الاشعار الفاحشة . انه يتحرج منها بالفعل ويراها مما يسيىء الى سلوك الانسان ، ويسقط من قدره وقيمته ونسوق على هذا الرأى ما قاله فى الشاعر الوزير ابن عمار الذى نعرف مقدار احترامه له واعتنائه بشعره اذ أنه أفرد له واحدا من مؤلفاته هو « نخبة الاختيار فى أشعار ابن عمار » .

ولكن كل ذلك لم يمنعه من أن يقول فيه رأيه — من هذه الزاوية — بكل صراحة: « يجرى ابن عمار فى أكثر ما له من الاشعار، جرى الجموح ولا يقنع بالكناية عن مذهبه الا بالتصريح لانه كان سمح الله له — مع ما مكن من دهره، من تدبير الاقليم، وانبسطت بنانه فى التأخير والتقديم،

(1) ذ — ق/2 — ص 88 .

واجترأ على الايام ، واقتاد من الجماهير العظام — زيرقيان وغلمان ، وصريع راح وريحان ...» (1)

ولعلنا لسنا فى حاجة الى التنبيه على مدى تحسره على هذا الرجل العظيم الذى كان، وكان ... ولكنه على الرغم من ذلك أوجد لنفسه طريق المؤاخذة والطعن بجموحه ، ولهوه ومجونه . والذى نراه أهم من ذلك هو قوله بالذات : « ولا يقنع بالكناية عن مذهبه الا بالتصريح » لان هذه العبارة هى الاساس الذى يقوم عليه موقف ابن بسام من قضية النسيب . فهو يفضل النسيب العفيف ، وهو قد يتسامح فى النسيب « الاخر » ولكن بشرط أن يكنى الشاعر عما يريد ، كما فعل أبو القاسم الاشبيلي مع « زيدها وعمرها » ولو كانت الكناية قريبة التناول ، ولو كانت الاشارة سهلة الادراك ، وانما المهم أن لاتكون تصريحا مكشوفا من قبيل عبارة ابن وهبون «ساق بساق» وذلك على الرغم من أن الفحش أكبر فى العبارة الاولى .

هذا موقف ابن بسام ، ولكننا لم نتحدث عن موقفه من الغزل بالمذكر ، أو بالغلمان كما يسمونهم ، وهو جانب هام فى ما أورده من أشعار النسيب ، لا تكتمل لدينا نظرة المؤلف الى الغزل بكل أنواعه الا اذا تناولناه بالحديث .

ان الذى ادهشنا حقا لدى ابن بسام هو تسامحه فى ايراد الاشعار التى قيلت فى الغلمان . ولئن كنا نتوقع منه موقفه ذلك من شعر النسيب الصريح ، فان الذى كنا ننتوقعه أيضا هو الهجوم الشديد على التغزل بالغلمان ، وذلك بقطع النظر عن تفاوت الشعراء فى التصريح أو التلميح. كنا نتوقع ، بعبارة أخرى ، أن يقف صاحب «الذخيرة» موقفا أخلاقيا من هذه القضية . ولكن من حيث الجوهر ، لا من حيث الشكل ، فيحمل

(1) ذ — ق/2 — ص 238 . مخ القاهرة .

على ظاهرة الشذوذ التي ليست من الاسلام في شيء ، لا أن يقنع بمجرد البحث عن الابيات التي يكتفي فيها أصحابها بالكناية عما يقصدون .

ويفهم من كثرة ما أورده من الشعر المتصل بهذا الباب ، لطوائف مختلفة من الشعراء ، وبعضهم من أعيان الناس ، بل ومن الفقهاء أيضا ، أن هذا الشذوذ قد بلغ في الاندلس — كما كان قد بلغ في المشرق — من الشيوع والانتشار مبلغا اصبح لايبالي معه أحد ، وحتى المتزمتون ، والمحافظون من الناس ، بما فيه من الانحراف .

ومن أمثلة النماذج المشرقية التي اوردها : المقطوعة التي مهد لها بقوله :

«وأنشد الصولي لأبي حاتم السجستاني في أبي العباس المبرد ، وكان يلزم حلقته وهو غلام وسيم :

ماذا لقيت اليوم من
متمجن خنث الكلام
وقف الجمال بوجهه
فسمت له حدق الانام
واذا خلوت بمثله
وعزمت فيه على اعتزام
لم اعد افعال العفاف
وذاك اكرم للغرام
فارحم اخاك فانه
نزر الكرى ، بادي السقام
وانله ما دون الحرام
فليس يرغب في الحرام » (1)

ويضيف ابن بسام بعد هذه الابيات : « وكان أبو حاتم يتصدق في كل يوم بدينار ، ويختم القرآن في كل أسبوع » (2)

(1) و (2) ذ — ق/2 — ص 79 — 80 مخ . القاهرة .

والجدير بالاهتمام في هذا القول ليس هو تغزل أبي حاتم بتلميذه الوسيم أبي العباس المبرد ، وانما هو في الخبر الذي ساقه عن أبي حاتم ، والذي يبين شدة تدينه وورعه بحيث انه يتصدق كل يوم ، ويختم القرآن كل اسبوع . ولكن ورعه لم يمنعه من قول ما قال في تلميذه . فابن بسام يرى أيضا أن لاغضاضة في التغزل بالغلمان ، وانما حسب المرء أن يعف قولا وعملا .

وبامكاننا أن نتساءل اين يبدأ الحرام واين ينتهي الحلال في مثل قول السجستاني « وأنله ما دون الحرام » ، البيت ؟...

لقد كان حريا بابن بسام ، وقد نهض لاصلاح الوضع الفاسد ، وهو الذي أتيح له في كثير من الاحيان أن يبدي سخطه على مظاهر الزيغ والانحراف في الاندلس الهابطة ، لقد كان حريا به أن يثور على مبدا الشذوذ لا أن يبحث عن ألطف الاشكال التي تنقل فيها أخباره ووقائعه ، وكان من الاليق بما نعرف له من الاستقلال في الحكم ، والتشدد في المسائل الاخلاقية ، أن يبدي رأي الدين كما هو في جوهره ، لا أن يحتج بانحراف من ينتمون ، فيما يزعمون ، أو فيما يزعم عنهم ، الى الفقه والدين . لقد كان أقرب الى المنطق أن يستنكر ابن بسام صدور مثل تلك المقطوعات عن أبي حاتم السجستاني وفي تلميذه بالذات ، فاذا كان من علماء الاسلام ، وكان ممن يختم القرآن في كل اسبوع ، فانه يكون أولى بالملامة والتوبيخ .

ولعل الانصاف يقتضينا أن نذكر بعض مواقف ابن بسام في استسخاف هذا اللون من الادب ، كما نجد ذلك في قوله عن عبد الجليل ابن وهبون : « ولعبد الجليل في هذه الصفات عدة مقطوعات نتنح بها جراب السخف ، ولم يستتر من العقل بسجف ، وقد كتبت من شعره في هذا الباب وسواه في القسم الثاني بعض ما اخترناه ... » (1)

(1) ذ — 1/1 — ص 191 .

ولكن الاستخفاف أو الاستنكار لا ينصرفان الا الى المبالغة فى التصريح ، أما المبدأ فابن بسام لايبدو أنه يعارض فيه • وحتى بالنسبة للتصريح فان للمؤلف تساهلا كبيرا فى ذلك من حيث أنه أورد لابى تمام ولغيره شعرا فيه من التصريح بالغزل المذكر ما يمنعنا الحياء من ايراده فى هذه الدراسة (1)

ويمكننا الان أن نلخص القول فى موقفه من الغزل بصفة عامة فنقول انه على مذهب الحب العفيف الذى قال عنه النبى صلى الله عليه وسلم فى ما يروى عنه من حديث : «من أحب ، فعف ، فمات فهو شهيد » • لذلك وجدناه يطرب كثيرا للمقطوعات الجميلة فى هذا النوع من الغزل ، كما لاحظنا ذلك فى تعليقاته على بعض المقطوعات التى أوردها ، ولا سيما مقطوعة أبى جعفر ابن الابار، ومقطوعة أبى فرج الجيانى •

أما بالنسبة الى الغزل الصريحفانه مما تضيق نفسه به، وان كان لايخلو من اعجاب بالمعانى الواردة فيه عند ما تكون من النوع الجيد ، وقد تردد فى موقفه من اثباته أو عدم اثباته فى كتابه • فكان يحذف احيانا بعض الابيات التى يجدها مبالغة فى التصريح ، ولكنه لم يفعل ذلك فى جميع الحالات • ويفهم من كلامه الواضح بهذا الصدد أنه يستسيغ الغزل الاباحى ، ويتقبل ايراده فى كتاب الذخيرة ، حين يقنع الشاعر بالاشارة والتلميح ، أو بالكناية كما يقول ، حتى لو كانت الكناية شفافة جدا ، تبوح بمضمونها لاول وهلة • أما التعبير عن الفحش بألفاظ صريحة كل الصراحة ، فانه مما يستثقله ويسعى فى الغالب الى الاضراب عنه، الا اذا تطلب سياق الكلام ذلك ،وتوقف الفهم عليه •

والغزل الفاحش كالغزل العفيف هو نوعان عند صاحب « الذخيرة » غزل عادى ، طبيعى ، هو الذى يكون بالنساء ، وغزل منحرف شاذ ، هو

---

(2) انظر على سبيل المثال مقطوعة أبى تمام فى ذ 1/1 ص 239 ، ومقطوعة أخرى لشاعر لم يسمه 2/1 ص 387 — 388 •

الذى يكون بالغلمان،وقد عامل هذا النوع الثانى معاملته للنوع الاول ووقف منه — تقريبا — ذلك الموقف نفسه • فما كان منه من قبيل التلميح والاشارة والكناية قبله ، وأورده ، وما كان منه من قبيل التصريح المؤذى حاول تجنبه فى أغلب الاحيان ولكنه لم يفعل ذلك فى جميع الاحوال ، ولعل عذره هنا أيضا أن سياق الحديث يفرضه فرضا بحيث لا يستطيع الافلات منه •

ولقد حاولنا أن نبين التماس المؤلف لما كان يستأنس به ، ويدخل الطمأنينة على نفسه بواسطته ، من حديث النبى ، وأقوال وأفعال العلماء المشتهرين بالورع والتدين ، ولكن ذلك لم يؤد به الى رفض الانحراف والشذوذ ، والحملة على أهلهما بما يشبه أو يدانى حملته على أصحاب الهجاء ، مما أتاح لنا أن نستنتج أن ظاهرة التغزل بالغلمان ، قد بلغت فى الاندلس ، أواخر المائة الخامسة الهجرية ، من الذيوع والانتشار ،بحيث لم يعد أحد ، ولا حتى المحافظون من أمثال ابن بسام ، يستنكرونها ، أو يرفضونها من الاساس •

ب — النقد الدينى

لقد حرصنا على التمييز بين النقد الاخلاقى والنقد الدينى ، لأنهما متميزان فى الحقيقة • اذ هناك فرق كبير بين أن يصدر ناقد ما فى أحكامه عن نظرة أخلاقية ، وقد يكون ممن لا يؤمنون بالرسالات السماوية أصلا ، وبين أن يكون أساس النظرة النقدية هو الدين نفسه • ذلك أن الالحاد شىء ، والتمسك بالأخلاق التى تواضعت عليها أجيال أمم كثيرة منذ وقت بعيد ، شىء آخر •

ومن المؤكد أننا كنا نستطيع أن ندمج هذا الجانب من النقد عند ابن بسام فيما سميناه بالنقد الاخلاقى ، ونبين طابعه الخاص ، وملامحه المتميزة ، ولكننا شئنا أن نفرد له هذا الباب من الدراسة لأنه فى رأينا

على ظاهرة الشذوذ التي ليست من الاسلام في شيء ، لا أن يقنع بمجرد البحث عن الابيات التي يكتفي فيها أصحابها بالكناية عما يقصدون .

ويفهم من كثرة ما أورده من الشعر المتصل بهذا الباب ، لطوائف مختلفة من الشعراء ، وبعضهم من أعيان الناس ، بل ومن الفقهاء أيضا ، أن هذا الشذوذ قد بلغ في الاندلس – كما كان قد بلغ في المشرق – من الشيوع والانتشار مبلغا اصبح لايبالي معه أحد ، وحتى المتزمتون ، والمحافظون من الناس ، بما فيه من الانحراف .

ومن أمثلة النماذج المشرقية التي اوردها : المقطوعة التي مهد لها بقوله :

«وأنشد الصولي لأبي حاتم السجستاني في أبي العباس المبرد ، وكان يلزم حلقته وهو غلام وسيم :

ماذا لقيت اليوم من
متمجن خنث الكلام
وقف الجمال بوجهه
فسمت له حدق الانام
واذا خلوت بمثله
وعزمت فيه على اعتزام
لم اعد افعال العفاف
وذاك أكرم للغرام
فارحم اخاك فانه
نزر الكرى ، بادي السقام
وانله ما دون الحرام
فليس يرغب في الحرام » (1)

ويضيف ابن بسام بعد هذه الابيات : « وكان أبو حاتم يتصدق في كل يوم بدينار ، ويختم القرآن في كل أسبوع » (2)

---

(1) و (2) ذ – ق/2 – ص 79 – 80 مخ . القاهرة .

والجدير بالاهتمام في هذا القول ليس هو تغزل أبي حاتم بتلميذه الوسيم أبي العباس المبرد ، وانما هو في الخبر الذي ساقه عن أبي حاتم ، والذي يبين شدة تدينه وورعه بحيث انه يتصدق كل يوم ، ويختم القرآن كل اسبوع . ولكن ورعه لم يمنعه من قول ما قال في تلميذه . فابن بسام يرى أيضا أن لاغضاضة في التغزل بالغلمان ، وانما حسب المرا أن يعف قولا وعملا .

وبامكاننا أن نتساءل اين يبدأ الحرام واين ينتهي الحلال في مثل قول السجستاني « وأنله ما دون الحرام » ، البيت ؟ . . .

لقد كان حريا بابن بسام ، وقد نهض لاصلاح الوضع الفاسد ، وهو الذي أتيح له في كثير من الاحيان أن يبدي سخطه على مظاهر الزيغ والانحراف في الاندلس العابثة ، لقد كان حريا به أن يثور على مبدا الشذوذ لا أن يبحث عن ألطف الاشكال التي تنقل فيها أخباره ووقائعه ، وكان من الاليق بما نعرف له من الاستقلال في الحكم ، والتشدد في المسائل الاخلاقية ، أن يبدي رأي الدين كما هو في جوهره ، لا أن يحتج بانحراف من ينتمون ، فيما يزعمون ، أو فيما يزعم عنهم ، الى الفقه والدين . لقد كان أقرب الى المنطق أن يستنكر ابن بسام صدور مثل تلك المقطوعات عن أبي حاتم السجستاني وفي تلميذه بالذات ، فاذا كان من علماء الاسلام ، وكان ممن يختم القرآن في كل اسبوع ، فانه يكون أولى بالملامة والتوبيخ .

ولعل الانصاف يقتضينا أن نذكر بعض مواقف ابن بسام في استسخاف هذا اللون من الادب ، كما نجد ذلك في قوله عن عبد الجليل ابن وهبون : « ولعبد الجليل في هذه الصفات عدة مقطوعات فتح بها جراب السخف ، ولم يستتر من العقل بسجف ، وقد كتبت من شعره في هذا الباب وسواه في القسم الثاني بعض ما اخترناه . . . » (1)

---

(1) ذ – 1/1 – ص 191 .

ولكن الاستخفاف أو الاستنكار لا ينصرفان الا الى المبالغة فى التصريح ، أما المبدأ فابن بسام لايبدو أنه يعارض فيه • وحتى بالنسبة للتصريح فان للمؤلف تساهلا كبيرا فى ذلك من حيث أنه أورد لابى تمام ولغيره شعرا فيه من التصريح بالغزل المذكر ما يمنعنا الحياء من ايراده فى هذه الدراسة (1)

ويمكننا الان أن نلخص القول فى موقفه من الغزل بصفة عامة فنقول انه على مذهب الحب العفيف الذى قال عنه النبى صلى الله عليه وسلم فى ما يروى عنه من حديث : «من أحب ، فعف ، فمات فهو شهيد » • لذلك وجدناه يطرب كثيرا للمقطوعات الجميلة فى هذا النوع من الغزل ، كما لاحظنا ذلك فى تعليقاته على بعض المقطوعات التى أوردها ، ولا سيما مقطوعة أبى جعفر ابن الابار، ومقطوعة أبى فرج الجيانى •

أما بالنسبة الى الغزل الصريحفانه مما تضيق نفسه به، وان كان لايخلو من اعجاب بالمعانى الواردة فيه عند ما تكون من النوع الجيد ، وقد تردد فى موقفه من اثباته أو عدم اثباته فى كتابه • فكان يحذف احيانا بعض الابيات التى يجدها مبالغة فى التصريح ، ولكنه لم يفعل ذلك فى جميع الحالات • ويفهم من كلامه الواضح بهذا الصدد أنه يستسيغ الغزل الاباحى ، ويتقبل ايراده فى كتاب الذخيرة ، حين يقنع الشاعر بالاشارة والتلميح ، أو بالكناية كما يقول ، حتى لو كانت الكناية شفافة جدا ، تبوح بمضمونها لاول وهلة • أما التعبير عن الفحش بألفاظ صريحة كل الصراحة ، فانه مما يستثقله ويسعى فى الغالب الى الاضراب عنه، الا اذا تطلب سياق الكلام ذلك ،وتوقف الفهم عليه •

والغزل الفاحش كالغزل العفيف هو نوعان عند صاحب « الذخيرة » غزل عادى ، طبيعى ، هو الذى يكون بالنساء ، وغزل منحرف شاذ ، هو

(2) انظر على سبيل المثال مقطوعة ابى تمام فى ذ 1/1 ص 239 ، ومقطوعة اخرى لشاعر لم يسمه 2/1 ص 387 — 388 •

الذى يكون بالغلمان،وقد عامل هذا النوع الثانى معاملته للنوع الاول ووقف منه — تقريبا — ذلك الموقف نفسه • فما كان منه من قبيل التلميح والاشارة والكناية قبله ، وأورده ، وما كان منه من قبيل التصريح المؤذى حاول تجنبه فى أغلب الاحيان ولكنه لم يفعل ذلك فى جميع الاحوال ، ولعل عذره هنا أيضا أن سياق الحديث يفرضه فرضا بحيث لا يستطيع الافلات منه •

ولقد حاولنا أن نبين التماس المؤلف لما كان يستأنس به ، ويدخل الطمأنينة على نفسه بواسطته ، من حديث النبى ، وأقوال وأفعال العلماء المشتهرين بالورع والتدين ، ولكن ذلك لم يؤد به الى رفض الانحراف والشذوذ ، والحملة على أهلهما بما يشبه أو يدانى حملته على أصحاب الهجاء ، مما أتاح لنا أن نستنتج أن ظاهرة التغزل بالغلمان ، قد بلغت فى الاندلس ، أواخر المائة الخامسة الهجرية ، من الذيوع والانتشار ،بحيث لم يعد أحد ، ولا حتى المحافظون من أمثال ابن بسام ، يستنكرونها ، أو يرفضونها من الاساس •

ب — النقد الدينى

لقد حرصنا على التمييز بين النقد الاخلاقى والنقد الدينى ، لأنهما متميزان فى الحقيقة • اذ هناك فرق كبير بين أن يصدر ناقد ما فى أحكامه عن نظرة أخلاقية ، وقد يكون ممن لا يؤمنون بالرسالات السماوية أصلا ، وبين أن يكون أساس النظرة النقدية هو الدين نفسه • ذلك أن الالحاد شىء ، والتمسك بالأخلاق التى تواضعت عليها أجيال أمم كثيرة منذ وقت بعيد ، شىء آخر •

ومن المؤكد أننا كنا نستطيع أن ندمج هذا الجانب من النقد عند ابن بسام فيما سميناه بالنقد الاخلاقى ، ونبين طابعه الخاص ، وملامحه المتميزة ، ولكننا شئنا أن نفرد له هذا الباب من الدراسة لأنه فى رأينا

مستقل عن النظرة الاخلاقية المجردة كما تراءت لنا فى مواقفه من الهجاء أولا ومن الغزل ثانيا .

والفرق شاسع — من وجهة نظر ابن بسام على الأخص — بين الذى يفحش فى الغزل فيصرح بما يجب أن يكتم منه ، أو الذى يتناول أعراض الناس بالقدح والشتيمة ، وبين الذى يشكك فى الحقائق الدينية ، ويسخر من المقدسات ، ويجترىء على الاقتباس من القرآن الكريم بطريقة خارجة عن الحدود المرسومة فى كيفية استعارة ألفاظه ومعانيه . فالهاجى والمتغزل منحرفان عن المنهج المستقيم ، حائدان عن طريق الصواب ، ولكن معصيتهما لا تخرجهما من ملة الاسلام ، ولا تسلكهما فى زمرة المارقين عن الدين . أما العابث بالمقدسات الدينية فانه ملحد وزنديق .

ولعل هذا الفرق بين الحالين يوضح لنا أيضا ، فيما يوضح ، طبيعة الاختلاف بين النظرتين النقديتين عند ابن بسام : النظرة الدينية والنظرة الأخلاقية بما لها من اتصال حتمى بالدين .

ويحسن بنا الآن أن نحاول التعرف الى مواقف ابن بسام بالتدقيق ، من خلال النماذج الشعرية التى يوردها ، والتعليقات التى يعقب بها عليها .

وأول ما نجد له من هذا القبيل القصيدة التى أوردها لابن دراج القسطلى فى الفصل الخاص به ، حيث يقول : « وقال القسطلى يمدح الوزير أبا الأصبغ عيسى بن سعيد القطاع :

أفى مثلها تنبو أياديك عن مثلى
وهذى الأمانى فيك جامعة الشمل

وقد أمن المقدار ما كنت أتقى
وأرخصت الأيام ما كنت أستغلى

. . وانى فى أفياء ظلك أشتكى
شكية موسى اذ تولى الى الظل »

وجاء تعليق المؤلف على البيت الأخير كما يلى : « وهذا البيت من لفظ القرآن العزيز ، وقد أقدمت على مثل هذا جماعة من الشعراء ، من محدثين وقدماء ، فمن غال متسور ، ومن آخذ معتذر » . (1)

ثم يأخذ فى سرد بعض الأبيات التى هى فى هذا المعنى فيقول : « قال أبو العلاء المعرى :

كنت موسى وافته بنت شعيب
غير أن ليس فيكما من فقير .

وأخذه بعض أهل عصرنا وهو حسان بن المصيصى فقال للمعتمد بن عباد :

كبنت شعيب اذ زفت لموسى
ولكن للثراء هنا مزيد » (2)

ثم يفصح المؤلف عن رأيه فى هذا النوع من المعانى والأساليب فيقول : « ومن آخر من ركب هذا الأسلوب فى مكابرة الحقائق ، وأضل من ذهب هذا المذهب الغريب ، من الاجتراء على الخلق والخالق المنفتل بقوله :

وقد كان موسى خائفا ، مترقبا
فقيرا ، وآمنت المخافة والفقرا » (3)

ونحن نلاحظ كيف أبدى المؤلف من بيت ابن دراج « وانى فى أفياء ظلك ... الخ » موقفا حياديا فلم يقل لنا هل يستسيغ هذا الوجه كما هو عنده أم لا يستسيغه ، وانما خرج الى نظريته العامة حين ذكر أن الشعراء متفاوتون فى هذا المنهج مبالغة واعتدالا . ولكنه شن بعد ذلك حملته على المنفتل . ولن نفهم أسرار هذه الحملة الا اذا انتقلنا الى

(1) ذ — 1/1 — ص 60 .
(2) ذ — 1/1 — ص 61 .
(3) ذ — 1/1 — ص 61 .

الفصل الذى عقده للمنفتل (1) حيث نجده يورد القصيدة التى منها البيت السابق والتى هى فى مدح ابن النغريلى الاسرائيلى الذى كان وزيرا لباديس بن حبوس وأحد رجال دولته الأكابر •

ولقد أورد ابن بسام سبعة عشر بيتا من القصيدة المذكورة ومطلعها :

احاجيكم هل يمموا الضال والسدرا ،

ابى قلبى المعمود ان يسكن الصدرا

ثم توقف المؤلف عن المضى فى سردها قائلا « وهذا القصيد ، اندرج له من الغلو فيه ما لا أثبته ولا أرويه ، وأبعد الله المنفتل فيما نظم فيه وفصل ، وقبحه وقبح ما أمل » (2)

وهى قصيدة تنطوى على قدر كبير من المبالغة والغلو • ونحن نستطيع أن نجزم بأن ابن بسام لم يستثقل هذه القصيدة لمجرد أنها قيلت فى الوزير اليهودى ، وانما لأنها تشتمل على قدر من الغلو فى المدح لا يستطيع رجل كابن بسام أن يقبله أو يرضاه • ولا شك أن كونها فى مدح ابن النغريلى قد زاد من سخط المؤلف عليها ، ولكن ليس هذا هو السبب الأول •

أما الأبيات التى سخط عليها لمخالفة صاحبها للاسلام فانه أوردها كلها ممهدا لها بقوله : « وله فى هذه القصيدة من الغلو فى القول ، ما نبرأ منه الى ذى القوة والحول ، وهو قوله :

ومن يك موسى منهم ثم صنوه

فقل فيهم ما شئت ، لم تبلغ العشرا

فكم لهم في الأرض من آية ترى

وكم لهم في الناس من نعمة تترى

(1) ذ 2/1 — ص 259 .

(2) ذ — 2/1 — ص 267 •

أجامع شمل المجد وهو مشتت

ومطلق شخص الجود وهو من الأسرى

فضلت كرام الناس شرقا ومغربا

كما فضل العقيان بالخطر القطرا

وقد فزت بالدنيا ، ونلت بك المنى

واطمع ان القى بك الفوز في الأخرى

أدين بدين السبت جهرا لديكم

وان كنت في قومى أدين به سرا

وقد كان موسى خائفا مترقبا

فقيرا ، وآمنت المخافة والفقرا » (1)

ويعلق ابن بسام على هذه المقطوعة تعليقا حاد اللهجة ، شديد النبرة ، بادى الغضب والأنفعال ، وذلك حين يقول : « فقبح الله هذا مكسبا ، وأبعد من مذهبه مذهبا ، تعلق به سببا ، فما أدرى من أى شؤون هذ ا المدل بذنبه ، المجترى على ربه ، أعجب ؟ ، ألتفضيل هذا اليهودى المأبون على الأنبياء والمرسلين ، أم خلعه اليه الدنيا والدين ؟ حشره الله تحت لوائه ، ولا أدخله الجنة الا بفضل اعتنائه » • (1)

وواضح أن المنفتل هنا قد تجاوز كل الحدود التى كان الشعراء يمدحون ضمنها أولياء نعمهم ، أو من يرجون منهم العطاء والنوال • ان مبالغتهم فى المدح لم تصل أبدا الى درجة تفضيل ممدوحيهم على الناس قاطبة فى الشرق والغرب دون استثناء للأنبياء والرسل • بل ان المنفتل قد جاهر ، ولو قولا فحسب ، بخروجه عن الدين الاسلامى، ودخوله فى دين اليهود ، حين قال :

أدين بدين السبت جهرا لديكم

وان كنت في قومى أدين به سرا

(1) ذ — 2/1 — ص 268 .

فلو لم يكن فى شعر المنفتل هذا من المـروق الا هذا البيت لكان جديرا بنقمة ابن بسام وغضبه بل وثورته عليه ، فكيف وقد أضاف الى ذلك تشبيه نفسه بموسى عليه السلام ، حين قال :

وقد كان مـوسـى خائفـا متـرقبا

فقيـرا وآمنـت المخافـة والفقـرا .

هنا نموذج يمثل خير تمثيل هذا الجانب من النقد الذى سميناه النقد الدينى ، والذى لا يعبأ فى الحقيقة لا بالألفاظ ولا بالمعانى الا من حيث مضمونها ،أما الجوانب الفنية البحتة فلا يتعرض لها لا من قريب ولا من بعيد .

على أن فهمنا لموقف ابن بسام من شعر المنفتل وممدوحه اليهودى لا يتم لنا على أكمل وجه الا اذا عرفنا موقفه من الممدوح الذى هو ابن النغريلى كما أسلفنا .

وقد وجدنا للمؤلف واحدا من الفصول التاريخية التى كتبها بنفسه حين أعوزه كلام ابن حيان ، نقتطف منه الفقرات التالية :

« وكان من عجائب ذلك الزمان الواهى النظام ، اللاعب بالأنام ، ترقى ذلك اليهودى المأبون ، الزارى على كل ذى دين ، لـم تسلـم له يهود فى دينها الملعون ، ولا أمنته على غيبها الضنين . وكان أبوه يوسف رجلا من عامة اليهود ، حسن السيرة فيهم ، ميمون النقيبة عندهم ، تولى لباديس ، وقبله لأبيه حبوس بغرناطة جباية المال وتدبير أكثر الأعمال ، ونجم ابنه بعد غلاما وضيا ، ومركبا ـ زعموا ـ وطيا ، وكانت لمـن اعتنى يومئذ بالغلمان (به) فتنـة ، حتى كان يقال انه ، وانه ... فقلد أزمة الأعمال ، وخلى بينه وبين أثباج الأموال ، ووطى عقبـه جماهير الرجال ، وجرى به طلق الجموح ... حتى كان يغسل يده من القبل ، ويتمدح بالطعن على الملل ، ألف كتابا فى الرد على الفقيه أبى محمد بن حزم ... وجاهر بالكلام ، فى الطعن على ملة الاسلام ، فما دفع عن ذلك

بتأنيب ،ولا استطيع تغييره عليه الا بالقلوب ، قد نصبـه مكانـه من السلطان غيظا للأحرار ، وحمة على الليل والنهار » (1)

ويبدو لنا جليا من كلام صاحب « الذخيرة » أنه لا يقف موقفه من ابن النغريلى لمجرد أنه يهودى ، والدليل على ذلـك أنـه كان شديد الاعتدال فى الحديث عن أبيه يوسف ، وقد أنصفه وذكر محاسنه حين قال عنه أنه كان حسن السيرة، ميمون النقيبة . أما ابنه الذى اجتمعت فيه جملة من الأوصاف هى أبغض الأشياء الى المؤلف من غرور ، « وطعن على ملة الاسلام » وغيرهما ، فما كان يستطيـع السكـوت عنه ، ولا التلطف معه .

ويبدو أن هذا الرجل كان عنيفا شـرس المعاملة حتـى ان قومه أنفسهم من اليهود كانوا ساخطين عليه . هذا ما نفهمـه من قـول ابن بسام بعد الفقرة السابقة : « واليهود مع ذلك تتشاءم باسمه ، وتتظلم من جور حكمه ، على ما كان رضخ لهم من الحطام ، ووطأ لهم من مراكب الأمور العظام ... فغصب يهود أحكامها ، وذلل أعلامها ، الخ ... » (2)

هذا موقف واحد يبين لونا واحدا من ألوان النقد الدينى عند ابن بسام وقد أطلنا الوقوف عنده قصدا لأننا رأينا فيه كما أسلفنا نموذجا كاملا لهذا المذهب النقدى كما تجلى فى كتاب الذخيرة .

أما الموقف الثانى فنجده بمناسبة الأشعار التى تطرق فيها أصحابها الى بعض المعانى الفلسفية . ومنها ما ورد فى الفصل الخاص بالأديب أبى القاسم خلف ابن فرج الألبيرى المعروف بالسميسر . فلقـد جمع بعض مقطوعاته تحت عنوان : « ما أخرجته من شعره فى الزهد والحكم » وأورد له مقطوعـة ، نثبت منها فيما يلى أهم الأبيات المناسبة لما نحن بصدده :

---

(1) ذ — 2/1 — ص 269 .

(2) ذ — 2/1 — ص 270 .

قـال السميســـر :

مـن كـان مخلـوقـا مـن الأرض اذ
ركـب لـم يطلـع علـى السـر
حتـى تـرى الجثـة مطـروحـة
والنـفـس في عـالمهـا تـسـرى
فعنـدهـا يـأمـن مـا يتـقـى
وعنـدهـا يعلـم بـالأمـر
هـذا علـى مـذهبنـا ثـم قـد
قيـلت مـقـالات ولا أدرى
لقـد نشبنـا في الحيـاة التـى
تـوردنـا في ظلـمـة القـبـر
يـا ليتنـا لـم نـك مـن آدم
اورطـنـا فى شـبـه الأسـر
ان كـان قـد اخـرجـه ذنبـه
فمـا لنـا نشـرك في الأمـر . (1)

ويعقب ابن بسام على هذه الأبيات قائلا :

والسميسر فى هذا الكلام ممن أخذ الغلو بالتقليد ، ونادى الحكمة من مكان بعيد ، وصرح عن عمى بصيرته ، ونشر مطوى سريرته ، فى غيرمعنى بديع ، ولا لفظ مطبوع ، ولعله أراد أن يتبع أبا العلاء فيما كان ينظمه من سخيف الآراء . وهبه ساواه فى قصر باعه ، وضيق ذراعه، أين هو من حسن ابداعه ، ولطف اختراعه » (2)

والطريف أنه بعد أن أوسع السميسر لوما وتوبيخا عرج على أبى العلاء المعرى فسخف آراءه ، وان عاد بعد ذلك فانصفه حين أثنى على ابداعه واختراعه . ويجدر بنا أن نلاحظ أيضا أن المؤلف قد قرن بين

(1) ذ — 2/1 — ص 378 .
(2) ذ — 2/1 — ص 378 .

النقد الدينى والنقد الفنى ، فكانت مؤاخذته للسميسر مزدوجة اذ لم يخلص له من رضى ابن بسام شيىء فى مقطوعته تلك. فلا هو رضى عن مضمونها ولا هو استحسن مبناها .

وقد يتوهم أن المؤلف قد حابى أبا العلاء ، وهو ان كان قد حاباه فعلا فانه لم يخصه بهذه المحاباة . ذلك أن صاحب الذخيرة كثيرا ما يجد نفسه بمناسبة بيت من الشعر أمام نوع من الصراع بين اخلاصه للمبادىء التى التزم بالدفاع عنها ، وبين ذوقه كأديب . فاذا سلك الشاعر سبيلا لا يرضاها ، وعبر عن ذلك بلفظ جيد، ومعنى بديع ، فان المؤلف لا يهمل الثناء عليه فى الغالب . أما حين تكون الاساءة فى المضمون والشكل فانه يطلق عليه أشد الأحكام . ورأيه فى السميسر مثال بارز على مذهبه هذا .

ولقد اشتد ابن بسام وقسا فى الحكم على شعراء آخرين لم يبلغوا هذا المبلغ فى التساؤل المحير . ومن أمثلة ذلك ابن بلده أبو عامر ابن نوار الشنترينى فى مقطوعته التالية :

يـا لقـومـى دفنـونـى ومضـوا
وبنـوا فى الطـين فوقـى مابنـوا
ليـت شعـرى ، اذ راونـى ميـتـا ،
وبكـونـى ، اى جزاى بـكـوا
انعـوا جسمـى ؟ فقـد صـار الـى
مركـز التعفيـن ، أو نفسـى نعـوا ؟
كيـف ينعـون نفـوسـا لـم تـزل
قائمـات بحضـيـض وبجـو
مـا أراهـم نـدبـوا منـى سـوى
فرقـة التاليـف ان كـانـوا دروا (1)

(1) ذ — ق/2 — ص 305 مخ . القاهرة .

وواضح أن الشاعر ابن ثوار لم يخرج عن العقيدة الاسلامية في شيء اذ تحدث عن الروح والجسم وتساءل عن بكاء الناس على الميت أهو على الجسم أم على الروح . ومع ذلك فان ابن بسام يعلق على مقطوعته بقوله : « وهذا معنى فلسفي قلما عرج عليه عربي ، وانما فزع اليه المحدثون من الشعراء حين ضاق عنهم منهج الصواب ، وعدموا رونق كلام الاعراب ، فاستراحوا الى هذا الهذيان (استراحة) (1) الجبان الى تنقص أقرانه ، واستجادة سيفه وسنانه . وقد قال بعض أهل النقد انه عجيب في الشعر والنثر أن يأتي الشاعر أو الكاتب بكلمة من كلام الأطباء ، أو بألفاظ الفلاسفة القدماء . واني لأعجب من أبي الطيب على سعة نفسه ، وذكاء قبسه ، فانه أطال قرع هذا الباب ، والتمرس بهذه الأسباب ، وكذلك المعري كثر به انتزاعه ، وطال اليه ابضاعه ، حتى قال فيه أعداؤه وأشياعه ، وحسبك من شر سماعه ، والى الله مآله ، وعليه سؤاله» . (2)

ولعلنا الآن قد استطعنا أن نكون فكرة شاملة عما سميناه بالنقد الديني لدى ابن بسام . وقد بدا لنا من خلال الأمثلة التي استعرضناها رجلا شديد الحساسية ، كثير الغيرة على الاسلام ، لا يكاد أحد يقترب من المقدسات أو يخرج عن المناهج المرسومة في تناول المسائل الدينية حتى تثور ثائرته فيحمل على الشاعر ، ويسخف آراءه ، وهو في ذلك مثال مصغر لردود الفعل التي كانت تصدر عن الفقهاء وعلماء الدين في الأندلس أثناء عهد ملوك الطوائف وطوال عهد المرابطين والموحدين ، والتي كان يذهب ضحيتها الفلاسفة والمفكرون الذين تحرق كتبهم في بعض الأحيان ويلقون شر العذاب على آرائهم الأصيلة .

---

(1) في النص (اسراع) ولعل الصواب ما اثبتناه .
(2) ذ — ق/2 ص 305 مخ القاهرة .

والفرق شاسع جدا بين أحكام ابن بسام التي رأيناها ، وبين حكمه على الشاعر أبي الوليد ابن المصيصي حين أورد له مقطوعة فيها هذا البيت :

قد يدخل المسلم المخطي الجنان غدا
بنيتي أرتجي الغفران لا عملي

فعلق عليه بقوله : « وهذا البيت مما خلص فيه يقينه ، وحسنت بخالقه ظنونه ، وعسى الله أن يلقيه مآلها ، فرب مرحوم بكلمة قالها» (1) .

---

(1) ذ — ق/2 — ص 279 مخ ، القاهرة .

جـ ـ النقـد التاريخـى

لم نكن نتوقع أن نجد ابن بسام يعتنى بالنقد التاريخى، فيستقرىء الروايات ، ويجمع الحجج لدحض تهمة باطلة ـ فى نظره ـ توارثتها الاجيال ، وهى ما تزال الى يومنا هذا ملازمة لصاحبها لا تبرحه •

والتهمة تتعلق بجبن حسان بن ثابت • ونحن لا نشك فى أن صاحب الذخيرة قد انبرى للدفاع عن حسان لموقعه من الدعوة الاسلامية ، وبلائه الحسن فى النضال عنها ، ونصرة النبى عليه الصلاة والسلام • ولكن الذى استرعى انتباهنا هو المنهج الرصين الذى اتبعه لحشد البيانات والشهادات على بطلان هذه التهمة ، ودحضه اياها فى الأخير •

وقد أثار القضية بصفة عرضية ، كشأنه فى أغلب القضايا النقدية الأخرى ، وذلك حين ورد فى احدى قصائد الاديب ابى الوليد حسان بن المصيصى هذا البيت :

وما الحروب ومثلى أن يشاهدها
وانما انا حسان وانت علـى.

وواضح أن الشاعر حسان بن المصيصى يعتذر عن المشاركة فى الغزو بأنه مثل حسان ابن ثابت ، بينما يشبه ممدوحه بعلى بن أبى طالب• وهنا يتدخل ابن بسام فينسب الشاعر ابن المصيصى أولا الى الجهل بالتاريخ فيقول : «وأظن حسانا هذا لم يكن له علم بالسير ، ولا تصرف بعلم الخبر» (1)

ثم ينتقل ابن بسام الى طرح القضية وشرح التهمة الملصقة بحسان ابن ثابت فيقول : «وقد رأيت جماعة من أهل الأدب ينسبون حسان بن ثابت رحمه الله الى الجبن ، ويخرجونه من أهل الضرب والطعن ،

(1) ذ ـ ق/2 ـ ص 280 مخ . القاهرة .

يحتجون فى ذلك بقعوده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مغازيه وسراياه ، وينشدون له فى ذلك شعرا أظنهم نحلوه اياه ، وهى هذه الأبيات على رواية بعض الرواة :

أيها الفارس المشيح المطير
ان قلبى من السلاح يطير
ليس لى قوة على رهج الخيل (م)
اذا ثور الغبار مثير
انا في ذا وعند ذاك بليد ،
وبليد في غيره نحرير » (1)

بعد طرح عناصر التهمة ، يشرع المؤلف فى النظر الى مرتكزاتها ، والدعائم التى تقوم عليها • وقد وجد أن أقوى تلك الدعائم والمرتكزات هى الابيات الثلاثة المنسوبة أليه ، لأن المرأ يدان من فمه • ولعلنا لاحظنا أنه كان أثناء بسط التهمة قد أبدى شكه ـ على حياء ـ فى تلك الابيات حين قال مستعملا صيغة الشك فى قالب الاحتياط : «وينشدون له فى ذلك شعرا أظنهم نحلوه اياه». لذلك قصد رأسا الى تقويض هذه الدعائم فجزم بقوله : « ولا أمترى أنها منحولة اليه ، ومفتعلة عليه » (2)

ومن المؤسف أنه لم يقل لنا لماذا جزم بهذا الرأى ونظن أنه وزن الابيات فلم يجدها مما يمكن أن يصدر عن مثل حسان بن ثابت • لانها سقيمة اللفظ، مهلهلة النسج، واهية النظم، لا تشبه شعره فى الجاهلية ولا فى الاسلام •

ثم ينتقل الى الحجج الأخرى التى تستند اليها التهمة فيتصدى لها بقوله : «ومن أبلغ حججهم على ذلك حديثهم فى مثان اليهودى ، يوم الاحزاب ، المطيف بالاطم الذى كان النبى عليه السلام أحرز فيه النساء

(1) ذ ـ ق/2 ص 280 . مخ القاهرة .
(2) نفسه .

والأبناء . وأن حسانا حض صفية بنت عبد المطلب على قتلـه وأخـذ سلاحه، ويقولون لم يكن به قوة على سلبه فضلا على حربه» (1).

الحجة الاولى أراد اصحاب التهمة أن يأخذوها مـن قول المتهـم نفسه فدحضها ، والحجة الثانية ، وهي من أقوى حججهم، عولوا فيها على التاريخ ، فلننظر كيف يتصدى لها ابن بسام حين يقول : «وذهب عليهم أن حسانا رحمه الله قد أصيب في بعض حروبهـم في الجاهليـة فقطع أكحله وفي ذلك يقول :

« وخان قراع يدى الأكحـل » (2)

فهذه حجة تاريخية مقابل حجتهم التاريخية ، وهذا كلامه مقابـل الكلام المنحول الذي احتجوا به .

ثم ينتقل الى أبلغ حججه هو فيعرضها كما يلي : «ومن أدل شيء على ذلك أنه هاجى في الجاهلية والاسلام أكثر من ثمانين شاعـرا لم يصفه أحدهم بالجبن ، ولا عيره به ، ولم يكن شيء يتعايرون به أشد منه . ولحسان أيام مشهورة ، ومواطن في الحروب مذكورة ، وكان ممن له كنيتان في السلم والحرب كما كانت الابطـال تفعل على عهده . كان يكنى في السلم بأبي الوليد ، وفي الحرب بأبي نعامة» (3)

ثم يعود الى حسان بن المصيصي فيقول : «وقد أولع ابن المصيصي بهذا المعنى ، فأعاده وأبداه ، وألحمه وأسداه ، وأعجبه ما اتفق له منه حتى أخرجه الى ما كان في مندوحة عنه» (4)

ونحن لابد لنا من أن نشير الى موطنين في دفاع ابن بسام عـن حسان بن ثابت ، تميزا بالضعف الواضح :

---

(1) ذ — ق/2 — ص 280 مخ . القاهرة .
(2) نفسه — ص 281 .
(3) نفسه .
(4) نفسه .

— الموطن الاول يتمثل في اكتفائه بالجزم بأن الأبيات المنسوبـة الى حسان بن ثابت هي « منحولة اليه ، مفتعلة عليه » دون أن يبين ذلك اعتمادا على المقاييس النقدية التي كانت كفيلة ببيان ذلك بكل يسر .

— والموطن الثاني يتمثل في عدم رده على الحجة التاريخية التي هي من أقوى حجج المتهمين ، والمتعلقة بقتل اليهودي الذي كان يطوف بخيام نساء المسلمين وأبنائهم .

واذا كنا نعجب بانتباهه الى مدى صلاحية الجبن للتعييربه ، وأن احدا من الذين بادلهم ابن ثابت الهجاء لم يعيره بالجبن ولا أشار اليه ، فاننا نلاحظ من جهة أخرى ضعف حجته المتعلقة بالمعركـة التي جرح حسان أثناءها في الجاهلية ، اذ أن المخطوطة التي رجعنـا اليهـا (4) لا تتضمن من شعر حسان الذي اراد أن يستشهد به المؤلف الا شطـرا واحدا ، ليس قوي الدلالة على شجاعته .

وعلى الرغم من ذلك فانه لابد لنا من أن نعترف لهذه المحاولة في النقد التاريخي أنها لم تخل من الجوانب الايجابيـة وأقلهـا العرض الواضح والتسلسل المنطقي ، والمناقشة المنظمة ، والامانة التي تجلت في عدم تكذيب الروايات التي ليس لديه شواهد مؤكدة على بطلانها .

) القسم الثاني مخ . القاهرة .

د — النقد الفنى

ان هذا اللون من ألوان النقد التى عالجها ابن بسام فى كتابه الذخيرة هو الذى يهمنا أكثر من غيره ، اذ بواسطته هو نستطيع — أو نحاول — أن نكشف بعض القيم الفنية التى يميل اليها ، والمبادىء الجمالية التى يعتمدها فى التذوق والحكم .

وقد يحسن بنا أن نصرح منذ الآن أن الذى يبحث لدى ابن بسام عن لون من ألوان النقد يكون خالصا للفن والجمال ، قد يصاب بخيبة الامل ، لان النظرة الاخلاقية — الدينية عند الرجل قد بلغت من الاتساع والشمول بحيث يندر أن نجد موقفا من مواقفه الادبية ليس متأثرا بها تأثرا قليلا أو كثيرا .

والحق أننا لو دققنا النظر فى هذه القضية بالذات لما وجدنا ابن بسام فيها بدعا من الناس . ذلك أن كل ناقد تكون نفسه ممتلئة بعقيدة من العقائد ، كيفما كانت، لابد أن تطغى عليه فتصطبغ بها كل تصرفاته المادية والمعنوية . وهذا شأن النقاد قديما وحديثا . ولعل ميزة النقاد المحدثين أن ما وصل اليه عصرنا من التنظيم الفكرى ، وغلبة الاساليب العلمية فى معالجة الاشياء ، قد مكنهم من أن يتصرفوا بمنهجية لعلها خففت من سيطرة مذاهبهم الفكرية والسياسية على ظاهر التعبير ، أما المضمون فانه هو هو ، كل اناء بالذى فيه يرشح ، ولو كان المجال يتسع للمقارنات لاتينا بالامثلة العديدة .

وسندرس عند ابن بسام هذا اللون النقدى من نواح أربعة تتعلق بمقاييسه الجمالية فى اطلاق الاحكام النقدية ، والتى هى : المقياس البديعى ، والمقياس اللفظى والمعنوى ، والمقياس الانطباعى ، ونختم هذا الفصل بجملة من الاحكام العامة .

1 — المقياس البديعى :

لقد رأينا ونحن ندرس منهج كتاب الذخيرة ، ان ابن بسام قد اعتنى بالبديع فى جملة المسائل التى اعتنى بها ، وأعلن فى فاتحة كتابه عن حبه للبديع «ذى المحاسن ، الذى هو قيم الاشعار وقوامها ، وبه يعرف تفاضلها وتباينها» (1)

وهو يعطيه وظيفة نقدية واضحة اذ يجعله قيما للاشعار ، ومقياسا للمفاضلة والتمييز فيما بينها .

لذلك وعد بأن يلمع فى هذا المجموع بلمع من ذكر البديع ، وأن يمهد جانبا من أسبابه ، ويشرح جملا من أسمائه وألقابه . (2)

ولقد وفى ابن اسام بوعده ، واعتنى بانواع كثيرة من البديع فاشار اليها ، ونبه عليها كما قال ، وقارن بين الابيات التى وردت فيها لدى مختلف الشعراء . وسنركز فى دراستنا لهذا المقياس النقدى على أهم الجوانب البديعية التى تعرض لها ابن بسام ، ولا سيما التى تكررت فى كتابه وأكثر الوقوف عندها .

التشبيه : وهو من الجوانب البديعية التى اهتم بها صاحب (الذخيرة) أو ضح الاهتمام ، فكان لا يقع على تشبيه متميز بجودته أو رداءته الا عرض له ، وذكر من سبق اليه ، أو برز فيه» ، ووازنه بما هو قريب منه عند فحول الشعراء .

فمن أمثلة الاستحسان قوله : «ولما سمع ابن الرومى قول أبى نواس وقد نبه نديما للصبوح فأخبر عن حاله ، وهو من أجمل تشبيهاته :

فقام والليل يجلوه الصباح كما
جلا التبسم عن غر الثنيات

---

(1) ذ — 1/1 — ص 6 .
(2) ذ — 1/1 — ص 8 .

قال ابن الرومي :

يفتر ذاك السواد عن يقق
من ثغرها كاللآلىء النسق
كأنها والمزاج يضحكها
ليل تفرى دجاه عن فلق (1)

ثم يعلق ابن بسام على التشبيهين بقوله : «وفضل كلام ابن الرومي على سواه أنه قدم في التشبيه لمعناه مقدمة أيدته ووطأت له الآذان ، وأصغت الأفهام الى الاستحسان» وهي قوله : يفتر ذاك السواد عن يقق ...» (2)

ومن أمثلة الاستقباح قول ابن بسام : « وقال ابن فتوح وقد استهدى مقصا :

خذها اليك فانها مخلوقة
من فطنة مشبوبة وذكاء
تحكيك في دفع الهموم لانها
ولعت بشق حناجر الاعداء

يواصل ابن بسام كلامه بعد ايراد البيتين قائلا : « وقد نهى بعض الظرفاء الادباء عن اهدائها واستهدائها ، قال الفقيه ابن قالوص في ذلك :

اعطاء مثلي المقص نقيصة
وأرى اعارتها أجل العار
ان المقص حكت بصورة شكلها
(لا) والجواد بـ (لا) لئيم نجار

(1) ذ 1/1 — ص 126 .
(2) نفسه .

ثم يعلق بعد ذلك مباشرة بقوله : «وهذا من الاختراع البديع ، والتشبيه المطبوع ، وتشبيه ابن فتوح صديقه بالمقص من الوصف القبيح ،ومتى كانت المقص تشق الحناجر ، كأنه لم يسمع قول الآخر وهو ابن الرومي :

وما تكلمت الا قلت فاحشة
كأن فيك للأعراض مقراض (1)

الاستعارة : وهي أيضا من الانواع البديعية التي كثر وقوف ابن بسام عندها ، وتتبعه لها في اشعار القدامى والمحدثين . فمن ذلك على سبيل المثال قوله في الفصل الذي عقده للحديث عن ابن شماخ بعد أن أورد له قصيدة : «ومنها في المديح :

فلولا علاه عشت دهري كله
وكيس كلامي لا أحل له عقدا

فعلق ابن بسام على ذلك قائلا : «واستعارته كيسا للكلام من مضحكات الأنام» (2) .

ولكن ابن بسام لا يكتفي بهذا القدر من التعليق بل ينطلق من حكمه على هذه الاستعارة التي لم تعجبه ليسرد جملة من نماذج الاستعارة المستقبحة التي يقرب عيبها مما عيبت به الاستعارة الاولى . لذلك يسترسل في الحديث قائلا : «وقرأت في أخبار الصاحب بن عباد قال : كنا نتعجب من قول أبي تمام : «لا تسقني ماء الملام»، ونستبشع استعارته له ماء حتى عذبت عندنا بـ«حلواء البنين» في قول أبي الطيب :

وقد ذقت حلواء البنين على الصبا
فلا تحسبيني قلت ما قلت عن جهل .

(1) ذ 2/1 — ص 285 و 286 .
(2) ذ 2/1 — ص 335 .

كيف لو سمع الصاحب استعارة أهل عصرنا كقول المهدوى بن الطلاء : « بقراط حسنك لا يرثى على عللى ... وقول حسان بن المصيصى :

اذا كانت جفانك من لجين

فلا شك الغنى فيها ثريد ... (1)

الاستطراد وأنواعه : قال ابن بسام بعد أن أورد أبياتا : «لبعض أهل الادب» فيها هذا النوع من البديع : «وحقيقة الاستطراد عندهم أن يومىء الشاعر أنه يريد مذهبا وهو انما يريد غيره . فان قطع ورجع الى ما كان فيه فهو الاستطراد الحقيقى وان تمادى فذلك الخروج ، وأصح الاستطراد قول السموأل :

ونحن أناس لا نرى القتل سبة

اذا ما رأته عامر وسلول

واتبعه الفرزدق فقال :

كأن فقاح الازدحول ابن مسمع اذا اجتمعوا أفواه بكر بن وائل

وقد يقع من الاستطراد ما يخرج به من ذم الى مدح ، كقول زهير :

ان البخيل ملوم حيث كان ولـ كن الجواد على علاته هرم

ومن مدح الى ذم كقول بكر بن النطاح فى مالك بن طوق :

فتى شقيت أمواله بعفاته

كما شقيت بكر بأرماح تغلب

وهذا مليح أوله خروج وآخره استطراد ، وملاحته أن مالكا (الممدوح) من بنى تغلب فصار الاستطراد زيادة فى مدحه (2) .

(1) ذ — 2/1 — ص 336 .
(2) ذ — 2/1 — 388 الى 390 .

وأصل الاستطراد أن يريك الفارس أنه فر ، وانما فرليكر ، وكذلك الشاعر يريك أنه فى شيىء فيعرض له شيىء لم يقصد اليه فيذكره وان لم يقصد حقيقة اليه .

ومن الاستطراد نوع يسمى الادماج كقول ابن طاهر لابن وهب حين وزر للمعتضد :

أبى دهرنا اسعافنا فى نفوسنا

واسعفنا فيمن نحب ونكرم

فقلت له : نعماك فيهم أتمها

ودع أمرنا ان المهم المقدم

ومن مليح الادماج قول ابن مسعدة فى فصل من رقعة ... الخ(1)

هذه نماذج من انواع البديع التى ذكرها ابن بسام سردناها على طولها لنبين طريقته فى تناولها .

فهو كما رأينا قد اغتنم فرصة ورود هذا النوع فى الأبيات التى اقتضاها السياق فى تتبع المعانى ، ثم رأى أن يشير الى الاستطراد الواقع فيها ، فاشار اليه ، وعرفه لنا ، واستوفى الكلام فيه حتى أتى على تقسيماته وفروعه وضرب الامثلة الكثيرة لكل فرع منها مما جاء على لسان فحول الشعراء فى المشرق والمغرب . بل انه لم يهمل النثر نفسه اذ أورد مقطعا من الرسالة التى بعث بها ابن مسعدة الى المأمون لتضمنها هذا النوع من الاستطراد الذى يسمى «الادماج» .

ومن الواضح أن ابن بسام لم يقتصر على التشبيه والاستعارة والاستطراد بل ذكر انواعا كثيرة اخرى منها التقسيم ، والمعاقدة ، والكناية ، والتتميم ، والاستدراك وغير ذلك من المصطلحات البديعية الكثيرة .

(1) ذ — 2/1 — ص 390 .

ويبدو أن ابن بسام جيد الاطلاع على هذا العلم وأنه قد ألم بأهم الكتب التى ألفت فيه ، وقرأ كثيرا للشعراء الذين اشتهروا به من امثال ابن المعتز ، وبشار ، وابى تمام ، والمتنبى ، وأبى العلاء المعرى وغيرهم.

ثم انه قد استعان بدون شك بكتاب العمدة لابن رشيق وافاد من المصطلحات البديعية الواردة فيه بل انه افاد كذلك من الامثلة نفسها التى تضمنها كتاب العمدة ، ولكن صاحب الذخيرة لم يشر الى ذلك مطلقا وان كان قد ذكر انه ينقل عنه فى ابواب اخرى كثيرا من التراجم ، والأخبار ، والروايات ، مما هو ثابت فى الفصل الذى خصصناه للمصادر التى استعان بها المؤلف لأخراج كتابه .

2 — المقياس المعنوى واللفظى

وهذا هو المقياس الذى يعتمده ابن بسام فى تعاطى النقد الفنى ، ولعله أوسع الجوانب النقدية فى كتاب الذخيرة ، واكثرها ورودا لأنه يأتى فى سياق المنهج الذى اختطه لنفسه حين ذكر فى فاتحة كتابه أنه سيتبع أصول المعانى ، ويذكر من تداولها من الشعراء ومن أخذها منهم عن الآخر .

ولقد درسنا فى الفصل الثالث من هذا البحث الوجوه المتعلقة بالقضايا المنهجية ، وندرس فيما يلى أهم مظاهرها النقدية .

والجدير بالذكر اننا حين وضعنا لهذا القسم من بحثنا عنوان «المقياس المعنوى واللفظى» لا نعنى به أن ابن بسام قد طرح قضية اللفظ والمعنى طرحا واضحا فشرحها ، وأبدى رأيه فيها بكل صراحة . وهو مطلع — فيما يبدو — اطلاعا جيدا على القضايا المتصلة بهذه النظرية النقدية ، ولا سيما من الزوايا التى تناولها منها النقاد المغاربة الذين تحدث عنهم ، فى غير سياق نقدى ، من امثال أبى الحسن بن رشيق ،

وابن شرف وغيرهما ، ولكنه لم يطرح أبدا ، فيما نعلم ، هذه القضية من الناحية النظرية .

وأهم مسألة تترتب على جعل المعنى واللفظ من المقاييس النقدية ، فى سياقنا هذا ، هى مسألة الاخذ أو السرقة الأدبية ، وما يتفرع عنها ، وسنركز دراستنا على هذه القضية بالذات ، ثم نتبعها بالحديث عن بعض التعابير والالفاظ الاصطلاحية التى يستعملها المؤلف فى الموازنة بين المعانى والالفاظ .

من المهم جدا فى مطلع حديثنا عن قضية تداول المعانى بين الأدباء أن نبين أن ابن بسام لم ينظر اليها من الأساس على أنها قضية سرقة وابتزاز ، ولذلك سماها احيانا «تتبع المعانى» كما فى قوله : «وتتبع كل معنى يعترض ، يخرج بى عن الغرض» (1) وسماها فى فاتحة الكتاب «الأخذ» فقال «ولست أقول أخذ هذا من هذا قولا مطلقا» (2). ولم يسمها سرقة الا فى احيان نادرة سنتحدث عنها . والمبدأ الذى يصدر عنه فى هذه القضية يتناوله بغاية الوضوح فى مقدمة الكتاب حيث يقول : «واذا ظفرت بمعنى حسن ، أو وقفت على لفظ مستحسن ، ذكرت من سبق اليه ، وأشرت الى من نقص عنه أو زاد عليه . ولست أقول أخذ هذا من هذا قولا مطلقا ، فقد تتوارد الخواطر ، ويقع الحافر حيث الحافر ، اذ الشعر ميدان ، والشعراء فرسان» (3)

وبذلك يتضح لنا أن نظرية تداول المعانى والألفاظ عند الشعراء ليست هى نظرية السرق أو السرقة كما يقول غيره من النقاد ، فهو يرفض مجرد الجزم بأن هذا الشاعر أخذ من ذاك ، فضلا على أن يسمى تداول رصيد المعانى والألفاظ المشتركة بين الناس سرقة ، وينطلق فى

---

(1) ذ — 1/2 — ص 130 .
(2) ذ — 1/1 — 8 .
(3) ذ — 1/1 — 8 .

ذلك من المبدأ المعروف الذى طالما احتج به النقاد فى المشرق والذى هو توارد الخواطر ، فى التعبير المشهور : «قد تتوارد الخواطر ، وقد يقع الحافر حيث الحافر» .

وليس يعنى كلامنا هذا أن المؤلف لم يتحدث عن السرقة ، ولم يحكم على بعض وجوه الشبه الكبير بين المعانى والالفاظ بأنها سرقة . ولعل أوضح مثال لذلك حكمه على البيتين اللذين أوردهما لسميه الشاعر البغدادى على بن بسام .

لا اظلم الليل ولا ادعى
أن نجوم الليل ليست تغور
ليلى كما شاءت : فان لم تجد
طال ، وان جادت فليلى قصير

حين علق عليهما بقوله : وهذا بجملته منقول من قول على بن خليل :

لا اظلم الليل ولا ادعى
أن نجوم الليل ليست تزول
ليلى كما شاءت : قصير اذا
جادت ، وان ضنت فليلى طويل

وحين اطلق على الشاعر هذا الحكم الصارم ، مستعملا فى هذه المرة كلمة السرقة التى كان مترددا فى استعمالها : «وهذه السرقة كما قال بديع الزمان فى التنبيه على الخوارزمى ، فى بيت أخذ وزنه ، ومعناه، وبعض لفظه : انكانت قضية القطع تجب فى الربع ، فما أشد شفقى على جوارحه أجمع . ولعمرى ما هذه سرقة ، انما هى مكابرة محضة ، وأحسب أن قائله لو سمع هذا لقال : هذه بضاعتنا ردت الينا . فحسبت أن ربيعة بن مكدم، وعتيبة بن الحارث ما كانا يستحلان من النهب ما استحله ، انما كانا يأخذان جله ، وهذا الفاضل قد أخذه كله» (1)

(1) ذ — 2/1 — ص 275 — 276 .

ثم ينهى ابن بسام حكمه قائلا بعد أن يشير الى أن ابن خليل نفسه قد أخذ معنى بيتيه من أديب آخر : «وابن بسام (البغدادى) فى هذا كما قال الآخر :

وفتى يقول الشعر الا انه
فى كل حال يسرق المسروقا» (1)

كان هذا من المواطن النادرة فى كتاب الذخيرة التى تحدث فيها ابن بسام بكل وضوح عن السرقة ، ونعت الاخذ الذى اورده بالنهب ، وذلك لان البيتين اللذين اثبتهما للشاعر ابن بسام البغدادى لايتركان أى مجال للشك فى انه نقلهما نقلا لم يكد يغير فيه شيئا من شعر على بن الخليل ، فالمعنى واحد ، واللفظ واحد ، والوزن واحد ، فلا غرو حينئذ أن يتخلى صاحب الذخيرة عن الاعتدال الذى عودنا عليه فى قضية الاخذ التى نحن بصددها ، وأن يرى فى صنيع سميه البغدادى عملا يتجاوز السرقة نفسها فهو نهب ، بل هو محض مكابرة .

أما نظرية الاخذ المعقول أو المقبول لدى صاحبنا فهى نفس النظرية التى يقول بها النقاد المشارقة والتى تناولها بالتفصيل ابن رشيق فى العمدة (2) قال ابن بسام : «وقد تقدم القول من تخيل حذاق الصناعة فى أخذ المعانى أن تترك القافية والوزن ، وكذلك يجب أن يقصد الى التطويل اذا قصر المتقدم» (3) ثم يشرح هذه النظرية شرحا تطبيقيا فيقول : «ألا ترى قول أبى عامر (4) حين سمع الرمادى يقول :

ولم أر أحلى من تبسم أعين
غداة النوى عن لؤلؤ كان كامنا

فقال ابو عامر هذه القصيدة :

ولما نشا بالدمع من سر وجدنا
الى كاشحينا ما القلوب كواتم

(1) ذ — 2/1 — ص 275 — 276 .

(3) راجع باب السرقات وما شاكلها ، ج 2، ص 280 وما بعدها من كتاب «العمدة» لابن رشيق .

(3) ذ — 1/1 — ص 276 .

(4) يقصد أبا عامر بن شهيد ، وقد عقد له فصلا في الذخيرة 1/1 من 161 الى 289 .

أمرنــــا بامســـاك الدمــــوع جفوننـــــا

ليشجى بما تطوى عـــذول ولائـــــم

فظلت دمــوع العـــين حيرى كأنهــــا

خـــلال مـــآقينـــا لآل تـــوائـــــم

الخ ٠٠٠

«فقام بهذا التركيب ما نسيت له حيلة التطويل . (1)

ثم يقول بعد ذلك :

« وبيت الرمادي من قول ابن عبد ربه :

وكأنمـــا غـاص الاســـى بجفونهــــا

حتى أتـــاك بـــلؤلـــؤ منثـــــــور

« فاحتال الرمادي حتى أتى باللؤلؤ ، وعوض من الغائص التبسم ، ووقعت له استعارة التبسم للعين موقعا لطيفا ، وانما هو للثغور بسبب توسط اللؤلؤ الذي هو للعيون والثغور ، فنسخ المعنى نسخا ، وقلبه قلبا، وتشبيه الدموع باللؤلؤ ٠٠٠ » (1)

وهكذا نجد ابن بسام لا يخرج عن النظرية الشائعة فى مسألة الأخذ أو السرقة كما يسميها جل النقاد، فهو كالآمدى والجرجانى وابن رشيق، الذى يبدو أنه افاد من كتابه (العمدة) كثيرا ، يجزىء التشابه الذي يلاحظ بين ابيات الشعراء الى تشابه فى المعنى ، واللفظ ، والـــوزن ، والقافية ٠ فمنها ما يكون الشبه فيها بين عنصر واحد من هذه العناصر ، ويكـــون القبح فى بيت المتأخر درجات ، ومنها ما يكون الشبـــه فيه بين اكثر مـــن عنصر حتى لقد يكون التشابه تاما فى اغلب تلك العناصر أو فيها جميعا ، وهو أقبح الانواع على الاطلاق ٠

( ) ذ — 1/1 — ص 276 ٠

( ) ذ — 1/1 — ص 276 — 277 ٠

وقد ميز النقاد بين مختلف حالات الاخذ واطلقوا على كل واحـــدة منها مصطلحا خاصا بها ، واختلفوا فى تلك المصطلحات فمنهم من غالى فى التفريع والتقسيم وتعداد الحالات ، ومنهم من اعتدل فى ذلك فأخذ بالقدر المعقول منها (1) ٠

أما ابن بسام فانه لم يتناول هذه التقسيمات بصفة نظرية فيعـــرف كل مصطلح من المصطلحات معتمدا له ما اتفق عليه النقاد أو مضيفا اليه ما يراه هو ، وانما اكتفى باستعمال الفاظ خاصة ، وان لم يكن لها قوة المصطلحات، ليفرق بين السرقة التى هى «مكابرة محضة»، وبين الاهتدام الذى هو اخذ عن « سابق اصرار » كما يقال ، وبين الاخذ البسيط الذى مبعثه اعجاب الاديب بمعنى أو صيغة لدى شاعر آخر فيتصرف فيهاليتنظم على منوالها فهو نوع من المعارضة ولكنه ايضا فى القبح درجات ثم ان هناك حالات التشابه البعيد ، وهنا نجد ابن بسام يعبر عن ذلك بالفـــاظ متنوعة ، منها ما هو شائع فى كتب النقد التى قننت قضية السـرقات ، ومنها ما هو من استعماله الخاص ٠

وفيما يلى نتناول هذه المسائل كلها بنوع من التفصيل ٠

فمن حالات التشابه الكبير نجده فى المثال التالى يتحدث مرة أخرى عن السرقة وان لم يبلغ فى استنكارها هذه المرة مبلغه فى المـــرة الماضية ، والحالات التى ذكرها باسم السرقة هى كما أسلفنا حالات نادرة جدا مما يدل بوضوح على مقدار تحرجه من رمى الاديب بها ٠ وهو ما يكشف لنا فى الوقت نفسه عن مبلغ استنكاره لها ٠

ففى الفصل الذى عقـــده لابى عـــامـــر بن شهيـــد أورد لـــــه قصيدة آخرها هذا البيت :

---

(1) انظر تفصيل ذلك عند ابن رشيق فى كتاب العمدة ج 2 ، ص 280 وما بعدها ٠

وخيل تمشى للوغى ببطونها

اذا جعلت في المرتقى الصعب تزلق

ثم عقب عليه قائلا : « وهذا البيت مما لم يحسن أبو عامر سرقته، ولا بلغ به طبقته وهو من قول أبى الطيب (المتنبى) :

اذا زلقت مشيتها ببطونها

كما تتمشى في الصعيد الاراقم » (1)

على أن ابن بسام لم يشهر بأديب ترجم له بسبب هذا المأخذ كما فعل بالشاعر ابن فتوح ، فقد قال عنه فى التعريف به ، حتى كأن ذلك صفة من صفاته البارزة : « وابن فتوح هذا كثير الاهتدام لاشعار سواه ، قبيح الاخذ فى كل ما انتحاه » (2)

ولا علاقة لهذا الحكم برأى ابن بسام فى ابن فتوح كأديب. صحيح انه لا يكن لشعره كبير الاحترام ، اذ قال عنه بكل صراحة «وشعره كثير البرد» ولكن اعجابه الشديد بابن زيدون ، وابن شهيد ، وابن دراج القسطلى ، وغيرهم لم يمنعه من أن يرجع كثيرا من معانيهم الى شعراء آخرين سواء كانوا من المغاربة والاندلسيين ، أم من المشارقة .

وصاحب الذخيرة قد فرق أيضا — كما فرق النقاد قبله وبعده — بين المعنى المخترع الذى يحمل طابع صاحبه فلا نجده عند أديب آخر الا بحثنا عن احتمال تأثره به ، وبين المعانى المتداولة بين الناس التى ليست لاحد وانما تتميز عند هذا الشاعر أو ذاك بالصياغة اللفظية التى تفصل لها

ومن امثلة ذلك فى كتاب «الذخيرة» أن المؤلف يورد بيت أبى الطيب المتنبى : (3) .

وما الموت الا سارق دق شخصه

يصول بلا كف ويسعى بلا رجل

---

(1) ذ — 1/1 — ص 274 .
(2) ذ — 2/1 — ص 273 .
(3) ذ — 1/1 — ص 132 .

ويعقب عليه بقوله : «واخذه المعتمد بن عباد فقال :

ولكنها الايام تردى بلا ظبى

وتصمى بلا نبل ، وترمى بلا يد

ثم يضيف بعد ذلك مباشرة : « وهو معنى متداول مشهور ، وهو فى نثرهم ونظمهم كثير ...» (1)

أما حين يكون المعنى مما ابتكره الشاعر فانه لا يهمل التنبيه عليه . من ذلك أنه فى الفصل الذى عقده للشاعر عبادة بن ماء السماء اورد له مقطوعة فى وصف كأس خمر ، آخرها :

أغرق فيها الهم لكن طفا

حبابها من فوقها مزبدا

كأنما شيبها شارب

أمسكها في كفه سرمدا

ثم عقب عليها قائلا : «وهذا البيت أراه اخترع معناه» (2) يقصد البيت الاخير ...

وهو من ناحية أخرى لاحظ الاخذ فى الألفاظ كما لاحظ الأخذ فى المعانى ، واستنكاره للنوع الثانى من الأخذ لا يقل عن استنكاره للنوع الاول منه . فعلى سبيل المثال ، وفى الفصل الذى عقده لابن فتوح المتقدم الذكر يورد له هذين البيتين :

خلع الجمال عليك ثوب بهائه

فغدوت تسحب ذيله متبخترا

فكأن خدك والعذار بصحنه

صبح جرى فيه دجى فتحيرا

---

(1) ذ — 1/1 — ص 132 .
(2) ذ — 2/1 — ص 5 .

ثم يعلق على البيت الاخير بقوله : « وما أتبع هذا الاخذ بانه لفظ تميم بن المعز حيث يقول :

ما بــان عــذري فيــه حتــى عــذرا
ومشى الدجى في صبحــه فتحــيرا (1)

والحق انه لفظه ومعناه ، ولكن ابن بسام سـكت عن المعنى لانـه يعتبره من الشائع المتداول الذي لايملكه أحد دون سواه .

كانت هذه وقفة متأنية عند أهم وجوه النقد الفني الذي يعتمد على الموازنة بين ما يتداوله الشعراء والادباء عامة من الفاظ ومعان ، لعلنا استطعنا أن نبين أثناءها منهج ابن بسام فى هـذه القضية ، وطبيعـة ما يصدر عنه من أحكام بشأنها . ولن نختم القول فيها قبل أن نتنـاول باختصار أهم التعابير والمصطلحات النقدية الواردة فى كـلامه عنها فى النقاط التالية :

1 ــ ذكرت بـ : من تعابير ابن بسام قوله بمناسبة بيت من الشعر : ذكرت به قول فلان، والحق أن الكلمة ليست دقيقة فى تحديد الصلة بـين الشيئين بحيث يذكر احدهما بالاخر . فقد تكون صلة واهية وقد تكـون صلة شديدة، ويكاد الامر يتوقف على الحالة النفسية للكاتب. وعلى اية حال فان المؤلف يستعمل هذا التعبير فى بعض الاحيان ، ومن امثلة ذلـك قوله فى الصلة بين مقطوعتين احداهما للوزير الكاتب أبى حفص بن بـرد الاصغر ، والاخرى لمحمد بن هانىء : «وذكرت بهذا المعنى قول محمد بن هانىء ، وان لم يكن به فيتطرق المغزى اليه» (2) والحق أن العلاقـة بينهما واهية ، ولقد أحس ابن بسام بذلك فاحتاط بقوله «وان لم يكـن به ...» ولعل قصارى ما فى الامر أن مقطوعة ابن هانىء الغزلية قـد أثرت فيه فاستحضرها وهو يكتب مقطوعة ابن برد الـغزلية ايضا فأقام

(1) ذ ــ 2/1 ــ ص 274 .
(2) ذ ــ 2/1 ــ ص 45 .

الصلة بينهما ، وهو لابد واجدها ، على نحو ما ، بين ابيات موضوعهـا واحد : هو الغزل ، وأثبتها بناء على ذلك .

2 ــ يلمح : وهذا التعبير أيضا ناقص الدقة ، فكل شعر يـمكن أن (يلمح) شعرا آخر من بعض الوجوه ، وبخاصة حين يكون موضوعهما واحدا أو متقاربا وهكذا نرى صاحب الذخيرة مثلا يتوقف عند بيت لابى عامر بن شهيد هو :

وما للذى ولـى بـه البـين حسـرة
بكيت ، ولكـن حسـرة للذى بـقـى

ويعقب عليه بما يلى : «قوله : (وما للذى ولى به البين حسرة) . البيت ، يلمح قول محمد بن هانىء .

لاتسلنـى عـن الليالـى المواضـى
وأجرنى من الليالـى البواقـى . (1)

3 ــ أشار الى : وهذه عبارة يكثر استعمالها عنـد المؤلف ، ونمثـل لها بما جاء فى كتابه ، عند ترجمته لابن دراج القسطلي وايراد مختارات له من شعره ، اذ أورد له القصيدة التى منها هذا البيت :

ورمى علـى رداءه مـن دونهـم
ملـك تخير للعـلا فتخـيرا .

فأقام الصلة بينه وبين بيت شعرى آخر بهذه العبارة : « وقولـه : (ورمى على رداءه من دونهم) أشار الى لفظ الهذلى دون معناه وهو :

ولـم أدر مـن القـى عليـه رداءه
سوى أنه قد سل عن ماجـد محض (2)

4 ــ ينظر : ويستعمل ابن بسام هذا الفعل عدة استعمالات للدلالة على الصلة غير القريبة بين الالفاظ والمعانى ، وذلك فى أغلب الاحيان .

(1) ذ ــ 1/1 ــ ص 274
(2) ذ ــ 1/1 ص 59 والبيت فى القصيدة ص 57 .

— فهو يستعمله مع التبعيض كما فى قوله معقبا على مقطوعة لابن برد : « وينظر من هذا بعض النظر قول ابى نواس » ويورد بيتين له (1)

— وهويستعمله مع حرف الجر فقط كما فى تعليقه على البيت الذى ورد فى مقطوعة للمعتمد بن عباد يبكى فيها ولديه ، وهو :

فلو عدتما لاخترتما العود في الثرى

اذا أنتما ابصرتماني في الاسر

ويعلق عليه : « وقوله : لو عدتما ... البيت ، كأنه من أشعار النساء ، وأراه ينظر الى قول الخنساء فى صيغة المبنى وان خالفه فى المعنى ، وهو :

ولولا كثرة الباكين حولي

على اخوانهم لقتلت نفسي » (2)

— ويستعمل المؤلف فعل « ينظر » احيانا فى هذه الصيغة : ينظر من لحظ مريب ، ويدل ذلك عادة على أن الصلة بين المعنيين أو المبنيين قوية . ونجد مثالا لهذا الاستعمال فى تعليقه على بيت ابن زيدون :

ان السيوف اذا ما طاب جوهرها

في أول الطبع لم يعلق بها الطبع

حين يقول : « وقوله (ان السيوف ... البيت) ينظر من لحظ مريب الى قول حبيب :

والسيف ما لم يلف فيه صيقل

من سنخه لم ينتفع بصقال » . (3)

ومن الواضح مدى تأثير السجع فى صوغ العبارة نفسها .

(1) ذ — 2/1 — ص 38 .
(2) ذ — ق 2/ — ص 41 مخ . القاهرة .
(3) ذ — 1/1 — ص 331 .

5 — **ألم** : وهذه لفظة اخرى للدلالة على العلاقة غير الوثيقة بين شعرين وان كان بينهما من الشبه ما يلفت الانتباه ، ومن أمثلة ذلك تعقيب ابن بسام على هذا البيت الوارد فى قصيدة لابن زيدون .

والنسيم ، اعتلال فى أصائله

كأنه رق لي فاعتل اشفاقا

اذ يقول : « وقوله : (والنسيم ...) البيت ، أراه ألم فيه بقول ابن المعتز :

والريح يجذب أطراف الثياب كما

أفضى الشفيق الى تنبيه وسنان (1)

6 — **كأن** : وهذه الاداة كثيرة الورود فى كلام ابن بسام حين يتصدى لتتبع المعانى ، وكثيرا ما تكون للدلالة على تردده فى حقيقة الشبه الذى يريد أن ينبه عليه . ويمكن ان نورد على ذلك قوله بعد اثبات ثلاثة ابيات للشاعر الاندلسى ابن برد ... كأنه ذهب فى البيت الثانى منها الى معارضة ابن المعتز فى قوله ... » (2)

7 — **احتذى** : وهذا أوضح فى اثبات نوع من التقليد لشاعر سابق ، واذا كان الاحتذاء دون الاخذ ، فانه بلا شك قريب الصلة به . على أن ابن بسام لايجعل لهذه الكلمة مضمونا سلبيا ، فالاحتذاء عنده نوع من الاقتداء ومن هذا القبيل ما لاحظه على أبيات ابن دراج القسطلى التى يقول فيها :

فكأنما تابعت تبع رافعا

أعلامه ملكا يدين له الورى

وحططت رحلي بين ناري حاتم

أيام يقرى موسرا أو معسرا

(1) ذ — 1/1 — ص 314 .
(2) ذ — 2/1 — ص 41 .

وعقدت في يمـن مواثـق نمـــــــه
مشدودة الاسبـاب موثقـة الـــعرى
الخ ....

فقد عقب عليها بقوله: «أراه احتذى في هذه الابيات الاخيرة حذو أبي الطيب في ابن العميد حيث يقول:

من مبلغ الاعــراب أنــي بـعـدهـــا
جالست رسطاليس والاسكنـــدرا
ولقيـت بطليمـوس دارس كتبــــه
متبديــا في ملكـه متحضـــرا
الـــخ ... (1)

8 — من قول فلان: وهناك هذه العبارة التي هي أيضا أوضح في تحديد صلة التشابه، وهي تدل اكثر من كل العبارات التي تقدمتها على ثبوت الاشتراك بين الشعر في شيء من المعنى أو المبنى، والامثلة كثيرة جدا نسوق منها الآتي لمجرد الاستشهاد. فقد أورد ابن بسام اربعة أبيات من الشعر لابن برد الاصغر، آخرها هذان البيتان:

وما زلت أحســب فيـــه السحـــا
ب، ونار بوارقهـــا تلتــــهب
بخاتــي توضــع فـي سـيرهـا
وقد قرعـت بسيـاط الــذهــب

ثم علق قائلا: «ومعنى البيت الاخير من قول الاخر:

حتـى اذا مـا رفـــع الآل الضحى
حسبته سلاســـلا مـن الذهـب» (2)

تلك كانت أهم التعابير الاصطلاحية التي لجأ اليها ابن بسام في محاولة التمييز بين أنواع الاخـذ التي تكون فيمـا يتداوله الشعـــراء

---

(1) ذ — 1/1 — ص 58 .
(2) ذ — 2/1 — ص 47 .

والكتاب من الألفاظ والمعاني. وليست كلها لابن بسام خاصة، فان عددا منها قد سبقه النقاد الى استعماله. وقد لاحظنا كيف أنها تعابير تفتقر في الغالب الى الدقة. ولعل ذلك يرجع بالدرجة الاولى الى أن المؤلف لم يتعمق في « تنظير » قضية الاخذ هذه، بحيث يقيم الحدود الفاصلة لكل نوع من أنواعها، ويضع تعبيرا واحدا لكل الحالات المتشابهة. لذلك جاءت تعابيره متقاربة لاتدل على فرق كبير واضح بين نوع ونوع، باستثناء ما كان متعلقا بالسرقة المفضوحة أو التشابه البعيد. أما ما بين هذين الطرفين، فان المصطلحات تعوزها الدقة في أغلب الاحيان.

3 — القياس الانطباعـــي:

من البديهي الذي لايحتاج الى تنبيه أننا لانقصد بعبارة « القياس الانطباعي » أي جانب من جوانب المصطلح الحديث الخاص بالمدرسة « الانطباعية » الغربية، اذ ليس بينها وبين ما نحن بصدده أية صلة، الا ما قد يكون من الاشتراك في المضمون اللغوي الاصلي للكلمة!

فالذي نقصده نحن هو التمييز بين النقد الذي يتخذ مقياسا يخضع للتحليل والتعليل، وبين النقد الذي يصدر عن ميل أو اعجاب شبه غريزي بموطن من مواطن الجمال الفني دون أن يصدر في ذلك عن قاعدة واضحة أو يبنى على مقياس موضوعي يمكن النظر فيه وموازنة مقوماته. فهو بعبارة أخرى يحتكم الى الذوق وحده، ولكـنه ذوق « خام » يملي الاعجاب، دون أن يبرز الاسباب.

وطبيعي أنه كان بامكاننا أن نسميه « القياس الذوقي »، ولكننا رغبنا عن هذه التسمية لانها تقصر الذوق على هذا الجانب وحده، بينما نحن نرى أن الذوق شديد الاتساع، متشعب الامتدادات، بحيث أننا لانجد في الحقيقة أي نوع من أنواع النقد لايصدر فيه صاحبه عن ذوقه. وذلك سواء تعلق الامر بالنقد الفني، أم بالنقد الديني، أم بغيرهما

فالذوق بهذا المعنى جزء من الاسس التى تقوم عليها كل العمليات النقدية ثم يكون الفرق بين النقد والنقد فى العلل التى تفسر هذا المذهب أو ذاك، وهذه الرؤية أو تلك •

أما « الانطباع » فهو يدل على الاثر المباشر الذى تحدثه فى النفس احدى ومضات الفن ، فيكون الاستحسان أو الاستقباح اللذان لم يسبقهما تحليل ولا تعليل • هذا بالذات هو الوجه الذى سميناه « المقياس الانطباعى » فى نقد ابن بسام •

وقد يبدو من التناقض أن نتحدث عن تأثر خاطف بالجمال ، تأثرا لم يسبقه تحليل أو تعليل ، ثم نستعمل كلمة «المقياس» وهى فى جوهرها اداة تتركز فيها معانى التحليل والتعليل •

والحق اننا لانتحدث عن المقياس من وجهة نظر ابن بسام ، وانما نتحدث عنه من وجهة نظرنا نحن فى هذه الدراسة • فالمقياس هو لنا نقيس به نقدا صادرا عن المؤلف بمناسبة تأثره — سلبا أو ايجابا — بواحد من المظاهر الفنية فيما يروى من الشعر والنثر •

والمثال الاول الذى نورده لذلك هو الاعجاب الشديد الذى أبداه بقصيدة ابن دراج القسطلى التى مدح بها على بن حمود ، والتى مطلعها :

لعلك يا شمس عند الاصيل

شجيت لشجو الغريب الذليل (1)

وقد وجدناه يمهد لهذه القصيدة بهذه العبارات التى تكشف لنا مدى تأثره بابياتها ، واستحسانه لمعانيها وألفاظها • قال : « وهذه القصيدة له طويلة ، وهى من الهاشيمات الغر ، بناها من المسك والدر، لا من الجص والآجر ، لا بل خلدها حديثا على الدهر ، وسر بها مطالع النجوم الزهر » (2)

---

(1) ذ — 1/1 — ص 70 •

(2) نفسه •

هذا الفيض من الاعجاب والاستحسان ، لو بحثنا عن سببهما ، لما وجدنا فى كلام ابن بسام شيئا يدلنا عليه ، وكل ما نراه هو سيل من الثناء ينم عن مبلغ التأثر ومبلغ الاعجاب • هذا الثناء هو الذى نسميه نقدا • وأما مقياسه بالنسبة الينا فهو انطباع نفس ابن بسام بما وجد فى القصيدة من جمال •

ولو شئنا أن نستكشف مسوغات هذا الاعجاب لأمكننا أن نصنفها فئتين :

احداهما تتعلق بالموضوع الموحى بحالة شبيهة بما اضطر اليه ابن بسام من الاغتراب بعد حياته السعيدة فى شنترين • والنفس البشرية تستريح — كما هو معروف — للفن حين يعبر بخاصة عن احدى حالاتها الماضية أو الحاضرة ، ذات الصدى البعيد فى القلب •

والثانية تتعلق بما تمتلىء به قصيدة ابن دراج — وهو من أكبر شعراء الاندلس على الاطلاق — من الموسيقى المجلجلة ، والتراكيب الجزلة ، والمعانى العميقة ، والقوافى المحكمة •

ولكن ابن بسام أسقط — كما يقول « الانطباعيون » أو الذين أرخو لهم — ابيات القصيدة على نفسه ، وتركها تتأثر بها ، وترد الفعل بواسطة تعابير الاعجاب والثناء التى كنا ذكرناها •

ويتناسب مقدار الثناء مع مقدار التأثر • فاذا كان المثال السابق يعد نموذجا لذروة التأثر أو الانفعال الايجابى ، فهناك نماذج أخرى لا نجد فيها الثناء قد بلغ تلك الدرجة ، لان الانفعال بها لم يبلغ مبلغه فى قصيدة ابن دراج القسطلى •

ونسوق لذلك المثال التالى الذى يدور حول بيت ابن المعتز :

والصبح يتلو المشترى فكأنه

عريان يمشى في الدجى بسراج

فقد قال عنه « ومعنى البيت ... كقول ابن المعتز وهو من أحسن ما قيل فى الصبح » (1)

والفرق شاسع بين الثناء هنا والثناء هناك ، وهو يتناسب مع الفرق بين الانفعالين . فالنموذج الاول قصيدة دغدغت كل ما فى قلب ابن بسام من الاوتار ، أما بيت ابن المعتز فالاعجاب به مقصور على جوانبه البديعية .

هذان مثالان فقط ، لعلهما يكفيان فى توضيح هذا الجانب من نقد ابن بسام . ولو شئنا لسردنا أمثلة عديدة من هذا القبيل ، ولكن ليس الغرض اجراء جرد آلى لكل الالوان والانواع النقدية فى الكتاب ، واستعراض جملة ما ورد فيه من الامثلة ، وانما غرضنا هو استخلاص المبادىء الكبرى التى تقوم عليها مواقفه النقدية بكل ألوانها وأنواعها .

على أننا لانستطيع أن نستجمع كل مقومات الصورة التى أردنا أن نرسمها لابن بسام الناقد ، ولن نستوفى جميع سماتها وملامحها الا اذا اضفنا الى ما قدمنا بعض الحديث عن احكامه النقدية العامة ، سواء منها ما جاء فى سياق العرض وما جاء فى المفاضلات التى عقدها أحيانا بين بعض الادباء .

4 — الاحكام النقدية العامة ونماذج من المفاضلة :

لن نكرر القول فيما سبق لنا أن تناولناه بالحديث من الاحكام النقدية التى تدخل فى نوع من أنواع النقد لدى ابن بسام ، حتى وان كانت من قبيل الاحكام العامة . ذلك اننا نريد فى هذا القسم من البحث أن نتعرض لبعض المواقف أو الاشارات النقدية التى تتميز بشموليتها ، والتى هى كفيلة بالقاء مزيد من الضوء على المنهج النقدى فى كتاب الذخيرة .

(1) ذ — 2/1 — ص 48 .

— الطريقة البحترية :

تحدث المؤلف فى مستهل القسم الثانى من كتابه عن شعراء اشبيلية فقال : « وطريقتهم فى الشعر (هى) الطريقة المثلى التى هى طريقة البحترى فى السلاسة والمتانة والعذوبة والرصانة » .

وهذا كلام واضح فى أن ابن بسام يفضل الطريقة العربية فى نظم الشعر تلك التى تتميز بنوع من البساطة واليسر ، والالتزام بعمود الشعر كما جاء فى القصيدة القديمة . ومن المعلوم أن الحركة النقدية المنهجية، كما يسميها الاستاذ محمد مندور (1)، التى دارت حول البحترى وابى تمام ، تتلخص فى تصارع تيارين : أحدهما يمثله البحترى وهو مذهب السلاسة والبساطة والثانى يمثله أبو تمام ، وهو مذهب التعمق والغوص على المعانى البعيدة ، والخروج عما ألفه الذوق العربى ، والاحتفال الكبير بالبديع .

ولقد كنا نتوقع أن لايميل ابن بسام بهذه السهولة عن مذهب أبى تمام الى مذهب البحترى وطريقته ، لما نعرف من مدى ولوعه بالبديع . ولكن الموقف الآن ليس اختيارا بين البديع وغيره وانما هو بين الطريقة العربية وغير العربية . وحين يكون الاختيار بين هذه وتلك فان انحياز ابن بسام الى جانب الاصالة والمحافظة يكون بلا أدنى تردد .

أثر الوراثة فى الفن :

حاول ابن بسام أن يعلل بعض الظواهر التى لاحظها تعليلا ذا صبغة علمية . فلقد رأى بعض الاقاليم تشتهر بمهارة فى الفن أكثر من غيرها فبحث لها عن تعليل فى أصل السكان النازلين بها .

(1) فى كتابه (النقد المنهجى عند العرب) .

لقد لاحظ مثلا «تكاثر أهل البحث والطلب لانواع العلم والأدب» فى مدينة قرطبة فقال : « وبالجملة ، فأكثر أهل بلاد هذا الافق أشراف عرب المشرق افتتحوها ، وسادات أجناد الشام والعراق نزلوها ، فبقى النسل فيهم بكل اقليم على عرق كريم ، فلا يكاد بلد منها يخلو من كاتب ماهر ، وشاعر قاهر» • (1)

ولعل من هذا القبيل ما نجده له فى الحديث عن اشبيلية ، وان كان رأيه هنا أقل وضوحا من رأيه هناك• قال: « وبهذا الافق نزل جيش حمص من المشرق ، فسميت حمص • ولما كانت دار الاعزة والاكابر ، ثابت فيها الخواطر ، وصارت مجمعا لصوب العقول ، وذوب العلوم ، وميدانا لفرسان المنثور والمنظوم • » (2)

تقاليد الرثاء :

لقد سبق لنا أن درسنا فى فصل سابق من هذا البحث تلك الظاهرة الفريدة فى كتاب « الذخيرة » ، والمتمثلة فى جمع ابن بسام لقسط وافر من القصائد التى قيلت فى رثاء الوزير الفقيه أبى موان بن سراج (3)

وقد أورد فى جملة تلك المراثى قصيدة أبى محمد عبد المجيد بن عبدون ، التى مطلعها :

ما منك يا موت لا واق ولا فاد
الحكم حكمك في القاري وفي البادي. (4)

ثم علق عليها بقوله : « وهذه القصيدة طويلة سلك فيها أبو محمد طريقته فى الرثاء ، الى الاشارة والايماء ، بمن أباده الحدثان من ملوك الزمان ••• واقتفى ابو محمد أثر فحول القدماء ، من ضربهم الامثال فى

(1) ذ — 1/1 — ص 22 .
(2) ذ — 2/3 مخ • القاهرة .
(3) ذ — 2/1 — ص 307 .
(4) ذ — 2/1 — ص 313 .

التأبين والرثاء ، بالملوك الاعزة ، والوعول الممتنعة فى قلل الجبال ••• وغير ذلك مما هو فى أشعارهم موجود • فأما المحدثون فهم الى غير ذلك أميل ، وربما جروا أيضا على السنن الاول » • (1)

وتجد فى هذا الفصل بالذات من كتاب الذخيرة حكما نقديا أعم من الاول وهو : « وأكثر من أبنه أطال فى مدح ابنه ، وليس من عادة الشعراء المقتدى بهم ، الاكثار من مدح المعزى فى تأبين حميمه المتوفى وانما يلمون به الماما بعد التوفر على ندبة ميته ، والاشباع فى ذكر ما فقد من خصاله ، ثم الكر على تسكين جأشه ، وحضه على التعزى اتقاء لربه • هذه طريقة قدماء الشعراء » • (2)

وهكذا يحاول ابن بسام أن يضع بين أيدى الشعراء منهجا تاما جاهزا فى الرثاء ، وهو يستنبطه من المراثى التى نظمها قدماء الشعراء •

شعر الملوك :

من الطبيعى أن يصدر ابن بسام حكما نقديا عاما على شعر الملوك، وقد التزم فى كتابه بافتتاح كل قسم من أقسامه بما لديه من أدب الملوك الحاكمين للاقاليم الذى هو موضوع ذلك القسم من الكتاب •

وقد وجدناه فى الفصل الخاص بالمعتمد بن عباد يقول : « وله شعر كما انشق الكمام عن الزهر، مع أنه قد رويت أشعار أولى النباهة والاعيان على قديم الزمان لشرف قائلها ، مع قلة طائلها » (3)

وواضح انه هنا يستثنى المعتمد من القاعدة العامة • ولكنه يواصل الحديث بعد ذلك قائلا « وقد رأيت أبا بكر الصولى أثبت للملوك بنى امية، وخلفاء بنى العباس ، ما لو صدر مثله لصغار الناس لاستهجن ، أو ظهر لضعفاء السوق لاستصغر » • (4)

(1) ذ — 2/1 — ص 318 .
(2) ذ — 2/1 — ص 318 .
(3) و (4) ذ — 1/2 — ص 32 .

وتحدث ابن بسام عن شعر العلماء كذلك ، فلاحظ ما فيه من تكلف وضعف ، واستثنى عددا منهم ، فبرأهم من هذه الوصمة ، وأورد لهم نماذج من شعرهم وقد قال في هذا الموضوع : « على أن أشعار العلماء على قديم الدهر وحديثه بينة التكلف ، وشعرهم الذي روى لهم ضعيف، حاشا طائفة ، منهم : خلف الأحمر ، فان له ما يستندر ، وتطرب ، له أيضا ما يستغرب ... والخليل بن أحمد ، له أيضا بعض ما يحمد ، ومؤرج السدوسي ، وابن دريد من الشعراء العلماء ، وكذلك من علماء البصرة أبو محمد اليزيدي .. وابن مناذر أيضا عالم شاعر ، وابن معلم السعدي ... ومن العلماء الشعراء أحمد بن أبي كامل ... ومن الرواة الاخباريين محمد العتبي ...

« هؤلاء أعيان العلماء بالمشرق ، ممن علا شعرهم ديباجة ورونق ، وأما من سواهم ، كيوسف ، والأخفش ، وأبي عمرو بن العلاء ، وسيبويه ، والفراء ، وسائر أصحابهم ، فأكثر الرواة لم يسمع لهم بشعر ، والكسائي الذي يقول : (انما النحو قياس يتبع) له شعر ضعيف ، بين التكليف ، فأما أبو عبيدة فله شعر يضحك ، لا سيما قوله في ابن يونس النحوي ، وكان يسمى جرك :

لم أر أن أكون من رواته

اذ هو معدود في هناته . (1)

«وللأصمعي قصيدة في بني برمك ، أكثر فيها من الغريب ، وما أتى بغريب ، وكذلك من علماء الكوفة جماعة مثل خالد بن كلثوم ، وأبي عمر الشيباني ، وابن الأعرابي وأصحابهم . زعم ابن المنجم أنه لم يسمع لهم بشعر » .

(1) ـ كذا ورد البيت ويبدو الشطر الثاني منه مختلا .

« وأما العلماء الشعراء بأفقنا هذا الأندلسي ، من حين استفتحت الجزيرة ، الى آخر دولة بني عامر ، فقد تقدم المصنفون قبلي الى تدوين نثرهم ونظمهم ، فأغناني عن ذكرهم ...» . (1)

ومن الجلي مدى اهتمام ابن بسام بقضية شعر العلماء ، وقد حرصنا على اثبات أقواله على طولها ، لم نحذف منها الا الأبيات التي أوردها لبعض أولئك ، لنتمكن من تكوين فكرة شاملة عن رأيه في هذه القضية .

ولعلنا لاحظنا كيف قسم العلماء الى طائفتين احداهما تشتمل على الذين نظموا بعض القصائد والمقطوعات ، والثانية تشتمل على الذين لم يصل الى ابن بسام شيء من شعرهم . ثم قسم علماء الطائفة الأولى الى طبقات ، فمنهم ذوو الشعر الجيد ، ومنهم ذوو الشعر الضعيف ، ومنهم ذوو الشعر المضحك .

تلك كانت أهم الأحكام النقدية العامة التي استرعت اهتمامنا في كتاب الذخيرة . ونختم هذا الفصل بحديث موجز عن المفاضلات ، وهي بدون شك في صميم العمل النقدي .

نماذج من المفاضلات :

ـ بين أبي حفص بن برد الأصغر ، وعبد الله ابن المعتز :

أورد المؤلف في الفصل الذي عقده للأديب الأندلسي أبي حفص بن برد الأصغر هذه المقطوعة من الشعر :

أعنبر في فمه فتتا

أم صارم من لحظه أصلتا

يا شاربا الشفى شاربا

قد هم فيه الآس أن ينبتا

(1) ذ ـ 2/1 ـ ص 321 ـ 322 ..

أنظر الى الذاهب من ليلنا
وامزج بماء الذهب المنبتا

وعقب على المقطوعات بقوله : « كأنه ذهب فى البيت الثانى منها الى معارضة ابن المعتز فى قوله :

قد صاد قلبى قمر — يسحر منه النظر
بوجنة كأنما — يقدح منها الشرر
وشارب قد نم أو — هم عليه الشعر
ضعيفة أجفانه — والقلب منه حجر
كأنما مقلته — من فعله تعتذر
الحسن فيه كامل — وفى الورى مختصر » (1)

ثم يخلص أبو الحسن الى المفاضلة فيقول : « وليس يد ابن برد فيه عن مرماه بقاصرة ، ولا صفقته حين جاراه بخاسرة ، بل ساواه وزاد، وأجاد ما أراد . ألا ترى قول ابن المعتز على تقدمه « قد نم أو هم عليه الشعر » لا يكاد يخرج من لفظ العامة ، وابن برد جمع فى بيته بين بابين من أبواب البديع ، فجانس بين الشارب والشارب ، وأنبأ أن محبوبه فى آخر درجة من المرودة ، وأول درجة من اللحية ، باشارة عذبة ؛ وعبارة حلوة ، دون تطويل ولا تثقيل » . (2)

وتنتهى المفاضلة هنا ، ويأخذ ابن بسام فى شأن آخر من شؤونه . وهى مفاضلة لا تدور فى الحقيقة على شاعرين ، بل ولا حتى على

(1) ذ — 2/1 — ص 41 .
(2) ذ — 2/1 — ص 42 .

مقطوعتين ، وانما محورها بيتان اثنان ، فهى مفاضلة من حيث أن المؤلف قد وازن بين المعنيين ونقدهما ، وفضل أحدهما على الآخر وعلل هذا التفضيل . هذه العناصر كلها أخرجت عمله هذا من تتبع المعانى بالطريقة العادية ، وجعلته أقرب الى الموازنات «والمقارنات» النقدية .

على أن هذا لا يعنى أن كتاب الذخيرة خال من المفاضلات الواسعة التى تدور حول شاعرين من حيث انتاجهما عامة ، أو من حيث بعض الأغراض الأدبية التى اشتهرا بها . وفيما يلى نسوق مثالا لهذا النوع من المفاضلات .

— بين ابن شرف ، وابن رشيق :

قال ابن بسام متحدثا عن أبى عبد الله ابن شرف ، مقارنا بينه وبين أبى على بن رشيق : « وبينه وبين أبى على بن رشيق ماج بحر البراعة ودام ، ورجع نجم هذه الصناعة واستقام ، وذهبا من المنازعة مذهبا تنازعاه شرا طويلا ، وخلداه ذكرا محمولا ، واحتملاه — ان لم يسمح الله — وزرا ثقيلا » .

« وكان أبو على أوسعهما نفسا ، وأقربهما ملتمسا ، ولابن شرف أصالة منزعه ، وجلاله مقطعه ، ومتانة لفظه ، وسعة حفظه ، فتسمع بشعره ملآن من وعوعة وجعجعة ، ولكن ما أبعد ما يرومه وأبدعه » . (1)

فهذه مفاضلة دقيقة بين أديبين ، تامة العناصر ، مكتملة المقومات، وانما جاءت وجيزة مقتضبة لأنه لم يقصد الى المفاضلة ، وانما علم مدى العلاقة بين ابن شرف وابن رشيق ، وما كان بينهما من صراع أدبى ، فأحب أن يقول رأيه فيهما بايجاز فى معرض تعريفه بابن شرف ، اذ الفصل فى الكتاب خاص به . وهى على ايجازها مفاضلة دقيقة ، استطاع فيها المؤلف أن يهتدى الى مميزات مذهب كل واحد منهما .

(1) ذ — 1/4 — ص 133 .

وهكذا نأتى الى ختام ما كنا نريد توضيحه من الجوانب النقدية فى كتاب الذخيرة . ونحسب أننا استطعنا أن نتعرف الى العناصر التى تتكون منها نظرات ابن بسام النقدية . وقد رأينا أن المبادىء الأخلاقية ليست مجرد مذهب نقدى لديه ، يقوم من خلالها ما ينظر فيه من أنواع المنثور والمنظوم ، وانما هى منهج شامل لسلوكه فى الحياة عموما . فكان من الطبيعى أن تصطبغ بها مواقفه النقدية ، وأن تتأثر بها أحكامه الفنية .

ولكننا نظن أننا بينا بما فيه الكفاية أن الاعتقاد بأن ابن بسام لم يمارس الا هذا النوع من النقد ، وأن كل أحكامه اقتصرت عليه ، وانحصرت فيه ، ينطوى على جانب غير قليل من الظلم للمؤلف أولا ، ولكتاب الذخيرة ثانيا . فقد وجدنا أن المؤلف عالج ألوانا من النقد ، منها ما هو نقد منهجى فنى محكم ، وأن له كثيرا من الاشارات الفنية السديدة . وليس فى هذا الرأى ما ينفى شيئا مما أسلفناه عن شمولية النظرة الأخلاقية لديه .

والسؤال الذى لا بد أن نطرحه الآن هو : هل يصح لنا أن نعتبر ابن بسام ناقدا ؟

والجواب فى رأينا هو نعم ، بلا تردد .

فلقد جاءت أكثر اشاراته ووقفاته النقدية عرضا فى سياق الكتاب ، ولو أنه قصد فى البداية الى تأليف كتاب فى النقد لجاء نقده مشتملا على كثير من الآراء السديدة والأحكام الرشيدة . ولقد توفر لابن بسام كل ما يحتاج اليه الناقد من ذوق مرهف ، واطلاع واسع ، والمام رصين بأدوات النقد البلاغية منها وغير البلاغية . ثم لا يضير بعد ذلك أن يكون مذهبه النقدى مذهبا أساسه المبادىء الأخلاقية ، أو النظرة الدينية .

فتلك «خلفية» كما يقال اليوم ، شأنها شأن ما لسائر النقاد ، فى جميع العصور ، من خلفيات مذهبية أو فكرية ، سواء كانت من قبيل الدين والأخلاق ، أو من قبيل النظريات الاجتماعية والسياسية .

ولعل المطعن الوحيد الذى يسيىء الى جانبه النقدى هو أن المحافظة على الأخلاق أو التمسك بها تبلغ به أحيانا — نقول أحيانا فقط — درجة من عدم التسامح ، تؤدى به الى حذف ما لا يرضى عنه ، والاضراب عن ايراد ما يستقبحه ويستهجنه ، وهذا تصرف مناف للمنهج العلمى فى النقد — أو فى غيره — وانما المنهج السليم أن يورد القطعة سواء أرضته أم لم ترضه ، ثم يصدر عليها ما شاء من الأحكام ، بل ولا بأس أن يقسو عليها وعلى صاحبها ان أراد ، فذلك متاح له ، ما بقى فى حدود الانصاف والموضوعية .

ولكن هذا قد يصح على ناقد فى غير وضع ابن بسام الذى نهض لتأدية رسالة محددة ، وفى غير ظروف الأندلس التى كانت تحتاج وقتئذ الى ناقد مصلح أكثر من حاجتها الى ناقد متسامح . فأن بعض وجوه التسامح : كتسامح شعبها ، وتسامح علمائها مع ملوكهم ، وتسامح ملوكها مع أعدائهم وأعداء البلاد ، قد أفضى بهم جميعا وبوطنهم الى المصير المعروف .

الخـــاتمـــة

هكذا وصلنا الى خاتمة المطاف فى دراستنا لحياة ابن بسام ، وأهم جوانب كتاب « الذخيرة فى محاسن أهل هذه الجزيرة » .

وقد استعرضنا كل ما قاله عنه الأدباء القلائل الذين ترجموا لــه، ان جاز لنا أن نسمى تلك الاشارات العابرة ، التى خصوه بها ترجمة . وعولنا أكثر ما عولنا على التلميحات التى كان يشير بواسطتها فى أحيـان قليلة الى بعض الجوانب من حياته الخاصة . ولعلنا وفقنا بعض التوفيق الى اعادة رسم أهم الخطوط فى صورة ابن بسام . ونحن الآن مطمئنون الى أن ما أعدنا رسمه منها ان لم يعدها الى حقيقتها الأولى فانـه أزال عنها كثيرا من الظلام الذى كان يحجبها . ومن المؤكد أنها ما زالـت فى حاجة الى جهود أخرى تمنحها الوضوح التام ، وتزيل عنها بقايا الضباب الذى يحول دوننا ودون ملامحها الحقيقية كلها .

وهكذا اكتشفنا دوره فى الحياة السياسية الأندلسية . ولئن لـم نتمكن من معرفة طبيعة هذا الدور ، فانه لم يبق لدينـا أى شـك فى أن الرجل كان له اتصال ما بالمعتمـد بن عباد ، وأنه كلف ببعـض المهام السياسية فى دولة المرابطين .

ومهدنا لدراسة كتاب الذخيرة بالحديث عن أدب التراجم والمختارات فحاولنا أن نعرف بأهم الكتب التى ألفـت فى هـذا الفـن فى المشرق والأندلس ، وذلك لنعرف مكانة كتاب الذخيرة من هـذا النـوع مـن المؤلفات . وقد خانتنا التفاصيل التى أمكننـا أن نتناولهـا فى الكتـب المشرقية فلم نستطع أن نوفر مثلها للكتب الأندلسية ، وكان عذرنا فى ذلك واضحا ، اذ شتان بين الحديث عن كتب أغلبها مطبوع ، فهى بين أيدينا ، نقرأها ، وندرسها ، فنستخرج منها ما نشاء ، وبين كتب هى بين مفقـود

لا يعرف أحد هل أبقت عليه الأيام فهو فى بعض الزوايا متآكل الصفحات، مهمل شأنه شأن الأموات ، أم ضاع فيما ضاع من التراث الأندلسى وهو كثير ، وبين مخطوط نادر لا سبيل الى تناوله الا بتكلف السفر اليه ، والبحث عنه ، وانفاق الكثير من الجهد ، والوقت والمال ...

ثم خلصنا الى دراسة كتاب الذخيرة دراسة مستفيضة تناولت أهم الجوانب التى يمكن أن يدرس منها . فعرفنا به أولا من الناحية الشكلية وطرحنا أهم المشكلات التى يمكن أن تثار حوله ولا سيما مشكلة صحة نسبته اليه ، أو صحة تأليف ابن بسام له على الصورة التى وصل الينا بها . وقد جمعنا من الحجج والشواهد ما لا يبقى معه أى نوع من الشك فى صحة نسبة الكتاب الى صاحبه وحده دون سواه . ثم قدمنا بعض الاحتمالات حول المشكلة الثانية التى أثرناها والتى تتعلق بالرجل الذى أهدى اليه ، ورفع بين يديه .

ثم عقدنا فصلا صغيرا للمصادر التى استعان بها الكاتب فى تأليف مجموعه ، وقد استخلصنا من ذلك مقدار ما له من اطلاع على أمهات الكتب .

وتناولنا منهجه فبينا نقاط ارتكازه ، وفصلنا القول فيها بين ايجابياتها وسلبياتها . ولقد حرصنا على الاشارة الى مدى حرصه على التنظيم ، والتزامه بالقواعد المنهجية الصارمة التى رسمها لنفسه . وهو قد خرج عن تلك القواعد مرات عديدة ، ولكن كتاب الذخيرة يبقى مع ذلك طرازا رفيعا من الكتب التى أحكم فيها مؤلفوها المنهج ، ووفقوا كل التوفيق الى اختيار السبل الواضحة ، وتوفير أكثر ما يسمح به العقل البشرى فى تلك الفترة التاريخية من التنظيم والدقة .

ثم تناولنا الجوانب النقدية فى الكتاب فاستعرضنا أهمها ، وصنفناها أصنافا خرجت عن النظرة التى كانت تجعلها كلها فى صنف واحد أساسه

المبادىء الأخلاقية وحدها . وقد طرحنا السؤال الذى لا بد من طرحه حول صحة نسبة ابن بسام الى النقد ، وأجبنا بما نعتقده الحق بدون تردد فاعترفنا له بأنه كان مهيأ لأن يكون ناقدا ، وأنه امتلك أهم الأدوات التى لا بد منها فى عدة العمل النقدى ، ولكن موضوع الكتاب ، وحرصه على التقيد بمنهجه الصارم ، والرسالة التى نهض لتأديتها بواسطة كتاب الذخيرة ، لم تمكنه على الأغلب من تعاطى النقد بكل حرية .

والجواب الأصح فى رأينا هو : ابن بسام ناقد ، ولكن كتاب الذخيرة ليس كتابا فى النقد ، وانما هو كتاب تراجم ومختارات تضمن جوانب نقدية عديدة ، نستطيع أن نؤلف منها مذهبا نقديا شاملا هو مذهب ابن بسام . ولعله لم يكن مذهبا جديدا كل الجدة ، بل من المؤكد أنه لم يكن كذلك ، ولكنه يشتمل على عدد من الخصائص ترجع طبيعتها الى شخصية ابن بسام ، وأصالته فى تناول المسائل القديمة التى سبق لغيره من النقاد أن تناولوها .

رحم الله ابن بسام فلقد خلف لنا واحدا من أهم الآثار الأدبية وأجلها ، لا فى تاريخ الأندلس فحسب ، بل فى التاريخ العربى كله ، واننا نشكر الظروف ، التى طالما قست على ابن بسام ، حين تلطفت مع كتابه فأنقذته من المصير المشؤوم الذى أتى على كثير من الكنوز الفكرية الأندلسية ، كما أتى قبلها على بلاد الأندلس نفسها .

ونتمنى أن لا تتوقف الجهود التى بدئت قبل ربع قرن لطبع كتاب الذخيرة ، والتى استؤنفت أخيرا ، فعسى أن يتاح للناس عامة ولأهل الأدب منهم خاصة أن يفيدوا من هذا الأثر العظيم .

الفهـــــارس

أولا : قائمة المصادر والمراجع

مرتبة — باعتبار عناوينها — على حروف الهجاء

1 — المخطـــوطـــات

— الذخيرة في محاسن أهل هذه الجزيرة — لابن بسام . (ذ) .

القسم الثاني — مصور عن نسخة دار الكتب المصرية بالقاهرة .

القسم الثالث — مصور عن نسخة مكتبة غوتا بألمانيا .

القسم الرابع — مصور عن نسخة الخزانة الملكية بالرباط .

— لطائف الذخيرة — لابن مماتي .

نسخة مصورة عن نسخة دار الكتب المصرية بالقاهرة .

2 — المطبوعات العربية والمترجمة الى العربية

— أحكام صنعة الكلام — لابن عبد الغفور الكلاعي .
تحقيق د. محمد رضوان الداية ، دار الثقافة ، بيروت .

— أخبار وتراجم أندلسية (مستفرجة من معجم السفر للسلفي) .
اعداد د. احسان عباس . دار الثقافة بيروت .

— الأدب الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة — د. أحمد هيكل .
دار المعارف بالقاهرة ، ط 5 ، 1970 .

— أسرار البلاغة — لعبد القاهر الجرجاني .
بتعليق الأستاذ مصطفى المراغي ، طبعة المكتبة التجارية الكبرى .

— أصول النقد الأدبي — د. أحمد الشايب .
ط 7 ، مكتبة النهضة المصرية ، 1964 .

— الأعلام — للأستاذ خير الدين الزركلى .
الطبعة الثالثة .

— بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس — للظبى .
تحقيق الأستاذين كوديرا وريبيرا ط .مجريط 1885 .

— البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب — لابن عذارى المراكشى .
تحقيق الأستاذ ليفى بروفنسال ، دار الثقافة بيروت .

— تاريخ الأدب الأندلسى — د. احسان عباس .
الطبعة الأولى ، دار الثقافة ، بيروت 1962 .

— تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين — للأستـاذ يوسـف أشباخ . ترجمة الأستاذ عبد الله عنـان ، ط 2 ، مؤسسة الخانجى بمصـر 1958 .

— تاريخ علماء الأندلس — لابن الفرضى .
الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، 1966 .

— تاريخ الفكر الأندلسى — للأستاذ غنثالث بالنثيا .
ترجمة د. حسين مؤنس ، ط 1 ، القاهرة .

— تاريخ قضاة الأندلس (المرقبة العليا ...) لأبى الحسن النباهى .
المكتب التجارى ، بيروت .

— تاريخ النقد الأدبى عند العرب (نقد الشعر من القرن 2 الى 8 هـ) .
د. احسان عباس ، دار الأمانة ، بيروت ، 1971 .

— تاريخ النقد الأدبى فى الأندلس — د. محمد رضوان الداية .
دار الأنوار ، بيروت ، ط 1 ، تاريخ 1968 .

— تاريخ النقد العربى من القرن 5 الى القرن 10 هـ — د. محمد زغلول سلام . ج 2 ، دار المعارف ، مصر .

— التراجم والسير — للأستاذ محمد عبد الغنى حسن .
سلسلة فنون الأدب العربى ، دار المعارف بمصر .

— جـذوة المقتبـس — للحميدى .
الدار المصرية للتأليف ، والترجمة والنشر 1966 .

— جمهرة أنساب العرب — لابن حزم .
تحقيق الأستاذ ليفى بروفنصال ، القاهرة .

— حركة التأليف عند العرب — د . أمجد الطرابلسى .
ج 1 فى اللغة والأدب ، مطبعة الجامعة السورية ، 1956 .

— الحركة النقدية حول مذهب أبى تمام — د. محمود الربداوى .
ج 1 فى القديم ، طبعة دار الفكر .

— الحلة السيراء — لابن الأبار .
تحقيق د. حسين مؤنس ، القاهرة 1964 .

— الحلة السيراء (كتاب) ، د. عبد الله أنيس الطباع .
دراسة فى كتاب الحلة ، دار النشر للجامعيين ، بيروت 1962 .

— خريدة القصر ، وجريدة العصر — لعماد الدين الأصبهانى .
القسم العراقى ، ج 1 و 2 ، تحقيق الأستاذ محمد بهجت الأثـرى ، مطبوعات المجمع العلمى العراقى ، بغداد 1964 .

— دراسة فى مصادر الأدب — د. الطاهر أحمد مكى .
ج 1 ، الطبعة 2 ، دار المعارف بمصر 1970 .

— الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة . (ذ) .
القسم الأول ، مجلد 1 ، تحقيق لجنة من أساتذة جامعة القاهـرة 1935 ، مجلد 2 ، تحقيق لجنة من أساتذة جامعة القاهرة 1942 .
القسم الرابع ، مجلد 1 ، تحقيق لجنة من أساتذة جامعـة القاهـرة 1945 .

القسم الثانى ، مجلد 1 ، تحقيق د. لطفى عبد البديع ، دار المعارف 1975 .

— رايات المبرزين — لابن سعيد .
نشر غرسية غومس ، مدريد 1942 .

— الزهرة — لأبى بكر ابن داود الأصبهانى .
تحقيق الدكتورين ابراهيم السامرائى ، ونورى حمودى القيسى ، من منشورات وزارة الاعلام العراقية ، 1974 .

— الشعر والشعراء — لابن قتيبة .
دار الثقافة ، 1964 ، بيروت .

— الصناعتين (كتاب) — لأبى هلال العسكرى .
تحقيق الأستاذين على محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل ابراهيم ، ط 1 ، دار احياء الكتب العربية ، 1952 .

— طبقات فحول الشعراء — لابن سلام الجمحى .
تحقيق الأستاذ محمود شاكر ، دار المعارف بمصر .

— العمدة فى محاسن الشعر — لابن رشيق .
تحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، ط 2 ، 1955 .

— الفن ومذاهبه فى النثر العربى — د. شوقى ضيف .
ط 4 ، دار المعارف 1965 .

— فى الأدب الأندلسى — د. جودت الركابى .
ط 2 ، دار المعارف 1966 .

— قلائد العقيان — للفتح بن خاقان .
ط . بولاق 1876 .

— المعجب فى تلخيص أخبار المغرب — لعبد الواحد المراكشى .
تحقيق الأستاذ محمد سعيد العريان ، منشورات الأزهر بمصر .

— معجم الأدباء — لياقوت الحموى .
مطبوعات دار المأمون .

— المغرب فى حلى المغرب — لابن سعيد المغربى .
تحقيق د. شوقى ضيف ، ج 1 و 2 ، دار المعارف ، 1964 .

— المقتبس فى أخبار بلاد الأندلس — لابن حيان الأندلسى .
(صفحات منه حققها الأستاذ عبد الرحمن على الحجى) ، دار الثقافة ، بيروت .

— الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى — للآمدى .
تحقيق الأستاذ أحمد صقر ، دار المعارف ، 1961 .

— النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى — د. زكى مبارك .
ط 2 ، مطبعة السعادة بمصر 1957 .

— نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب — للمقرى .
نشر الأستاذ دوزى ، ج 2 على الأخص .

— النقد المنهجى عند العرب — د. محمد مندور .
مطبعة نهضة مصر .

— وفيات الأعيان — لابن خلكان .
تحقيق د. إحسان عباس ، دار المعارف بمصر .

— يتيمة الدهر — لأبى منصور الثعالبى .
تحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة 1956 .

3 ـ كتب باللغات الأجنبية

ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ لجماعة من المستشرقين .
ولا سيما مواد : ابن بسام ، شنترين ، بنو الأفطس .

ـ تاريخ الأدب العربى ـ للأستاذ كارل بروكلمان .
الطبعة الأصلية باللغة الألمانية .

ـ تراجم المؤرخين والجغرافيين العرب ـ للأستاذ بونس بويغس .
الطبعة الاسبانية ، مدريد 1893 .

4 ـ الدوريات

ـ مجلة الأندلس .

* المجلد 2 السنة 1935 .
* المجلد 5 السنة 1940 .
* المجلد 2 السنة 1946 .
* المجلد 11 السنة 1946 .
* المجلد 12 السنة 1947 .

ـ مجلة هسبيريس :

* المجلد 16 السنة 1933 .
* المجلد 18 السنة 1933 .

ثانيا : الكشاف العام .

بعض المعلومات الخاصة بترتيب مادة هذا الكشاف :

أ ـ لم نفهرس فى هذا الكشاف كلمات «الذخيرة» ، و «الاندلس» و «ابن بسام» . لانها كثيرة الورود ، لا تكاد تخلو منها صفحة من صفحات هذا البحث .

ب ـ اذا كان العلم مبدوءا بـ «ابن» أو «بنى» ، فالبحث عنه يكون فى الاسم الذى يليهما . فابن مغيث يوجد فى «م» ، وابن أبى ربيعة فى «أ» ، وبنو العباس فى «ع» .

جـ ـ اذا كان الاسم الشخصى أشهر من الاسم المسبوق بكلمة «ابن» ، فان البحث يكون حينئذ فى الحرف الاول من ذلك الاسم الشخصى . وهكذا فان «طارق بن زياد» يبحث عنه فى «ط» ، وزهير ابن أبى سلمى ، يكون البحث عنه فى «ز» .

د ـ أسقطت من الترتيب أداة التعريف «أل» ، سواء أثبتت مع الاسم أو لم تثبت . وذلك مهما كان وضعها : فى أسماء القبائل ، والاجناس ، والمدن ، والاقاليم الجغرافية ، وما الى ذلك ... وهكذا فـ «الاشبيلى» يبحث عنه فى «ا» ، و «الهذلى» فى «هـ» و «العراق» فى «ع» الخ ...

هـ ـ الاسماء المضافة الى واحد من أسماء الجلالة بواسطة كلمة «عبد ...» عوملت كما لو كانت اسما غير مركب ، ومكانها يكون دائما فى حرف «العين» ، مثل عبد الجبار ، وعبد المطلب ، وعبد الملك الخ ...

أ

ب

ط

ظ

ع

غ

ف

ق

كـ

ل

ن

هـ

و

ى

ثالثا : فهـرس المؤلفـات

المذكورة في المتــن

رابعا : فهرس الاشعار

حرف القافية	الشعر : أول البيت وآخره		الصفحة	عدد الابيات	الشـــاعر
أ	خذها اليك	مشبوبة ونكاء	376	1	ابن فتوح
ب	رقيق كما غنت	الهواء عقـــاب	139	1	ابن وهبون
	أنا الشمس فى جو	مطلعى الغرب	137	7	على بن حزم
	واغضى على أشيا	ما سركم فأجيب	70	1	شاعر من ضبة
	فعض الطرف	بلغت ولا كلابا	341	1	جرير
	شباب أفق	هل رأيت الذيبا	252	1	ابن زيدون
	فتـــى شقيـــت	بأرماح تغلب	378	1	بكر بن النطاح
	اذا بسئل العرف	فى تغلب	164	1	ابن البنى
	قالت وقد خلطت	بكافور المشيب	71	2	الحضرمى
	أخلقت جدتى	من عتابـــى	57	1	؟
	وما زلت أحسب	بوارقها تلتهـــب	392	2	ابن برد الاصغر
	حتى اذا ما رفع	من الذهب	392	1	؟
	أبو جعفر رجل	حلو الخطابه	342	4	ابن شهيد
ت	أعنبر فى فمه	أصلتـــا	401	3	ابن برد الاصغر
	فقام والليل	غر الثنيات	375	1	أبو نواس
	لم أر أن أكون	فى هناتـــه	400	1	أبو عبيدة
ج	والصبح يتلـــو	بسراج	395	1	ابن المعتز
د	اذا كانت جفانك	فيها ثـــريد	378	1	ابن المصيصى
	كبنت شعيب	هنا مزيد	361	1	ابن المصيصى
	من رأى الناس	حسدوه	308	2	التميمى
	وأنت سليمان	أنا الهدهد	53	1	الفكيك
	أرمدت أم بنجومك	ما تعـــد	50	6	المعتمد
	أغرق فيها الهم	مزبدا	387	2	عبادة
	فلولا علاه	أحل له عقدا	377	1	ابن شماخ
	ما منك يا موت	وفى البادى	398	1	ابن عبدون
	ولكنهـــا الايام	بلا يـــد	387	1	المعتمد
	وناهدة الثديين	لم توسد	353	2	ابن أبى ربيعة
	لم تدر ما خلدت	كبـــدى	347	7	ابن الابار
	أألبس هجر	معروفة عقـــدى	261	1	أبو تمام
	ما أقصر الليل	على العائد	260	1	أعرابى
	يا دار مية	فالسند	326	شطر	النابغة
	لخولة أطلال	تهمد	326	شطر	طرفة بن العبد
ر	قد صاد قلبى	منه النظر	402	6	ابن المعتز

	ايها الفارس	من السلاح يطير	371	3	حسان بن ثابت
	تقول اذ اعجبها	جذموره	353	1	؟
	فان كسدت أعلاق	الشذر	69	1	ابن شماخ
	من مبلغ الاعراب	والاسكندرا	392	2	المتنبى
	فكانما تابعت	له الورى	391	3	ابن دراج
	ورمى على رداءه	فتخيرا	389	1	ابن دراج
	ما بان عذرى فيه	فتحيرا	389	1	تميم بن المعز
	خلع الجمال	متبخترا	387	2	ابن فتوح
	احاجيكم هل	سكن الصدرا	362	8	المنفتل
	وقد كان موسى	والفقرا	361	1	المنفتل
	فاذا اتيتك مادحا	ليغفرا	325	1	أبو المغيرة بن حزم
	فيرى الذى اتخذ	متجرا	324	2	أبو المغيرة بن حزم
	أمن البراق التماح	أحمرا	309	2	أبو المغيرة بن حزم
	فلو عدتما لاخترتما	في الاسر	390	1	المعتمد
	وكانما غاص الاسى	منثور	384	1	ابن عبد ربه
	أعطاء مثلى للمقص	أجل العار	376	2	ابن قالوص
	من كان مخلوقا	على المسر	366	7	السميسر
	كنت موسى	من فقير	361	1	المعرى
	هما دلتانى	الريش كاسره	354	1	الفرزدق
	لا أظلم الليل	ليست تغور	260	2	ابن بسام البغدادى
	وعجزاء حوراء	ولى أمرها	352	7	المتنبى الاشبيلى
	لكن لا منع شاعرا ان يشعرا .		325	شطر	أبو المغيرة بن حزم
س	ولولا كثرة الباكين	نفسى	390	1	الخنساء
ض	وما تكلمت الا	مقراض	377	1	ابن الرومى
	مهما تقل فسهام	أغراض	337	2	ابن الرومى
	ولم ادر من القى	محض	389	1	الهذلى
ط	جاؤوا بضيح هل رأيت الذيب قط ؟		252	شطر	اعرابى
ع	ان السيوف اذا ما	بها الطبع	390	1	ابن زيدون
	وطائعة الوصال	بالمطاع	350	4	ابن فرج الجيانى
ف	فاردت جنة	القطاف	350	4	ابن الابار
ق	وخيل تمشى	تزلق	386	1	ابن شهيد
	وفتى يقول الشعر	المسروقا	383	1	؟
	لا تسلنى عن الليالى	البواقى	329	1	ابن هانى
	وما للذى ولى	بقى	389	1	ابن شهيد
	يفتر ذاك السواد	الغسق	376	2	ابن الرومى
	تعرض لى ليسقط	شبه اتفاق	351	5	ابن وهبون
ل	ونحن اناس	وسلول	378	1	السموال
	الا رب يوم	والبذل	348	1	مسلم بن الوليد
	قتلوا قرة عينى	قتلوه	308	2	محمد الامين
	بخداع عللوه	وصلوه	308	2	ابن برد الاصغر
	وقد ذقت حلواء	عن جهل	377	1	المتنبى
	لعلك يا شمس	لشجو الذليل	394	1	ابن دراج
	والسيف ما لم	بصقال	390	1	ابو تمام
	وما الموت الا	بلا رجل	386	1	المتنبى
	كان فقاح الازد	بكر بن وائل	378	1	الفرزدق

	وما الحروب ومثلى	وانت على	370	1	ابن المصيصى
	قد يدخل المسلم	لا عملى	369	1	ابن المصيصى
	أفى مثلها تنبو	الشمل	380	3	ابن دراج
	وحتى يؤوب	لوائل	271	1	أبو ذؤيب الهذلى
	والقارظان	طيف خيال	271	1	ابن الحداد
	وزع الاله	من تنزيله	261	1	أبو بكر عبادة
	لما وضعت	كف رسولها	164	4	ابن شماخ
	أتيت بمنطق	قبلى	58	3	المتنبى
	ما الشعر	الجلل	49	1	ابن وهبون
	لا أظلم الليل	ليست تزول	260	3	على بن الخليل
	بقراط حسنك لا يرثى على عللى		378	شطر	ابن الطلاء
	قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل		326	اشارة	امرؤ القيس
	وخان قراع يدى الاكحل		372	شطر	حسان بن ثابت
م	ولما فشا	كواتم	383	3	ابن شهيد
	اذا زلقت	الاراقم	386	1	المتنبى
	أبى دهرنا	ونكرم	379	2	ابن طاهر
	ان البخيل	هرم	378	1	زهير
	أبا القاسم	ليس يعظم	53	1	الفكيك
	مهامه لم تطحب	قوادمه	40	1	المتنبى
	أنزه فى روض	المحرما	349	4	ابن داود القياسى
	يا منيفا على	عن بسام	32	1	ابو بكر بن عبادة
	ان كنت من تغلب	العمم	31	1	ابن بسام
	من تغلب انت	وفى كرم	31	1	ابن من حج
	يا من تناول	الخذم	26	4	ابن من حج
	يهنى قدومك	والحكم	26	3	ابن بسام
	يا منيفا على	عن بسام	35	7	ابن عبادة
	يا دوحة المجد	العظيم	47	6	ابن قاسم المحدث
	ويرى البديع به	وبين توام	257	5	ابن قاسم المحدث
	ماذا لقيت	خنث الكلام	356	6	أبو حاتم السجستانى
	لم يطل ليلى	طيف الم	260	1	بشر بن برد
	هل غادر الشعراء من متردم		327	شطر	عنترة بن شداد
	يا بنت غيلان	كنعت بالقدوم	71	1	بعض العرب
	أمن ام اوفى (دمنة لم تكلم)		326	شطر	زهير بن أبى سلمى
ن	لك الغنى	وسلطان	295	1	ابن دراج
	قالت وقد نظرت	أكفان	70	2	ابن قاسم المحدث
	ولم ار اهلى	كان كامنا	252	1	الرمادى
	والريح يجذب	وسنان	391	1	ابن المعتز
	وللموت خير	برأس وسنان	155	1	؟
	انى اذ حضرتنى	واخبرنى	295	2	أبو مروان الطبنى
ه	فلا تكتب	ان تراه	243	1	؟
	حتى بدا الصبح	اكارعه	271	1	ابن دراج
و	يا لقومى دفنونى	ما بنوا	367	7	ابن نوار الشنتريني

خامسا : محتويـات الكتـاب

المؤلف : على بن محمد :

- أنهى دراسته الثانوية «بمدرسة» قسنطينة .
- درس بجامعة دمشق ، وحصل منها على الاجازة فى اللغة العربية وآدابها .
- حصل على دكتوراه الحلقة الثالثة سنة 1976 .
- درس بعدة ثانويات فى مدينتى قسنطينة والجزائر .
- تولى وظائف عليا فى وزارة التربية ، من 1970 الى آخر 1977 .
- ناقش بجامعة الجزائر رسالة نال بها دكتوراه الدولة فى الادب الاندلسى .
- التحق بجامعة الجزائر ليدرس فى معهد الغة العربية وآدابها ، منذ سنة 1980 .

انتاج

دار الغرب الإسلامي

بيروت - لبنان

لصاحبها: الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود

تلفون : 340131 - 340132 - ص . ب . 5787 - 113 بيروت - لبنان

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.:113 - 5787 - Beyrouth - Liban